

مكتبة مصر

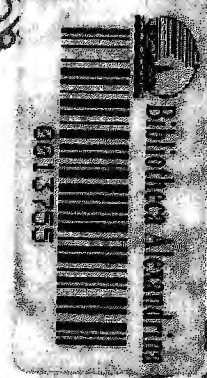
أعلام الأدباء العراق الاحديين

في القرنين
الاربع عشر
والاربع عشر
مئة

في القرنين
الاربع عشر
والاربع عشر
مئة

الجزء الأول

دار الحكمة



أعلام الأدب في العراق الحديث

جميع حقوق النشر والطبع والتوزيع محفوظة. غير مسموح
بطبع أي جزء من أجزاء هذا الكتاب، أو تخزينه في أي نظام
لتخزين المعلومات واسترجاعها، أو نقله على أي هيئة أو بآية
وسيلة، سواء كانت إلكترونية أو شرائط ممغنطة،
أو ميكانيكية، أو استنساخاً أو تسجيلاً،
أو غيرها، إلا بإذن كتابي من صاحب حق النشر.

ISBN 1 - 898 209 - 456

الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.

DAR AL-HIKMA

Publishing and Distribution



88 Chalton Street London NW1 1HJ. Tel: 071 - 3834037 / Fax: 071 - 3830116

ميربصري

أعلام الأدب في العراق الحديث

الجزء الأول

تقديم
د. جليل العطية

دار الحكمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مير بصري رائد «فن التراجم» الأدب العربي الحديث

بقلم: د. جليل العطية

■ ■ ■

نشأ فنا السير والتراجم وترعرعا في أحضان علم التاريخ، وتأثرا بمفهوم الناس عنه على مرّ العصور، فكانا تسجيلاً للأعمال والأحداث .

وعندما تغيّر مفهوم التاريخ، وأصبحت له فلسفة خاصة، أنكر بعض الباحثين المحدثين أن تكون السيرة أو الترجمة جزءاً من التاريخ، وبين هؤلاء كولنجوود وتوينبي فهما يُخرجان من دائرة التاريخ ما يتصل بالسير الذاتية كاعترافات القديس أوغسطين وروسو أو حياة الملكة فكتوريا لستراتشي .

يقول توينبي : إن هذه الكتب تشترك بالتاريخ لأنها تدور حول أناس لهم قيمتهم في الحياة الاجتماعية . وبعد أن يبين خصائص بعضهم يقول : إذا علقنا التاريخ بالسيرة وقعنا في الخطأ من حيث الطريقة .

على أننا إذا استبعدنا هذه النظرة الحديثة، وجدنا أن فن التراجم من ناحية عملية هو تاريخ في نشأته وغايته، ويمكن أن نقرر أنه : كلما كانت الترجمة تعرض للفرد في نطاق المجتمع، وتعرض أعماله متصلة بالأحداث العامة أو متأثرة بها، فإن الترجمة تحقق هدفاً تاريخياً .

وكلما كانت الترجمة تفصل المترجم عن مجتمعه ووطنه، وتجعله الهدف الأسمى وتنظر إلى كل ما يصدر عنه نظرة مستقلة، فإن صلتها بالتاريخ تكون هشة بل مبتسرة .

ولقد وعى ابن الجوزي - المؤرخ البغدادى الشهير - أن التاريخ عبارة عن مجموعة متنوعة من السير والتراجم عندما قال في مقدمة كتابه (شذور العقود) : إن التواريخ وذكّر السير راحة للقلب وجلاء للهم وتنبية للعقل فإنه . . إن شَرَحْتُ سيرة حازم علّمت حسن التدبير، وإن قَصَّصْتُ قصة مفرط خوِّفت من إهمال الحزم .

وفي القرون الماضية ركز فن التراجم وانكفاً، شأن ألوان الفنون والعلوم الأخرى، وفي بواكير القرن العشرين سار الكتاب العرب باتجاهات مقاربة لما في الغرب، فتأثروا بالدراسات النقدية للنصوص، والنظريات النفسية، وأصبح بعضها أقرب إلى المظهر العلمي منه إلى المظهر الأدبي، وقلّت الرغبة في تاريخ الحياة نفسها.

ومن بين المحاولات ذات الطابع الأدبي في السيرة الحديثة يمكن الإشارة إلى (حياة الرافعي) للعريان، (وعبقرات العقاد، وجبران) لميخائيل نعيمة. وأرّخ زيدان وأحمد حسن الزيات والإسكندري وحنّا فاخوري للأدب العربي في عصوره المختلفة، وقدم خير الدين الزركلي كتابه «الأعلام» الذي عني فيه بترجمة المئات من أعلام العرب والمسلمين والمستعربين، غير أن ترجمته - على دقتها - كانت موجزة، لأنه أراد استيعاب أكبر قدر من الشخصيات في كتابه.

وفي العراق عني عدد قليل من الأدباء والمؤرخين بفن التراجم لمع منهم: رفايل بطي (- ١٩٥٦ م) وجعفر الخليلي (- ١٩٨٥ م) ومير بصري.

والمؤسف أن الجهود المضيئة التي بذلها بطي بقيت محدودة الفائدة، لأن التراجم المهمة التي كتبها بقيت مطوية في الصحف والمجلات ولم تجمع في كتب. أما الخليلي فإن كتابه (هكذا عرفتهم) بأجزائه الستة المطبوعة، يعدّ مرجعاً لا يستغني عنه كل من يرغب رصد الحركة الأدبية والثقافية خلال القرن الماضي، غير أن ما يؤخذ عليه - رحمه الله - أنه رسم لوحات انطباعية لمن عرفهم كأنه كتبها من الذاكرة، لأن معظمها تفتقد إلى التوثيق والتواريخ وما أشبه.

■ ■ ■

ولد مير شاول بصري في بغداد في التاسع عشر من أيلول ١٩١١ في أسرة عراقية عريقة عرفت باسم «عوبديا»، وقد ذكر الرحالة بنيامين أنه التقى عمّ أبيه الذي كان يشغل منصب رئيس المحكمة الشرعية في بغداد سنة ١٨٤٨ م. درس مير في مدرستي التعاون والأليانس، ولزم الأب أنستاس ماري الكرملي والدكتور مصطفى جواد حيث أخذ عنهما اللغة العربية، كما درس تاريخ العراق على عباس العزاوي والعروض على الشاعر محمود الملاح.

وعمل في الوظائف العامة والخاصة سنوات عديدة (ما بين ٢٨ - ١٩٥٢) أمضى شطراً منها في وزارة الخارجية. وقد أهله كفاءته لتمثيل العراق في عدة مؤتمرات عقدت في نيويورك وباريس وغيرها. وبعد سنة ١٩٥٣ انصرف إلى الأعمال الحرة.

كان أثره الأدبي الأول شعراً منشوراً عنوانه الحرية (بغداد ١٩٢٨) على طريقة جبران والريحاني، وعمل في أوقات مختلفة محرراً اقتصادياً وباحثاً في الصحف والمؤسسات الاقتصادية العراقية.

أما المؤلفات التي أتيح له نشرها حتى الآن فهي :

مباحث في الاقتصاد العراقي (١٩٤٨)، رجال وظلال (١٩٥٥)، رسالة الأديب العربي (١٩٦٩)، أعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث (١٩٧١)، أعلام اليهود في العراق الحديث (١٩٨٣)، أعلام السياسة في العراق الحديث (١٩٨٧)، أعلام الكرد (١٩٩١)، أغاني الحب والخلود (١٩٩١) وأنجز مؤلفات أخرى تنتظر النشر.

بقي مير بصري في بغداد يمارس نشاطه الأدبي والاقتصادي والروحي وبعد أن دخل العراق في بحر الانقلابات والاضطرابات، تعرض إلى الاعتقال والأذى (١٩٦٩) فاضطر إلى ترك وطنه (١٩٧٤). حيث استقر في لندن مواصلاً نشاطه الأدبي والاجتماعي بكل همة وتجرد وإخلاص وظل يحمل لوطنه في حنايا ضلوعه وخفقات قلبه، فمما قاله في بغداد :

على الأوطان في جبل وسهل	سلام الله، عطر من سلام
بلادي جبهها مددي وديني	تغلغل في الجوارح والعظام
هي الأم التي خلقت كياني	وجادت بالحشاشة والقوام
وأرهفت المشاعر في حنان	وأوقدت القرية بالضرام
ولقنت المكارم والسجاي	وأوحى بالخواطر والكلام
ونزهت الفؤاد من الدنيا	ورفعت الضمير عن الملام
رضعت لبانها طفلاً صغيراً	وذقت نعيمها منذ الفطام
عبت من الهواء الطلق صفواً	ومن ماء اللذ من المدام
وكحلت العيون بسحر حسن	تلالاً في الضياء وفي الظلام
فيما للحسن من بغداد أضفى	على الوديان وشياً والاكمام
مغان قد صفها فيها شراي	وراق العيش في عز المقام

تتوزع اهتمامات مير بصري بين الشعر والقصة والرواية وكتابة التراجم والملاحم والترجمة والبحوث الاقتصادية. وقارئ أثاره التي أتيح لها النشر يقر له بالجودة والمستوى الرفيع في كل الفنون المختلفة التي مارسها باعتراف كبار النقاد.

يعتقد بصري أن الشعر والأدب يجب أن يرميا إلى مثل أعلى وهو التفاهم البشري والتعاون ونشر الأخوة والمحبة والسلام.

■ ٢ ■

ويبدو لي أنه وجد أن مؤرخي العراق قد قصّروا في فن التراجم، ولعله لمس من صديقيه الكرمل ومصطفى جواد التشجيع في الانصراف إلى هذا الفن، الذي لا يجرؤ على خوضه إلا من أحاط بعدة علوم وفنون في آن واحداً

فكان أن صرف أكثر من خمسة عقود من عمره وهو يدون ويوثق ويسجل تراجم

الشخصيات التي ساهمت في بناء نهضة العراق الحديث على مختلف مذاهبيهم ومشاربيهم فكان كتابه الحالي (أعلام الأدب في العراق الحديث) ثمرة مجهود مضمّن .

يشمل الكتاب على تراجم نحو مائتين وخمسين أديباً وشاعراً ممن كان لهم الأثر في بناء كيان العراق الأدبي والثقافي والفكري خلال أكثر من قرن . ويمكن اعتبار الشاعر عبد الغفار الأنخرس المتوفى سنة ١٨٧٥م أقدمهم وفاة، وبينهم أدباء وشعراء لا يزالون على قيد الحياة - أمدّ الله في أعمارهم .

قدم بصري لكتابه الضخم الذي شرفني بكتابة هذه المقدمة له ، بتوطئة موجزة تناول فيها الأدب العربي في عصور الانحطاط والنهضة والعهد الانتقالي وختمها بالعبارات الآتية :

أرجو أن تكون الصفحات التالية سجلاً لتعريف الشعراء والأدباء وبيان أثرهم في النهضة الحديثة وذلك قصارى الجهد وغاية القصد والمرام .

ولعمري أنه تواضع جمّ من قبله ، فالعمل الذي نهض به جبار ، لا يقوى على تقديمه بهذا الشكل المتقن ، الموثق فرداً

على أن غيرته على الأدب والأدباء ذلت له الصعوبات التي واجهها في تأليف هذا السفر الفذّ .

ينفرد مير بصري عن كل مؤرخي التراجم بنقاء العبارة ، ورشاقة الأسلوب والبعد عن التعمّل والتصنع ، يحيط بتاريخ العراق والعرب إحاطة واسعة ، وقد رزق ذاكرة قوية ، لا ينسى ما يقيّد ولا ما لا يقيّد وغلب عليه التواضع والحياد .

وبما ينفرد به إجادته اللغة الفرنسية وإطلاعه الواسع على الأدب الفرنسي ، وقد أفاد القارئ بمعلومات غزيرة عندما عقد مقارنات واقتبس أشياء لها صلة بالترجم لهم وطائفة من شعراء فرنسة وأدبائها .

ولا أريد هنا أن أكشف كل مزايا هذا الكتاب الموسوعي ، فيكفي أن ألحّ إلى أنه حفظ لنا مختارات شعرية مجهولة لشعراء لم يسعفهم الحظ بنشر نتاجاتهم خلال حياتهم ، كما أن معرفته بعدد منهم مكتته من الاطلاع على آرائهم وأفكارهم ، وإذا كان الكتاب قد اشتمل على تراجم المشهورين المعروفين ، فإن المؤلف قدم لهم نماذج أدبية غير معروفة .

ختاماً أبتهل إلى الباري عزت قدرته أن يمدّ في عمر الأستاذ مير بصري ليوصل إتحاف المكتبة العربية بنتاجاته الأدبية والتاريخية . ولي الثقة بأن (أعلام الأدب في العراق الحديث) سيأخذ مكانته اللائقة في الخزانة العربية كواحد من أهم مراجع دراسة الأدب العربي الحديث .

المحتويات

٥	المقدمة: الدكتور جليل العطية
٢٣	المصادر والمطآن
٢٧	توطئة: الأدب العربي في عصر الانحطاط
٣٠	عصر النهضة
٣٢	القصص الشعري

عصر الانحطاط الأخير

والعهد الانتقالي

٤١	عبد الغفار الأنحرس
٥١	إبراهيم الطباطبائي
٥٣	شهاب الدين المليسي
٥٤	الشيخ حمادي آل نوح
٥٥	محمد سعيد الإسكافي
٥٦	محمد حسن كبة
٥٧	محمد سعيد الحنوي
٦٠	جواد الشبيبي
٦٥	عبد المحسن الكاظمي
٧٤	أحمد الفخري
٧٩	علي البناء
٨٠	عبد القادر العبادي

٨٢	عبد المهدي الحافظ
٨٣	محمد رضا الأصفهاني
٨٤	عبد الحسين الحويزي
٨٥	الملا عثمان الموصللي
٨٨	محمد السماوي
٩١	رضا الهندي
٩٢	عبد الحق الأعظمي

عصر النهضة

الشعر

٩٧	جميل صدقي الزهاوي
١٠٤	معروف الرصافي
١٠٧	محمد رضا الشيبلي
١١٤	علي الشرقي
١٢٦	عبد الحسين الأتري
١٣٦	محمد حبيب العبيدي
١٣٦	كاظم الدجيلي
١٤٧	محمود الملاح
١٦٦	محمد حسن أبو المحاسن
١٧١	أحمد الصافي النجفي
١٨٠	محمد مهدي الجواهري
١٨٦	ناجي القشطيني
١٨٩	عبد العزيز الجواهري
١٩٣	محمد الهاشمي
٢٠٤	رشيد الهاشمي
٢٠٩	إبراهيم منيب الباجه جي
٢١٤	فاضل الصيدلي

٢٢٥	عبد الحق فاضل
٢٢٥	الدكتور أكرم فاضل
٢٢٧	محمد علي اليعقوبي
٢٣١	إبراهيم أدهم الزهاوي
٢٣٥	عباس الخليلي
٢٣٧	عبد الكريم العلاف
٢٤١	عبد الحسين الحلي
٢٤٢	جعفر نقدي
٢٤٤	قاسم الشعار
٢٤٤	محمد رضا الخطيب
٢٤٦	عبد الوهاب الصافي
٢٤٧	محمد حسن حيدر

الشعر العامي

٢٥٥	الملا عبّود الكرخي
٢٥٦	حسين قسام

عصر النهضة

النثر

٢٦١	عمود شكري الألوسي
٢٦١	علي علاء الدين الألوسي
٢٦٣	عبد المجيد الشاوي
٢٦٦	إغناطيوس أفرام الرحمانى
٢٦٦	أدي شير
٢٦٧	أنستاس ماري الكرملي
٢٦٨	أوغسطين مرمرجي
٢٦٩	يعقوب سركيس
٢٧٨	رشيد السعدي

٢٧٨	الدكتور سليمان غزالة
٢٨٠	آغا بزرك الطهراني
٢٨١	إسماعيل باشا بابان
٢٨١	يوسف رزق الله غنيمه
٢٨٤	طه الراوي
٢٨٧	منير القاضي
٢٨٧	عباس العزاوي
٢٩٥	مصطفى جواد
٣٠٣	سليمان الصائغ
٣٠٤	شكري الفضلي
٣٠٦	صديق الدمولوجي
٣٠٦	رزوق عيسى
٣٠٧	محمد جواد البلاغي
٣٠٨	محمد صادق الأعرجي
٣٠٩	علي ظريف الأعظمي
٣٠٩	حسين الظريفي
٣١٠	عبد الحميد عبادة

الجزء الثاني

رجال الفقه والدين

٣١٣	حسين الخليلي
٣١٤	محمد حسن المامقاني
٣١٤	محمد طه نجف
٣١٥	رضا الهمداني
٣١٥	محمد الشرياني
٣١٦	حسين النوري
٣١٧	غلام رسول الهندي
٣١٧	بهاء الحق

٣١٨	أسعد الدوري
٣١٩	قاسم البياتي
٣١٩	محمد آل بحر العلوم الطباطبائي
٣٢٠	حسن البراقي
٣٢١	مصطفى نور الدين الواعظ
٣٢٢	علي كاشف الغطاء
٣٢٢	محمد سعيد الزهاوي
٣٢٣	محمد سعيد النقشبندي
٣٢٥	حسن الصدر
٣٢٦	إبراهيم الراوي
٣٢٨	محسن الراوي
٣٢٩	الشيخ شكر أحمد
٣٢٩	عبد الكريم الجزائري
٣٣٠	محمد جواد الجزائري
٣٣١	عبد الحسين شرف الدين
٣٣٢	جواد الجواهري
٣٣٣	عبد الملك الشواف
٣٣٣	أبو الحسن الأصفهاني
٣٣٦	يوسف العطا
٣٣٨	نعمان الأعظمي
٣٣٩	قاسم القيسي
٣٤٠	أعبد الزهاوي
٣٤١	حمدي الأعظمي
٣٤٢	محمد سعيد الراوي
٣٤٢	عبد الكريم الزنجاني
٣٤٣	محمد جعفر الحسيني

٣٤٣	أغناطيوس جبرائيل تبوني
٣٤٤	أغناطيوس أفرام برصوم
٣٤٤	محسن الطباطبائي الحكيم
٣٤٦	نجم الدين الواعظ
٣٤٦	أبو عبد الله الزنجاني
٣٤٧	كمال الدين الطائي
٣٤٧	محمد باقر الصدر

الصحافة

٣٥١	داود صليوا
٣٥٢	سليمان الدخيل
٣٥٢	محمد كامل الطبقجلي
٣٥٣	داود نيازي
٣٥٣	قاسم جلميران
٣٥٣	فتح الله سرسم
٣٥٤	متى سرسم
٣٥٤	عبد الوهاب الطباطبائي
٣٥٤	عبد المحسن الطباطبائي
٣٥٥	علي الجميل
٣٥٦	رزوق غنام
٣٥٦	إبراهيم حلمي العمر
٣٥٨	قاسم العلوي
٣٥٨	حسن غصيبة
٣٥٩	سليم حسّون
٣٦٠	بولينا حسّون
٣٦١	رفائيل بطّي
٣٦٧	توفيق السمعاني
٣٦٨	سلمان الشيخ داود

٣٧٠	محمد عبد الحسين
٣٧١	سلمان الصفواني
٣٧٢	نوري ثابت (حزبوز)
٣٧٤	ميخائيل تيسي (كنّاس الشوارع)
٣٧٦	خلف شوقي الداودي
٣٧٧	مريم نرمة
٣٧٨	يوسف هرمز
٣٧٨	عبد القادر المميّز
٣٧٩	يوسف رجب
٣٨٠	محمد طه الفياض
٣٨١	عبد القادر السيّاب
٣٨١	محيي الدين أبو الخطّاب
٣٨٤	إبراهيم الجلبلي
٣٨٥	شفيق نوري السعيد
٣٨٥	محمد علي البلاغي
٣٨٦	نور الدين داود
٣٨٦	أميرة نور الدين داود
٣٨٧	سعد الدين زيادة
٣٨٧	يونس بحري (السائح العراقي)
٣٨٩	عبد الرزاق الناصري
٣٩٠	فاضل قاسم راجي
٣٩٠	خالد الدرة
٣٩١	لطفني بكر صدقي
٣٩٢	عوني بكر صدقي
٣٩٢	عادل عوني
٣٩٢	عبد المجيد الوندادي

الموجة الحديثة

شعر

٣٩٧	حافظ جميل
٤٠٤	علي الخطيب
٤٢٢	أنور شاؤل
٤٢٢	أكرم أحمد
٤٢٧	نعمان ثابت عبد اللطيف
٤٣٠	نديم الأطرقي
٤٣٧	عبد القادر رشيد الناصري
٤٤١	كمال نصرت
٤٤٣	محمود الحبوبي
٤٤٦	خضر الطائي
٤٥٠	حسين علي الأعظمي
٤٥١	محمد هادي الدفتر
٤٥١	نعمان ماهر الكنعاني
٤٥٣	رباب الكاظمي
٤٥٨	عاتكة وهبي الخزرجي
٤٦٤	كمال عثمان
٤٦٥	فؤاد عباس
٤٦٧	حسين مردان

الموجة الحديثة

نثر، تاريخ، قصص

٤٧١	عبد المسيح وزير
٤٧٥	جواد الدجيلي
٤٧٧	عبد الرزاق الحصان

٤٧٨	أحمد عبد الغني الراوي
٤٧٩	إبراهيم الدروبي
٤٧٩	محمد رؤوف الغلامي
٤٨٠	عبد المنعم الغلامي
٤٨١	محمد صالح السهروردي
٤٨١	إبراهيم الواعظ
٤٨٤	محمد سعيد الجليلي
٤٨٤	محمد بهجت الأثري
٤٨٩	أحمد حامد الصراف
٤٩٧	مصطفى علي
٥٠٥	جعفر الخليلي
٥١٤	متى عقراوي
٥١٥	حسين الرّحال
٥١٦	عباس فضلي خمّاس
٥١٦	محيي الدين يوسف
٥١٧	مكي الجميل
٥١٨	عبد الرزاق الحسني
٥٢٠	محمد رضا المظفر
٥٢١	جواد علي
٥٢٢	توفيق الفكيكي
٥٢٤	أحمد سوسة
٥٢٥	عبد الرزاق محيي الدين
٥٢٨	عبد الفتاح إبراهيم
٥٢٩	محمود فهمي درويش
٥٣٣	كوركييس عوّاد
٥٣٤	ميخائيل عوّاد

٥٣٥	محمود أحمد السيّد
٥٣٨	ذنون أيوب
٥٤٠	يوسف يعقوب مسكوني
٥٤٤	محمد علي كمال الدين
٥٤٤	عبد الجبار الجومرد
٥٤٦	صبيحة الشيخ داود
٥٤٨	أغناطيوس يعقوب الثالث
٥٤٨	جلال الحنفي
٥٥٠	علي الوردي
٥٥٢	ناصر الحاني
٥٥٣	عبد الجليل الطاهر
٥٥٤	عبد العزيز الدوري
٥٥٥	صالح أحمد العلي
٥٥٦	عبد الجبار عبد الله
٥٥٧	طه باقر
٥٥٨	محمد سليم النعيمي
٥٥٨	ناجي معروف
٥٥٩	فؤاد جميل

الشعر الجديد

الشعر الحر

٥٦٣	نازك الملائكة
٥٦٩	بدر شاكر السياب
٥٧٨	عبد الوهاب البيّاتي
٥٧٩	بلند الحيدري
٥٨٧	ملحق الصور

شعراء وأدباء

سجّلت تراجم الشعراء والأدباء الآتي ذكرهم في كتابي «أعلام الوطنية والقومية العربية» المعدّ للطبع :

- (١) عبد المطلب الحلبي
- (٢) خيرى الهنداوي
- (٣) محمد حسين آل كاشف الغطاء
- (٤) محمد باقر الشبيبي
- (٥) محمد مهدي البصير
- (٦) عبد الرحمن البناء
- (٧) محمد باقر الحلبي
- (٨) حمد فهمي المدرس
- (٩) هبة الدين الشهرستاني
- (١٠) أحمد عزت الأعظمي
- (١١) ساطع الحصري
- (١٢) محمد كاظم الخراساني
- (١٣) محمد كاظم اليزدي
- (١٤) محمد تقي الشيرازي
- (١٥) فتح الله الأصفهاني
- (١٦) محمد حسين الناييني
- (١٧) مهدي الخالصي

- (١٨) محمد الخالصي
(١٩) عبد الغفور البدري
(٢٠) إبراهيم صالح شكر
(٢١) علي الخطيب
(٢٢) عيسى عبد القادر
(٢٣) عبد الرحمن البزاز.

سأصرف وجهي عن بلاد غدا بها
وإن صريح الحزم والرأي لا مريء

لساني معقولا وقلبي مقفلا
إذا بلغت الشمس أن يتحولا

أبو تمام

(٨٠٤-٨٤٦م)

كن ابن من شئت واكتسب أدباً
إن الفتى من يقول: ها أنذا

يغنيك محمدوده عن التسب
ليس الفتى من يقول: كان أبي

أبو العتاهية

(٧٤٨-٨٢٦م)

إذا وزت الجهال أبناءهم غنى

وجاهها فما أشقى بني الحكماء!
محمد حنفي ناصف

(١٨٥٧-١٩١٩م)

المصادر والمطالعة

هيئت لي معلومات وافية من الشعراء والأدباء الذين عرفتهم ومن أصدقاء الراحلين والمتصلين بهم. ووجدت في الجرائد والمجلات العراقية والعربية خلال نصف قرن أو يزيد أخباراً كثيرة حرة بالتدوين. وفي الكتاب أشعار لم تنشر أو نشرت في الصحف ولم تجمع في ديوان فأثرت إثباتها تخليداً لأصحابها.

وفيما يلي جدول ببعض المراجع والمطالعة التي قد يرغب المتبع في الرجوع إليها زيادة في الفائدة:

- (١) مير بصري: أعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث (بغداد ١٩٧١).
- (٢) إبراهيم الواعظ: الروض الأزهر (١٩٤٨).
- (٣) محمد مهدي البصير: نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر (بغداد ١٩٤٦).
- (٤) خير الدين الزركلي: الأعلام (الطبعة الثالثة).
- (٥) محمد صالح السهروردي: لبّ الألباب (جزآن، بغداد ١٩٣٣).
- (٦) عبد الرزاق الحسني: تاريخ الصحافة العراقية (١٩٣٥).
- (٧) عباس العزاوي: تاريخ الأدب العربي في العراق (بغداد، جزءان ١٩٦١ - ٦٢).
- (٨) السيد حيدر الحسيني الحلي: العقد المفصل (جزآن).
- (٩) محمد بهجت الأثري: أعلام العراق (١٩٢٧).
- (١٠) رفائيل بطي: الأدب العصري في العراق العربي (جزآن، القاهرة ١٩٢٣).
- (١١) رفائيل بطي: الصحافة في العراق (١٩٥٥).
- (١٢) مصطفى علي: أدب الرصافي (١٩٤٧).
- (١٣) مصطفى علي: الرصافي (الجزء الأول ١٩٤٨).
- (١٤) مصطفى علي: محاضرات عن معروف الرصافي (١٩٥٤).

- (١٥) جورج جبّوري : الكرملّي الخالد (١٩٤٧) .
- (١٦) كوركيس عواد : معجم المؤلفين العراقيين (٣ أجزاء ، بغداد ١٩٦٩) .
- (١٧) كوركيس عواد : الأب أنستاس ماري الكرملّي (١٩٦٦) .
- (١٨) مصطفى جواد : المباحث اللغوية في العراق (١٩٥٥) .
- (١٩) الدليل العراقي الرسمي لسنة ١٩٣٦ .
- (٢٠) دليل الجمهورية العراقية لسنة ١٩٦٠ .
- (٢١) السيد جعفر الحلي آل كمال الدين : سحر بابل وسجع البلايل (صيدا ١٩١٣) .
- (٢٢) عبد الغفار الأخرس : الطراز الأنفس في شعر الأخرس (الأستانة ١٨٨٧) نشره أحمد عزت الفاروقي .
- (٢٣) عبد الله الجبوري : من شعرائنا المنسيين (بغداد ١٩٦٦) .
- (٢٤) محمد الهاشمي : سميراميس بين الحقيقة والأسطورة (بغداد ١٩٥٩) .
- (٢٥) محمد مهدي البصير : البركان (بغداد ١٩٥٩) .
- (٢٦) أحمد الصافي النجفي : التيار (دمشق ١٩٤٦) .
- (٢٧) محمود الحبوبي : شاعر الحياة (النجف ١٩٦٩) .
- (٢٨) بدر شاكر السياب : قيثارة الريح (بغداد الطبعة الثانية ١٩٧١) .
- (٢٩) محمود العبّطة : بدر شاكر السياب والحركة الشعرية الجديدة في العراق (بغداد ١٩٦٥) .
- (٣٠) حافظ جميل : اللهب المفقّى (بغداد ١٩٦٦) نبض الوجدان (بغداد ١٩٥٧) أحلام الدوالي (بغداد ١٩٧٢) .
- (٣١) غازي عبد الحميد الكنين : شعراء العراق المعاصرون (جزآن ١٩٥٧ - ١٩٥٨) .
- (٣٢) محمد رضا الشيبّي : ديوان الشيبّي (القاهرة ١٩٤٠) .
- (٣٣) محمد مهدي الجواهري : ديوان الجواهري (عدة طبعات) .
- (٣٤) محمد مهدي الجواهري : أيها الأرق (بغداد ١٩٧١) .
- (٣٥) محمد مهدي الجواهري : خلجات (بغداد ١٩٧٢) .
- (٣٦) نعمان ماهر الكنعاني : المعازف (بغداد ١٩٥٠) .
- (٣٧) نعمان ماهر الكنعاني : الشعر في ركاب الحرب (بغداد ١٩٤٨) .

- (٣٨) عبد الحسين الأزري : ديوان الحاج عبد الحسين الأزري (بيروت).
- (٣٩) علي الشرقي : عواطف وعواصف (بغداد ١٩٥٣).
- (٤٠) علي الشرقي : ديوان علي الشرقي (بغداد ١٩٧٩).
- (٤١) معروف الرصافي : ديوان الرصافي (القاهرة ١٩٤٩).
- (٤٢) ديوان السيد محمد سعيد الحبوب (بغداد ١٩٨٠).
- (٤٣) الدكتور محسن غياض : شاعر العرب عبد المحسن الكاظمي (بغداد ١٩٧٦).
- (٤٤) الدكتور داود سلوم : تطور الفكرة والأسلوب في الأدب العراقي (بغداد ١٩٥٩).
- (٤٥) تذكرة الشعراء لعبد القادر الخطيبي الشهرباني (نشره الأب أنستاس الكرملي ، بغداد ١٩٣٦).
- (٤٦) الدكتور يوسف عز الدين : شعراء العراق في القرن العشرين (بغداد ١٩٦٩).
- (٤٧) يوسف أسعد داغر : مصادر الدراسة الأدبية (٤ أجزاء ، بيروت).
- (٤٨) الدكتور شوقي ضيف : الأدب العربي المعاصر : في مصر (القاهرة ١٩٥٧).
- (٤٩) الدكتور جمال الدين الرمادي : من أعلام الأدب المعاصر (القاهرة ١٩٦٠).
- (٥٠) محمود شكري الألوسي : المسك الأذفر (بغداد ١٩٣٠).
- (٥١) مجلة كلية الآداب (العدد ١٨ : ١٩٧٤) بغداد ، عدد خاص بأربعينية الدكتور محمد مهدي البصير.

توطئة

الأدب العربي في عصر الانحطاط

عرف العصر الذي تلا سقوط الدولة العباسية في العراق سنة ١٢٥٨ م بعصر الانحطاط. فقد خمدت الحركة الأدبية وأصبح الشعر والنثر يتسمان بالتقليد والإسفاف، وكادت المواضيع تقتصر على المدح والهجاء والرثاء والغزل والمراسلات الإخوانية. كسدت سوق الأدب وزال الإبداع والإشعاع في البلد الذي أنجب الفرزدق وابن المقفع والأصمعي والجاحظ وبيدع الزمان والحريري والفراهيدي وسيبويه وبشار وأبا نواس وأبا العتاهية وأبا تمام وابن الرومي وابن المعتز والمتنبي وابن خلكان وصفي الدين الحلي وأضرابهم من أساطين البلاغة والبيان والقريض.

وينبغ في عهد الانحطاط شعراء فرس وترك كانوا في طليعة أدباء الدولتين الفارسية والتركية، منهم، من رجال اللغة الفارسية: سلمان ساوجي، وخواجه كرمانو وعبيد زاكاني وحافظ، ومن رجال اللغة التركية: فضولي البغدادي المعروف في تركيا بـ «رئيس الشعراء»، وقد توفي سنة ١٥٥٥ م، وابنه فضلي، ورضائي وعهدي وشمسي، وحسيني المتصوف المتوفي سنة ١٥٧٧، وروحي المتوفي سنة ١٦٠٥، وغيرهم. ولا يزال الأدب التركماني مزدهراً في كركوك وأنحائها، ومن أعلامه عبد الله صافي المتوفي سنة ١٨٩٨، والشيخ رضا الطالباني المتوفي سنة ١٩١٠. وكان يعدّ أبلغ شعراء الكرد، لكنه كان ينظم باللغات التركية والفارسية والعربية أيضاً. وقد سافر إلى تركيا، ومضى إلى القاهرة فعهد إليه بتدريس الفارسية لأنجال الخديوي إسماعيل، على ما قيل.

ولا بدّ من ذكر أحمد هاشم الألوسي البغدادي الأصل (١٨٨٥ - ١٩٣٣) الذي يعدّ من أعظم شعراء تركية في العهد الأخير، وقد عرف بشعره الرمزي وشعر الطبيعة والجمال. ومن شعراء التركمان في كركوك وأنحائها محمود هجري ددة (١٨٨١ - ١٩٥٢) وخضر لطفلي (١٨٨٠ - ١٩٥٩) والأديب ناجي الهرمزي (١٨٨٧ - ١٩٥٢) ومحمد صادق (١٨٩١ - ١٩٦٧) والقاضي أحمد فائز (١٨٤٢ - ١٩١٨) صاحب المؤلفات باللغات العربية والتركية والكردية والفارسية.

ولعل خير أنموذج للأدب التركي في العراق في أوائل القرن التاسع عشر ما سجله كتاب «تذكرة الشعراء أو شعراء بغداد وكتابها في أيام وزارة المرحوم داود باشا وإلى

بغداد»، وهو من تأليف أو ترجمة عبد القادر الخطيبي الشهبازي. عني بنشره الأب أنستاس ماري الكرمليني سنة ١٩٣٦. ذكر هذا الكتاب تراجم مختصرة لنحو خمسين شاعراً وكاتباً عاشوا في عهد الولي، وجلّهم إن لم نقل كلهم، من النكرات المحسوبين على الأدب ومن موظفي الولاية وكتابها. ولم يخلّفوا أثراً سوى واحد هو رسول حاوي مؤلف «دوحة الوزراء» في تاريخ ولاية بغداد، وقد توفي سنة ١٨٢٦.

أما الأدب الكردي فانتعش في السليمانية وأنحائها، وكان من أعلامه العالم الأديب رسول مستي الملقب بشيخ الحكماء (١٨٢٣ - ١٩٠٨) والشعراء محمد المحوي (١٨٣٦ - ١٩٠٩) وأمين يُمّني (١٨٤٥ - ١٩٢١) وأحمد الملا قادر (١٨٥٤ - ١٩١٠) وأمين فيضي (توفي ١٩٢٨) وصالح حريق (١٨٦٦ - ١٩٠٩) وحسن البامرفي (١٨٦٧ - ١٩٣٧) وأحمد مختار الجاف (١٨٩٦ - ١٩٣٣) وعبد الله كوران (حلبجة ١٩٠٤ .. ١٩٦٢) وفائق بيكاس (١٩٠٥ - ١٩٤٨). ولا بدّ من ذكر الكاتب المرّي رفيق حلمي (١٨٩٨ - ١٩٦٠) وحسن فهمي الجاف (١٩٠٥ - ١٩٧٣). وأشهر شعراء الكرد على الإطلاق توفيق بيره مرد (السليمانية ١٨٦٧ - ١٩٥٠). ولا ننسى الوزيرين العالمين المؤرخ محمد أمين زكي (١٨٨٠ - ١٩٤٨) والبحاث المحقق توفيق وهي (١٨٩١ - ١٩٨٤) مؤلف القاموس الكردي الإنكليزي المطبوع في لندن (بالاشتراك مع الميجر آدموندس).

الأدب العربي في عصر الانحطاط

كان الأدب العربي في عصر الانحطاط مظهراً من مظاهر التقليد والجمود والجفاف. فشت العجمة في الفكر والبيان، وطغت اللهجة العامية، وغلبت التركية لغة الدواوين والطبقة الحاكمة. على أن النجف بقيت واحة عربية ازدهر فيها الفقه وعلوم الدين واللغة والشعر التقليدي. وكان أبرز ممثلي الأدب العربي في ذلك العهد:

- (١) الشاعر المذّاح الشيخ كاظم الأوزي (١٧٣٠ - الكاظمية ١٧٩٦).
- (٢) الشيخ صالح التميمي (١٧٦٢ - ١٨٤٤) ولد في الكاظمية ودرس في النجف ومدح بشعره الولاية والأشراف.
- (٣) المؤرخ عثمان بن سند البصري (١٧٦٦ - ١٨٢٧) مؤلف «مطالع السعود في طب أخبار الولي داود».
- (٤) الشاعر المجيد عبد الباقي العمري (١٧٨٩ - ١٨٦١)، موصلي الأصل وكان معاوناً لولي بغداد.

- (٥) مفتي بغداد عبد الغني جميل (١٧٨٠ - ١٨٦٣) من وجهاء عصره وأغنيائه،

نظم الشعر واشتهر بمطارحاته مع عبد الغفار الأخرس ، وقد نشرها المؤرخ عباس العزاوي .

(٦) الشاعر عمر رمضان الهيتي ، توفي سنة ١٨٣٦ .

(٧) المفتي أبو الثناء محمود شهاب الدين الألوسي . (١٨٠٢ - ١٨٥٤) صاحب الرحلات والمقامات والتفسير المشهور .

(٨) الشاعر النجفي الشيخ محسن الخضري (١٨١٩ - ١٨٨٥) اشتهر بمدائحه للولي علي رضا باشا .

(٩) العالم الأديب المؤرخ إبراهيم فصيح الحيدري ولد في بغداد (١٨٢٠ - ١٨٨٣) .

(١٠) الشاعر الشيخ حمادي آل نوح الحلّي (نحو ١٨٢٥ - ١٩٠٧) .

(١١) الشاعر أحمد عزت باشا العمري الفاروقي (١٨٢٨ - ١٨٩٢) ولد في الموصل وعاش في بغداد واستانبول وطبع ديوان الأخرس في العاصمة التركية سنة ١٨٨٧ .

(١٢) الشاعر العاشق الشيخ عباس علي النجفي (١٨٢٨ - ١٨٥٨) ، وهو صاحب القصيدة المشهورة :

عديني وامطلي وعدي ، عديني وديني بالصباغة فهي ديني

(١٣) الشاعر أحمد بك الشاوي (١٨٢٨ - ١٨٩٩) .

(١٤) الشاعر السيد حيدر بن سليمان الحلّي (١٨٣٠ - ١٨٨٧) مؤلف «العقد المفصل» في مدائح آل كبة . وقد اشتهر بمراثيه الحسينية الشجيرة .

(١٥) نعمان خير الدين الألوسي (١٨٣٦ - ١٨٩٩) وكان عالماً لغوياً أديباً .

(١٦) الشيخ جعفر الشرقي (١٨٤٤ - ١٨٩٢) الشاعر الفقيه ، والد الشاعر الشهير علي الشرقي .

(١٧) السيد جعفر الحلّي من آل كمال الدين (١٨٦١ - ١٨٩٧) نشر ديوان شعره بعنوان «سحر بابل وسجع البلابل» وطبع في صيدا .

وقد غالى الدكتور محمد مهدي البصير في كتابه «نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر» في تقييم أدب ذلك العهد ، فقال : «إن أدبنا . . . يمثل كل لون من ألوان الأدب العربي القديم وكل فن من فنونه . . . » وقال : إنه يمثل حياتنا الاجتماعية والسياسية والدينية . وبالف في نعت الشعراء ، فهذا خليفة أبي نواس والآخر خليفة أبي العتاهية وذلك صنو ابن الفارض وقرين أبي تمام ، وهلم جرا .

كان الشعر بضاعة كاسدة لا تكاد تحظى بشيء من التقدير المادي أو الأدبي . والمديح والرثاء زاخران بالمبالغات الصارخة ، فكان كل ممدوح نابغة عصره وسيّد مصره ، وكل مرثي فاق الثقلين وغادر الأرض قفراً يباباً :

فالموت نقاد على كفته جواهر يختار منها الجياد!

ونرى السيد جعفر الحلي يرثي القتيل ويهنيء القتاتل في نفس واحد، يرثي الشيخ مزعل ويهنيء أخاه خزعل خان الذي اغتاله وحل محله على دست إمارة عربستان. ثم نراه يمدح قاطع الطريق من عشيرة شمر فيصفه بالليث الذي أوكل رزقه ببرائه! .
وخلاصة القول: إن شعر عصر الانحطاط يكاد يخلو من المعاني والأفكار الأصيلة والبوارق الصوفية واللمعات الذهنية واللمحات الوجدانية. وإذا كان يمتاز بسلامة اللغة والبلاغة في أحايين كثيرة، فإنه يتسم بالجمود والتقليد والصرامة وضحل الخيال.
وقد ترجمت لشاعرين يمثلان عصر الانحطاط الأخير أحدهما بغداددي (عبد الغفار الأخرس) والآخر نجفي (إبراهيم الطباطبائي).

عصر النهضة

أطل فجر النهضة الأدبية في مطلع المائة العشرين، وكان في الطليعة من رواده الشاعران جميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي، ثم تبعهما عند إعلان الدستور التركي محمد رضا الشيبسي وأخوه محمد باقر وعلي الشرقي وخيري الهنداوي وكاظم الدجيلي ومحمود الملاح.

ونبغ من الكتاب والعلماء محمود شكري الألوسي والأب أنستاس ماري الكرملي وفهمي المدرس ومحمد حسين كاشف الغطاء... ونشأت الصحافة سنة ١٩٠٨ مع إعلان الحرية، فبرز فيها عبد اللطيف ثنيان وداود صليوا وإبراهيم صالح شكر وإبراهيم حلمي العمر، ثم رزوق غنام وعبد الغفور البدري ورفائيل بطي وتوفيق السمعاني وسليم حسون...

ويمكن القول: إن الأمة العربية «أمة الشعر». فقد كان للشعر منذ الجاهلية المقام البارز والأثر البالغ في الحياة الاجتماعية والسياسية والنهضة العلمية والأدبية. وكان الشعر يقوم مقام المقالات الافتتاحية قبل أن توجد الصحافة مع مزية أخرى له هي سهولة الحفظ والنقل والتداول والخلود.

وقد قلت في البحث الذي قدمته بعنوان «دور الأديب العربي في بناء المجتمع العربي العصري» إلى مؤتمر الأدباء العرب السابع المعقود في بغداد في نيسان ١٩٦٩: «يضطلع الأديب بتبعة جسيمة في بناء مجتمعه والمجتمع العالمي. فالأديب الحق يحمل مشعل التقدم والنهوض لينير السبيل لأبناء أمته ووطنه. ولئن كان ذلك صحيحاً لم يجد الأدب ووجدت رسالة الأديب، لقد أصبحت هذه الحقيقة أشدّ خطراً وأبلغ أثراً في المجتمع العربي الحديث الذي يمرّ، من الجهة الواحدة، بطور انتقال، طور امتدّ منذ

حقبة طويلة ولا يزال جارياً بدرجة متفاوتة وتفاعل ملحوظ في مختلف أقطار العروبة لأجل إزالة آثار التخلف واللاحاق بموكب الأمم العاملة العاملة، ونحوه، من الجهة الأخرى، معركة ضارية فرضتها عليه قوى الاستعمار والرجعية . . . » .

وقلت إن الأدب العربي قام في العصور الماضية بدوره في بناء المجتمع وتوطيد أركانه، وكان من أقوى عناصر القوة والتماسك التي تربط بين أبناء الشعب العربي في أقطاره المنبسطة شرقاً وغرباً. وقد رأينا الشعراء والأدباء في العراق والوطن العربي أجمع في عصر النهضة الحديثة يلهبون مشاعر الأمة وينثرون لها طريق الحرية والاستقلال ويدعونها إلى اليقظة والانطلاق .

قامت معارك اجتماعية ووطنية وسياسية خاض غمارها الأدب وكان النصر فيها حليف قوى التقدم والعرفان . وحسبنا أن نذكر مثلاً معركة تحرير المرأة والسفور والحجاب التي احتدمت بين الأنصار والمعارضين . وقد تعرّض الزهاوي للمحنة لمقال كتبه في الدفاع عن المرأة فبقي حبيس داره أياماً خوفاً من سخط الجماهير، حتى ليخاطب زوجه قائلاً :

أبئني، إن أدنى العـددو حمامي	بمسدس يذكـيه أو بحسام
فتجلدي عند الرزـيـة واحسبي	أني اجتمعت إليك في الأحـلام

وقال الرصافي :

لقد غمطوا حق النساء فشددوا	عليهن في حبس وطول ثـواء
وقد ألزموهن الحجاب وأنكروا	عليهن إلا خـرجـة بـغطاء

ودعا شعراء النهضة إلى العلم والحرية . واتخذ كتاب الرواية والقصة والمسرحية آثارهم أداة لرسالة الثقافة والاستقلال . ثم تشعبت نواحي الأدب في مناهجه وأهدافه ، وظهر الشعر المنشور والحرّ ومذهب الرمزية والسوريالية ، واتسع مجال الأثر الأدبي بنشوء البث الإذاعي والتلفزيوني ونقل الشعر والنثر العربي إلى اللغات الأخرى بعد أن مرّ دور الترجمة والتعريب .

وأرجو أن تكون الصفحات التالية سجلاً لتعريف الشعراء والأدباء وبيان أثرهم في النهضة الحديثة ، وذلك قصارى الجهد وغاية القصد والمرام .

لندن، شباط ١٩٩٤

مير بصري

القصص الشعري

أولع شعراء الشباب في مطلع القرن العشرين بالقصص الشعري، وكانت قصصهم في الغالب ساذجة شجيّة تنتهي بالفواجع، وكأنّ الدهر مأساة لا تبقي على غني ولا متنعم. ولعلّ أولئك الشعراء قد تأثروا بمصطفى لطفی المنفلوطي، الأديب المصريّ الأنيق الذي كان له تأثير عظيم في النصف الأول من القرن في طول الأقطار العربية وعرضها.

حدثني عباس العزاوي أن الكتب والمجلات كانت ممنوعة في عهد الاستبداد الحميدي، ولم يسمح بورودها إلا بعد إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ وإطلاق حرية المطبوعات. أخذت المجلات والصحف المصرية كالمقتطف والهلل والمقتبس والزهور وغيرها ترد إلى بغداد فيتلقفها الشباب المتعلم ويطالعها بشغف ولهفة.

قال العزاوي: كنّا ننتظر وصول المجلات والكتب بنافذ الصبر، فإذا تأخر البريد مررنا بالمكتبات في سوق السراي كلّ يوم، بل كل ساعة، نسأل عنها ونستفسر عن أسباب التأخير. وكانت مقالات المنفلوطي التي تنشرها جريدة المؤيد تحظى باهتمامنا قبل غيرها، ولا سيما النظرات والعبرات والروايات المترجمة التي نشرت بعد ذلك كتباً مستقلة. فإذا وردت المؤيد أقبلنا على مطالعة مقالات المنفلوطي في المكتبة أو الطريق، ولم نصبر عن قراءتها حتى الوصول إلى الدار

وللمنفلوطي نفسه قصص شعرية، منها منظومة «بين أساء وعبد الله». تلك قصة أساء بنت الصديق ولدها عبد الله بن الزبير الذي طلب لنفسه الخلافة فحاصره الحجاج بمكة وعرض عليه التسليم. لكن أمه أشارت عليه بالمضي في القتال حتى الموت:

صنعت في السـوداع خير صنيع
تحت درع منسـوجة من نجيع
بين أسر مـسيرٍ وقتل فظيع
صاحب غير سيفي المطبوع
غاب عني ولم يعد لطلوع

إنّ أساء في السـورى خير أنشى
جاءها ابن الزبير يسحب درعا
قال: يا أمّ، قد عييت بأمرى
خانني الصـحب والزمان، فما لي
وأرى نجمي الذي لاح قبلا

بذل القوم لي الأمان ، فما لي
فأجابت ، والجفن قفر كأن لم
لا تسلم إلا الحيلة وإلا
إن موتاً في ساحة الحرب خير
وختم الشاعر قصيدته قائلاً :

وأتى أمه النعي فجات
بعد لأي بدمعها المنوع

ونظم المنفلوطي أيضاً رواية بولس وفرجيني لبرناردان دي سان بيير، وهي قصة
الطبيعة الساذجة والطفولة البريئة، ومطلعها :

يا بني الفقير، سلاماً عاطراً من بني الدنيا عليكم وثناء

نشأ الطفلان في جزيرة نائية، وتمتعا بمشرق الشمس ومغيبها، ولعبا معاً في ظل
الأشجار الوارفة وعلى ضفاف الجداول الرقراقة . وقد تبادلوا الحب وعزما على الزواج،
لكن الفتاة مضت إلى فرنسا للمطالبة بإرث لها فلم تحصل على المال . ولما عادت إلى
جزيرتها حيث ينتظرها الحبيب هاج البحر وماج، فغرقت السفينة وجرفت المياه العروس
العائدة جثة لا حياة فيها ألقتها على الساحل .

كان جميل صدقي الزهاوي من مبتدعي القصص الشعري، وقد نظم عدة قصائد
في هذا الباب، منها: أرملة الجندي، سليمة ودجلة، طاغية بغداد، الغريب
المحتضر، على قبر ابنتها، أسماء، مقتل ليلى والربيع، سعاد بعد زواجها، ليلى وسمير،
الخ .

فأساء فتاة تهوى أحد الشبان، لكن أهلها يزفونها إلى شيخ فإن له ثلاث نساء فلا
تجد مخرجاً من مأساتها إلا بتناول السم والموت في ميعه الصبا .

وأرملة الجندي يعصها الفقر بنابه بعد وفاة قرينها فتصاب بالسل ولا تنال الكفاف
من القوت مع طفلها لضالة راتب التقاعد الذي يصرف لها .

ويقف الرصافي بين شعراء الشباب في العراق على قمة عالية لا تصل إليها الأبصار.
إن منظوماته القصصية قصائد رائعة تجمع جمال الشكل إلى سمو المعنى ولطف الأداء .
إننا نقرأ «المطلقة» و «أم اليتيم» و «الفقر والسقام» و «اليتيم في العيد»، فنحلّق مع
الشاعر في عالم روحاني من الرحمة والمحبة ونحقق قلوبنا بالعواطف الإنسانية الرفيعة .

هذه المرأة تئن في سكون الليل، وقد لفها الظلام والوحشة والفقر بدثار قاس أليم،
وإلى جنبها طفل جائع ينتظر رجوع أبيه الذي قتل في مذبحة همجية . وهذه الزوجة
المخلصة المحبوبة يطلقها زوجها لزلّة لسانية بدرت منه يحيلها جهود المجتمع وجهله إلى
مأساة لا مخرج منها .

وهذا الصبيّ اليتيم البائس، صبيح الوجه، شاحب اللون، يخرج في صباح العيد ملتفعاً بأسماله البالية فيزيد من أساءه وحرمانه ضجيج الناس وفرحهم ولعب الصبيان الذين يرتدون الملابس الزاهية ويمضغون السكر والحلوى ويضحكون ويمرحون في ففض من السعادة والهناء . . .

أما موشح الفقر والسقام فهو أنه المضحى الكئيب ترتفع في الظلام يطلقها الفقير المريض الذي لا يجد طباً لعلته ولا نفقة لأسرته. بشير الكادح الذي كان يسعى طول النهار لكسب قوتاً زهيداً وليعيل أخته العانس أقعده المرض عن العمل:

إِنَّ سَقْمًا بَسْمًا _____ وَعَقْمًا أَلَمًا
 فَهُوَ حِينَئِذٍ يَشْكُو إِلَى السَّقْمِ عَذْمًا
 وَهُوَ يَشْكُو حِينَئِذٍ إِلَى الْعَذْمِ سَقْمًا
 تَرْكَاهُ يَذُوبُ يَوْمًا فَيَوْمًا
 بَاكِيًّا مِنْ كِلَيْهِمَا بَانْتِحَابٍ

وفي ليلة زجرت العاصفة واكفهر أديم السماء والتمتع البرق ودوى هزيم الرعد، قضى بشير نجه. ولم تلبث أخته أن تبعته إلى رحاب الموت، منطلقاً من قبضة الحياة القاسية الشديدة.

لقد أبدع الرصافي الشاعر في تصوير قسوة الطبيعة وثورة عناصرها الهوج وسخرية القدر، وتجسيم الموت الذي ينشب مخالبه كالوحش الضاري في بني الفقر على الفراش البالي وفي ضياء السراج الضعيف. وبرع في الإفصاح عن رزايا الفقر وأوصاب المرض وسعار الجوع، ووصف عبرات الأرامل والأيتام وأنين المكالمين الذي يقطع الأحشاء بسيف مثلث ويهز نياط القلب، واللبل ساج حالك السواد، وكأنَّ نجومه تضيئ إلى الزفرات المجمجمة. وبرع في تصوير البيت الخاوي المتهتَّم الذي ينوء بأثقال البؤس، والجسم الهزيل الشاحب الذي يهده الجوع والسقام، والطفولة التي تشكو ضراوة الدهر قبل أن يفتتح ذهنها لحقيقة الوجود، تغذيها أمها بالدموع إذا أعوز الخبز. والجمال الذي يذوي من الوجد في عنفوان الشباب، وذللَّ يجتمع البؤس وتضامنه وتعاطفه وتبادله العون والحنان والنز ما يملكه من حطام الأرض، وشموخ يجتمع الغنى والبذخ وعدم مبالاته واستهانته بالدموع والدماء، أليس كل ذلك وكثير غير ذلك قد عبّر عنه شاعرنا ألطف تعبير، ينفذ إلى مكان النفس البشرية ويثير فيها أسسى العواصف والعواصف؟ وهل عجب أن يرسم الرصافي صورة حية للحزن، وهو القائل :

أنا للحزن دائماً ذو انتساب؟

إن الرصافي يروي قصص الأسى والألم والموت بصيغة المتكلم، فهو قد رآها وسمعها وعاشها، أصغى إلى أنين الملهوفين وسأل عما أصابهم وخفف من آلامهم وودعهم يوم مماتهم الوداع الأخير وسكب على قبورهم دمة حرى صادقة هامة من جفن قريح.

وقد كان إبراهيم صالح شكر، وهو الأديب الذواق، معجباً باستعارات الرصافي

وتشبيهاته يعدّها من الروائع . استشهد بقوله في «أمّ اليتيم» :

أرى فحمة الظلماء عند أنيها فأعجب منها كيف لم تتضرم
فقال - على ما أذكر - إن شاعرنا قد شبه الأنين ضمناً بالنار فعجب كيف لم تضطرم
فحمة الظلماء .

ومن تشبيهاته الأخرى في نفس القصيدة خفوق أنين الأرملة في قلبه كرتة الدرهم في قلب الفقير المترب . ثم شبه تقطع أحشائه بضربة سيف مثلم ، ولا يخفى ما تسببه ثلمات حدّ السيف من الألم عند تمزيقها الأعصاب . ثم انظر إلى الأحزان التي هاجت فاعرة الفم ، وإلى الدار التي هوى بها زلزال الخطوب إلى حضيض الشقاء ، وإلى العين التي سال دمعها بكاءً ونظرتها بتسم ، وهلمّ جرا .

إنّ خيرى الهنداوي صديق الرصافي وعشير لا يرقى مرقة صاحبه ، لكنه مع ذلك يحسن نسج القصة الشعرية وحك وقائعها . ففي قصيدته «فتاة سلانيك» يروي حديث حبيبين عاشا زماناً في بلهنية الصبا وصفاء السلم والوداد ، حتى نشبت الحرب . ومضى الفتى إلى ساحة الوغى فقتل وأسرت الفتاة الحزينة .

وقصيدته «زينب وخالد» أو «فتاة بغداد وفتاها» ملحمة المآسي والأحزان . ومن زينب؟ - هي فتاة عربية نشأت في أحضان الفضيلة والعز والدلال :

فجاءت كغصن البان يورق ناضراً وكالشمس إلّا أنها ليس تغرب
خرجت ذات يوم مع صديقاتها في نزهة ، فالتقت بفتاها جالسا في ظلّ دوحة . وقعت عينه عليها :

فجنّ بها حباً ، ولم يسدر قلبها بأن الهوى يأتي الفتى وهو يلعب
ورائه هي أيضاً فهامت به حباً :
مضت ومضى للحى ، كلّ مولّه بصاحبه يدعو الرشاد فيعزب
ومرض خالد وقد تيمم الحب ،

ينوح كما نوح الحمام صباة ويشهق من فرط الغرام وينحب
وعرفت أمه بالسرّ الذي يطوي عليه جوانحه ، فخطبت له الحبيبة وهيئت أسباب الزواج . غير أنّ القدر يقف للمحبّ السعيد بالمرصاد ، فقد جاء جند جنكيز واقتادوا خالداً وزجّوه في السجن ، ثم ساقوه إلى سيواس . وماذا كانت جنايته؟

لقد كان صباً بالعراق وأهله يثور إذا سيموا الهوان ويشغب
يدافع عن أحسابهم وحقوقهم ويطعن في صدر العدو ويضرب
وهل ريبة أن ذب عن مجد قومه فتى عن بنيات العلى لا ينكب؟

أعدلاً يرى الأقوام حبس ابن حرّة
إذا كان في حب الديار جريرة
يغار على مجد العراق ويغضب؟
فكل فتى فوق البسيطة مذنب!

وبعد أعوام قضّاها في المنفى البعيد، عاد بطل قصّتنا فوجد أمه قد ماتت. وأمّده
صديق وفيّ بالتقود فاقرن أخيراً بحبيبته زينب. لكنه عاد إلى العمل السياسي لتخليص
بلاده من ربقة الاحتلال، فقبض عليه، وهو في غمرة أفراح ختان طفله، وسيق إلى
المعتقل النائي مكبلاً بالحديد. وابتلي بالسّل فقضى نحبّه بعيداً عن أهله وأصحابه.

إيه، أيها الشاعر. لقد أحكمت حلقات المأساة، وأعرت الأيام مخلباً وناباً فلا تهدأ
حتى تنشب أظفارها بالأرملة واليتيم وتحتّم الفاجعة بلا رحمة ولا تلكؤ. وتخطب الأم
طفلها وهي تشعر بدنو الأجل:

بني، إذا مات من لك راحم
بني، يتيم أنت بعدي مسيماً
ومن بك يعنى أم لأجلك يتعب؟
تعيش كما عاش اليتيم المسيّب
بني، لقد هان الردى بعد خالد
ولكنه في يتم نفسك يصعب
وجاءت جاراتها في الصباح فوجدنها ميتة وطفلها يعول باكياً. وشغلوا بدفنها،
فسهوا عن الطفل الذي خرج من الدار يسير على غير هدى حتى غرق في دجلة.

وهذا كاظم الدجيلي وقصيدته «بوليس بغداد»، فهل نستطيع أن ننعثها بالقصة؟
إنها إلى الحكاية أقرب وبالسرد أوثق نسباً.

يستهلّ الدجيلي قصيدته بوصف مجلس شراب، فيصف الخمرة التي تميم الأحران
والخلان الذين اختلسوا لحظات من السعادة والصفاء. وإذا بالشرطة تداهمهم وتلقي
بهم في غيابة السجن. وهناك يلتقي الشاعر بأبناء البؤس الذين أناخ عليهم الظلم
بكلّكله: الفتاة المعسرة التي لم يخنها ضميرها، والمرأة الباكية التي ترضع طفلها في ذلك
المكان الموحش، ولكل منهما قصة عذاب وشقاء.

ومن قصص كاظم الدجيلي الشعري قصيدته «مريم وحسان» وهي تروي قصة
«رومية من غيد بغداد» (أي بغداد) زارته قبيل الفجر ترفل في حلة لا كمّ لها ولا ردن
وتتهدى في سيرها غنجاً. لكن عصابة شريرة اختطفها. وجاءها جندي تركي فاتهمها
بالخلاعة، لكن رجلاً شهماً استطاع إنقاذها. غير أن الجنود قبضوا عليه وساقوه إلى
القاضي الذي أمر بحبسه، وقضى الفتى نحبّه في السجن. ورأت مريم جنازته
فصعقت وسقطت ميتة هي الأخرى!

وهي قصة متهافة نظماً ومعنىً وسياًقاً؛ ولا شك أنه نظمها في مستهلّ شبابه.

ويلقي إبراهيم منيب الباجه جي دلوّه بين الدلاء، فينظم قصيدته «إقبال وإدبار».
فتاة من الأعراب هيفاء مُعَصِرُ
يقال لها في سالف الدهر مُنَوَّرُ

ولعلّه استعار كلمة «معصر» من عمر بن أبي ربيعة فأساء فهم معناها ، فالمعصر هي التي تقدم بها العمر وليست الغيداء الشابة .

وصف حسننها وحياءها وسحر عينيها وتورّد خديها ولين عطفها وشقرة شعرها . نشأت في قصر منيف وترعرعت في بحبوحة العزّ في ظلّ أب نبيل حكيم . وأتى ظالم شرير من الغرب يريد خطف الفتاة ، فقتل أبها بخنجره وفرّ هارباً . واستغرقت منور في جزعها وحزنها ، فوضعت نهاية لحياتها بأن رمت نفسها من سطح الدار . ثم تبعتها أمها إذ ألقت بنفسها في بئر عند قبر ابنتها !

أما عبد الرحمن البناء فروى في «فتاة العرب» قصة رمزية تشير إلى اعتداء الدول الغربية على السلطنة العثمانية الهرمة وتكالبها على تمزيق أشلائها .

قال البناء :

قضت حقبة في عالم الشرق زينب لها المجد أم والفخار لها أب

عاشت زينب في صفاء ونعمة تجرّ ذيول الدلال وتمرح في روضة الشباب . تاهت يوماً في الصحراء ، فلم تشعر إلا والليل قد أسبل على الكون رواقه الحالك . وأجالت طرفها في حيرة ووجوم ، فرأت شبحاً قادماً خالته في بادئ الأمر صديقاً ، ولما اقترب منها وجدته شيخاً أجرب من الغرب ، دميم الخلقة ، أحذب الظهر ، أشعث الشعر . هدهدها بمديته فلم تغن عنها ضراعتها ، وسلبها ملابسها وحليها . ولما طلع الصبح عادت إلى أهلها ، وكانوا في أسى وقلق على مصيرها ، فنادت أمها بالويل والثبور ، وأهابت بالقوم إلى الثأر لابنتها :

أراكم حيارى ليس فيكم حميّة	على طفلة من أمّة الشرق تسلب
فقدتم بهذا الجبن كل مزيّة	وعام بكم في لجة الذلّ مركب
ألا فانهضوا واسعوا وجدّوا وسارعوا	وكرّوا على دفع الأذى وتقربوا
حناناً حناناً ، أيها الأمّة التي	لها عند أخذ الثأر عزم مجرب
ألستم بني الشرق الذي قيل عنهم	لهم هيبة منها المقادير ترهب ؟
ألستم بني الشرق الذي قيل عنهم :	إذا غاب منهم كوكب لاح كوكب ؟

وفي منظومة أخرى يروي عبد الرحمن البناء قصة لبنى الفتاة الجميلة التي درجت في حجر أمها الحنون . وقد ماتت الأم ، واقرن الأب بامرأة شرسة خبيثة كرهت لبنى وسامتها الذلّ والعذاب ، ثم لم تتورّع أن خنقتها في حندس الليل !

وماذا فعل الأب ؟ لام زوجته ،

ثم نادى عليّ بالنعش حتى	ندفن الميت في المقابر دفنا
فأتوه بالنعش سرّاً ، وفيه	ليس يدري أقصى الأنعام وأدنى

وضعوها بالنعش من غير غسل
ثم أبوا بجمعهم بعد ما قد
ثم قالوا من مكرهم حين عادوا:
ثم ساروا بها مسير الهوينى
تركوها في ظلمة اللحد ونسنى
ربّ إننا إليك نرجع، إننا

وهي كما نرى قصة متهافنة متفككة العرى، سقيمة اللفظ والسياق والمعنى، لكنها تهوّل صورة اجتماعية فظة من صور المجتمع العراقي في العصور المظلمة، وتدعو إلى التأمل والاعتبار والإصلاح.

ولا بدّ لنا بعد ذلك أن نذكر قصيدة الفتاة المخدوعة والشرطي الأثيم لمحمد الهاشمي. لقد أحبّ صالح الشرطي فتاة طاهرة الذيل، جميلة القسمات (شأن القصص الرائجة في ذلك العهد). وشجعت أمها العجوز الماكرة، لكن الفتاة أوجست منه ريبة وأحسّت أنه يريد اللهو بها لا الزواج منها. قالت الأم:

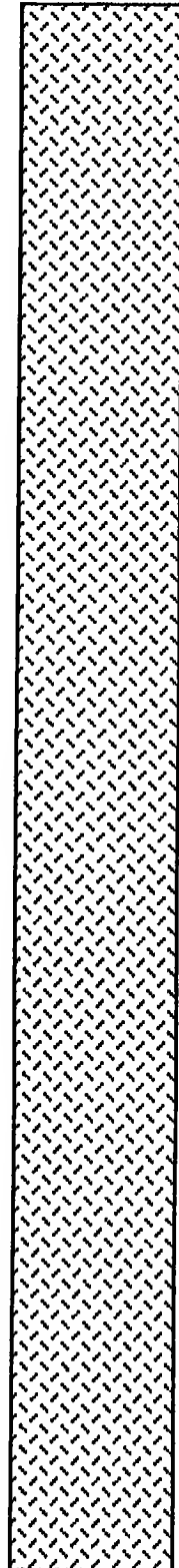
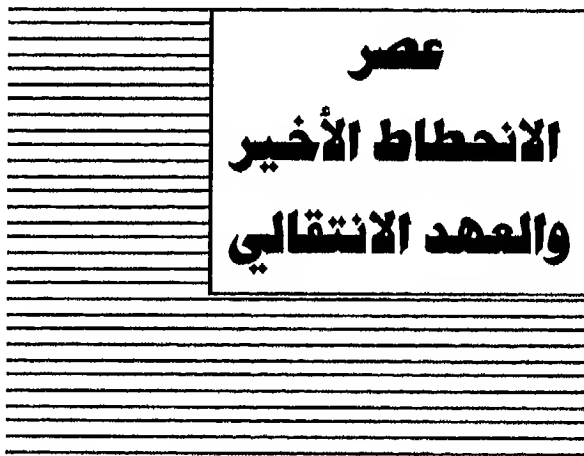
واضيعتي بعد عمر قد وقعت به
دعي، ابنتي، هذه الأفكار واتّدي
وهل سمعت بأم تخدع ابنتها
ماذا يريك منه؟ إنه لفتى
زين الشائل يسبي القلب منظّره
لو لم يحبّك حبّ الصدق كان له
ولما قضى الأثيم منها وطراً لم يكتف بهجرها، بل أخبر بأنها بنت مربية فأخذت قسراً إلى المباءة العامة. وشاء الشاعر بعد ذلك أن يحبك المأساة من جميع أطرافها، فابتلى الفتاة المسكينة بالسّل وسرعان ما أدركها الموت.

إنّ القاسم المشترك بين شعراء النهضة الأدبية الحديثة كان، ولا ريب، الشعور الإنساني والعطف على مجتمع البائسين. عبّر عن ذلك الرصافي، وعبّر عن ذلك الزهاوي الذي قال:

يا شعر أنت، إذا وصفتك موجزاً
وعبّر عن ذلك محمد الهاشمي إذ قال:

سألقي نظرة ملئت حناناً
يعيش الأغنياء على رخاء
تمام عيونهم بالليل، لكن
على البؤساء من طَرْفٍ خُشوع
ونحن نعيش في بؤس وجوع
عيون البائسين بلا هجوع

ولقد اضطلع الشعر العربي في عصر النهضة برسالة سامية لحفز الهمم وطلب العلم والإصلاح وتحرير المرأة واستقلال الوطن. ولا ريب أن القصص المنظومة كانت جزءاً هادفاً من شعر النهضة الاجتماعية في مطلع القرن العشرين.



عبد الغفار الأخرس

ولد في الموصل وعاش في بغداد وتوفي في البصرة، وكان همزة الوصل بين القرنين التاسع عشر والعشرين. فلقد اتصل بداود باشا آخر ولاية المماليك الذي عزل ونفي في سنة ١٨٣١ ومَدَح السيد عبد الرحمن النقيب الذي ولي رئاسة الحكومة الوقتية في سنة ١٩٢٠ وتوفي سنة ١٩٢٧.

ذَلكم السيد عبد الغفار عبد الواحد وهب المعروف بالأخرس لحبسة كانت في لسانه، ولعله كان أنبه شعراء بغداد ذكراً وأبعدهم صيتاً في عصر الانحطاط. وقد ردّد ذكر عقلة لسانه في شعره فقال من قصيدة يمدح أبا الهدى الصيادي الرفاعي حين زار بغداد سنة ١٨٦٧، وقد اشتهر بعد ذلك بصلته الوثقى بالسلطان عبد الحميد الثاني:

فهو عن مَدَح سواكم أخرس وبكم أفصح حُزب الشعرا
وقال يمدح المفتي أبا الثناء السيد محمود شهاب الدين الألوسي:

وقد أخرستني من علاك فصاحة ألت تراني أخرس النطق أبكما؟
وقال:

هذا لساني يعوقه ثقل وذاك عندي من أعظم النوب
فلو تسببت في معالجتني لنت أجزراً بذلك السبب

ولد الأخرس في الموصل في نحو سنة ١٨٠٥ وقدم بغداد شاباً ولم يلبث أن وليج عاقلها الأدبية واتصل بالولي داود باشا الذي كان يعطف على العلماء والأدباء. وديوان الأخرس الذي جمعه أحمد عزت باشا الفاروقي وطبعه في الأستانة سنة ١٨٨٧ قد ضمّ مقطوعتين للشاعر قالهما في عهد هذا الولي، أولاهما بيتان قالهما «حينما حبسه المرحوم داود باشا من جهة ما زوّره عن عبد الرحمن باشا ولي الموصل وكان ذلك سبباً لاتصاله به»:

أقول للشامت لما بدا يكثّر بالتعنيف والشين
ليس يكفيني فخاراً وقد أصبحت في قيد وزيرين؟

ولا نعلم شيئاً عما زوره الأخرس عن والي الموصل فكان سبباً لسجنه في بغداد
واتصاله بواليتها . أما المقطوعة الثانية فقصتها أنه كان واقفاً بين يدي داود باشا فأعطاه
عريضة وأمره بأن يتلوها ويلخصها فارتجل البيتين الآتين :

فديتك لا ترجو لنطقي تكليماً فإن يراعي عن لساني يترجم
غرقت بحمر من نوالك سيدي فكيف غريق عاثم يتكلم ؟

ويروي جامع الديوان في ترجمته للشاعر أن داود باشا أرسله في صباه إلى بعض بلاد
الهند ليصلحوا لسانه ، فقال له الطبيب : أنا أعالج لسانك بدواء فإذا أن ينطلق وإما أن
تموت ، فقال : لا أبيع كلي ببعضي وقفل راجعاً إلى بغداد . ولا ندري مبلغ صحة هذه
الرواية ، فظاهرها يدل على الصناعة والتنميق . ولم يكن مألوفاً إرسال المرضى للعلاج في
خارج البلاد ، وكانت صلة والي داود باشا في آخر عهده غير طيبة بالمقيم البريطاني في
بغداد وبحكومة الهند . وديوان الأخرس على كل حال خال من أية قصيدة في مدح داود
باشا في إبان ولايته ، لكن الشاعر مدحه بقصيدة طويلة بعد عزله أنفذها إليه إلى
الأستانة ، ومطلعها :

بوادي الغضا للماكيسة أربع سقتها الحيا منّا جفون وأدمع
ويقول منها :

فهل أنت مثلي قد أضرب بك الهوى وهل لك قلب لا أبالك مسوجع ؟
لئن نشرت طي الغرام الذي لها فقد طويت مني على الوجد أذراع
ومنها :

أراني مقيماً بالعراق على ظمأ ولا منهل للظلماتين ومـ...
وكيف بـ...ورد الماء والماء آجن ييل به هذا الغليل وينقع ؟
لعلّ — وما يجدي لعلّ — وربما غنائم غمّ أطلقت تتقشع
يعود زمان مرّ حلو مـداقه وشمل أحبائي كما كان يجمع
فقد كنت لا أعطي الحوادث مقودي ولاني لسريب الدهر لا أجمع
كأنني صفاء زاده الدهر قسوة من الصمّ لا تبلى ولا تتصدع
فسألت حرب النائبات فلم تنزل تقود زمامي حيث شئت فأتبع
وكنت إذا طاشت^(١) سهام قسيها وقتني الردى من صنع (داود) أدرع

ثم يذكر جود الوزير وفضله وبأسه ويقول :

أبا حسن ، هل أوبة بعد غيبة فللبدر في الدنيا مغيب ومطلع
لئن خلّيت منك البلاد التي خلّت فلم يخل من ذكرى جميلك موضع
ففي كل أرض من أياديك ديمة وروض إذا ما أجذب الناس بمـرع

(١) لعل الكلمة «راشت» فهي أدل على المعنى .

وهو لا يفتأ يذكر داود باشا في شعره بعد أعوام طويلة ، فإذا مدح السيد علي النقيب قال :

فـورك من لا زال يـورثني الغنى وذكرني أيام داود ذي الأيدي
وإذا ذكر ابتلاءه بحرفة الأدب قال :

وليس لي حرفة سوى أدب جم ونظم القـريض والخطب
من بعد داود لا حرمت منى فقد مضت دولة الأدب

لقد مضت دولة الوزير داود باشا لكن دولة الأدب لم تمض ، فقد وجد الشاعر الأخرس من بعده حماة ورعاة كالسيد محمود نقيب الأشراف والمفتي أبي الشناء محمود شهاب الدين الألوسي ومحمد أمين الواعظ والشاعر عبد الباقي العمري والسيد علي النقيب ولديهم سلمان وعبد الرحمن وعبد الغني الجميل وابنه محمد وغيرهم من أشراف بغداد وعلمائها الذين حبوه بعطفهم وجودهم واتخذوه نديماً وزينة لدواوينهم . ومن الغرابة أن صلة الشاعر قد قطعت بالموصل مسقط رأسه أو كادت ، فديوانه الضخم لا يحوي سوى قصيدة واحدة يمدح بها رئيس علماء الموصل عبد الله الفاروقي . لكنه وجد بديلاً طيباً في البصرة التي زارها غير مرة ومدح أشرافها ونقباءها واستمتع برفدهم وودهم .

كان الأخرس لطيفاً ظريفاً يضيفي مع رفيقه عبد الله الخياط (المتوفى نحو سنة ١٨٩٠) على مجالس بغداد ودواوينها رائعا من النوادر والفكاهات . وقد اعتبر الشعر تجارة يروج سوقها حيناً ويكسد أحياناً ، فقال يخاطب السيد علي نقيب أشراف بغداد :
تاجر في شعري إليك ، وإنما نفق القريض لديك بعد كساده

وقال يمدح ولده السيد عبد الرحمن الكيلاني :

ربحت فيكم تجارة شعري لا رماها في غيركم بالكساد

وقال في مدح عبد الغني جميل :

أتاجر في شعري ، وكل تجارة من الشعر إلا في علاك لفي خسر

وقال يرثي عبد الواحد جلبي من أعيان البصرة :

وقد كان فيك الشعر ينفق سوقه لديك ويتباع الثناء ويشترى

ردّد هذا المعنى كثيراً في شعره لكنه كان مع ذلك عزيز النفس أبيها ، فإذا هنا الشاعر عبد الباقي العمري بمنصبه الكبير قال :

سواي يروم المال مكترباً به ويرغب في غير الذي أنا راغب
وإنك أدري الناس فيما أريده وأعلمهم فيما له أنا طالب

وإذا سمت نفسه إلى المعالي اعتذر فقال :

في زمان الجهل والقوم اللثام

أسفلاً للشعر، لا حظ له

وقال :

كيف بالخط إذا ما الخط ناما؟
ما تكلفت نهوضاً وقياماً

لـو تنبـهت لها مجتهداً
أو رأى المقدور فينا رأيه
وهو لا يفتأ يندب جور الزمان وظلمه فيقول :

فمن كبـد تصلى ومن لـوعة تصلي
لحاكمته فيه إلى حكم عدل
على أرب يرضى من الكثر بالقل؟
فمن مهمه وعـر إلى مهمه سهل
فلا كانت الأيـام إذ ذاك في حل
حليف الجهول الوغد والحاسد النذل
وأكرم نعلي أن أقيس به نعلي
وناظري من لم يكن شكله شكلي
وتستكبر الأنـذل فيه وتستعلي
فما قام في عقد هناك ولا حل
ومـا وجدوا مثلي وأنتى لهم مثلي؟
شديد عليها في الدني موقف الذل؟

وإن فاض دمعي لا أزال أريقه
وجور زمان لو أرى فيه منصفاً
أمثلي يطوف الأرض شرقاً ومغرباً
وتقذفني الأسفار في كل وجهة
وتحرمني الأيام ما أستحقه
وأرجع أختار الإقامة خاملاً
يطاولني من لست أرضاه موطناً
وفاخري من يحسب الجهل فخره
فتباً لدهر تستذل قرومه
أقاموا مقامي من جهلت بزعمهم
ولو طلبوا مثلي لعز وجوده
إلى مـ أمـني نفس حرر أيبـة

ويثور وهو الساكن الهاديء فيصرخ قائلاً :

تجور عليه النائبات وتعتدي
ولا أنـا بالواني ولا بالمقيـد
ولي بينكم ذل الأسير المصقـد

تركت لكم، أعيان بغداد، منزلاً
فقيم مقامي عندكم ظاميء الحشا
وإني عزيز النفس لو تعرفونني

ويقول :

فماذا يلاقي الحرّ في الزمن الوغد؟

وساء زمان بعد أن سرها بهم

ويقول أيضاً :

فأجرى مسيل الدمع ينهل قطره
على قلبه إقدامه ومكره
حريّ بها لولا الدنيّة دهره
يضيق لها في المنزل الرحب صدره
على غـرة صرف الزمان وصبره
وأتعـب مـن فيه من الناس حره

نتنفس عن وجد توقد جره
وبـات يعاني الهم ليس ببـارج
تمنى وما يغني التمني مطالباً
ودون أمانيه عوائق جمة
تحمل أعباء المتاعب والتقى
وأشقى بني هذا الزمان أريبه

ويقول :

إذا الحرّ ألفى الضيم شرط حياته رأى الرأي فيها أن يموت ويقبرا
ولكنه بالرغم من كل ذلك رضى لجور الدهر واستسلم لظروف الزمان . ولقد قيل :
«إن سيّد نفسه يرث الآلام» فاطمأن شاعرنا إلى الدعة والخمول واتخذ مدحويه أسياً
يسترفد رفدهم ويعيش في ذراهم ولا يأنف أن يقول في بعضهم :

أراني - والخطوب إذا ألمت - رجعت إلى جميل أبي جميل
كأن الله وكله برزقي وحولني على نعم الوكيل
ويقول أيضاً :

كفاني المهيات عبء الغني وذلك من بعض أفضاله
فإن نلت مالا فمن جاهه وإن نلت جاهاً فمن ماله

إن شعر عبد الغفار الأخرس مثال لشعر عصر الانحطاط الأدبي ، فهو شعر جامد
جاف يغلب عليه روح المحاكاة والتقليد ويكاد يخلو من الإشراق والانطلاق والابتكار .
ويمكن القول إن قيمته قد أصبحت تاريخية أكثر منها أدبية . أما مواضيعه فتقتصر على
المديح والتهنئة والثناء والغزل والبكاء على الطلول وقد تتناول شيئاً من الوصف والهجاء
شابتها المبالغة المستهجنة وشأنها الإسراف الممجوج والتكرار الممل . وهذا أخرسنا يهنيء
السيد سلمان بنقابة الأشراف فلا يملك إلا أن يردد قول أبي العتاهية :

أتك النقابة تسعى إليك تجرّ من التيه أذيالها
إذا لم تكن أنت أهلاً لها من الأنجين فممن ذا لها؟

وهو يكثر في نسيه من وصف المحبوب بالجؤذر والغزال والتميم بالأسد الضرغام
ويتساءل كيف يتسنى للغزال أن يتصيد الأسد محاكياً في ذلك ابن الفارض الذي قال :
هل سمعتم أو رأيتم أسداً صاده لحظ مهلة أو ظبي؟

فإذا عرضت له مناسبة للإبداع - وقلما تعرض له - لم يستطع التحليق في شعره كما في
وصفه للباخرة حين استقلها عائداً من البصرة فلم يقل فيها إلا أبياتاً متهافئة :

قد ركبنا بمركب الدخان وبلغنا به أقاصي الأماني
حين دارت أفلاكه واستدارت فهي مثل الأفلاك بالدوران
إلخ . .

ولا يخلو ديوان الأخرس مع ذلك من الشعر الطريف ، فمن ذلك وصفه لسرقة داره
قبيل عيد الفطر .

يا ليلة في آخر الشهر قد جثت بعد الصوم بالفطر
كشف الصباح لنا حوادثها وتكشفت عن مضمير الغدر
أصبحت منها غير مفتقر أبداً إلى حرس على وكـر
ثم يصف منزله الذي «أخذوا مساحته يوماً فما أوفى على شبر» ويصف صبيته الغرّ

الوجوه، السود الخطوظ الذين فرحوا بالغلائل الحمر فجرت دموعهم لضياها،
ويصف حليلته «نظيرة الخنساء» التي أسرفت في ندب أشياءها المسروقة وفقرها المدقع
فيخاطبها قائلاً:

هل كنت قبل اليوم في سعة وملايس من سندس خضر؟
أو ما ذكرت العمر كيف مضى؟ لا كان ذاك العمر من عمرا
تلك قصيدة الأخرس في سرقة داره . ومن الطرفاة أن نقابلها بقصيدة للشاعر
الفرنسي كليمان مارو (١٤٩٧ - ١٥٤٤) Clément Marot في موضوع مماثل . يخاطب
مارو ملك فرنسا عن سرقة داره ، فيقول : إن سوء الحظ لا يأتي وحده بل يجلب معه
مصيبتين أو ثلاث مصائب . ثم يقول إنه كان له خادم سكير كذاب جشع يجمع في
نفسه كل الصفات المقيتة . وقد علم أن للشاعر كيساً ضخماً من النقود فابتدر غفلة منه
وسرق دراهمه وملابسه ، ثم امتطى ظهر حصان سيده ومضى في الصباح الباكر دون أن
يودعه .

على أثر ذلك مرض الشاعر مرضاً شديداً ألزمه الفراش ثلاثة أشهر ، ولم يبق منه
سوى الفكر الذي يندب ويتحجب . ولم ينفعه أطباء الملك الذين يعودونه ويتفقدون
صحته . ويمضي إلى القول إنه ينجل أن يطلب من الملك إعطاءه المال ، لكن الدائنين
يلحّون عليه مطالبين بدفع ديونه . وأخيراً يعد الملك بأن يفي صلته بمبادئه .

ومن جميل شعر الأخرس في الغزل :

إذا كان خصمي حاكمي كيف أصنع
غرامي غريمي وهو لا شك قاتلي
أباح دمي بين الوري من أحبه
دموعي شهود أن قلبي يحبّه
وراموا سلوي في هواه عواذلي
وأصبحت كالمجنون في حيّ عامر
فلو زارني في النوم طيف خياله
وقوله :

وأشجّاه بسرّك للحبيب لموع
وأنت لما يقضي النـرام مطيع
عيون وأفشت ما كتبت دموع
ألم تدف النائي إليك رجوع؟
وريق ، وشمل الظـاعنين جميع

إلا يا فؤاداً قد أضرب به النوى
إذا ما دعاك الصبر يوماً عصيته
كتمت الهوى دهرأ فباحث بسرّه
ويا منزلاً للهو أبعد النوى
تذكرت فيك العيش ، والغصن يانع
وقوله :

مستهام تخيل الغي رشدا
أن هزل الغرام يصبح جدّا
أوقدته بلاعج الشوق وقدا

جامع كل غريب وعجيب
ومحبّ مستهـمـام وحيـب
في بديع اللفظ والمعنى الغريب
أين هذا واشتيتار العسل؟
قلت هذا ويحكم من غزلي

ويا عهد الشباب متى تعود؟
إلى بغداد يحملها البريد
لكم ويشوقني وجد تليد
يساء بها من الناس الحسود؟...

كان فيها الغي لو أنصفت رشداً
وأشـمّ الـورد إذ ما كان خـداً
كلما جـدده الـذكر استـجـداً
يملك الطرف لجاري الـدمع رداً...

أوقات أنسك في الزمان الغابر
في اللهو بعد مشيبه من عاذر
كيف اقتناصك للغزال النافر؟

تحنّ وفي القلب المشـوق حنين
ووجد بأحشاء الضلوع كمين؟
وباحت بأسرار الغرام عيون
ولمّني بها لـولا الفـراق ضنين
ولا الـدمع من يوم الفـراق مصون
حوادث تقسو مرة وتلين
سليني عن الأشواق كيف تـكون
جنون، ولكن الجنون فنون

زيد لوماً فزاد في الحبّ وجدا
مـازح الحب مـرة فأراه
ورمي قلبه بجذوة نار

وقوله من موشح :

حبـذا مجلسنا من مجلس
نغم العود وشعر الأخرس
يتعاطون حياة الأنفس
بأبليّ السحر معسول الجنى
وإذا مرّ نسيم بيننا

وقوله وهو في البصرة وقد حنّ إلى بغداد :

فيا زمن الصبا، هل من رجوع
سلام الله أحبّ أبي عليكم
يهيـج لسـوعتي وجد طـريف
فهل أخبرتـم أني بحـال

وقوله :

من معيدي أياماً مضت
أهصر الغصن إذا ما كان قدّاً
كم أهـاج الشـوق من وجد بها
وجرى دمعـي من الـوجد فـها

وقوله يتحسر على الشباب :

ذهبت لـذاذات الصـبا وتصرّمت
وإذا امرؤ فقد الشـباب فـها له
ولقد أقول لطامع بـرجوعها
وقوله في الشوق والوداع :

تحنّ نيباق الظاعنين، وما لها
أبـالنـوق ما بالنازحين من الأسى
ولما التقينا للوداع عشية
بلـدت لها من هـذه العين عبـرة
فلا القلب لما أزع القلب صابر
فلولاك ما قاسيت، يا غاية المنى
إذا كنت لا تدريين ما الشوق بالحشا
جنتت بذكر العامرية، والهوى

ومن بديع حكمياته :

نؤمل أن يطول بنا الثواء
وتغرينا المطامع بالأمان
تحدثنا بآمال طوال
وإن حياتنا الدنيا غرور
نسرّ بما نساء به ونشقى
ونضحك آمين، ولو عقلنا
إلى م يصعدنا لعب وهو
وتندرننا المنون ونحن صم
ظهرنا للوجود وكل شيء
لئن ذهبنا أوائلنا ذهباً
نودّع كل أونة حبيباً
تسير به المنايا لا المطايا
ولو يفدى فديناه ولكن
وقوله :

وما حيلة الإنسان في ما ينوبه
وهيك اتقيت الرزء حيث رأيت
ونحن مع المقدور نجري إلى مدى
وقوله :

نؤمل في الدنيا حياة هنيئة
ونغتري في بصرق المني وهو خلب
نصدق آمالاً محال بلوغها
تسالمنا الأيام والقصد حرينا
ونطمع أن تبقى ويبقى نعيمها

ونطمع بالبقاء ولا بقاء
وما يجري القضاء كما نشاء
وليس حديتها إلا افتراء
وسعي بالتكلف واعتناء
ومن عجب نسرّ بما نساء
لحق لنا التغابن والبكاء
عن العظة التي فيها ارعواء
إذا ما أسمع الصم النداء
له بدء لعمره وانتهاء
فأولنا وآخرنا سواء
يعزّ على مفارقه العزاء
إلى حيث السعادة والشقاء
أسير الموت ليس له فداء

إذا كان أمر الله فيه مقدراً
فكيف بمن يأتيك من حيث لا تدرى؟
وليس لنا في الأمر أن نتخيّر

وما نحن إلا عرضة للمصائب
وهيهات ما في الآل ماء لشارب
ومن أعجب الأشياء تصديق كاذب
وما هي إلا خدعة من محارب
فلم يبق منها غير حسرة خسائب

أولع الأخرس بالخمر حتى شبهه الدكتور محمد مهدي البصير بأبي نواس ولكن أين
هو منه؟ فالنواصي مجدّد في عصره، مبتكر في شعره، مفرد في وصفه، أما الأخرس فبغواء
تردد معاني الأقدمين وأخيلتهم.

قال الأخرس :

أعندك علم بأن الهموم
ولا من دواء لأدوائهم
وحشر مع الغانيات الحسان
وإني فقير إلى قهقهة

على خاطر المرء مثل الجرب
ولا بسرء منها كبنت العنب
إذا حشر المرء مع من أحب
ومن لي بها مثل ذوب الذهب

ويذهب عن شاربها النصب
تولد منها لآلي الحب

وأذبننا بلجين الكأس تبراً
وحسبنا أنها بالماء تـوـرى
هي خمر وتـراها أنت جـمـرا
اسقنيها في الهوى أخرى وأخرى
روضة غناء والكاسات تـتـرى
نشرت من بعد ذاك الطي نـشـرا
أو تخشى مع عفو الله وزرا؟
لم تدع لله في الأحشاء ذكرا

غدا في الحال أنشط من غلام
بأحبائي فعللني بـجـام
أرى طيف المليحة في المنام
وقد نظرت لأجفان دوام
وسقمني ما بطرفك من سقام

خمرة ما اجتمعت يوماً مع الهم
أو كنسار في فؤاد الماء تضرم
رصع الياقوت بالدّر المنظم
مثلها قد يحمّد الدهر المذم
قبل هذا أن نـوـراً يتجسّم
في ضمير الليل من أن يتكتم
أوشكت تخبرنا عما تقـدم

وقام يمس بالقصد القسويم
من الأزهار مختلف الرقوم
ووجهه الأرض مخضر الأديم
شمس الراح في الليل البهيم
رجمت بها شياطين الهموم
تعبد الروح في الجسد الرميم
فسلني كيف شئت عن النعيم

تقوي العظام وتشفي السقام
إذا مزجت بابن ماء السماء

وقال:

قد نحزنا الزق يوم العيد نحرا
وتخيلنا الحمي لها
قال لي الساقبي وقد طاف بها:
يا نديماً قد سقاني كأسه
إن أحلى العيش ما مرّ على
ويد المزن وأزهار الربي
لا تخف من وزرها في شربها
راحة الأرواح بالراح التي

وقال:

إذا ما الشيخ في الكأس احتساها
لئن عللتنني يا صاح يوماً
ومن لي بالكري يوماً، لعلني
وما أنسى لها في الركب قولي
نحول ما بخصرك من نحول

وقال:

قام يجلوها وبرد الليل معلم
فهـي تـبر في لجين ذائب
نظم المزج عليها حبياً
مرة يجلوها بها العيش وفي
من رأى يا قوم منكم قبلها
فهي سرّ منعت سرّ الضيـها
قدمت في عصرها حتى لقد

وقال:

جلا في الكأس جالية الهموم
وقد فرش الربيع لنا بساطاً
بحيث الأفق مغبر الخواشي
هنالك تطلع الأفار فيها
كأن حباًها نظمت نجوماً
وقد كانت تدار عليّ راح
أخذت بكأسها وطربت فيها

بحيث الشمس طالعة مدامي وبدر التّم يومئذٍ نديمي . . .
تلك أيام صفت للشاعر فنعم فيها بالحب والمدام ، لكنه علم أنها لا تدوم وأن
«الهوى أكبر داع للهوان» في «زمان من حقه أن يذمّا» فقال :

تركت الهوى بعد المشيب لأهله وراجعني حلم لسلمي يصـارم
وما أنسى لا أنسى زماناً قضيته وعود الصبا ريان والعيش ناعم

وبث شكواه فقال :

شكوتك ما يلقي فؤادي من الأسى وما كل من أشكو إليه رحيم
فؤاد شجاه ما شجا كل وامق وما هو بعد الراحلين مقيم
أرى صبوة المشتاق دائمة الهوى فما بال صبر الصب ليس يدوم؟
ثم استكان وعلل النفس وقال :

هذي هي الدنيا كما تريانها حرم اللبيب وفاز فيها الأحمق
فصبرت فيها والخطوب متاحة لا ضاجر منها ولا أنا مشفق
حتى رأيت النائبات تقول لي : عجباً لصبرك كيف لا يتمزق!

أشرف الشاعر على السبعين من عمره ، لكنه لم يترك قرض الشعر ولم يركن إلى العزلة
والانزواء ولم يملّ الضرب في الأرض في سبيل بلغة العيش . ولعل آخر قصائده تهئية
السيد سلمان الكيلاني بنقابة الأشراف وورود الفرمان السلطاني بها إليه . وشدّ الرحال إلى
البصرة فمرض فيها وأدرك حمامه في عشية عيد الأضحى سنة ١٢٩١ هـ - الموافق ليوم
الأحد ١٧ كانون الثاني ١٨٧٥ م .

وقد طبع ديوانه بعد وفاته بعناية أحمد عزت العمري الفاروقي ، ونشر عباس العزاوي
مجموعة له في شعر عبد الغني جميل وما قاله الأخرس فيه وطبعها ببغداد سنة ١٩٤٩ .

ولم يكد يمضي على وفاة شاعرنا الأخرس ثلث قرن ونحو ذلك حتى هبت على الشعر
العربي نسائم جديدة ولاحت طلائع النهضة الأدبية الحديثة في وادي الرافدين ، فكأنما
بينه وبين الشعراء الذين تلوه دهر طويل .

إبراهيم الطباطبائي

الشاعر السيد إبراهيم بن حسين بن رضا بن السيد مهدي بحر العلوم الحسيني الطباطبائي . اشتهر جدّه العلامة محمد المهدي بن مرتضى المعروف ببحر العلوم (١٧٤٢ - ١٧٩٧) ، كما كان أبوه حسين (١٨٠٦ - ١٨٨٩) من شعراء عصره . ولد في النجف سنة ١٨٣٢ ، ودرس على والده الشاعر الفقيه . ونظم الشعر فتفوّق فيه وكان أستاذ عبد المحسن الكاظمي الذي لازمه حين قصد الطباطبائي الكاظمية وأقام فيها سنتين (١٨٨٧ - ٨٩) . وتلمذ عليه شعراء آخرون منهم محمد السماوي .

وقد توفي بالنجف سنة ١٩٠١ ، وطبع ديوانه سنة ١٩١٤ مصدراً بمقدمة للشيخ علي الشرقي . قال الدكتور محمد مهدي البصير: «امتاز بخلال حميدة وصفات طيبة أهمها . . . اعتزازه بالعروبة وسرعة خاطره . . . وقوة حافظته . . . وخفة طبعه التي خلقت منه صورة مصغرة لعمر ابن أبي ربيعة من حيث حبه للجمال وافتتانه به وتحديثه عنه . . . » .

تبرّم بحاجته ورقة حاله ، وهو الأبيّ المرتفع ، فقال :
لقد قسم الله رزق السورى وقتر بالرزق أقساميّة
فما زلت أشكره حامداً وأقتل بالصبر أماليه
وهل نفعي أنني شاعر تضرّ وتنفع أشعاريه؟
أديباً وتدركني حرفة الأديب ، فتعساً لأدباييه!

وشعره قديم الطراز ، حسن الديباجة ، أكثره في الغزل والفخر والوصف والمدح والثناء والحكم والمواعظ .

ومن رقيق نظمه قوله :

أخي ، هل راجع ليل فينظمننا بشطّ دجلة نظم العقيد إخوانا؟
بتنا على البدر حيث النجم يرمقنا بطرفه في ضمير الليل نُذمانا
بمجلس مشرف الأطراف مرتفع عالٍ تطول به الجلّاس كيوانا
يا حيّ دجلة ، والجرفان قد طفحا فيضاً يسيل على الرضراض عقيانا

نسرح اللحظ في مجرى سبائكها
لو كنت تطلبنا، والملقى كتب،
مضت بتلك الليالي الصالحات لنا
أحبابنا، إن هن فيكم وسائلنا،
هلاً نكون كما كنا وكان لنا،
فإنما العيش ما كنا وما كنا

وقيل في ترجمة الطباطبائي أنه كان مكثراً من النظم، ولكنه لم يتخذ يوماً حرفة ولا جعله لنفسه ساعة مهنة يكتسب بها نشأاً أو يلتبس بها من العيش سبباً.

كان سريع الخاطر، حاضر البديهة، متفتح القريحة، أكد علي الشرقي أنه ربما ارتجل القصيدة التي تتألف من مئة بيت في مجلس واحد، كما فعل بعده تلميذه عبد المحسن الكاظمي. وقال محمد مهدي البصير أنه كان قوي الحفظ، حديد الذاكرة، أمل شعره كله على ولده السيد حسن وكان راسخاً في ذهنه. وكان إلى ذلك رقيق الطبع، خفيف الروح، تأسره الصباحة وتستهويه الملاحاة.

من شعر إبراهيم الطباطبائي في جبل عامل:

أين السهول من جبال عامل
أخشب رواسب شوامخ
عادية، بل قبل عاد رسخت
يحجب قرن الشمس مشمخرها
إذا التسيم استن في ربوعها

وقال يرثي الشاعر السيد حيدر الحلي:

لقد غلب الجرح أن يستطب،
أرح فلغيرك هذا الروح
أحيدر، زاراً بنيل القريض

وإذا ذكر الشاعر إبراهيم الطباطبائي وآله فلا بد من ذكر مأساة غرامية سجلها التاريخ إلى جانب قصص المجنون وليلي ورومي وجليوت وغيرهم من المحييين. روى هذه المأساة محمد مهدي البصير ورواها قبله وبعده كثير من الأدباء.

كان الفتى الشاعر الوسيم عباس علي النجفي (١٨٢٦ - ١٨٦٠) تلميذاً للسيد حسين الطباطبائي (والد إبراهيم) فأحب ابنته وقال فيها قصيدته الشهيرة:

عديني وامطلي وعدي، عديني
وديني بالصباصة فهي ديني

وَمُنِّي قَبْلَ بَيْنِكَ بِالْأَمَانِي
فَلِإِنْ مَنِّي فِي أَنْ تَبِينِي وَمِنْهَا:

صَلِّي دَنَفًا بِحَبِّكَ أَوْفَقْتَهُ
أَمَّا لِنِسْوَائِكُمْ أَمَدَ فَيَقْضِي
وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ لَكُمْ وَفَاءً،
هَبُونِي أَنْ لِي ذَنْبًا، وَمَالِي
أَلَسْتُ بِكُمْ أَكْأَبَرُ كُلِّ هَوَلٍ
أَصُونُ هَوَاكُمُ، وَالِدَمْعَ يَهْمِي
يَمِينًا لَا سَلْوَتُهُمْ يَمِينًا
إِذَا مَا اللَّيْلِ جَنَّ بِكَيْتٍ شَجَوًا
وَلَوْ أَبَقْتُ لِي الزَّفَرَاتُ صَوْتًا
وَقِيلَ إِنَّ الْأَسْتَازَ ارْتَضَى بَعَّاسَ صَهْرًا، لَكِنْ أَبْنَاءَهُ الْأَرْبَعَةَ - وَمِنْهُمْ إِبْرَاهِيمَ - أَنْفَوْا
مِنْ هَذِهِ الْمَصَاهِرَةِ فَأَهَانُوا الشَّاعِرَ الْعَاشِقَ وَضَرَبُوهُ ضَرْبًا مَبْرَحًا.
وَتَوَفَّى عَبَّاسُ شَابًا فِي الرَّابِعَةِ وَالثَّلَاثِينَ مِنْ عَمْرِهِ.

شهاب الدين المليسي

الشاعر شهاب الدين العلوي المليسي المعروف بالسيد شهاب الموصل، ولد في الموصل سنة ١٨١٥. وسافر في شبابه إلى بغداد والبصرة، وقضى فيهما نحواً من أربعين سنة ثم عاد إلى مسقط رأسه.

نظم الشعر الملهل في الأغراض القديمة كالمدح والثناء وما مائلهما. وقد ذكره عباس العزاوي في الجزء الثاني من «تاريخ الأدب العربي في العراق»، فقال: إن له قصائد كثيرة هي شعر مناسبات، منها في الأستاذين أحمد شاكر الألوسي ونعمان خير الدين الألوسي، وله أبيات في تقرير جريدة الجوائب لصاحبها أحمد فارس الشدياق. وكانت بينه وبين ناصيف اليازجي مراسلات، وله قصائد في رثاء الشيخ أحمد نور الأنصاري قاضي البصرة والسيد سلمان النقيب وغيرهما. وقد مدح والي بغداد محمد نامق باشا الكبير.

وتوفي بالموصل سنة ١٩٠٧ (وقيل ١٩٠٤).

من شعره: قال يؤرخ تعيين عبد الباقي الألوسي قاضياً لكركوك (١٨٧٧):

هو عبد الباقي الذي ببقاه
قد أتى مسعداً وجاء معيداً
كل وقت إليه شوقي جديد
علقت نفسه بكسب المعالي
وارث عن أبي الثناء أبيه
قد تحلّت به الشريعة جيداً
لقيت شهر زور للزور منه
إلخ . . .

وقال السيد شهاب الدين من قصيدة له في تقرّظ كتاب مجمع البحرين للشيخ
ناصريف اليازجي :

حديقة أثمرت أوراقها حكماً
فمن يشأ يتفكّكه في مناقبها
طالع تقابلك مرآة الزمان بها
كم أودعت نبذاً للسمع قد عذبّت
محاضراتها الحظّار راغبة
إلخ . . .

الشيخ حمّادي آل نوح

الشاعر محمد بن سلمان بن نوح الغربي الكعبي المعروف باسم الشيخ حمّادي نوح ،
ولد في الحلة في سنة ١٨٢٥ وتأدّب فيها وقرض الشعر . كان وثيق الصلة بآل قزوين
كبير العلاقة بالإمام السيد حسن الشيرازي الذي ترك النجف في نحو سنة ١٨٣٥
ليقيم في سامراء .

اشتهر بمدايحهم وتهانئهم ومراثيهم ، فكان يقصد المحمّرة ليمدح شيوخها ويفوز
بعطاياهم ، كما كان يمدح آل القزويني الذين يكرمونه ويصلونه وسواهم من رجال
عصره .

لكنه عرف بنسكه وتقاه وشعره الصوفي الذي يسبّح الذات الإلهية ويمجّدها حتى
دعاه الدكتور محمد مهدي البصير «خليفة ابن الفارض» . وقال إن الشيخ حمّادي كان
جليل القدر ، رفيع المنزلة ، محترماً عند أدباء عصره ، ولم يكن يحفل بشعر أحد عدا السيد

حيدر الحلي . وكان متمكناً من اللغة ، سئل عن القاموس فأشار إلى صدره وقال : هذا هو القاموس . وتوفي في الحلة في آذار ١٩٠٧ .

قال البصير إن شعره يكثر فيه الغريب ويغلب عليه الغموض . ومن شعره في تقديس الله :

شمر الوهم أن ينال ثناكا فخبأ دون شارقاة علاكا
حرق الغيب فالتوى الوهم صال قبس النور من سناء بهاكا . . .
بك ، يا حيرة البصائر، ضللت فكُـرُ منك حاولت إدراكا
حاولت كنهه ذي الجلال ، ولكن عبرت في دجى الضلال عداكا
الخ . . .

محمد سعيد الإسكافي

الشاعر محمد سعيد الإسكافي النجفي المعروف بالإسكافي وهو الشيخ محمد سعيد ابن محمود سعيد نائب كليدار الروضة الحيدرية ، ولد في النجف في ١٧ تشرين الثاني ١٨٣٤ . ودرس العلوم الدينية والعربية ، وأخذ الأدب عن خاله الشاعر الشهير عباس الملا علي المتوفى سنة ١٨٦٠ صاحب القصيدة المشهورة :

عديني وامطلي وعدي ، عديني وديني بالصبابة فهي ديني
نشأ شاعراً فكانت له مساجلات أدبية مع أدباء عصره ، ومدح آل بحر العلوم وآل كاشف الغطاء وغيرهم كما مدح ولي بغداد سري باشا (١٨٩٠ - ٩١) . وقد ترجم لهذا الشاعر ونشر نماذج من شعره محمد علي اليعقوبي وعلي الخاقاني وسلمان هادي الطعمة ، وذكره عباس العزاوي في الجزء الثاني من تاريخ الأدب العربي في العراق .

هاجر إلى كربلاء في عقد الثمانين من القرن التاسع عشر وأدركه الحما في ١٤ آب ١٩٠١ .

نظم الشيخ محمد سعيد الشعر بالعربية والفارسية . ومن شعره في الغزل :

فؤادي لوصول الغانيات مشوق فللشوق عندي زفرة وشهيق
بنفسي من البيض الحسان خريدة فؤادي بها دون الحسان علقوق
إلى مثلها يرنو الحليم صبابة إذا ما انتشت كالغصن وهو رشيق

وقال :

تذكرت عهداً بالحمى راق لي دهرأ فهاجت تباريح الغرام لي الذكرى

وأومض من وادي الغضال مع بارق
فأذكى لنيران الغضا في الحشا جراً
فيا حبذا تلك المغاني، وإن نأت،
ويا ما أحلى العيش فيها وإن مرّاً
فيا طالما بالأنس كانت أواهالاً
وإن هي أمست بعد موحشة فقراً

الشيخ محمد حسن كبة

التاجر الوجيه والشاعر الفقيه الشيخ محمد حسن من آل كبة من بيوت بغداد القديمة التي تنتسب إلى ربيعة، وهو بيت تجارة وأدب ورعاية للشعر والإحسان. ومحمد حسن ابن محمد صالح بن مصطفى بن درويش علي بن جعفر بن علي بن معروف، ولد في الكاظمية في حزيران ١٨٥٣، ونشأ في بغداد نشأة أبناء الأشراف. وعمل في التجارة، فلما بلغ التاسعة والعشرين من عمره، انقطع إلى العلم والأدب. وتتلّمذ على علماء النجف والكاظمية، ثم رحل إلى سامراء سنة ١٨٨٩، ودرس على فقيه عصره محمد حسن الشيرازي الحسني (المتوفى سنة ١٨٩٤). ولازم بعد ذلك الشيخ محمد تقي الشيرازي، ونال الإجازة في علوم الدين. ووضع مصنفات كثيرة، طبع منها بعد وفاته: الأحكام الشرعية في المواريث الجعفرية (١٩٣١) إلخ. وتوفي في سامراء في ٢١ حزيران ١٩١٨.

نظم محمد حسن كبة الشعر، وكانت له مطارحات أدبية مع رجال عصره، ولا سيما محمد سعيد الجبوري، نشر معظمها في «العقد المفصل» الذي ألفه السيد حيدر الحسيني الحلبي المتوفى سنة ١٨٨٧ في مناقب آل كبة وطبع ببغداد سنة ١٩١٣ - ١٤. وقد وصفه الدكتور محمد مهدي البصير فقال إنه كان كريم الطبع، سمح الكف، أريحي الروح، حاضر البديهة، رقيق الخيال، مشبوب الحس، محب للأدب وأهله حباً جماً. وقال إن شعره في جملة يجمع بين الرقة والمتانة ونقاء الديباجة والجزالة. وهو والد الشيخ محمد مهدي كبة رئيس حزب الاستقلال.

من شعره في الغزل:

نحن قوم إذا نظرنا صبونا
وإذا ما سلا الوري ما سلونا
فتتننا بحسنها وجنات
ككؤوس الطلى صفاء ولونا
وجفون رشقتنا بنبال
نحن منها، لولا الهوى، ما دنونا
وقال أيضاً:

عليك سلام الله ما ذر شارق
وما تيممتي في هواك صباية
وما سجعت في أثل سلح حمامة
وما أن مشتاق وما حنّ وامق
وما علقت بالقلب منك علائق
كأنني وإياها مشوق وشائق

وقال :

ضباع قلب المولته المفتون
فانشده بين الطعون فإني
يا غزلاً تاقت له النفس شوقاً
أنت ليلاي والرصافة نجدي

وقال أيضاً :

الصبر غار وأنجد الدمع
والقلب حيث نأى الخليط نأى
-تقام ترشق باللحاظ حشاً

وقال من قصيدة في رثاء والده :

أبيّ، كيف تذوق عيني لحظة
أم كيف قلبي لا يذوب ومهجتي
وظعنت عن غصّ النسيم إلى البلى،
وتركت من تحنو عليه رقة
ومن شعره الغزليّ :

كم ليلة من ليالي الشوق مقمرة
سهرتها محصياً منها كواكبها
فمذ أبت مقلتي إلا أنسكاب دم
قال النديم : على مَ الوجد؟ قلت له :
فقطعت قلبي الذكرى وبرّح بي

بربى الكرخ لا ربى جيرون
خلته سار بين تلك الطعون
لا لغيب من الظباء العين
وأنا في هواك كالمجنون

من ناظري فاعشوشب الربيع
رفقاً به، فله الهوى طبع
ما مسها لولا النوى صدع

نوماً وكيف من المدامع نجمد
كمداً بنار الحزن لا تتوقّد
يا ليت لو أتي مكانك أُلحداً!
أسفاً يحنّ إلى لقاءك وينشد

هبت بها نسائم الشوق والشغف
مراعياً بدرها من شدة الدنف
وأشرفت كبدي الحزى على التلف،
نعم، تذكّرت من قد حلّ بالنجف
شوق ملحّ وتوق أوهنا كتفي

محمد سعيد الحبوبي

محمد سعيد الحبوبي من كبار شعراء العصر الأخير ولد في النجف في ١٩ نيسان ١٨٥٠ وتوفي بمدينة الناصرية وهو على رأس متطوعة العشائر لصّد الزحف البريطاني في ١٥ حزيران ١٩١٥ . وقد أوردت ترجمته في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث» المطبوع في بغداد سنة ١٩٧١ .

طبع ديوانه الكامل بعناية وزارة الثقافة والإعلام في بغداد سنة ١٩٨٠ وتحقيق ابن أخيه عبد الغفار الحبوبي . وهو محمد سعيد بن محمود بن قاسم بن كاظم بن حسين بن

حمزة بن مصطفى الذي ينتهي نسبه إلى الحسن السبط بن الإمام علي بن أبي طالب . ومصطفى أول من تلقب «حَبَوِي» . وأصل الأسرة من الحجاز نزح جدها حميضة بن أبي نمي الأول إلى العراق سنة ١٣١٨ م ، ثم استوطنت النجف منذ عهد بعيد .

كان محمود أبو الشاعر مزارعاً يمتلك أراضي بالقرب من الكوفة والمسيب ، ثم ذهب إلى حائل يمارس التجارة مع بعض أقاربه . وقد التحق محمد سعيد بأبيه في حائل من أعمال نجد ، وكانت تابعة لحكم أمراء آل رشيد ، وظل فيها ثلاث سنوات وعاد إلى النجف سنة ١٨٦٧ . وانصرف إلى الشعر ، حضر المجالس الأدبية فجال فيها وصال . وكان يزور بغداد فيتصل بصديقه محمد حسن كبة ويحضر ندوات الأدب . ثم انقطع إلى الفقه وعلوم الدين ، فدرس على علماء كثيرين منهم الشيوخ محمد حسين الكاظمي ومحمد الشرياني ورضا الهمداني وموسى شرارة ومهدي الحكيم ومحمد طه نجف . وقال جامع ديوانه عبد الغفار الحبوي إنه زامل أيام الدراسة السيد جمال الدين الأفغاني الذي مكث في النجف أربع سنوات يدرس الفلسفة والتصوف .

ثم ترك نظم الشعر وانصرف عنه انصرافاً كلياً إثر حادثة حدثت له مع الملا كاظم الخراساني (الأخوند) . قال جعفر الخليلي إنه ناقش الملا في مسألة تتعلق بعلم الأصول ، وألح في المناقشة حتى قال له الخراساني : إنك رجل شاعر ، فما أنت والمسائل الأصولية؟ ومنذ ذلك اليوم قرّر الحبوي تطبيق الشعر لينصرف إلى الفقه .

وقد قال الدكتور إبراهيم علي أبو الخشب في كتابه «تاريخ الأدب العربي في العصر الحاضر» وهو يتحدث عن مصطفى لطفي المنفلوطي الذي درس في الأزهر ثم انقطع إلى الأدب ، إن علماء الأزهر كان فيهم من يعتقد أن الأديب لا يكون عالماً ، وربما كانوا يرمون الشيخ محمد عبده بذلك أيضاً لغلبة البيان على منطقته وجريان الأدب في دمه .

ولما دخلت تركيا الحرب واحتل الإنكليز البصرة في تشرين الثاني ١٩١٤ ، دعا الحبوي إلى الجهاد في صفوف الترك . وخرج من النجف يتبعه المجاهدون فذهب إلى ساحة الحرب في الشعيبة . لكن القائد سليمان عسكري بك اندحر أمام القوات البريطانية وانتحر ، فقصد الحبوي الناصرية واشتد عليه المرض فتوفي بها .

رثاه الشيخ جواد الشيبيني فقال :

فقيـد المسلمين غـداة أودى حسبـت الـدين بينهم فقيـدا

وقال علي الشرقي :

حماة الحمى قد شيعوك إلى الثغر فبالرغم أن يستقبلوك إلى القبر
وشاؤوك لأوطان ظهراً ممنعاً وما شعروا إلا بقاصمة الظهر
ومن رثاه أيضاً من الشعراء جواد البلاغي وعبد الحسين الخويزي ومحمد رضا الشيبيني ومحمد مهدي البصير .

شعر الحبوبي:

من رقيق شعره:

ما لقلبي تهزّ الأثـُـواق؟ خبرينا: أهكذا العشاق؟
كل يوم لنا فؤاد مذاب ودموع على الطلـُـول تُـراق
عجباً كيف تدّعي الـُـوزق وجدي ولدمعي بجيدها أطواق؟
كم لنا بالحـُـمى معاهد أنس والصبا يانع الجنى رـُـقراق...
فارحمي، يا أُمّـيـم، لوعة صبّ شقّه الوجد بعدكم والفراق
كاد يقضي من الصبابة لولا أن تحاماه في السوداع العناق

وصف شاعرنا الخمرة وقال فيها القصائد والموشحات ولم يخرج في خمرياته عن معاني الأولين. فالخمرة لديه بيضاء كالشمس أو حمراء كالياقوت، شذا أنفاسها يعطر الجو، عتقها القس في ديره سنين طوالاً فأدركت عهد الملوك الغابرين وشهدت دولهم دولة بعد دولة. والخمرة تلطف الطباع وتبهج وتخدر الأحاسيس، وهي علاج للنفس الحزينة وتردّ الروح إلى الجسم الراقدة في القبور. وقد قال عبد الغفار الحبوبي أن عمّه لم يعاقر الخمرة ولم تسلب لَبّه، وقد وصفها عن مخيلة خلاقة وحسّ فني فجاءت كأنها منتزعة من الواقع. وقد قال الحبوبي نفسه:

لا تخل، ويك، ومن يسمع يـُـخـل أتني بالراح مشغوف الفؤاد
أو بمهضوم الحشا ساهي المقل أخجلت قامته السمر الصّـُـعاد
أو برربات خـدور وكلل يتفنّن بقـُـرب وبعـُـاد
إنّ لي من شرفي بُـرـُـداً ضفى هو من دون الهوى مـُـرتـهـني
غير أني رمت نهج الظـُـرنا: عفـُـة النفس وفسق الألسن

والحقيقة أن الحبوبي قرأ شعر أبي نواس وصحبه فتمثّله وقلد معانيه أحسن تقليد ولم يخرج في خمرياته على جمالها الفني وتركيبها المتين برأي جديد أو فكرة طريفة. وهو يذهب أحياناً مذهب الصوفية وينهج سبيل ابن الفارض فيقول:

وقد شفت فما ظهرت لـُـراء فكان خفاؤها فرط الظهور

ويقول:

وانتـُـنـُـها في ألقـُـابها فهي رُوح وهي رُوح وهي راح
وذكر ناشر الديوان أن عمه قلما تطرق إلى الشعر الديني أو القومي، فخلا شعره من المدائح النبوية والمراثي الحسينية خلافاً لرجال عصره ومصره.

جواد الشبيبي

شاعر يعدّ في الطبقة الأولى من شعراء المدرسة القديمة في العراق ، وهو والد الشعراء محمد رضا ومحمد باقر ومحمد حسين ورئيس غرفة تجارة بغداد محمد جعفر الشبيبي .

وهو محمد جواد بن محمد بن شبيب بن راضي بن إبراهيم بن صقر ، ولد في بغداد في ٧ كانون الثاني ١٨٦٥ ، وكان أبوه الشيخ محمد مقيماً بها فراراً من سطوة بعض شيوخ المتفق . ولم تمض على ولادته أيام قليلة حتى توفي والده ، فأخذته أمه إلى أبيها الشيخ صادق أطمش في الشطرة ، ونشأ الطفل اليتيم في رعايته .

ولما شتّب عن الطوق قصد النجف سنة ١٨٨٠ فدرس على علمائها اللغة والأدب وعلوم الدين . وكان من أساتذته السيد عبد الكريم الأعرجي والشيخ أحمد المشهدي والسيد مهدي الحكيم ومحمد الطباطبائي ، وتخرج في الشعر على الشيخ محسن الخضري والسيد محمد سعيد الحنوي .

وانصرف جواد الشبيبي إلى الشعر والأدب فبرز في النظم والترسل . وكانت له مساجلات مع أبناء جيله كالسيد جعفر كمال الدين الحلي (١٨٦١ - ١٨٩٨) وعبد الحسين الجواهري وهادي كاشف الغطاء وعبد الكريم الجزائري . واستعان به المشير أحمد فيضي باشا وكيل ولي بغداد (١٩٠٢ - ٠٤) ، عند مروره بالنجف على رأس حملة عسكرية ، في تحرير رسائل إلى شيوخ القبائل تحذيراً لهم من التمرد والعصيان وترغيباً في الطاعة والإخلاق إلى السكينة .

وكان على وقاره حاضر البديهة ، حلو الفكاهة ، لطيف الدعابة . قال جعفر الخليلي : «وكان الشيخ جواد الشبيبي هو المجلي في الغالب بشعره ونثره ونوادره وسرعة خاطره . وقد قيل أن نوادره الأدبية وتحفه الفنية من الكثرة بحيث تستوعب مجلدات ضخمة لو تصدّى أحد لجمعها» . ثم قال : « . . . كان العلماء كثيراً ما يتخذون من قلمه ترجماناً للأعراب عن رغباتهم ومقترحاتهم ، فيبعثون بها للباب العالي باسطنبول ، أو يخاطبون بها الولاة ببغداد . وكثيراً ما يقصده أرباب الحاجة ممن يريدون أن يسجلوا وصيتهم بعد مماتهم ، أو يريدون وقف أملاكهم أو تأسيس شركة لهم أو إجراء بيع أو شراء على الوجه الشرعي فيما بينهم ، فيدبّج لهم بإنشائه وخطه وثيقة حسبها من القيمة الشرعية والعرفية أن يقال إنها من وضع الشيخ جواد الشبيبي . فقد عرف ببراعة إنشائه كما عرف بحسن خطه ، ليس في النجف فحسب وإنما في جميع الأوساط الأدبية في العراق . وكثيراً ما كان ينظم الشعر الجيد ويعطيه لمن ينتحلّه لنفسه لغرض من الأغراض» .

وقد أقام جواد الشبيبي متنقلاً بين النجف وبغداد . وامتدّ به العمر ، وسما أنجاله في عالم الشعر والأدب وتقلدوا المراكز الرفيعة في السياسة والتجارة والمال . وتوفي ببغداد في أول آذار ١٩٤٤ .

مؤلفاته وشعره :

ترك تأليف خطية لم يهتأ لها الطبع ، منها ديوان شعره الذي جمعه محمود الحبوبي ، ومجموعة مراسلاته وقد سماها «الروض الممطور بالدرّ المنشور» . وله كتاب في تراجم أدباء العصر ، وآخر في حياة الشيخ خزعل آل الشيخ جابر أمير المحمرة ، ونبذة في الأصول إلخ .

وشعره رصين الديباجة ، واضح الأسلوب يشتمل على المعاني القديمة والأغراض الاجتماعية والإخوانية والوطنية . فمن مدحه للسيد حسين القزويني :

أمنيع أركان الفتوّة وريبع رّواد المروّة
وابن الزعامة والكرامة والإمامسة والنبوّة
ومن الإله بهجته وأبيه في القرآن نبوّة
قد ، والنبي محمّد ، أصبحت للإسلام قدوه

ومن رثائه للسيد الموماً إليه أيضاً :
أصغت لرعدٍ أوقر السّمع هائله
سما صوته حتى إذا استوعب السما

ومن شعره يخاطب السيدة أم كلثوم :
قمرية الدّوح يا ذات الترانيم
سيرى مع الجحفل الجرار خافقة
وناوحي الأمة الثكلى فقد رزئت
ما في العراق اذا استقرت بقعته ،

وقال شاكياً متألماً لحال أبناء الشعب :
يا ماطل الوعد ، ما هذي الأساطير؟
العدل منك سمعناه ولم نره
إن قلت : عصري عصر النور مفتخراً
وهل يفيد جمال الوجه ناظره ،

حتى يقول :

يا حارث الأرض والسّاقى وباذرها ،
إذا أتاك رجال الخرص فالقهم
إن باغثوك بنار شبهها غضب

فاحفظ بقايا حبوب منهُم سقطت ،
طارَت من الغرب ، والأطباع أجنحة ،
وقال في نهضة العرب :

يا عرب ، أين جيا دكم ، وهي التي
الناشرات من السيب مرواحاً
سل عن جوانبها : إلى كم غرّبت

أما نشره فناصر الديباجة ، واضح البيان ، قديم الأسلوب ، كثيراً ما يزينه بالسجع .
وقد نقل له عبد المحسن شلاش نص رسالة حررها باسم المشير أحمد فيضي باشا ، قال
منها :

«ليعلم مَنْ وعت أذنه من قبائل جزيرة العرب وعموم أهل القرى والطّنب ، أن
مرهب الدول ، خلف السلاطين الأول ، ناشر العدل في الأرض ، معدن البسط
والقبض ، صان الله تعالى ببركة وجوده بيضة الإسلام من الصدع ، وجعلكم كسائر
رعاياه ملقين له بالطاعة والسمع . أمرنا بالصفح عن الماضي ، وسرنا نحوكم للنشء
الإصلاح بينكم والتراضي ، ونخمد نيران الفتن ، وننهج بكم أوضح سنن ، فوطأنا ، والله
الحمد ، أرضاً ما لسوى المسلمين بها وطأة قدم ، ولا لغير الموحّدين يخفق في بقاعها
علم . ورأينا أن نقرع أبواب مسامعكم بخطاب الإرشاد ، ونجمع شملكم ، أيها
المسلمون ، على الصفاء والاتحاد . ما جئناكم إلا لنختبر صفاتكم ونحقن دماءكم
ونحكم بالقرآن الشريف والسنة النبوية ونؤلف بين قلوبكم ، ومن العدل التأليف بين
الرعية .

دعوا الشحناء والبغضاء واجتنبوا المغازي وسفك الدماء ، فأنتم ملّة واحدة ،
والمسلمون أخوة سواء . وادخلوا حقيقة في مجاز الإيفاء لتغمركم الحاقة في الرضى من بعد
تلك الواقعة . ولا تصيروا أعماح سيوفكم هواديكم فتضعفون ، وفوق الضعف تشمتون
أعدايكم الكافرين . . . » .

من شعر الشيخ جواد الشيباني :

قال يتألم من داء الشيخوخة :

طبيبي ، ما عرفت عياء دائي
وبي ألم يـــــــؤرقني ، فتعى
وحى خالطت عرقاً بجسمي
وكنّت خلقت من مــــاء وطن
مللت العائدين وقد أمالوا
وأنت معالج الداء العياء
يميني فيه عن جذب الرداء
فباتا مزمعين على اصطلائي
فها أنا صرت من نار وماء
إلى رقاب إخوان الصفاء

وقالوا: إنَّ صَحَّتْهُ تَرَقَّتْ،
وقالوا: قد شفيت، فقلت: كفوا
أرى شبحاً يسير أمام عيني
وأخبر عن مظلالمه تنحى
وقال الشيخ جواد:

ألا قتل الإنسان، ماذا يريد
أبى أن يساوي نوعه في شؤونه،
وعالج، لا عن حكمة، ضعف نفسه.
وقال:

عمّ السؤال، فلات حين سؤال
انظر بتاريخ الزمان الحالي
تجد الظروف هي الظروف، وإنها
يتخالف الإنسان في أخلاقه
والمالح والعذب الفرات كلاهما
والسدوح نبت والشمار مناسب
والأرض تلك الأرض ما إن بدلت
واحسرتا خلت البلاد، فهل بها
تركوه مغزى يستهان، وإنهم،
لا يفلتون برأفة من شعبهم،
جهل النصيح علي أثقل موضعاً
رمق الشراب فجسدت أثوابه
واستعمر الجوّ البعيد خياله
حرث الجبال، وتلك ضيعة أشعب
عقد المنى سرجاً على متوهم
وكأنه شحذ الهلال مهتداً

ثم قال:

فقلت: أرى انحطاطي بارتقائي
فمن علي تعاليل الشفاء
لغايته فأحسبه ورائي
وأكره في مغادرة الشقاء...

وقد جاز حدّ المسرفين، أما يكفي؟
فجار على صنف ورق على صنف
متى عولج الضعف المبرح بالضعف؟

أو ما كفتك قرائن الأحوال؟
نظرات عينك في الزمان الحالي
تنفّات النظرات بالأجيال
إما اغتدى متوافق الأشكال
ماء ولا كالبارد السلسال
والكرم أكرم من عروق الضال
بقوارع الأرجاف والزلال...
من شاغل هذا الفراغ الحالي؟
لو يشعرون، ربائق الأنفال
والمرى من دمه دم القيّف^(١)
من غلظة اللوام والعذال
عنه ليسبح في عباب الآل
فبنى على الأوهام والآمال
يستصعد التيار من أوشال
فجبرى ولكن في مجال خيال
أو جاء معتقلاً ملذّب «هالي»

(١) القيّفال عرق في الذراع يفصد.

جـدد تـطـرّز في نـهى و جـلال
صـدىء المـفاضـة ، أقـتم السـربـال
أبـصـرت مـنـه طـرـائق الإـذلال
مـن لي بـردّ بـرودـي الأسـال؟
فـيـها فـلـلت مـضـارب الأـهـوال
مـلـسـاً رـمـين الأـرض بـالأثـقال
لـا نـهار عـن دـعـص النـقا المـنـهـال

فـلا الدـمـع يـطـفيه ولا يـسـكن الـوقـد
فـلا قـربـه قـرب ولا بـعدـه بـعد
عـلّ طـريق الصـبر لـيس لـه رـدّ
كأنّ حـصـاة القـلب يـقـرعهـا زـند
تـعدّ الـليـالي والشـهـور وتـعتـدّ
وأين مـن المـغمـوس في دـجـلـة نـجـد؟
يـعـطـرها شـيـخ الجـزيرة والـرـند
أطـالـع صـحـفـاً مـن عـناوينها المـجـد
بـها النـسـب الوضـاح والحـسـب العـدّ
كأنّ مـذاق الشّـهـد في مـقـلتي شـهـد
فـلا الجـزـر يـنـجـيني ولا يُعـزّز المـدّ
فـيـضـربه مـوج الظـلام ويـسـودّ
ولا سـاعـد يـقـوى عـليه ولا زـند
وإنّ التـمـنّي جـهـد مـن لا لـه جـهـد

ويعـلم أنّ العـدل مـوطـنه اللّـحد
تـبـلّج فـيـها الحـقّ وابتـسم الـرـشـد
وفي يـده مـما احتـفـظت بـه عـقد
أقـمت عـليه الحـدّ لو أمـكن الحـدّ

قـالـوا : أتـتـك مـن المـشـيب غـلـائل
فـتـعـرّ عـن بُـرد الشـبـاب ، فإنـه
حـتّى إذا مـلأ القـمـيص مـعـاطـفي ،
فـطـفـقت أهـتـف ، والمـسـامـع لا تـعي :
بـرد الشـبـاب ، لأنـت نـشـرقـي الـتي
لـو في مـتـون العـيس هـمّي لـانـثـت
ولـو أنـها بـالطـود عـاديّ الذـرى

وقال يتشوّق إلى أصحاب له في النجف :

أروـج عـلى جـمر الغـرام كـما أغـدو
وحـيرني الثّـاني ، ومـوطـنه الحـشـا ،
أحـبـاي بـالوادي المـقـدّس ، أخـذكم
تـذكـركم قـلبي فـطـار شـراه
وطـلّق عـيني غـمـضـها ، فـهي بـعدكم
تـحـبّ لي نـجـداً عـروبة أـصلكم
تـنـمّث فـيـها نـسـمة مـن رـيـاضكم
عـلى ضـوء هـاتـيك الثـنايا زواهيـاً
خـطـوط بـأقلام الرـمـاح مـشـجّراً
يـلـدّ بـعـيني الشّـهـد في ذـكـريـاتهم
ومـن ظـلمات اللّـيل بـحـر يـخـيفـني
أرى سـاحـل الإـصـباح يـبـيـضُ رملـه
بـماذا أخـوض البـحر ، والبـحر هـائج ،
أماي نفسي أجـهـدتني تـعـلاً ،

وقال أيضاً :

يـسـألـني عـن مـوطـن العـدل جـائر
عـلى يـده أدلاه بـالحـفـرة الـتي
ويـسـألـني عـن كـنـز درّي مـخـاتـل
لو انـبـسـطت كـفّي عـلى قـدر حـقـها

وقال جواد الشيبسي من قصيدة له بعنوان «تَنهَّدات» :

عبر الزمان استحلّبت عبراتي وألانت الأيام صدر قناتي
أُنّي أعان على الجهاد بواحد وخطوبها يملأن سثّ جهاتي
أنّي التفتُ رأيت خطباً هائلاً فكأنما الأهموال في لفتاتي
وإذا أردت صراعها في نهضة عاقتني الأيام عن نهضاتي
نفسى لماء السرافدين يسيلها نفس يصعده جوى الزفّرات
يحيا به خصمي فأشرق بالردى وأذاد عنه وفيه ماء حياتي
لا دجلتي أم السيول بدجلتي كلاً ولا هذا الفرات فراتي
ثم يقول :

لي من جنّاي - وما اقترفتُ جناية -
واضيعة الأكفاء بعد مناصب
ولوا الأمور، ولو أطاعوا رشدهم
من كل كاس يستجدّ لنفسه
النّاهبي رمق الضعيف وقوته
قطعوا البلاد ومنهم أوصالها
سكروا بخمر غرورهم والعامل (م)
غزوا المصايف والهوى يقتادهم
هم أغنموا مغزوّهم وتراجعوا،
مال تكفّلت الجبّاة بعسفهم
نهب من الحُجّرات صيخ به، وفي
طارت شعاعاً فيه أيدي لم تزل

أشواكه والقطف عند جنّاتي
حفظت مقاعدها لغير كفّاة
لسعوا وراء الحقّ سعي ولاة
حلاً ولكن من جلود عرّاة
والقاتلي الأوقات بالشّهوات
والقطع يؤلم من أكفّ جفّاة
المجهود بين الموت والسكّرات
لمسارح الفتيان والفتيات
أفهمّ هذه العقبى من الغزوات؟
إحضاره لخزائن اللّذات
عزف القيّان يُردّ للحجّرات
مخضوبة بالسراح في الحانات . . .

عبد المحسن الكاظمي

الشاعر العربي الذي عرف بالارتجال وطول النفس وجزالة الألفاظ ، ولد في بغداد يوم الأربعاء ٣ كانون الثاني ١٨٦٦ ، وهو عبد المحسن بن محمد بن علي بن محسن بن محمد بن صالح بن علي بن هادي النخعي . وقد درس في مسقط رأسه ومارس التجارة والزراعة زمناً ، ثم انصرف إلى مطالعة الكتب الأدبية وحفظ الشعر والنظم .
وقدم جمال الدين الأفغاني منفياً من إيران سنة ١٨٩١ فلزمه الكاظمي وأخذ عنه

وتشرب منه مبادئ الإصلاح . ولما خرج الأفغاني من بغداد أصبح الكاظمي موضع ريبة وتعقيب ، فلاد بالوكالة الإيرانية ثم غادر الزوراء خفية إلى البصرة ومنها إلى أبي شهر في الخليج العربي .

وقد عاد إلى بغداد بعد ذلك ، ثم رحل من العراق سنة ١٨٩٧ فقصد إيران والهند ، وألقى عصا الترحال في القاهرة (١٨٩٩) . ونال الحظوة لدى الشيخ محمد عبده ، واتصل بالمحافل الأدبية والقومية فكان موضع التجلّة والاحترام .

وقيل إن محمود سامي البارودي الذي عرف الكاظمي وقرّبه إليه بعد عودته من منفاه في جزيرة سيلان ، قسّم شعراء عصره إلى طبقات فاستثنى الكاظمي واكتفى بالقول إنه «أمة في الشعر وحده» .

لكنه ضاق بمعيشته ولم يصب منها الكفاف . وقد قال وليّ الدين يكن في «تجاريبه» :

«علم من أعلام العراق ، هو أبو القصائد المحبّة والقوافي المحكمة ، نزيل بمصر ، مقيم في دار حزنه يعالج أيامه ويعاني شدائدّها . وليس بمصر من يقول له : أين أصبحت ، أيّها الأديب العظيم ؟» .

وتوفي في القاهرة في أول أيار ١٩٣٥ .

طبع الجزء الأول من ديوانه في دمشق (١٩٣٩) والثاني في القاهرة (١٩٤٨) . ونشرت له : معلقات الكاظمي (١٩٢٤) عراقيات الكاظمي (١٩٦٠) . وله كتب نثرية منها : البيان الصادق في كشف الحقائق ، تنبيه الغافلين .

شعره :

من شعراء الطبقة الأولى ، في شعره أنفاس البداوة ومثانة المدرسة القديمة . أما مواضيعه فأغلبها قومي وطني ، يدعو فيها العرب إلى اليقظة والنهوض وينعى عليهم الغفلة والجمود .

هأم الكاظمي بالحرية فقال :

يوم له بين الضلوع ديب	مهما تباعد فهو منك قريب
وإذا تقارب فالعدو حبيب	فإذا تباعد فالحيب مبغض
يصفو به هذا وذاك يشوب	لا فرق بين المشرقين سوى الذي
ولها شروق مـرة وغروب	كالشمس ما بين الأنام مشاعة

واستنهض همّة قومه فقال :

سـيروا بنـنا عـنقـاً وشـدّاً
سـيروا فـرادي او ثـني
لا يقـعدنّ بعـزمنـنا
حتـى يقـول نادباً حال وطنه :

مـا بـال قـلبك لـيس يـهدا؟
مـما رجـاه وأنت تصـدا
وكنـت للعمـران مـهدا؟
نـادي بنـيه واستمـدا
قـيل اخـدي تـزدد وقـدا
ولم يـجد من ذاك بـدا
يـدعوهم شـيئاً ومـزدا
كل غـضنفر وقـى وفـدى
فـنـوك لا يـألون جـهدا . . .

أحبّ الكاظمي البلاد العربية قاطبة ، وتوزع قلبه بين موطنه العراق ومسكنه مصر .
قال يحنّ إلى مسقط رأسه :

يـطـلع أو زـورة تـطـرق؟
يـبـاكرها العـارض المـغدق
وعـاث بها الـلـذب والخـزق
كـما لقي القـلب فيهم لـقوا
يـنـاشـده الكـلف الشـيق
نـزـت كـبـدي نـحوكم تـخـفق
ومـن عـلق أدمـعي تـدـفق

ولا زال في أرجائها البشر يسطع
ومـا الخـير إلّا مـنكم يـتـفرّج
وسـوف نـرى للـفـخر ما هو أشـيع

شـبّوا وشـابوا بـعدما اكـتـهـلوا
عـرق بـذاك الأـصل يـتـصل

سـيروا بنـنا عـنقـاً وشـدّاً
سـيروا فـرادي او ثـني
لا يقـعدنّ بعـزمنـنا
حتـى يقـول نادباً حال وطنه :

بـالله ، يـا وـطني ، أـجب
كـلّ يـبـل غـليـه
يـرضـيك تصـبح للـخـراب
يـا أيـها الـوطـن الـذي
وأسـر نـنـا أـرأ كـلـما
ورمى بـكـلـتي مـقـلتـي
يـدعو كـهـولهم كـما
لـك مـن بـنـيك النـجب
رـوح فـرادي وأـدك واستـرح

ألا خـبر من ثـنايـا العـراق
هـل الدار بعـدي كـعـدي بها
أم الـين أسـلمـها للـبـلـي
رعى الله أهـل الحـفـاظ الـلـي
أحبّـاي ، هـل كـلف شـيق
وإن خـفق البـدر نـحو الحمى
على حـرق أضـلعي تـلتـوي
وقال يبارك مصر ويشكرها على رعايتها له :

تـعدّت صـروف الدـهر مـصر وأهـلها
نـعم ، أهـل مـصر ، أنتـم خـير أمة
لـقد شـاع عـنكم كل فـضل وسـودد
وتـمـنّى لو كان العـالم بأسره عـرباً :

لـيت الأنـام جـمـيعهم عـرب
أولـيت كـل المـالكـين لهم

«وقد تغيّرت الدنيا في الشرق بسرعة تغيّراً ترك الكاظمي غريباً فيها. فهو لا يحسن إلا أن يقول الشعر، ولا يستطيع مع هذا أن يتكسّب به، وقد فطره الله على العزوف الشديد والإباء المز. فلا قدرة له على التزلف والمصانعة، ولا قبول منه لحسنة أو صدقة أو معونة في صورة من الصور. . . وكان المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده يرهّاه ويتفقده بانتظام، وظلّ مواظباً على ذلك كاتماً له حتى توفي. . . فلما مات الشيخ محمد عبده اضطربت حياة الكاظمي واصطلحت عليه الفاقة والعلة، ولكنه احتملها وصبر على بلائها صبر الحرّ الكريم. وبلغ من أمره في ذلك أن كثيرين من ثقاته كانوا يجهلون مكان بيته في العام الأخير من حياته، لفرط تكتمه حقيقة حاله وإخفائها حتى عن أقرب الناس إليه وأصدقهم ودّاً له».

هذا وقد قال الكاظمي معبراً عن إباطه وتعفّفه :

لو على قدر همّتي واعتزامي	صال نطقي — بلغت كلّ مرامي
همة ترهق النجوم وعزم	ضارب في الجبال والأكام
وأراني أرى القلوب رواء	غير قلب ما بين جنبي ظام
وإبائي يرى من الضيم أن يحمل (م)	في الدهر منّة للغمام . . .
ليس عيش الفتى زخاريف لبس	وشراب مصفّق وطعام
إنما العيش أن تكون عظيماً	عالي الذكر في الأمور العظام
ليت أمسي، إذ بشرت بغلام	بعد لأي، لا بُشّرْتُ بغلام
ولدتني مجسماً من إباء	وجلال ورفعّة واحتشام
فترعرعت بين أكرم قوم	شمخوا عزة على الأقوام
ولأن أدبرت حظوظي أضحت	حسناتي تعدّ من آثامي
أيها المشفقون، إنّ فؤادي	أقصّدت به تصيب المرامي
فأناؤوني بمهجتي أو دعوني،	أنا عرضتُ مهجتي للسقام

حتى يقول :

ألمي إن خلوت من آلامي	وسقامي متى فقدت سقامي
ما شكت لي الضنى عظامي لكن	قام يشكولي الضنى من عظامي
فلماذا كانت الحياة كهـلدي	فعلى هذه الحياة سلامي

تحدث عبد المحسن الكاظمي عن نشأته الأدبية فقال : «أدخلت في أوائل صباي بمكتب فقيهة بالبلدة، ثم خرجت منه إلى معلم فارسي لأدرس اللغة الفارسية، لأن أبائي تجار، وللعراق صلة تجارية بإيران وأفغان والهند، والتخاطب التجاري باللغة

الفارسية في هذه البلاد كثير. فمكثت عنده ستة أشهر أمكنني بعدها أن أقرأ وأكتب . . . وذهبت إلى معلم عربي، ولكن ما لبثت أن خرجت من عنده. ثم أخذت أنظر في المخطوطات العربية والفارسية . . .

ولما بلغت الثانية عشرة من حياتي تطلّفت على موائد العلم بالكاظمية. وكان أخي محمد حسين مشتهراً بالأدب، فأخذت أطلع مثله على كتب الأدب، ولكن الأساتذة كانوا ينهونني عن ذلك بحجة أن هذه الكتب تشغل الطالب عن العلم وتؤخره في تحصيله. فلم أستمع إليهم، ووجدت في نفسي شوقاً إلى الأدب والشعر، وصرت أكتب على مطالعته في يومي الخميس والجمعة، وأكتب القصائد القديمة وأحفظها سراً حتى حفظت عشرة آلاف بيت. وحدث أن أخي وزميلاً له كانا يوماً يتطارحان الشعر وأتتهما غلب يكسب الرهان. وكان الاتفاق بين الفريقين على أن زملاء الرئيس يتطارحون الشعر، فإذا عجز فريق منهم أنشد الرئيس بدله. ولما جاء الدور عليّ بدأت بهذا البيت:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم
واسترسلت في المطارحة حتى عجز الزملاء والرئيسان. ومن ذاك الوقت كان المتطارحون يتنافسون عليّ، وكانت سني وقتئذ ستة عشر عاماً. وقد نظمت قصيدة غزلية يبلغ عدد أبياتها ٥٥ بيتاً لا أذكر منها الآن غير الشطر الأول، وهو:

أيها الرامي وما أجرى دما . . .

وبعدها نظمت عدة قصائد. ولكن أول قصيدة ظهرت لي كانت رثاء لأحد علماء العراق. وذلك أنه كان من العادة عندنا، إذا أريد رثاء أحد الموتى، وقف منشد خاص لتلاوة ما نظمته الشعراء من القصائد. وكلما أتى إلى قصيدة، قال له الحاضرون: لمن؟ فيقول: لفلان. فيردون: أنعم وأكرم. أما إذا لم يرد الشاعر ذكر اسمه فإن المنشد يجيب الحاضرين عن سؤالهم بقوله: لبعض المحبين.

«فلما أتى دور قصيدتي في ذلك اليوم الذي أريد رثاء العالم فيه، لم ينسبها المنشد إليّ لأني صغير. وكان هناك في هذه الأثناء أديب كبير يدعى السيد إبراهيم الطباطبائي فنسب الحاضرون هذه القصيدة إليه. فحزنت وطربت في آن واحد. حزنت لأن قومي لا يفرقون بين قائل وقائل، وطربت لاشتباه شعري بشعر أديب كبير. ولكن لم تمض مدة حتى ظهر اسمي، وانقلبت الآية فصار الناس ينسبون إليّ كل ما يستحسنون . . .»

عبد المحسن الكاظمي:

ارتأى الدكتور إبراهيم السامرائي أن الشعراء الذين نشأوا في المواطن الشيعية كالنجف وكربلاء والكاظمية والحلة قد تأثروا بالشريف الرضي نقيب الطالبين (٩٧٠ هـ -

١٠١٥م) ودعبل الخزاعي (٧٦٥ - ٨٦٠م) والسيد الحميري (٧٢٣ - ٧٨٩م)، وفي مقدمة هؤلاء الشعراء عبد المحسن الكاظمي وجواد الشيباني وولداه محمد رضا ومحمد باقر وغيرهم. وقد رأى السامرائي تأثير قدماء شعراء الشيعة ظاهراً في الطريقة التقليدية والروح البدوية ومراثي آل البيت.

والحقيقة أن لشعر الشيعة طابعاً خاصاً يتمثل في المراثي عامة وخصائص الحزن والتفجع. على أن شعراء العصر الحديث فتحت لهم آفاق جديدة وسعت شمول معانيهم ومواضيعهم مع احتفاظهم بالأساليب التقليدية القديمة، فقلّ تأثير الشريف الرضي وأمثاله من القدماء في شعرهم.

عبد المحسن الكاظمي: مَن أخذ عنهم في النظم في صباه أخوه الأكبر الشيخ محمد حسين الكاظمي المتوفى في رشت من أعمال إيران سنة ١٩٣٦، والشيخ جابر الكاظمي المتوفى سنة ١٨٩٩، والسيد إبراهيم الطباطبائي الشاعر الشهير.

الكاظمي وثورة الحجاز. سنة ١٩١٦:

نهض الشريف حسين وأعلن ثورته العربية الكبرى على الأتراك خلال الحرب العظمى، فاستبشر بها الوطنيون العرب، ومنهم عبد المحسن الكاظمي الذي حيّا الثورة وقادتها بقصائد عامرة ومدح الملك حسين وأنجاله ورجاله أمثال جعفر العسكري ومولود نخلص وفؤاد الخطيب. قال في الملك حسين:

هذا الحسين وذاك أول من دعا والرأس أولى بالعلا أن ترأسا...
ذو عزيمة جعل الإله شباتها نقماً تصب على الطغاة وأيؤسا
وقال أيضاً:

ملك، وهل للعرب مثل حسينها ملك تولى منه وأب بر؟
أعجب رجاء العرب من بعد موته، أسيفك أمضى أم عزيمتك البكر؟

وكان الكاظمي في شعره من دعاة الحركة الوطنية المصرية ومريدي زعيمها سعد زغلول، مدحه في حياته ورثاه عند وفاته.

ورحب الكاظمي بمبادئ الرئيس وودرو ولسن وعدّها وسيلة لتحرير الشعوب، فقال مخاطبه:

عمرت مجالسنا بذكرك وانحنى
وأراك قد حملت من أعبائها
لرفيع قدرك سائر المعمور
ما فوق طاقاة ألها وثير
ظهرت وجه الأرض من بغى الورى،
ولرب ماء كان غير طهور. . .

شعر عبد المحسن الكاظمي :

في شعر الكاظمي جزالة وفيه جرس موسيقي عذب كأنه صدى من ألحان الأجيال
الغافية في الصحراء . ولكنك تفتقد في ذلك الشعر تلك الطراوة وذلك الوهج اللذين
تلمسهما في شعر المجتدين من معاصريه كشوقي وحافظ ومطران والزهاوي والرصافي .
ولعل الأمر يرجع إلى تطويله في قصائده وتكراره للمعاني واستعماله لحوشي الألفاظ
وضيق آفاقه وثقافته القديمة . فإذا حللنا قصيدته :

سيروا بنا عنقاً وشداً سيروا بنا ممسى ومغدى

نجد أنها في أبياتها الستة والتسعين لا تخرج عن حث الأمة على التقدم والسير إلى
الأمام ومجانبة التخلف وتحفيز الهمم والالتفاف حول الوطن .

تفتحت شاعرية الكاظمي واكتملت في العراق في أواخر القرن التاسع عشر قبل
رحيله إلى مصر ومعاشيته للنهضة الأدبية التي حمل لواءها البارودي وإسماعيل صبري
وخلفاؤهم من بعدهم ، فكان أقرب إلى شعراء عصر الانحطاط المتأخر كمحيدر الحلبي
وإبراهيم الطباطبائي وجعفر الحلبي ومحمد سعيد الحبوبي . وقد أفاد من اتصاله بجمال
الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده في التطلع إلى آفاق فكرية جديدة كالنزوع إلى الحرية
والدعوة إلى النهضة والعلم والعدالة والاستقلال والدفاع عن الإسلام وذكر الشرق ،
وهو الاصطلاح الذي انتشر في مصر سابقاً لذكر العروبة وانتقل منها إلى العراق .

قال الكاظمي :

مهما تباعد فهو منك قريب
لا فرق بين المشرقين سوى السذي
هيهات يصيني سوى حرية
حرية الأمصار أنت حبيبة
يا حبذا يوم الجمال وحبذا
يوم يعود به لنا استقلالنا
حتام نحتمل المذلة طوعاً
لا فاتنا عز الحياة ولا عدت

يوم له بين الضلوع ديب
يصفو به هذا وذاك يشوب
يصبو الشباب لذكرها والشيب
في حبها يستعذب التعذيب
يوم الوصال وأجره المكسوب
ويرد فيه حقنا المصسوب
ولنا بآفاق البلاد وثوب؟
شعباً تُدِلُّ بها الحياة شعوب

وقال :

سيروا إلى الوطن الموقى
يا حبّذا وطن أعاد
يا حبّذا وطن يغنى
أوطاننا أرواحنا
أبدأ نطالب بالحقوق
أبدأ نجاهد دونها
بالنقائب والمفدى
الفضل في الدنيا وأبدي
باسمه أبدأ ويخدى
بل إنها بالروح تفدى
حقوقنا أو نستردّا
ونكافح الخصم الألدّا

وقال :

سيروا نُسَيدَ لـديارنا
ما كلّ من ساس الأنعام
شّتان من ساس السورى
يا حبّذا العَلَمُ الذي
عدلاً يهدّ الظلم هـدّا
قضى فـريضةـها وأدّى
عدلاً ومن بهم استبـدّا . . .
إن تقصر الأعـلام مـدّا . . .

ومن قصائده الشهيرة «العينية» التي تبلغ أبياتها ١١٤ عدّا . يستهلّها الشاعر بمعنى عزيز على شعراء الجاهلية ، وهو إدارة الطرف في الأرض البلقع والبكاء على الطلول ، وذكر الأحبة الذين مضوا ، والشوق إلى أيام القصف والهناء ، والأسى لساعة الوداع . ثم يذكر سفره بالباخرة تاركاً المطايا في بواديهما واقتحامه جيوش الأمواج التي ترتفع إلى عنان السماء ، حتى وصوله إلى مصر ، يجاذبه الحنين إلى وطنه في بلاد الرافدين والاستبشار ببلوغه وطن الحرية والنهوض . لكنه يشكو مقامه في دار الغربة وضياح مثله في خضمّ الحياة الدفاقة . ويمضي إلى الإشادة بمصر وأهلها الذين يصفهم بأنهم خير أمة يتفرّع منها الخير والفضل والسؤدد . ويدعوهم إلى شحذ همهم وشّد عرى أوطانهم والدفاع عن عزها ومنعتها . ويتلذذ حيناً بالفخر بنفسه ، وهو الأريحيّ السميع الذي يززع فكره أبطال الوغى ، ويقول :

وكيف أخاف الخطب يسودّ ليله
فكم غمّة كشفتها وعظيمة
وأسياف عزمي في دجى الخطب لُح
تسّمتهـا ، والليل أسود أسفع

ويتنقل من ذلك إلى مهاجمة المنّدين بالإسلام المتحاملين عليه من رجال الغرب ، وفي مقدمتهم السياسي الأديب الفرنسيّ جبرائيل هانوتو Gabriel Hanotaux الذي تعرّض للدين الإسلامي فردّ عليه محمد عبده وأفحمه .

والحقيقة أن الكاظمي في شعره جسر يصل عصر الانحطاط بعصر النهضة الجديد ويضفي ثوباً من الديباجة القديمة على المعاني التي أخذ يردّها شعراء الأمة المتفتحة على حياة العصر ، المتحفزة إلى الوثوب واليقظة من غفوة الأجيال .

أحمد الفخري

شاعر الموصل وقاضيه السيد أحمد الفخري، وهو ابن محمود بن محمد أمين بن محمد بن حامد بن فخر الدين بن يحيى، ينتهي نسبه إلى النقيب السيد فخر الدين الأعرجي الحسيني. ولد في الموصل سنة ١٨٥٨ وتعلّم في كتابتها وحفظ القرآن، ثم درس العلوم العربية والدينية على علماء عصره كالملّا علي الحصري وعبد الوهاب الجوادى والشيخ محمد النقشبندى. قال الشعر وهو يافع، ثم برع فيه وتفوّق. ووظّف في المحكمة الشرعية كاتباً وأصبح رئيساً لكتّابها ودوّس في المدارس الأهلية والرسومية. وعيّن على أثر احتلال الموصل قاضياً (أول أيار ١٩١٩) ونهض بمنصب القضاء حتى عيّن وزيراً للعدلية في وزارة جعفر العسكري (٢٢ ت ١٩٢٣ - ٣ آب ١٩٢٤). وانتخب نائباً عن بلده في المجلس التأسيسي العراقي (١٩٢٤) وأعيد بعد تخليه عن الوزارة قاضياً للموصل (٢ أيلول ١٩٢٤) حتى تأليف مجلس الأمة العراقي إذ اختير عضواً في مجلس الأعيان (تموز ١٩٢٥). وأدركته الوفاة في الموصل في ٩ تشرين الثاني ١٩٢٦.

وقد غني بجمع شعره المتفرّق الأديب الفاضل السيد علي العلوي الذي استطاع أن يدوّن له نحواً من ١١٠ قصائد ومقطوعات في زهاء ٢٤٢٠ بيتاً. وصفه السيد العلوي فقال: «كان وسيم الطلعة، معتدل القامة، عذب الصوت، كريم الخلق، أنيس المحضر، سريع الخاطر، حاضر البديهة، يرسل النكات من دون تكلف فيطرب لبراعتها الحضور، متواضعاً، محبّاً للغناء، مغرماً بالصوت الجميل».

كانت الموصل في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في عزلة وانزواء، فلئن كانت جزءاً من العراق، لقد كانت أقرب إلى حلب منها إلى بغداد. وكانت الرحلة إلى بغداد بطريق القوافل أو طريق الأرمات النهرية طويلة شاقة، فكانت الحداباء أوثق صلة بحلب الشهباء تتصل بها بأسباب تجارية وأواصر فكرية وروحية. فلا بدع أن حرمت الموصل النهضة الأدبية والوطنية التي لاحت بوادرها في بغداد قبيل إعلان الدستور العثماني.

إن بلدة أبي تمام قد غطت في نوم عميق خلال عصر الانحطاط، فلم ينشأ فيها سوى نظامين لهجوا بالمدائح والمراثي، حتى إذا ما بزغ فجر القرن التاسع عشر، ظهر شاعران لها شأنهما في ذلك العهد، وهما عبد الباقي العمري وعبد الغفار الأخرس، لكن كليهما نزع إلى بغداد وفتحت شاعريته فيها. وعرفت الموصل بعد ذلك شعراء مقلّدين كأحمد عزت الفاروقي (المتوفى سنة ١٨٩٢) والسيد شهاب الدين العلوي المليسي (المتوفى سنة ١٩٠٧) وداود الملاح (المتوفى سنة ١٩١١) والشيخ محمد ضياء الدين الشعار (المتوفى سنة ١٩١٢) ونجيب جلميران (المتوفى سنة ١٩١٧).

في تلك البيئة المغلقة المنطوية على نفسها نشأ شاعرنا الفخري وقال الشعر، فنظم المدائح الإلهية والنبوية ونسج القصائد الصوفية والوجدانية وأجاد في الوصفيات والإخوانيات وجانب من المدائح والمراثي والموشحات والتخاميس . وقد أدرك القرن العشرين وأصبح وزيراً وعيناً في الحكومة الوطنية وعاصر الزهاوي والرصافي وسائر أساطين النهضة الأدبية الحديثة ، لكنه كان أقرب بشعره إلى عصر الانحطاط السالف وأدنى نسباً إلى ابن الفارض وأقرانه من شعراء التصوف والغزل الأقدمين ، ذلكم أحمد الفخري الذي يقول :

والدمع ليس عليه حاجر	هذا الغرام وتلك حاجر
لسحاب دمعك غير ماطر؟	وبروقهم لاحت فما
لك غيرهم أم أنت صابر؟	أخـلا فـؤادك أم حـلا
حرّ الصبابة في الضمائر	أم مـساء عينك جفت من
والحب ليس عليه ساتر	أم رمـيت كتمان الهوى
شهدت عليك بها الظواهر	ولـي مـ تكتـم لـوعـة
أمن الملاممة أنت حاذر؟	وعلى م لا تبـدي الجوى
فندع العذول ولا تحاذر	إن كان حبك صادقاً
الهوى متـى السرائر	اي والـذي أحـيا بأسرار
أنا ذو هوى في القلب ثائر	أنـا عاشق أنا مغرم
إنّ الهوى أحـمد العناصر	كيف الحـياة بلا هـوى
فهتكت عن سرّي الستائر	في الحب طـباب تهتكـي
لا أنشي بمـلام زاجر	لا أرعـوي ، لا ألتـوي
قد قيل في مجنون عامر؟	ماذا يقال سوى الذي

وليس من ريب أن الشعر الصوفي في العهود المحافظة المتزمّنة تنفيس عن المشاعر الملتهبة ، فإذا قرأت شعر الفخري الوجداني لم تدر أين ينتهي الحب الإلهي ليبدأ الإحساس العاطفي .

وشعر الفخري راتب النسق ، مفرد النغم ، قديم الوحي في معناه ومبناه ، بيد أنه يفيض بالبوارق الوجدانية التي تهز النفس واللوامع الفكرية التي يرتاح لها الذهن . يختلط فيه الغزل المكثّر المبتذل بعاطفة حب صوفية تنبثق من صميم القلب ، وتعقب موشحاته بأنفاس الأندلس الزكية .

يؤمن الفخري بالحب ولا يخشى فيه لوم اللائم ولا تقرّيح العذول ، فاستمع إليه يقول :

إن كان حبك صادقاً فندع العذول ولا تحاذر
وهو يجاهد نفسه في الغرام فيوماً يدعن لها ويوماً يتغلب عليها :

ونُهاها عن الهوى قد نهاها
بعد فيها بقيّة من صباها
أن أرى الذلّ باتباع هواها
وتراني طوراً أطيل عنّاها

وقد نقل تفجّع الخنساء ونحيبها إلى لوعة العشق والهيام فقال :

وأذكرها في وقت كلّ غروب
وبالليل أحلامي وعند هبوبي
وأعيا الذي بي طبّ كلّ طبيب
وما كمد في عاشق بعجيب
غريب الهوى ، يا ويح كلّ قريب !
فقلت له : اقصر ، أنت غير مصيب
أصلح أجسام بغير قلوب ؟

فهل لنا في الضنى آس يواسينا ؟
عاجت نفسي من داء الهوى حيناً
بحبّه وهواه كاد يضيئنا ؟
إليه ، فاحتلّ دون الحيّ نادينا . . .

والموصل التي لبثت تغطّ في نوم هادىء هنيء متمسكة بأهداب التقوى والورع ، لم
تزل على مَرّ العصور تلتمس متعها البريئة ونزهاتها الجميلة في زيارة قبور الأولياء والخروج
إلى ضواحي دجلة التي يسبغ عليها الريح أثواب الخضرة والبهاء لعقد مجالس الطرب
والخبور بين الماء والخضراء وتحت زرقاء السماء . فهذا محمد حبيب العبيدي مفتي الموصل
الذي نبغ بعد شاعرنا الفخري يصف أنس الربيع فيقول :

ملابس خضراً ذات لونٍ على لون
وزهرة قلبي في كرائم من حزن
لواعج وجد حركتها يد اللحن
يرددها سجع الحائث في أذني
ولئن كان العبيدي قد تذكر حبه في مجالس الربيع البهية فاستسلم إلى الوجد
والأسى ، إنّ الفخري قد ألقى بروحه في تيار الفرح والجمال الشامل فقال :

بُعَيْدَ حَيَا أحياء الربيع انهاره
أديم الحمى فإزدان منها اخضراره
فراق لديه حسنه وازدهاره
وقد فاح نشرأ شيخه وعمره

لاح للنفس غيتها من هداها
وصحت بعد سكرة الجهل ، لكن
هي تأبى إلّا الغسّرام وأبى
فتراها طوراً تميل عنّاني

وما ذرّ قرن الشمس إلّا ذكرتها
وأذكرها ما بين ذاك وهذه
وقد شقني شوقي وأبلاني الهوى
وأعجب أني لا أموت صبابّة
وكلّ محبّ قد سلا ، غير أنني
وكم لام فيها من أخ ذي نصيحة
أتأمر إنساناً بفرقة قلبه ؟

وعارض ابن زيدون في نونيته فقال :

جدّ الهوى ومضى حكم القضا فينا
هيهات ما من دواء للغرام ، فقد
وكيف ننسى حبيباً روحنا امتزجت
قد لاح كالبدر ، والأبصار شاخصة

والموصل التي لبثت تغطّ في نوم هادىء هنيء متمسكة بأهداب التقوى والورع ، لم
تزل على مَرّ العصور تلتمس متعها البريئة ونزهاتها الجميلة في زيارة قبور الأولياء والخروج
إلى ضواحي دجلة التي يسبغ عليها الريح أثواب الخضرة والبهاء لعقد مجالس الطرب
والخبور بين الماء والخضراء وتحت زرقاء السماء . فهذا محمد حبيب العبيدي مفتي الموصل
الذي نبغ بعد شاعرنا الفخري يصف أنس الربيع فيقول :

ويوم تجلّى في الربيع نهاره
وقد كست الأزهار حلّة وشيها
فنزّهت في وجه البسيطة ناظري
وجلث بأكناف الحمى متنزّها

وملت أريح النفس في ظل ربة
يحلي لجين الورد فيها نضاره

وهل يتم السرور في مجالس الطرب بغير العود والمزهر؟ فلنصغ إلى شاعرنا يقول:
لو تسمع العود تدري ما الهوى وترى
أريشة بيد العواد تحفق أم
وتلك أوتار عود دق فاضطربت
يحس جس طيب نبض ذي مرض
والمعنى في البيت الثاني (أريشة بيد العواد . . .) ينظر إلى قول الشاعر الدكتور نقولا
فيّاض:

ليس «البيانو» الذي باتت تكهربه
مكسّته فتمشى السحري فكما
أصابع العاج هذي تلعبين بها
أم تلعبين بأسماع وأبصار؟

وقديماً قال ابن الرومي:

غلط الناس، لست تلعب بالشطرنج
لك مكر يدب في القوم أخفى
لكن بأنفس اللبّاء
من ديب الغذاء في الأعضاء

والفخري، بعد ذلك، شاعر مؤمن، سعيد بإيمانه، قوي النفس بالله، فلنستمع
إليه يتضرّع إلى العزة الإلهية ويقول:

أيارب، مالي غير لطفك خيمة
أيارب، ظللني بفضلك وأخني
أيارب، واضرب لي سرادق عزة
أيارب، وامدد لي رواق عناية
أيارب، واجعلني بفسطاط نعمة
تقيني كما أتقيه من الدهر
بعزك وأشرح لي بنور الهدى صدري
على عمد التوفيق في طنب النصر
على خيمة العلياء في ساحة الفخر
أعيش بها في راحة سائر العمر

ولقد رأينا شاعرنا مولعاً بالبديع مغالياً في المحسنات اللفظية، يطرز شعره بالتشابه
والاستعارات الكثيرة. ففي هذه الضراعة إلى العزة الربانية جسم الرحمة والعناية والتوفيق
والنعمة بالخيمة التي تقي من الخوف وتؤمن من الشر والعذاب، فذكر السرادق والعمد
والطنب والرواق. ورأيناه في قصائد أخرى يقرن فعل النهي بالنهي والحجى فيقول:

ونهاها عن الهوى قد نهاها

ويجمع فعل الرؤية بالوتر قائلاً:

لو تسمع العود تدري ما الهوى وترى
لروح أسرار وجد أودعت وترا
وأمثلة ذلك كثير في شعره.

ومن لطيف شعره في النزاع بين هوى النفس وحب الله قوله:

عجبت لها تحفوا، وتدري بوصلها
فقال النهى: لا تعجبن فحب ما
سأترك للمولى سواه، فإن تكن
حياتي وأني حيث تحفوا شهيدها
سوى الله نار في حشاك وقودها
حياتي على خلق فلست أريد لها

لكنه لا يلبث أن يستسلم إلى الهوى فيقول:

كل يوم يموت بالشوق قلبي
أيها الناصح الخلي اتبعني
كيف يصحو ويقبل النصح صب
وامتزجت روحه بروح الحبيبة هيأاً:
وبذكرى الحبيب يبعث حياً
في الهوى أهدك الصراط السويّاً
خامرته من الغرام حميّاً؟

روحان بعضهما ببعض هامتا
روح إلى روح تـزف، وإنما
وجدأ، ولا إحساس للأشباح
ذاك الزفاف بعالم الأرواح

ومن موشحاته الجميلة أنشودة الحب التي قال منها:

ذهبت في الكون أنفاس الصبا
بحديث سلسلته أدمعي
سلسل السدمع حديث الشوق عن
مقل أحرمها البين الوسن
عن فؤاد يوم جرعاء افتن

بهوى من جرعه العطبا
بنواهم جرعاء في جرع

والصبا أهدى حياة الأنفس
إذ بعرف من شذاهم قد كسي
ثم عادت نفسه من نفس

بسموم وهي تحكي لهبا
عن سفير الشوق بين الأضلع . . .

ونراه في هذا الموشح وهو الشاعر الوجداني يغرق في الصناعة ويلبس ثوب المحدث
الفقيه . ثم يعود إلى حديث الهوى والحنين فيقول:

لم أكن قبل غرامي أعلم
أن جرح القلب لا يلتئم
لائمي، بالله جـز حـيـهم

وتبصر ثم عتف من صبا
ليس من يبصر كـالمستمع

نظرات أعقبتها حشرات
في فؤادي كم لها من زفـرات
هـذه العين وتلك العبرات

فاسألنها زند وجدي هل خبا
مذ صبا قلبي لوادي الأجرع؟

أننا والليل ، إذا الليل سجي ،
 في هواهم بين خوف ورجا
 فإذا ما رقد الناس دجى
 وقضى بالأمن كل مأربا أتجافى عن لذيذ المضجع
 لا تقل : غاب ولا قرب ولا
 كل بدر بازغ إن أفلا
 هل ترى أننا قطعنا الأملا
 لا ، وإن عز لقاهم مطلبنا ما قلنا منه سن الطمع
 إن أحمد الفخري قد عاش في العصر الحديث ، لكنه في شعره وغزله وتصوفه كان
 يمت بصلة النسب الروحي إلى أصحاب الموشحات الأندلسية وإلى ابن الفارض وابن
 النبية من أبناء القرون الخالية .

علي البناء

الأسطة علي البناء الشاعر الأمي البغدادي ترجم له علي علاء الدين الألوسي في
 «الدر المنثور» ونشر جانباً من شعره ، قال :
 «هو أعجوبة بغداد في هذا العصر ، فإنه ينظم الشعر مع كونه أمياً لا يقرأ ولا
 يكتب ، ومشغول بصناعة البناء بعمله مكتسب» .
 ولد علي البناء سنة ١٨٤٩ ، وامتحن حرفة البناء ، ونظم الشعر الفصيح . وكانت
 وفاته ببغداد في ٢٤ نيسان ١٩١٨ .

وشعره تقليدي جامد لا تتعدى أغراضه المدح والرثاء وغيرهما . منه قوله :
 أوجهك هذا أم سنا الشمس لامع من الشرق باد أم هو البدر ساطع ؟
 وذاك شذاك النافع العطر نافع ببغداد أم نوع من الطيب ضائع
 وهذي معاليك التي وازر العلى علاها فأضحت وهي شهب طوالع
 يسر حديث المجد يوم إيا به بمدحي لعلهاهم تسر المسامع
 لقد كان وجه العيش أسود كالخا ببعذك فهو اليوم أبيض ناصع
 وقال في قصيدة له يمدح الوالي ناظم باشا عند قدومه إلى بغداد :
 إليك من الأمي وافتك مدحة سرى ذكرها في نجدها والتهائم
 وقد دعي أحياناً علي المعمار البغدادي .

ذكر لنا التاريخ الأدبي عدداً من الشعراء الأميين منهم طرفة بن العبد وغيره في
 الجاهلية . أما في العصر العباسي فكان أشهرهم نصر بن أحمد المعروف بالخبز أرزي

المتوفى سنة ٩٣٩ م. كان يجيز خبز الأرز في مريد البصرة وينشد أشعاره الغزلية والناس يزدهجون على دكانه يأكلون خبزه ويستمعون إلى شعره .

عبد القادر العبادي

الشاعر عبد القادر بن عبد الله البزاز العبادي المعروف بـ «عبد القادر شنون» ، عرف بالهجاء المقذع وروح الفكاهة والمجون ، قال إبراهيم الواعظ :

إن كنت تهجو بأبيات منمّقة فإنني سوف أهجو هجو شنون

ولد في بغداد سنة ١٨٦٥ ، ودرس على نعمان خير الدين ومحمود شكري الألوستيين . ومال إلى النظم والظرافة شاباً ، فلازم الفكاهة البغدادي الشهير عبد الله الخياط المتوفى سنة ١٨٨٩ وحضر معه مجالس الأشراف ودواوين رجال الفضل والأدب .

ورحل إلى مدن العراق كالحلة والبصرة وحواضر الخليج ، وزار الكويت والبحرين والحجاز انتجاعاً للرزق ، ومدح الشيوخ والسراة . وعين قاضياً للقطيف فأصبح ، كما قال عبد الله الجبوري في كتابه «من شعرائنا المنسيين» (١٩٦٦) ، ممدوحاً بعد أن كان مادحاً . لكن القضاء في تلك البلدة النائية لم يستقم له إلا شهوراً ، وعاد إلى بغداد قبيل إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ .

عمل في الصحافة فتولى تحرير القسم العربي من جريدة الإرشاد التي أصدرها حسين فريد في شباط ١٩٠٩ . ثم مضى إلى البصرة وحرّر جريدة إظهار الحق (أول حزيران ١٩٠٩) ، وكان صاحبها قاسم جلميران . وعين كاتباً في المحكمة الشرعية براتب حسن ، فقال - على ما رواه عباس العزاوي في الجزء الثاني من تاريخ الأدب العربي في العراق (١٩٦٢) : «إن حظي لا يحتمل مثل هذا الراتب ، وهو مؤذن بقرب أجلي واستيفاء رزقي» . وقد توفي بعد أشهر قليلة في البصرة في ٣ تشرين الثاني ١٩١٠ مصاباً بمرض الهيضة .

عاش عبد القادر شنون بائساً عاثر الجدد ، ومات منسياً وتفرق معظم شعره .

ولعلّه كان من حيث الفقر وسوء الحظ والظرف والإقذاع في الهجاء أشبه بالشاعر المصري محمد إمام العبد (١٨٦١ - ١٩١١) صاحب حافظ إبراهيم ، الذي قال :

أنسا ليل ، وكل حسناء شمس ، فـ اقتراني بها من المستحيل !
شعره :

قال عبد القادر العبادي في جسر بغداد سنة ١٩٠٢ :

هي الحضارة ما تعلو به الرتب وما سوى العدل في الدنيا لها سبب

وقد تخلص إلى مدح السلطان عبد الحميد الثاني وولي بغداد نامق باشا الصغير، ثم ذكر تشييده جسراً على دجلة :

كل البدائع جاءت في صناعته
كأنه، ووضوح في طرائقه،
إن قال واصفه : فاق الحديد، فلا
الخ . . .

وقال في منارة سوق الغزل، وهي من بقايا جامع الخلفاء :

عُجج بالرصافة وإبك ربعا البالي
وانظر بعينيك في أطراف ساحته،
فلذي منارته في الجوّ شاحخة
جميلة ما رأى الرائي كرفعها
غريبة الشكل لا زالت تحترقنا
قد عشمش الذلّ في أعلى دوائرها
تمنطقت باسم بانيتها مفاخرة

لقد أحبّ الكتاب واتخذ صديقاً وسميراً فقال :

كتابي، لا أروم سوى كتابي،
أجيل الطرف فيه فيجتلي لي
إذا غمرت قناة الدهر قلبي
لئن أخطأت في فكـري ببحث
وإن شأهت من قومي جفاءً

ولا ندري هل ملك كتاباً في حياته، وهو البائس الفقير، أم كان في المتربة كصاحبه جعفر الخلي الذي قال :

ملكيت فكركي بكار المعاني
وكان عبد القادر شتون كثير التحسّر على آثار المجد العربي، يبكي على أطلالها ويسترجع ما مضى من صورها وأشكالها، فقال في المستنصرية :

يا دار، ما بال ربع العلم ينعاك
يا دار علم عفت منها معالمها
لهفي على ربعك المأنوس إذ خليت
لهفي على حلقات العلم ما صنعت

فما دها في السورى أعلى مزايك
يد الخمول، فمن أفتى فأغواك؟
منه أفاضل حلّوا في ثناياك
أبحاث علمهم في ظل جسدك

وقال يندب أطلال سامراء :

هذي مبانيهم، فأين الباني؟ فتكت بها وبه يد الحدثان
 خلعت الديار فليس تلقى بينها غير الوحوش ومجمع الغربان
 غدرت بها أيدي الزمان، كأنها لم تحو من حور ومن ولدان
 وأعلن الدستور العثماني فاستقبله شاعرنا، كما استقبله غيره من رجال الشعر
 والأدب، بالبشر والأمل، وحيًا مطلع عصر الحرية فقال:
 ألا إن عصرًا جاء بالحق مشرقاً هو العصر لا عصر من الظلم أغبر
 رعى الله عصرًا فيه للحز راحة يقول فلا يخشى الأنام ويظهر
 بيت قريبر العين، غير مفكر بما كان قبل اليوم فيه مفكر

عبد المهدي الحافظ

عبد المهدي بن صالح بن حبيب الحافظ من أعيان كربلاء وتجارها وأدائها، ينسب إلى أسرة خفاجية استوطنت المشهد الحسيني. وقد ولد في كربلاء ودرس في معاهدها، وأخذ العروض عن الشاعر الشيخ كاظم الهر، وتعلم اللغات التركية والفارسية والفرنسية.

انتخب رئيساً لبلدية كربلاء، ثم ناب عنها في مجلس النواب العثماني من كانون الأول ١٩٠٨ إلى كانون الثاني ١٩١٢. وتوفي بكربلاء في شباط ١٩١٦.

نقل عباس العزاوي في الجزء الثامن من كتابه «تاريخ العراق بين احتلالين» إن عبد المهدي الحافظ كان ذكياً ذا سلطة وجراً، تزعم في أثناء الحرب العظمى حركة انتفاض على السلطات التركية، فأهين الموظفون وأخرجوا من الحاضرة ولم يعادوا إليها إلا بمساعدة حكومة بغداد.

وترجم له سلمان هادي الطعمة في كتابه «شعراء من كربلاء»، فقال إنه شبّ شاعراً متوقد الذهن، بليغ البيان، واسع الاطلاع، حفظ عيون الشعر العربي، وكان خطيباً مفوهاً. وكان ديوانه المطل على الروضة الحسينية محط أنظار رجالات البلد وملقى أهل الأدب...

امتاز شعره بالركة والعاطفة المرفهة. ونظم قصائد في الغزل والتشبيب على الطريقة القديمة، منها قوله:

إلى الله أشكو ما أقاسي من الجوى غداة استقلت بالحبيب ركائبه
 وأقفر ربع طالما كان حالياً به فخلت أكتافه وملاعبه
 فبت أقاسي ليلة مكفهرة وليس سوى الشغرى بها من أحاطبه
 أكفكف فيها الدمع، والدمع مرسل كغيث همي لما ارجحت كتائبه

وأندب عيشاً حرّمته يد النّوى
وأذكر داراً طالما بثّ أنساً
غريّر إذا ما قصر الليل وصله
فمن لي برّيع غاب عنه ربيعه
حدثني أحمد حامد الصراف أن الحاج عبد المهدي توفي كهلاً وكان ينظم الشعر
الرائق باللغة الفارسية .

محمد رضا الأصفهاني

الشاعر الفقيه محمد رضا الأصفهاني النجفي ، وهو ابن محمد حسين بن محمد باقر بن محمد تقي . عرفت أسرته بالزعامة الدينية في أصفهان ، وأهمهم بنت الشيخ جعفر كاشف الغطاء . وجدّه الشيخ محمد تقي صاحب كتاب هداية المسترشدين في شرح معالم الدين .

ولد محمد رضا في النجف سنة ١٨٧٠ ودرس في معاهدها . وقد نظم شعراً كثيراً وألّف كتباً منها : نقض فلسفة داروين (في جزئين) ، الردّ على البهائية ، وقاية الأذهان (في أصول الفقه) ، إلخ .

توفي بمدينة أصفهان سنة ١٩٤٣ . وكانت له في شبابه صحبة ومطارحات شعرية مع السيد جعفر الحليّ المتوفى سنة ١٨٩٧ ، فكتب إليه الأصفهاني معاتباً ومداعباً :
حللت حمى الحليّ ألتمس القسرى
جزاء سنهار جزاني ، ولم أكن
ولم يرع لي حقّ الإحياء وسبني
وكان لأمالي ربيعاً ومربعاً
فقل لأبي يحى ، وإن هو ملني :
(صدودكم وصل وسخطكم رضا
فأجابه الحلي بقصيدة قال منها :

وحقّكم ما ازورّ لي عنكم جنب
صبوت إليكم قبل أن أعرف الصبا
رأيتكم أحنى وأعطف من أبي
فقلت لنفسي : ها هنا ويحك احبسي
وقال في الأصفهاني بعض أدباء النجف : «وللشيخ آغا رضا . . . حظ وافر من
الأدب ، وباع طويل في النظم والنثر ، وشعر رائق جمع فيه بين ظرافة الفرس وفصاحة
العرب» .

وقال الدكتور علي الوردي في مقدمة الجزء الثالث من كتابه «المحبات الاجتماعية من تاريخ العراق الحديث» إن مجلة المقتطف كانت تنشر مقالات متسلسلة في شرح نظرية داروين بقلم الدكتور شبلي شميل . وحين وصلت المجلة إلى العراق ، انبرى لها بعض علماء الدين في النجف يردون عليها ويفندونها ، وكان أنشطهم في ذلك الشيخ آغا رضا الأصفهاني والشيخ جواد البلاغي ، وألفوا في ذلك كتباً ضخمة بأسلوبهم الجدلي . وقد أرسل أحدهم كتابه في نقد النظرية إلى شبلي شميل ، ظناً منه أن هذا الرجل سيقتنع بسقم النظرية بعد قراءته للكتاب وسيعلن تركه لها ، لكن شبلي شميل أرسل إليه جواباً مقتضباً هذا هو : «عذرک جهلک ، والسلام» .

عبد الحسين الحويزي

الشاعر الشيخ عبد الحسين بن عمران الحويزي ولد في النجف في حزيران ١٨٧٠ من أسرة هاجر جدها الأعلى من الحويزة وأقامت في الغري منذ سنة ١٨٣١ . درس على إبراهيم آل بحر العلوم الطباطبائي ومحمد حسين الكشوان وغيرهما من العلماء والأدباء .

وامتهن البزاة تجارة والده ، ثم بارت تجارته فمضى إلى كربلاء في سنة ١٩١٧ وأقام فيها يعاني البؤس وشظف العيش ويتكسب بشعره .

وتوفي بكربلاء في آب ١٩٥٧ . وقد نشر جزآن من ديوان الحويزي (١٩٦٤ - ١٩٦٥) ، كما نشرت له ملحمة باسم «فريدة البيان» (١٩٥٥) في مدح الرسول الأعظم وآل البيت .

وشعر الحويزي تقليدي قديم الطابع مواضيعه المدح والرثاء والغزل والهجاء والفخر وما مائلها من الأغراض . وذكر سلمان هادي الطعمة في كتابه «شعراء من كربلاء» أنه عاصر الحبوبى والزهاوي والرصافي والهنداوي وغيرهم من مشاهير الشعراء وكانت له معهم صولات وجولات في ميدان الأدب .

من شعره في ثورة العشرين :

أطلق شعبنا للزحف ساقا	وكم خطب له الحدثان ساقا
لقد عقد الضغائن فيه خصم	بخدعته ليحتل العراقا
فأورى فتنة عمياء شبت	ليصلي حزب جبرته احتراقا

الخ . . .

الملا عثمان الموصلّي

من أذكى المكفوفين وآيات الفطنة وحسن التصرف، الملا عثمان الموصلّي المولوي، كان حافظاً مقرئاً وموسيقياً شاعراً يجيد اللعب بالشطرنج والعزف على العود وآلات الطرب.

وهو عثمان بن عبد الله السقاء ابن فتحي بن عليوي آل الطحّان. ورجّح الدكتور عادل البكري، الذي ألف كتاباً فيه سنة ١٩٦٦، أنه ابن عبد الله بن محمد بن جرجيس من البوعلوان إحدى فرق الدليم.

ولد عثمان بالموصل سنة ١٨٥٤ لأسرة فقيرة، وفجع بوفاة والده وعمره سبعة أعوام، وكان قبل ذلك قد أصيب بالجذري ففقد بصره. وتعهده الوجيه محمود بن سليمان العمري بالرعاية، فهيأ له حفظ القرآن وتعلّم مبادئ اللغة. ومضى بعد ذلك إلى بغداد سنة ١٨٨١ بصحبة أحمد عزت باشا ابن محمود العمري ودرس على الشيخ داود النقشبندى وبهاء الحق. ودرس المقام وأصول الغناء على مغني الموصل، ثم اتصل بالمشهورين من رجال الفن في بغداد وأخذ عنهم.

ذهب إلى الحج، ثم عاد إلى الموصل سنة ١٨٨٦، وقصد استانبول (١٨٨٩)، وقفل راجعاً إلى بغداد. وشدّ الرحال مرة ثانية إلى قاعدة السلطنة والخلافة، وعرج على مصر سنة ١٨٩٥ فلبث فيها خمسة أعوام طبع في أثنائها كتبه وأصدر في القاهرة مجلة «المعارف» (١٨٩٧).

وفي سنة ١٩٠٠ مضى إلى استانبول، ثم قصد الشام وبقي فيها من سنة ١٩٠٦ إلى ١٩٠٩. وأدّى فريضة الحج ثانية، وعاد إلى دمشق، ثم زار بيروت واستانبول ودمشق وحلب، حتى عاد أخيراً إلى الموصل في حزيران ١٩١٣.

أخذ عنه فريق من المغنين والموسيقين في مصر ودمشق، منهم الشيخ سيّد درويش ومحمد كامل الخلعى وعلي محمود وأحمد أبو خليل القبّاني. وعلت له شهرة في دار الخلافة في قراءة الموالد وإحياء حفلات الذكر ومجالس الصوفية.

قدم بغداد في نيسان ١٩١٤ فعيّن شيخاً للقراء بمدرسة جامع المرادية. وعرفت بغداد فضله، فكان محور حلقاتها واسطة عقد أنديتها والمجلى في محافل الأنس والطرب. ذكره إبراهيم الواعظ في «الروض الأزهر» بمناسبة عقد قرانه في تشرين الأول ١٩١٤، قال:

«ثم بعد أيام شرف حضرة بلبل القسطنطينية ومصر والشام والعراق، الذي ذاع صيته حتى علا الآفاق، الأكمل اللوذعيّ والشاعر الألعىّ المولويّ الملا عثمان أفندي الموصلّي حفظه الله إلى دارنا. وبعد تلاوة عشر من الكلام القديم، قال مؤرخاً عام

القران ، وفي الأبيات :

زفافك ، فرع المصطفى وابن مصطفى ،
توخت شمس الفضل عن جعفر الهدى
شقيقك إسماعيل أبدي له الهنكا
بعرسك هتان المنى قال أرزخوا :
زفاف على الزهر السواري به الفخر
غدت لك شمساً حيث أنت لها البدر
وذلك بعدي حيث لي عندكم ذكر
زفافك ، إبراهيم ، شيخ به خير
وقامت الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ فكان للملا عثمان مواقف فيها محمودة شعراً
وخطابة . وأدركته الوفاة ببغداد في ٣٠ كانون الثاني ١٩٢٣ .

وقد أقيم له تمثال في مسقط رأسه الموصل سنة ١٩٧٠ . رثاه عند وفاته عبد الرحمن
البناء بقصيدة مطلعها :
رحلت ، والصدر بالإيمان ملآن ،
في ذمة الله شيخ العلم عثمان
مؤلفاته :

من مؤلفاته المطبوعة في استانبول والقاهرة : الأبيكار الحسان في مدح سيد الأكوان
(١٨٩٥) تخميس لامية البوصيري (١٨٩٥) المراثي الموصليّة (١٨٩٧) مجموعة سعادة
الدارين (١٨٩٨) . ونشر أيضاً : الأجوبة العراقية لأبي الشناء الألوسي (١٨٩٠) الترياق
الفاروقي (ديوان عبد الباقي العمري الفاروقي ، ١٨٩٨) ، إلخ .

قال عثمان الموصلي يمدح يوسف السويدي :

سلمنا الخطوب ولنلنا المرام
تناديه أربابنا مرجحاً
بأبائه ضياء نور الهدى
وقال فيه أيضاً :

رسالة البرق قد جاءت مبشرة
أنجى الإله عزيز مصر وانكشفت
أهدت إلينا سروراً آخر الزمن
عنه الظنون وخابت فرقة الضغن
ومن شعره الصوفي ، قال :

بني المصطفى ، قلب المتيم قد أبدى
لكم فرط وجد لا لسمى ولا سعدى
وقال :

قلبي بحبك ، والله قد جذبا ،
وظل فيكم عن الأغيار تحتجباً

ذكره الدكتور مصطفى جواد في بحث له عن الغناء والمغنين في العراق فقال : « . . .
وملا عثمان الموصلي الضرير كان من أعلام المغنين والموسيقيارين ، وله فيها تأليف ،
ويحسن قراءة المولد النبوي .

وكان من الخطباء المصاقيع في الحركة الوطنية بالعراق . أدركته ، وكان يضع على رأسه القلنسوة المولوية البيضاء من اللبد ، توفي قبل عدة سنين .

وقال محمد هاشم الرجب استاذ المقام العراقي في معهد الفنون الجميلة ببغداد :

«الشيخ عثمان الموصللي . . . وهو إمام أهل الفن في هذا المضمار (أي مضمار المقام العراقي) يتتبع القطعة ببراعة في الأسلوب ودقة في الأداء . يجيد الغناء بأفانيته ، يرتجل الشعر الرصين في المناسبات حسب البحور اللازمة لكل مقام ، كما يحسن الضرب على العود والنفخ بالناي والعزف على القانون . وهو كفيف» .

وقال جلال الحنفي : «كان كثير الاسفار في البلاد والتجول فيها . وكان صوته غليظاً أجش وفيه بحة — وإلى الملا عثمان تنسب عشرات التنزيلات والاشغال المولوية المستعملة اليوم في الموالد النبوية» .

وذكره أيضاً إبراهيم الدروبي في كتابه «البغداديون : أخبارهم ومجالسهم» باسم الشيخ عثمان البصير ، فقال انه كان يتولى تدريس علم التجويد والقراءات في جامع الخفافين ببغداد . ثم قال : «وكان حسن الصوت والأداء يخلب الألباب ويسحر العقول بنغماته الشجية ، فضلاً عن كونه كان عالماً فاضلاً وشاعراً . . . وله إلمام في الموسيقى ، وكان يحسن قراءة المولد النبوي» .

حدثني محمود صبحي الدفترلي عن ذكاء الملا عثمان الموصللي فقال انه كان يعرف الناس من صوتهم أو لمسة يدهم .

قال الدفترلي : سافر أبي فؤاد إلى استانبول سنة ١٩٠٥ ، فكان يجتمع دائماً بصديقيه موسى كاظم الباجه جي ووفيق الربيعي ، فيأخذون الملا عثمان إلى بعض الأندية أو المقاهي ويتمتعون بفكاهاته ولطائفه . وذهبوا مرة إلى المسجد الذي كان يعظ فيه ويقرأ الأذكار ، فلما أطال وأسهب ، نبهوه إلى وجودهم ، فقال منغماً في أثناء ترتيله :

يا فؤاد ، يا موسى ، يا وفيق ، إنني أنتهي قريباً ، فانتظروني . وحسب الأتراك الموجودون في المسجد أن ذلك من جملة التراتيل فكانوا يردون على أقواله : آمين ، آمين !

ولم يلتق محمود صبحي نفسه بملاً عثمان إلا في سنة ١٩٢٠ . كان يسير بصحبة أحد أصدقائه ، فتقدم محمود صبحي وسلم عليه وصافحه قائلاً إنني أتشرف برؤيتك لأول مرة ، أيها الملا المحترم ، ولكنني سمعت عنك الشيء الكثير من والدي . وتمايل جسمه يميناً ويساراً على عادته حين يفكر ، ثم قال على البديهة :

أوراق إخلاصي ، إذا ما كتبت ،
كلها محفوظة في مهجتي
تنشر في البلدان حسن الأسطر
ومهجتي عند فؤاد الدفترلي

الشيخ محمد السماوي

من شعراء المدرسة القديمة في العراق وذوي البصر بالكتب والمخطوطات القاضي الفقيه، وهو — كما سَمِيَ نفسه في تقرير قديم لكتاب «الروض الأزهر» الذي ألفه مصطفى نور الدين الواعظ ونشره ولده إبراهيم الواعظ — محمد ابن الشيخ طاهر التركي الفضلي الشهير بالسماوتلي، ولد في بلدة السماوة على الفرات سنة ١٨٧٦. ولما بلغ العاشرة من عمره أرسله والده إلى النجف فدرس في معاهدها، ثم قصد سامراء ولأزم عالمها الامام حسن الشيرازي. وعاد إلى مسقط رأسه سنة ١٨٩٧، ولبث متنقلاً بين السماوة والنجف حتى سنة ١٩١٣ حين قصد بغداد إذ أصبح عضواً في مجلس الولاية.

احتل الانكليز العاصمة العراقية سنة ١٩١٧ فإرحها إلى النجف، وعين قاضياً شرعياً بها في ٢٤ آذار ١٩٢١. ونقل قاضياً لكربلاء (حزيران ١٩٢٤) فبغداد (آب ١٩٢٥)، وعين عضواً بمجلس التمييز الشرعي الجعفري (١٩٢٦). وأعيد قاضياً جعفرياً في بغداد (كانون الاول ١٩٣١) فالنجف (شباط ١٩٣٤)، حتى أحيل على التقاعد سنة ١٩٣٥.

وقد قيل إنه فصل من الخدمة وفقاً لأحكام قانون ذيل قانون انضباط الموظفين بناءً على مسعى السيد محمد الصدر، فداعبه محمد علي اليعقوبي قائلاً، بحسب رواية جعفر الخليلي:

قل للسماوي الذي فلك (القضاء) به يدور
الناس تضربها (الذيول) وأنت تضربك (الصدور).

وسكن السماوي النجف بعد ذلك منصرفاً إلى عالم الكتب. وانتخب عضواً مراسلاً بالمجمع العلمي العراقي في ايار ١٩٤٩. وأدركه الحما في النجف في ١٦ تشرين الاول ١٩٥٠.

شعره ومؤلفاته:

نظم محمد السماوي الشعر، وهو في ميعه الصبا، فأكثر منه في الغزل والاخوانييات، ثم اقتصر في نظمه على مدح النبي وآله.

ومن مصنفاته: شجرة الرياض في مدح النبي الفيّاض (١٩١٢) ثمرة الشجرة في مدح العترة المطهرة (١٩١٣) إِبصار العين، في أنصار الحسين (١٩٢٣) ظرافة الأحلام (١٩٤١) تاريخ المعصومين، صدا الفؤاد (١٩٤١) عنوان الشرف في وشي النجف (١٩٤١) مجالي اللطف بأرض الطفّ (١٩٤١) وشائج السراء في شأن سامراء (١٩٤١) الكواكب السماوية في شرح قصيدة الفرزدق العلوية (١٩٤١) موجز تواريخ أهل البيت (١٩٦١) الخ...

ومن مؤلفاته المخطوطة: الطليعة في شعراء الشيعة (ثلاثة مجلدات) قرط السمع (أرجوزة في الربع المجيب). ونشر كتاب المدهش في علوم القرآن والحديث واللغة الخ... لابن الجوزي (١٩٣٠) ومقتل الحسين للموفق الخوارزمي (في جزئين، ١٩٤٨).

نهج في شعره على الطريقة القديمة، فاستهل أماديجه متغزلاً، كما قال في مدح الرسول الأعظم:

أخجلت جيد الريم بالالتفات
بسمت زهراً بشتيت اللّمي
تقول الناس بتحقيقه
ثغر إذا لحن ثناياه لي
جلا علينا فمه خرة
وقال في مدح علي السجّاد بن الحسين:

أبدي لي ممّ أحوار المقل
بتّ منها، وهي سكرى، ثملاً
تلفت نفسي، أما يرأف بي
وقال يتلهف على الشباب المدبر:

أبعد أن عرى الصبا أفراسه
خفض عليك فالمشيب قد أتى
لم تدع الخمسون منك جانباً
سوّد لي غصن الشباب كُتّبهُ
تطلب لإناس الهوى أو ناسه
يضحك منك كاشراً أضراسه
إلاً وهدّ مرها أساسه
ويبيض الشيبُ بها قرطاسه...
وقال متغزلاً في مطلع قصيدة له مدح بها السيد مصطفى نور الدين الواعظ مفتي
الحلة:

صليني، يا أميم، كما قطعت
فديتك قد شربت بهاء وجهي
أنتك أشتكي فصفحت عني
تقولين: السلوّ به حقيق
سلوّي مثل وصلك مستحيل
أجدك هل علمت طويل ليلى
وعاصي العاذلين كما أظعت
رضاك فما رضيت وما قبلت
كأنك ما رأيت وما سمعت
عفا الرحمن عنك، لقد ظلمت
فإن أسلو، ولن أسلو، وصلت
فإني قد سهرت وما سهرت...

وقال في النجف :

ألم على ذكــــــــــــــــوات النجف
هواءً نقياً تحفّ النفوس
وترباً زكياً يؤدّ الفؤاد
وعرفاً ذكياً يغير الكبا
وإخوان صدق رقيقي الطباع
كماة كرام يــــرون الشرف
يــــؤلفهم جــــامع من ولا
كان الجماهير حــــول الضريح
كان صفــــوفهم في الصلاة
كان العلــــوم إذا دارســــوا
سل الصحن كم فيه من لائذ
وكم فيه من مستقيل يقال
وكم فيه من ذاكر ربّه
ونظم محمد السماوي أراجيز في تاريخ النجف وكرهلاء والكاظمية وسامراء ، قال في مطلعها :

أحمد من قــــد أنشأ السماء
واختصّ بعض الخلق دون بعض
والأرض وامتــــازهما إنشــــاء
بفضله من السما والأرض . . .

قال جعفر الخليلي : « لم يعرف التاريخ عالماً في العصور المتأخرة أحاط بالكتب القديمة وتواريخها ومواضيعها وقيمة الكتب الأثرية ونفاستها كالشيخ محمد السماوي . . . فهو في عصورنا المتأخرة كمحمد بن اسحق (ابن النديم) صاحب الفهرست في عصره ، فقد كان السماوي مرجعاً فذاً في تبيين الكتب القديمة ومظان وجودها . . . وقد جاءته هذه الملكة من افناء عمره الطويل في جمع الكتب ، والمخطوطات بصورة خاصة ، وللكتاب في نفسه منزلة ما حاكها شيء معزّة وجباً وتقديساً .

ولقد روى الراون عنه ، على سبيل الفكاهة ، قوله : إنه عمل قاضياً أكثر من ثلاثين سنة (كذا) ، وكان يجنّب نفسه الاتصال بغير أصدقائه الخالص المنتقين ، وكان يرفض قبول أية هدية من أي شخص . . . حذراً من أن تشوب حكمه شائبة من العواطف . لقد قال : « لقد حاول الكثير إغرائني بشتى الطرق فلم يقلحوا لأنهم لم يكتشفوا نقطة الضعف في نفسي ، ولو عرفوا قيمة الكتب عندي ومنزلتها في نفسي لأفسدوا لي برشوة الكتب كل أحكامي ! »

وكانت له مكتبة نفيسة جمع فيها المطبوعات والمخطوطات النادرة ، ولقد طالما نسخ الكتب بخطه وجلدها بيده ليضّمّها إلى خزانته . وقد بيعت بعد وفاته وتفرقت مجلداتها .

وللشيخ محمد السهاوي رسائل ذات الديباجة القديمة ، منها ما كتبه في مقدمة رسالة إلى المفتي السيد مصطفى نور الدين الواعظ سنة ١٨٩٨ :

كفى حزناً أني أرى الورد حاضراً لـديّ ولكن لا سبيل إلى الورد
وما كنت أخشى أن تكون منيتي بكفّ أعزّ الناس كلّهم عندي
السلام الذي تهدّلت أغصانه النواضر، وتهلّلت غمائمها المواطر، وتنافحت نسائمه
العواطر، فضاء برقه، وضاع عبقه، وارتاح ودقه . والتحية التي تحيي القريض ، وتشفي
المريض ، وتبرد القلب الرميض ، وتلبس ثوب المجد الطويل العريض ، فهي أقرّ على
العين من رؤية الروض الأريض . والثناء الذي عذب رقيق لفظه وملح حرّ معناه ، وحلا
بيته على كل سمع ولد مغناه ، فهو أنظر من برد الشباب ، وأنضر من مواصلة
الأحباب ، يهديها وينيرها ويسديها :

مغرم ما تنفّست نسائم الجوّ (م) إلا وهيّجت أنفاسه
وإذا ما السوميض لاح تلظى وثنى طرفه وأطرق راسه
وهي طويلة نشر نصّها في كتاب الروض الأزهر في تراجم آل السيد جعفر لناشره
ابراهيم الواعظ . وختمت الرسالة بقصيدة طويلة في مدح المفتي ، ومطلعها :
صليني ، يا أميم ، كما قطعت وعصا صي العاذلين كما أطعت
حتى يقول :

همام قد تفجّع من همام بأصل طيّب في المجـد بـحث
لقد غرسته دوحه آل فـهر بأطيب تـربة وأعـزّ نبت
أطاب الخلق منه حسن خلق وزان الصمت منه حسن سـميت
تجمّع في علاه كلّ وصف وحاز على علاه كلّ نعت
الخ

رضا الهندي

الشاعر رضا الهندي ابن السيد محمد بن هاشم الموسوي ، ولد في النجف سنة ١٨٧٣ ، ودرس على محمد كاظم الخراساني المعروف بـ«الأخوند» . وقد تفقّه في علوم الدين وقرض الشعر فجوّده .

كتب عنه جعفر الخليلي في الجزء الأول من كتابه «هكذا عرفتهم» فقال إنه بارع النكتة، لطيف المحضر، لم تنحصر صفاته بالأدب، بل كان فقيهاً غزير المادّة، واسع الاطلاع، له في العلوم الدينية، ولا سيما الردود على الذين تناولوا الدين الاسلامي، جولات وصولات... وقال انه ولع بالبديع ولعاً كبيراً، ووضع «مقامات» هي شعر إذا شئتُها شعراً يبحور مختلفة وقوافٍ متنوعة، وهي نثر إذا شئتُها نثراً مسجّجاً أو مرسلأ. وله تواريف شعرية غريبة في بابها، ومن قصائده التي اشتهرت «الكثرية»، ومطلعها:

أمفلج نغرك أم جوهر ورقيق رضابك أم سكر؟
قد قال لنغرك صانعه: «إننا أعطيناك الكوثر».

وروى جعفر الخليلي طرفاً من لطائف رضا الهندي، ومنها أنه حكّم ذات يوم في قضية أدبية - وكان يحسب نفسه محقاً فيها - فحكم لخصمه. وغضب الخليلي لذلك الحكم، فقال له الهندي: «إذا كنت تريد العراك وكنت شجاعاً، فيجب أن تبحث عن «تركي» حاد المزاج لا أن تقصد «هندياً» بارد الطبع مثلي».

توفي السيد رضا الهندي في حزيران ١٩٤٣ في الفيصلية.

طبعت قصيدته الكثرية في مدح أمير المؤمنين علي بن ابي طالب، وطبع من مؤلفاته: بلغة الراحل، الميزان العادل بين الحق والباطل (١٩١٣).

عبد الحق الأعظمي

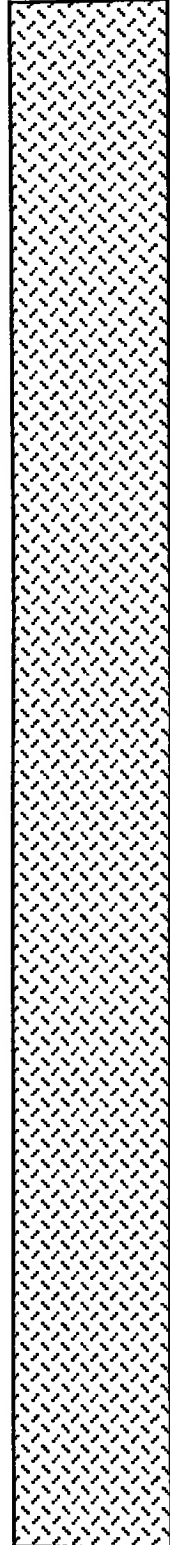
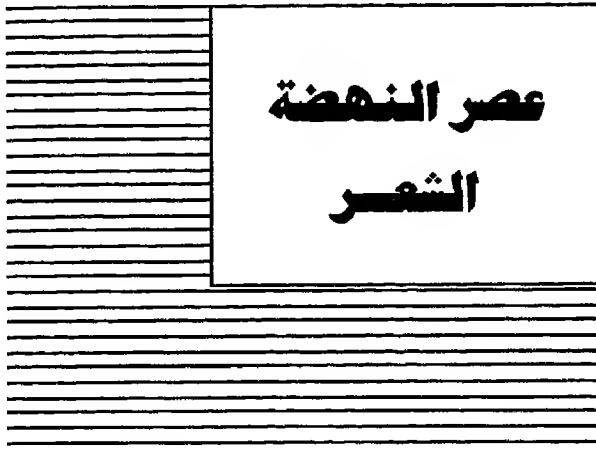
عبد الحق حقي الأعظمي الشاعر الأديب ولد في الأعظمية من ضواحي بغداد سنة ١٨٧٣ ودرس في معاهدها. ثم مضى إلى الهند، وهو شاب، فعهد اليه بالتدريس في كلية عليكره (وهي مدرسة أنشأها في تلك المدينة سنة ١٨٦٤ السر السيد أحمد خان ليجمع فيها التعليم الاسلامي القديم إلى العلوم العصرية، وقد رفعت إلى مصاف الجامعات سنة ١٩٢٠).

عاد الأعظمي إلى بغداد بعد الحرب العظمى الاولى ونشر شعره في المجلات والجرائد. وألف: أعجب العجب من أحوال العرب (طبع بالقاهرة، ١٩٢٢).

أثنى عليه الشيخ محمد رشيد رضا صاحب مجلة «المنار»، وقد عرفه حين زار الهند سنة ١٩١٣ وقال إن الأعظمي كان مدرس اللغة العربية في مدرسة العلوم الكلية.

سافر إلى مكة فوافته منيته بها سنة ١٩٢٤، كما يستفاد من رثاء له بتوقيع «زهير» نشر في جريدة الضاد البغدادية لصاحبها محمد صالح سليم السهروردي (في العدد الخامس المؤرخ ٢٥ آب ١٩٢٤)، ومطلعه:

بكى العراق بدمع سال منسكبا
تالله قد كان عبد الحق بدر هدى
العلم من بعده قد بات منكسراً
والأعظمية في ثوب الحداد غدت
منّا عليك سلام كلما قرئت
على الذي يتّم الأعلام والأدبا . . .
يهدي الورى غير أنّ اليوم قد غربا
والشعر من بعده قد صار منعطبا
تقول: أين نزيل الهند قد ذهباً؟
قصائد لك كانت تسحر الأدبا



جميل صدقي الزهاوي

شاعر النهضة الأدبية جميل صدقي بن مفتي بغداد محمد أمين فيضي الزهاوي ولد ببغداد في ١٨ حزيران ١٨٦٣ وتوفي بها في ٢٣ شباط ١٩٣٦ . كان نائباً في مجلس النواب التركي وعضواً في مجلس الاعيان العراقي . وقد ترجمت له في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية» ترجمة وافية . اهتم الزهاوي بتحرير المرأة واتخذ شعره أداة للدعوة إلى تثقيفها وانهاضها . وكانت شقيقته الأنسة أسماء الزهاوي من رائدات النهضة النسائية ، إذ أسست «جمعية النهضة النسائية» في بغداد سنة ١٩٢٤ وانتخبت رئيسة لها . وعهدت بنبابة الرئاسة إلى السيدة نعيمة قرينة نوري السعيد .

عين الزهاوي على أثر احتلال بغداد عضواً بمجلس المعارف في أول ايلول ١٩١٨ واستمر فيه إلى ٣١ تموز ١٩٢١ . واختير في ١٩ شباط ١٩٢٠ مدرساً للغة العربية بمدرسة الحقوق . وعين رئيساً للجنة تعريب القوانين التركية في نظارة العدلية في أول آذار ١٩٢٠ حتى الغاء اللجنة في ٣٠ حزيران ١٩٢١ .

انتخب نائباً عن المتفق في مجلس المبعوثان (١٩١٢) وناب عن بغداد في المجلس الذي تلاه . وقد عاد إلى بغداد قبيل نشوب حرب ١٩١٤ فبقي فيها ولم يعد إلى استانبول لحضور جلسات المجلس النيابي بخلاف زميله معروف الرصافي نائب المتفق الذي لبث في العاصمة التركية إلى سنة ١٩١٩ .

وقد اشترك الزهاوي مراراً في مناقشات المجلس ، فاعترض على جباية الضرائب من دور الفقراء واعفاء قصور الأمراء ووصيفات آل عثمان . وانتصر لحرية الصحافة عند بحث قانون المطبوعات فقال : أثبت تاريخ الأمم أنه كلما اشتد تضيق الخناق على حملة الأقلام والأفكار كان الانفجار عظيماً . وطالب الحكومة بجعل الأحكام العرفية تابعة للتميز . وطلب جعل اللغة العربية لغة رسمية للمحاكم في العراق تحقيقاً للعدالة ولغة التدريس في المدارس . ودعا إلى تأسيس كلية طبية في بغداد أسوة بدمشق . وناقش شؤون الزراعة ودعا إلى العناية بها .

وذكر سليمان فيضي في مذكراته «في غمرة النضال» أن بعض القادة البحرين أوقفوا أوقافاً تصرف غلتها للأئمة الذين يقرأون البخاري في السفن الحربية . قال الزهاوي عند المذاكرة في ميزانية القوة البحرية إن البواخر تسير بالبخر لا بالبخاري وطالب بإنفاق

تلك الغلة على نشر التعليم ليتقن الناس استعمال البخار.

وفي مناسبة اخرى قال الزهاوي إن الآية الكريمة ﴿إِنَّ الْأَرْضَ يَرثُهَا عِبَادِي
الصَّالِحُونَ﴾ لا تعني بالصالحين العباد والنساک بل تعني الصالحين لإعمارها ، وقوبلت
كلماته بالضجيج والاستنكار والتكفير.

وكان في العهد الملكي عضواً بمجلس الأعيان (الشيوخ) (١٩٢٥ - ٢٩) فكانت
الكلمات التي ألقاها ينصبّ معظمها على شؤون لغوية ولفظية . . ولما انتهت عضويته
في المجلس ، وقد سقط بالقرعة ، ولم تجدد قال يخاطب نفسه :
سقطت فلا تحزن على ما فقدته ، فما أنت بين السَّاقطين بأول
فكم من وزير كان قبلك قد هوى (كجلمود صخر حطّه السَّيل من عل) .

الزهاوي المتشكك :

كان الزهاوي متشككاً فحيناً مؤمناً وحيناً جاحداً وتارة اخرى لا أدرياً . وقد استهوته
نظرية التطوّر (أو كما كانت تدعى آنئذ : نظرية النشوء والارتقاء) ، فطالع آراء داروين
وهكسلي وغيرهما كما ترجمها «المقتطف» وعبر عنها الدكتور شبلي شميل والدكتور
يعقوب صروف وفرح أنطون وإسماعيل مظهر . ونظم هذه الآراء في قصائده رغبة منه في
التجديد كما نظم سواها من الأفكار العلمية والأخلاقية .

ولم يفهم نظرية داروين على حقيقتها ، فظن أن الإنسان حسب نظرية التطور
متحدّر من القرد فقال :

رجعت إلى الماضي البعيد بفكرتي وقلت لقرد الغاب : يالك من قرد
تقلبت في الأصلاب دهرأ وبعده نسلت ابنك الإنسان نادرة الولد
وقال أيضاً يخاطب الإنسان :

هل أنت إلّا واحد من القـرود في النسب ؟
ألم تكن وأنست في طـطـور الجنين ذا ذنب
مشابهاً جنين حيوان لـواسـطـساع وثب ؟

وعلماء التطور إنما قالوا ان جدّ الإنسان والقرد كان واحداً قبل مئات الملايين من
السنين ، ثم اختلف النسلان على مرّ الدهور فأنجبا الإنسان والقرد في خط متواز كلا
منهما بمعزل عن الآخر . وقد قلت في ذلك :

يا قرود الغاب ، نقريرك السلام ،
جدّنا كان لكم نعم الرفيق
أخرج الصوت شيهأ بالكلام ،

ترك الأدغال وارتاد الطريق . . .
 زرع القمح وأنواع النباتات ،
 شيد الدور وقد أحى الفلاة ،
 وتعالى سيد الأرض المطاع .
 ومضى يوماً إلى الغاب البعيد
 فأتى بالقرى في طوق الحديد
 هزاةً يسلوبه هم الصراع . . .

آمن الزهاوي بالعقل واتخذ نبراس الوجود وحاول أن يستغني به عن الإيمان . لكن
 العقل قاصر يعجز عن ادراك منشأ الكون وخائمه وتصوّر اللانهاية المكانية والزمانية .
 وحرار العقل في تحليل انبثاق الحياة وتطورها ، فاكتفى الزهاوي بأن قال :

ما حياة قديمها غير باد لك الا تطوّر في الجماد
 وقال :

رقيت من الجماد فصرت حياً
 وبيننا نراه يكبر سلطان العقل إذا به يقول :
 للكـون فيـنا بـدا لي ظـواهر وخفـايا
 ما قام فينا حكيم يحلّ بعض القضـايا . . .

وهو يمعن في الإنكار في «نزغاته» التي نشرها هلال ناجي في القاهرة (الزهاوي
 وديوانه المفقود، ١٩٦٣) فيقول :

توقفت لا أدري تجاه الحقائق
 لكن وثق الجمهور بالله خالقاً
 لكنه في آخر الأمر يرتد نادماً ويستغفر قائلاً :
 أنا فيما أبديته من مقال
 شهد الله والملائكة الأبرار
 أنني خلقت الله أم هو خالقي ؟
 فربّ حكيم بينهم غير واثق !
 مخطيء ليس لي أقل استناد
 أنني ركبت غير السداد . . .
 وكذلك كان الزهاوي مؤمناً جاحداً لا أدرياً ، حكيماً حائراً متردداً ، جمع العبقريّة في
 نقائضه وتقلباته .

جميل صدقي الزهاوي
 رواية ليلى وسمير :

(نظمها سنة ١٩٢٧ ونشرها في مجلة لغة العرب)

يفتح المشهد الأول بزنب تغني اغنية النوم لابتها ليل حين كانت طفلة :

نعتت بعد الرضاع وللنعاس دواعي
تغنين فـوق ذراعي والآن في المهـد نـامي
وهي أغنية رقيقة ساذجة العواطف تمثل نفس الشاعر الوجداني المحب للطفولة
والبشرية .

ثم تكبر ليلى فيحبها الفتى سمير وتبادلـه الحب . ويلتقي الحبيبان على شاطئ دجلة
في ليلة قمراء ويتحدثان في أمر الزواج . لكن الشيخ عبد الله رجل الدين الكهل الذي
طلق نساءه الثلاث واحدة بعد واحدة يرسل الخطابات إلى أم ليلى فتردهن . ويحترض
الشيخ الولي على سمير متهاً إياه بالطعن في الذات السلطانية ، فلا يجد سمير مناصاً
من الهجرة إلى خارج العراق وتقديم الشكوى إلى السلطان فيأمر هذا واليه بالكف عن
تعقيب الفتى البغدادي .

يعود سمير إلى ليلاه ويستعد لعقد قرانه . لكن الرجل المسمى رجب الذي يتظاهر
بصدقة سمير ويكشف أسرارـه للشيخ عبد الله يكتب نشرة مقلداً خط سمير وفيها حث
على الثورة باسم الحرية . ويتهم سمير بالجريمة ويقبض عليه ، بينما تمرض زوجته بعد
ولادة عسيرة وتقضي نحبها . ويختتم شاعرنا روايته بقصائد حزينة أولاهـا لليلي في ساعة
موتها ، والثانية لزينب على قبر ابنتها . ويطلق سراح سمير بعد اعلان الدستور واطلاق
الحریات ، وقد مضى على نفية عامان ، فيعود ليرى طفله لأول مرة ويسمع خبر موت
زوجته ، فيلقي على جدتها قصيدة شجية :

هل ما أراه قبر ليلـى مائلاً يبدو أمامي
كذبوا فإنك في ظلام القبر يوماً لم تنامي . . .
سيظل طرقي هامياً يسقي ثراك على السدوم
ويظل قلبي خافقاً مما يقاسي وهو دامي
نوادير الزهاوي :

كان جميل صدقي الزهاوي في شبابه وكهولته مرحاً بعيداً عن التزمـت واصطناع
الوقار .

قال ناجي شوكت في كتابه «سيرة وذكريات ثمانين عاماً» : «كنت خلال هذه الفترة
(سنة ١٩١٦) أتردد على دار العم مراد سليمان في أغلب الليالي . وكانت الدار المذكورة
تضم من المداومين الدائمين السادة جميل صدقي الزهاوي وأحمد القيقاجي (من ظرفاء
بغداد المعروفين) وعزت الفارسي وعبد الرزاق الشيخ قاسم والدكتور سامي سليمان .
وكان الزهاوي يسمعنا من شعره كل طريف ولذيد ، كما كان يسمعنا عن آرائه في الكون
والعلم كل غريب ، أما القيقاجي فكان يبتكر لنا الحكايات المضحكة التي تدخل
السرور على قلوبنا» .

ثم يذكر ناجي شوكت سهرات ليالي الجمعة في دار مراد سليمان الواقعة في الصليخ ،

وهي سهرات أنس وطرب . قال : « وكان الزهاوي ينقلب في مثل هذه الليالي التي تمتد حتي الصباح إلى شخصية أخرى لا تمت إلى العلم والشعر بصلة . وعند الفجر كنا نشكل دائرة (حلقة) حول الزهاوي رحمه الله ونردّد الأغنية المعروفة « يا مسعد الصبحية » . .

ومن النوادر التي تروى عن الزهاوي أنه شوهد ذات ليلة في استانبول يسير في بعض الشوارع المشبوهة ، وكان آنذاك يرتدي الجبة والعمامة .

فراه شرطي من شرطة الآداب وقال له : أيها الخوجة (الملاً) ، ماذا أتى بك إلى هنا؟ وأصرّ على أخذه إلى دار المشيخة الإسلامية . لكن شاعرنا تصنّع جهل اللغة التركية وأجاب بالفارسية أنه غريب وقد ضلّ طريقه . فأخذه الشرطي إلى دار السفارة الإيرانية وأخلّ سبيله .

وكان الزهاوي يداوم الحضور في بغداد في مجلس محمد باشا الداغستاني . وكان لهذا القائد حديقة كبيرة ملاصقة لداره ، وفيها أقفاص للأسود والحيوانات الضارية الأخرى . وكان من الذين يحضرون المجلس مدير الشرطة التركي ، وهو رجل ضخم الجثة ، شديد البأس ، يبالغ في أحاديثه ويروي عن نفسه قصص بطولة عجيبة . وضاق الزهاوي ذرعاً بمفاخراته ، فقال ذات يوم في المجلس الحافل : « هل تعلمون أن هرتز فلد العالم الألماني قد اكتشف في خرائب سامراء آثاراً غريبة ؟ وقد وجد في ضمنها صندوقاً أكل الدهر عليه وشرب فقضه ووجد في داخله صندوقاً ثانياً وثالثاً ورابعاً . . »

وظلّ الزهاوي يواصل وصف الصناديق المحفوظة أحدها في داخل الآخر ، فقال له الحاضرون : « وماذا كان في داخل الصندوق الأخير ؟ » قال : « وجد العالم في الصندوق الأخير ورقة عليها كتابة ، فأكبّ على حلّ طلاسمها ، فإذا فيها : لعن الله الكاذبين ! » .

وغضب مدير الشرطة وتحدى الزهاوي أن ينزل معه إلى قفص الأسد فيصارعه . وقبل الزهاوي التحدي ، فقام مدير الشرطة ونزع معطفه وقميصه واستعد للدخول في قفص الضواري ، لكن الزهاوي أسرع بترك المجلس والخروج هارباً . وقد ضاق الزهاوي ذرعاً بأحد الكذابين فقال فيه :

وملّح بحياة البحر معرفة ما حازها أحد في العصر الأول
فقلت : صف لي كيف الحوت ممتحناً ، فقال لي : الحوت ذو قرنين كالجمل

وكان أصدقاء الزهاوي كثيراً ما يقسون في مداعبته . فمن ذلك أنه كان يحضر مجلس مراد سليمان صباح الجمعة ، فأعدوا له مهزلة أحكموا نسج خيوطها للسخرية منه . كان في بغداد رجل مهرّج يقلّد أصوات النساء ، فاستدعي وكلف أن يرتدي الملابس النسائية ويضع على وجهه النقاب ويأتي إلى دار مراد بك صباح الجمعة ليطلب مواجهة الشاعر الفيلسوف .

وفي ذلك الصباح ، والمجلس حافل بزوّاره من أعيان بغداد وأدبائها ، والزهاوي

جالس يبهر الحاضرين بشعره ونوادره ، إذا بامرأة محجبة تدخل إلى باحة الدار وتصرخ بصوت نسائي رفيع : « اين جميل الزهاوي ؟ لقد وعد بزيارتي مراراً وأخلف وعده . . » واستمرت على الصراخ بكلام في هذا المعنى ، والزهاوي يقول : « والله لا أعرفها ، ولم أرها من قبل » ، ويطلب من صاحب الدار أن يجدوا له نجباً وأن يصرفوا تلك المرأة الرعناء . وبعد ضحك طويل هذأوا من روعه وجاؤوا بالمرأة وأمروها برفع حجابها ، فإذا هي رجل يسعى .

وكان الزهاوي يقرأ شعراً له في مجلس محمود صبحي الدفترى فانتقده عارف حكمت . فقال الزهاوي : إذا دخل عارف في الأدب فإننا نخرج عن الأدب ! ونظم الشاعر قصيدة وأبردها إلى مجلة الهلال المصرية للنشر ، ولم يكد يرميها في صندوق البريد حتى بدا له أن يغير كلمة فيها ، فأسرع إلى الدكتور فائق شاكر مدير البريد والبرق العام وقال له : أرسلت قصيدة بالبريد إلى مجلة الهلال في القاهرة اليوم وأريد أن أصحح بعض أبياتها ، فأرجو أن تأمر باستخراج الرسالة وإعادةها إلي . قال المدير العام : إن استخراج رسالتك ، يا استاذ ، من بين آلاف الرسائل المبردة أمر عسير والأفضل أن تردفها برسالة ثانية تصحح فيها ما تريد تصحيحه . قال الزهاوي : ولكنني لا أريد صاحب «الهلال» ومحرريها أن يعلموا أنني أصحح قصائدي بعد نظمها ! واضطر الدكتور فائق شاكر أن يأمر موظفيه بفرز الرسائل المبردة إلى مصر واستخراج رسالة الزهاوي وإعادةها إليه .

وقد حيّا الفنانين والفنانيات المصريين الذين قدموا إلى العراق ، وعمره يقارب السبعين ، بقصائد عاطفية كفاطمة رشدي ويوسف وهبي ومحمد عبد الوهاب ونادرة وأم كلثوم وغيرهم . وقال :

ليس الحديث عن الهوى	من شاعر شيخ جريرة
واعترض عليه بعض المترمّنين فقال :	
يريدون أن أحيا بعيداً عن الهوى	فلا تبغني عيني الحسان النواهدا
يريدون أن لا أهبط الروض منصتاً	لشاد وأن لا أطري الزهر حامدا
وما كنت في دنيا إليّ حبيبة ،	وإن كدت استوفي الثمانين ، زاهدا
أجل ، كنت عيناً في زماني ونائباً	ولكنني ما كنت للذوق فاقدا

الزهاوي في مهرجان الفردوسي :

أوفد الزهاوي لتمثيل العراق في مهرجان الفردوسي الذي أقيم في طهران في تشرين الأول ١٩٣٤ ، وكان معه «تلميذه» أحمد حامد الصراف .

ألقى الزهاوي قصيدة رائعة بالفارسية في المحفل الذي عقد برعاية رضا شاه بهلوي وحضور رجال الدولة والأدب والمستشرقين . وكان قد أعد القصيدة في بغداد قبل سفره وقرأها على فهمي المدرّس فاستحسنها . ولما فرغ الزهاوي من القائها ضجّ المجلس بالتصفيق ، وقام إليه الصدر الأعظم رئيس وزراء إيران فقبل يده تقديرًا لأدبه واعترافًا بفضله .

عاد الزهاوي إلى الفندق فاستدعى إليه الصّراف وقال له : يا ولدي أحمد ، هل رأيت الصدر الأعظم وما فعله حينما فرغت من انشاد قصيدي ؟ قال : أجل ، يا استاذ ، رأيته يسحب يدك على ملأ من القوم ويقبّلها . قال الزهاوي : احفظ ذلك جيداً ، يا ولدي ، فأنت شاهدي الوحيد في بغداد !

حدثني أحمد حامد الصّراف ان عبد الاحد حبّوش أصدر مجلة أدبية باسم «الزنبقة» سنة ١٩٢٢ ، فقال له : أرجو أن تعرفني بالزهاوي لكي أسأله نشر شعره في مجلتي .

قال الصراف : اخذت عدد المجلة فوجدته مصدراً بقصيدة لمعروف الرصافي ، فقلت لصاحبي : هلّم نذهب إليه الآن . وذهبا إلى داره ، فأعطى الصراف العدد إلى الخادم وقال له : إذا جلسنا بضع دقائق فجيء به وسلمه إلى الاستاذ .

وقدم الصراف صاحبه إلى الزهاوي وقال انه من الشباب الناهض المثقف ، وقد أصدر مجلة أدبية راقية ، وهو يرجوك أن تعطيه شيئاً من شعرك الجديد لنشره .

سرّ الزهاوي ورّحّب بالأديب وقال له : اننا بحاجة إلى مثل هذه المجلات كي لا نكون عالة على المصريين واللبنانيين

وفي تلك اللحظة دخل الخادم وقدم المجلة إلى الزهاوي ، فقال الصّراف : هذا عدد المجلة واسمها «الزنبقة» .

وأخذها الشاعر وفتح صفحتها الاولى فوجد قصيدة الرصافي تحتل منها محل الصدارة ، فقذف بها في الهواء حيث دارت دورتين أو ثلاثاً ثم سقطت على الأرض . وقال : يا رجل ، إذا كنت من أتباع الرصافي المعجبين به فلم تأني إليّ وتريد نشر قصائدي ؟ ألا تعلم أن في أوروبا لكل شاعر أتباعاً ، فالذي يتأثر خطي فكتور هوغو لا يقصد لامارتين ، وهكذا ؟ . .

وخرج حبّوش خجلاً يجرّ أذيال الخيبة .

وأقول : زرت جميل صدقي الزهاوي مرتين أو ثلاثاً قبيل وفاته في داره ببغداد في الشارع الذي سمي بعد ذلك باسمه . وكان يشكو كثرة متاعبه الأدبية ، ويقول ان نظم الشعر يؤرقه ويهدّ من قواه . وقال مرة ان مجلة «الهلل» سألته عن رأيه في شؤون أدبية واجتماعية وماله علاقة بنهضة الشرق ، وهو يعاني تعباً في الردّ وفي ارشاد الأدباء والمتأدبين الذين يتوافدون عليه للاستماع إلى آرائه . ومع ذلك فهو يشعر بواجب أدبي عليه في رعاية الجيل الطالع وتوجيهه بالرغم من شيخوخته وعجزه .

معروف الرصافي

شاعر العراق معروف بن عبد الغني بن محمود ينتمي إلى قبيلة الجبارة القاطنة في أنحاء كركوك . ولد في بغداد سنة ١٨٧٥ وتوفي بها في ١٦ آذار ١٩٤٥ . أقام الرصافي دولة للشعر في القرن العشرين وخلّد اسمه بين الشعراء الأفاض كالفرزدق وجريّر وأبي تمام والمتنبي ، فسارت قصائده مسير الأمثال في الاقطار العربية وسحرت أجيالاً من شدة الادب . شبهه عبد القادر المغربي بالبحثري في مزية السهولة ونممة الديباجة ، ولكن أين البحثري من معاني الرصافي والآفاق الرحبية التي فتحتها النهضة الحديثة في ذهنه العبقري ؟

وردت ترجمته الوافية في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث» .

حينما ألفت الحكومة الوطنية في العراق لأول مرة منذ العهد العباسي السالف وأسند العرش إلى الملك فيصل الهاشمي ، أراد العاهل القادم إلى وطنه الجديد إشراك اتباع المذهب الشيعي في الحكم شيئاً فشيئاً بعد أن كانوا بمعزل عنه في العهد التركي المتعصب لسنتيه . ولم يجد الملك ولا الانكليز رجالاً من الشيعة يليقون للمناصب الإدارية والوزارية أو يرضون بتبوءها ، فدعوا إلى الوزارة بعض رجال الدين والوجاهة الذين رفضوها في بداية الأمر ثم قبلوها . والتفتوا إلى الشعراء والادباء من الكهول والشباب ، فهتّى لمحمد حسن أبي المحاسن ومحمد رضا الشيبسي وأمثالهما أن يصبحوا من وزراء الدولة . أما الشعراء من أهل السنة فلم يلوا من المناصب سوى التدريس وعضوية مجلس المعارف ، واللجان العلمية ، وكانوا بعد ذلك نواباً وأعياناً . وكان ذلك مدعاة لتذمر الزهاوي والرصافي وأمثالهما الذين نفسوا على زملائهم من الشيعة مناصبهم الوزارية .

شعر الرصافي أكثر من سواه باستهانة الملك والحكومة بأمره وعدم منحه ما يستحقه من التبجيل والإكرام . ومع أنه ظل يمدح ويرثي في كل مناسبة عرضت فإنه لم يترك التذمر والتمرد حين يجتمع بأصحابه وأخصائه . وقال سنة ١٩٢٢ مخاطب رجال الحكم :

وقاطعين إلى ما أبتغي طريقي
وما علمت الذي ترضون من خلقي
حتى يكون لديكم جائز السبق؟
أو كـان حق فيني أحق الحمق

يا مبعديّ بظلم عن مناصبهم
علمت كلّ خفيّ من ضمائرهم
ماذا يوافقكم من شأن صاحبكم
إن كان عقل فيني عاقل فطن
وقال أيضاً متجنّياً ناقماً :

وأوطان وليس لها حدود
وملكة وليس لها نقود

لنا ملك وليس له رعايا
وأجناد وليس لهم سلاح

أيكفيننا من التدولات إتنا
وكم عند الحكومة من رجال
كلاب للأجانب هم ولكن
وقال:

علم ودستور ومجلس أمة
أسماء ليس لنا سوى ألفاظها
وقال:

دار ذا الدهر مداره
كم وزير هو كالوزير
فرأى الناس ازوراره
على ظهر الوزارة!

وزار المس جزرود بل يعرض اخلاصه ويطلب الإقالة والعون، ثم يقول في الوقت نفسه:

لقد جمع الدهر المكاييد كلها
فصاغ طباع الانكليز من الندي
بقدر كبير صيغ من معدن الحبث
تقاطر في الانبيق كالطر الدث . .

وحاول مغادرة العراق . فردّه عبد المحسن السعدون رئيس الوزراء الذي كان يودّه ويرعاه . وقد شكّا إليه حاله فقال :

أعبد المحسن السعدون ، إني
لذلك قد أتيت إليك أشكو
أراك منطأ أسباب السرجاء
رثائفة بزقي وبلى كسائي
فقد رقت ثيابي اليوم حتّى
تكاد تذوب من مسّ الهواء

وما هذه النعمة وذلك التمرد سوى مظهر من مظاهر العبقريّة التي تعتقد أنها مستهان بأمورها غير حائزة للتقدير الذي تستحقّه . لكن الحكومة لم تغفل أمره ، فقد عيّنته مفتشاً بوزارة المعارف واستاذاً بدار المعلمين العالية ، ثم انتخبته نائباً في مجلس النواب بالرغم من معارضته وتركه بغداد إلى بلده الفلوجة ليقوم فيها في رعاية الوجهاء من آل عريم .

وكان راتبه يكفي لسدّ رمقه وهو الفرد الذي لا عائلة له ينفق عليها . ولم يعدم أصدقاء أوفياء ومحبين مقدّرين لشأنه يسعفونه ويرعون به بلا منّ ، ومنهم فخري الجميل وعبد اللطيف المنديل وخالد سليمان وحكمت سليمان ومظهر الشاوي .

ولما رأى نوري السعيد ، الذي طالما مدحه الرصافي وهجاه ، ان راتبه التقاعدي لا يقوم بأوده خصّص له جعلاً من المخصصات السريّة يذهب به إليه صديقه محمود السنوي في كل شهر . ومع ذلك هجاه فقال :

ان نوري السعيد قد كان قبلاً آدمياً فرّطاً بالمسوخ فرداً
ولم تقم حركة رشيد عالي الكيلاني الوطنية سنة ١٩٤١ حتى بادر إلى تأييدها والتنديد
برجال الحكم السابقين .

لقد كان الرصافي كسواه من الشعراء متردداً بين السلب والإيجاب ، يرضى حيناً
ويغضب أحياناً لدواع نفسية وظروف طارئة ، مفيداً من الفرص العارضة وناقماً عليها
ضائقاً بها ذرعاً في آن واحد .

وقد قال مصطفى علي مؤرخ الرصافي ورواية شعره ان الرصافي يعاف الذل ويأبى
الاستعباد ويأنف من الدنية ، ويكره الاستعمار ويحتويه فلا يرضاه لبلاده ولا لأمتّه . وقد
حاربه ما وسعه أن يحاربه ولم يهادنه حتى فارق دنياه . وقال مصطفى علي ان الرصافي في
شعره الذي ندد فيه بالوضع السياسي في البلد إنما كان لرغبة منه في مصارحة أمتّه
والامتناع عن غشها فيقول خلافاً لما كان يرى ، فلم يكتف ما كان يشعر به بل كان يعلنه
ويذيعه لما طبع عليه من الصدق والاخلاص والشغف بالحقيقة . واستشهد بقول
الرصافي :

أما الحياة فشيء لا قرار له يحيا بي المرء موقوتاً إلى حين
سيان عندي أجراء الموت مخترماً من قبل عشرين أم من بعد تسعين

ولقد حاول بعض الأدباء والمتأدبين بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ أن يقولوا إن الرصافي
كان مضطهداً في العهد الملكي معوزاً لا يجد من التقدير والرعاية ما قد كان أهلاً له .
والحقيقة أنه بالرغم من تنديده بالملك ووزرائه في عهد الانتداب لم يفصل من مناصبه
الرسمية ولم يحرم من النيابة . وقيل انه كان في خلال الحرب العالمية الثانية يبيع السكاير
لسد رمقه . وحقيقة الأمر ان راتبه التقاعدي والمخصصات السرية التي كانت تقدم له
والاعانات السخية التي ترده من محبيه والمعجبين به كانت تزيد عن حاجة رجل فرد لم
يعرف بالإفراط ، لولا أن خادمه عبد كان يستولي على ماله ويسطو على المآكل النفيسة
التي تهدي إليه ، كما ذكر ذلك تفصيلاً مؤرخه مصطفى علي . وقد حذر الرصافي كثيراً
من خيانة خادمه ، فلم يهتم ولم يطرده .

أما قضية بيعه للسكاير فالحقيقة ان صديقه الشاعر أنور شاول ، وقد كان محامياً
لشركة طبارة وعبود صاحبة معامل السكاير ، رأى أن يفيد الرصافي بعد أن أصبحت
السكاير تباع بأسعار باذخة في السوق السوداء ، فحمل الشركة على تخصيص كمية منها
له في كل شهر . وكانت تباع هذه السكاير مباشرة ويقدم فرق أثنائها إلى الرصافي دون
مشاركة أو جهد منه .

وضع الرصافي قصصاً شعرية استوحى مواضيعها من البيئة العراقية المحلية . ويزي
في الوقت نفسه الشاعر المصري الكبير اللبناني الأصل خليل مطران (١٨٧٢ - ١٩٤٩)

ينظم قصصاً متعددة، غير أنه استمدّ مواضيعه من مصادر أجنبية وتاريخية كمقتل بزرجمهر ونبيرون وشيخ أثينا وقتلة الجبل الأسود الخ.

محمد رضا الشبيبي

نابغة من نوابغ الشعراء المتأخرين وزعيم وطني معروف المنزلة، ولد محمد رضا الشبيبي في النجف في ٦ ايار ١٨٨٩ وتوفي في بغداد في ٢٦ تشرين الثاني ١٩٦٥. تولى وزارة المعارف مراراً وكان رئيساً لمجلس الاعيان ورئيساً لمجلس النواب وعضواً بالمجمع العلمي العربي في دمشق ومجمع اللغة العربية في القاهرة ورئيساً للمجمع العلمي العراقي. ومنحته جامعة القاهرة سنة ١٩٥٠ مرتبة الدكتوراه الفخرية في اللغة العربية والدراسات الإسلامية. ترجمت له ترجمة وافية في «أعلام اليقظة الفكرية».

قالت المس بيل في رسالة لها إلى أبيها تأريخها ٤ كانون الأول ١٩٢٠ أنها حظيت بزيارة ممتعة من الشيخ محمد رضا الشبيبي الذي عرفته سنة ١٩١٨. وقد ذهب فجأة إلى الحجاز وسورية حيث كتب مقالات شديدة ضدّ بريطانية في الصحف المحلية منتقداً طريقة حكمها هذه البلاد. ويظهر أنه أصيب بخيبة أمل من جراء استقرار السوريين في ظل الحكم الفرنسي، فأتى يعبر عن قناعته بأن ما يفعله الانكليز هنا هو الصحيح. وقالت إنه رجل معروف وله قلم ساحر، فإذا تعاون معنا مجازفاً بأن يدعوه المتطرفون انكليزياً فقد يكون ذا قيمة لا تقدر.

الشبيبي والمجالس الادبية

في صيدا والشام:

قضى محمد رضا الشبيبي في ربيع الشام شهوراً سنة ١٩٢٠ فاجتمع بأدبائها من الشباب الناهض الذي حلم بالوحدة العربية واستبشر بقيام الحكومة الفيصلية. وعقد المجالس الأدبية في صيدا مع سليمان الظاهر وأحمد عارف الزين وأحمد رضا وأديب الزين والدكتور شريف عسيران وغيرهم. وقال فيها قصيدته:

عروس من البلدان ليس لها مهر ومصر سبني لا الصعيد ولا مصر

والتقى في دمشق بشفيق جبري وخير الدين الزركلي وسائر ادبائها فقال قصيدته:

بغداد أشتاق الشام، وها أنا إلى الكرخ من بغداد جئت التشوق
فبارها شفيق جبري قائلاً:

أحنّ إلى بغداد من أرض جلت وأسال أهل الشام عن كل معرق
ونظم جبري قصيدته:

شط المزار فربع دجلة نازح دون العراق سباسب وأباطح

قال إنه القى هذه القصيدة في سهرة بدار الزركلي ، فلما فرغ من إنشادها ظهرت الكآبة على وجه الشيببي وقال : لولا أن قصيدتك أبكتنا لصفقتنا لكل بيت .

ثم قضى الفرنسيون على الحكومة العربية وأخرجوا فيصلاً ، فذهبت الآمال وتبددت الاحلام . فقال الشيببي قصيدته «دمشق وبغداد» ومطلعها :
ماذا بنا وبذي السديار يراد؟ فقدت دمشق وقبلها بغداد

محمد رضا الشيببي يعالج شؤون القطر:

قدم محمد رضا الشيببي قبيل وفاته (في ٢٨ تشرين الاول ١٩٦٥) مذكرة إلى رئيس الوزراء عبد الرحمن البرازي أوضح فيها القضايا والمشاكل الخطيرة التي تواجهها البلاد . وأشار إلى الأحداث والكوارث التي حلت بها نتيجة تصارع الآراء وتضارب الأهواء وتشجيع التفرقة ، وطالب بإجراء الانتخابات ليقول الشعب كلمته في الحكم . وقال ان الوحدة انعرية هدف يتم باستفتاء الشعب عليه ، وأشار إلى أخطار الطائفية المقتعة التي تفتت بعضد الوحدة الوطنية . وقال ان الشعب العراقي انتفض أكثر من مرة على سياسة التفرقة النكراء وعمل منذ ثورته الاولى سنة ١٩٢٠ على اقامة حكم وطني ديمقراطي يسهم بإقامته وينعم في خيرات أبناء الشعب كافة لا يفرقهم عنصر أو دين أو مذهب . وشجب بعد ذلك سياسة المحاباة التي كانت نتيجتها تبوء المقرين لمناصب الدولة وهم محرومون غالباً من المؤهلات والكفايات والاحلاص .

وطالب الشيببي في مذكرته بدرس القضية الكردية درساً دقيقاً لصيانة الوحدة الوطنية وحقق الدماء وإعادة السلام والطمأنينة إلى الربوع الشمالية لأن العرب والاكرد شركاء في هذا الوطن يتقاسمون غرمه وغنمه . ودعا إلى تحرير النقابات من الضغط السياسي وتوكيد حقوق العمال . ثم التفت إلى الاشتراكية ونادى بلزوم مراعاة الواقع في شأنها ، إذ أن تطبيقها بقرارات ١٤ تموز ١٩٦٤ قد أدى إلى تحبط الأوضاع المالية وارتباكها وزيادة البطالة وقلة الانتاج وتبذير أموال الدولة وتهريب رؤوس الأموال وعجز الميزانية . ودعا إلى الديمقراطية الاقتصادية قائلاً إنه «النظام الذي يلائم ظروفنا وحاجتنا» وان الفروق الاقتصادية الواسعة حرق للعدالة الاجتماعية التي نؤمن بها .

وذكر انه يمكن العمل على تقليل تلك الفروق عن طريق توزيع الضرائب وزيادة مكاسب الطبقة العاملة ووضع خطة شاملة للتنمية وزيادة الدخل العام .

ثم تناول القطاع الزراعي الذي يمثل في نظره مصدراً أساسياً من مصادر الثروة العامة ، فأشار إلى أخطاء قانون الإصلاح الزراعي - تلك الأخطاء التي أدت إلى تخلف الزراعة ، وطالب بإعادة النظر في أسس ذلك القانون وتطوير شؤون الزراعة وحماية الانتاج وتحديد واجبات الزراع وتعويض الفئات التي تم الاستيلاء على أراضيها . وطالب بعد ذلك بإصلاح نظام الضرائب ، واستخلاص حقوق البلاد من شركات

النفط وإعادة النظر في تكوين الاتحاد الاشتراكي العربي الذي تنازعته الأهواء وأفضى إلى احتكار العمل السياسي وتطبيق مبدأ الحزب الواحد المعارض للديمقراطية .
ولا شك أن هذه المذكرة التي قدمها الشبيبي إلى السلطات المسؤولة قبل شهر واحد من وفاته كانت أروع خاتمة لحياته الأدبية والسياسية ووصيته التاريخية لابناء البلاد في تلك المرحلة الدقيقة .

محمد رضا الشبيبي : شؤون واحاديث

تعرفت إلى محمد رضا الشبيبي في سنة ١٩٣٩ وتوثقت صلتني به بعد اختياري عضواً بنادي القلم سنة ١٩٤٢ وكان هو رئيسه . وزادت هذه الصلة إحكاماً بعد ذلك ، فكننت في سنواته الأخيرة أكثر من زيارته في داره والمجمع العلمي ، كما كان يمر بمكتبي مرة أو مرتين في الاسبوع حتى توفاه الله .

وأذكر أنه كان يلقي عندي في بعض الأحيان علي الشرقي ، وكانت بينهما جفوة ، فبادره الشرقي بالسلام والكلام حتى استقام ما بينهما وعادت مودتها القديمة شيئاً ما .

كان الشبيبي يحضر مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة كل عام ويقضي في مصر شهراً أو بعض شهر ، فإذا عاد حدثنا بطرائف مما شهدته وسمعه . وقال لنا ان الدكتور طه حسين سأله ذات يوم : « لماذا كان العراقيون دائماً ثائرين لا يستقرون على حال ولا يرتضون حاكماً ؟ فقد قرأت تاريخ العراق منذ الفتح الإسلامي حتى الآن ، وقلما وجدت حقبة خالية من الفتن والقتال » . فأجابه الشبيبي : « أسمح لي أن أسألك أنا أيضاً ؟ لماذا كان المصريون دائماً خاضعين ؟ لقد قرأت تاريخ مصر منذ الفتح الإسلامي وقبله أيضاً ، فوجدت المصريين دائماً يسترضون حكامهم مها جاروا وطغوا ويخفصون الهام لكل متحكم فيهم حتى لشجرة الدرا » .

قال الشبيبي : وقد اغتاظ طه حسين لجوابي ، لكن الحاضرين قالوا له : لا يحق لك الغضب ، يا دكتور ، فجواب الشيخ من طبيعة السؤال .

وقد قيل قديماً : إن العقل لحق بالشام ، فقالت الفتنة وأنا معك . ولحق الشقاء بالبادية فلحقت به الصحة ، ولحق الخصب بمصر فلحق به الدل .

وكان أمين هويدي سفير مصر في بغداد والذي دعي « المندوب السامي المصري » وقد أصبح فيما بعد مديراً للمخابرات ووزيراً لحربية جمال عبد الناصر كثيراً ما يزور الشبيبي ويسأله عن رأيه في الاتحاد مع مصر . فأجابه الشيخ بصراحة أن العراق لا يجب عبد الناصر وإن الاتحاد أو الوحدة سابق للأون . وقال له : بلغ الرئيس عبد الناصر أن لا يفره كلام عبد السلام عارف (رئيس الجمهورية آنذاك) ، فالعراقيون عازفون عن الوحدة بالرغم من حبهم لمصر واعترافهم بمكانة الصدارة التي تتبوأها في مجتمع الدول العربية .

وقد اشتد الخلاف بين عبد السلام عارف والشيخ الشبيبي حتى أنه أصبح رئيساً اسماً للمجمع العلمي العراقي لا يستطيع الحل ولا الربط ، وقد تولى الامور فعلاً نائب رئيس المجمع بتشجيع من الحكومة ، فكان الشبيبي يأتي إلى غرفته في المجمع ويخرج منها دون أن يباشر عملاً .

ودعيت مجامع اللغة العربية إلى عقد مؤتمرها السنوي العام في بغداد، فانتهر الشيبسي فرصة دعوة وجهت له للسفر إلى عمان، فزابل بغداد إلى الأردن وعقد المؤتمر في غيابه. وعاد من عمان بعد انتهاء المؤتمر، فلم يكد يصل إلى داره حتى قضى نحبه في نفس تلك الليلة.

أصدر الكاتب السوفيائي كوتلوف كتاباً عن «ثورة العشرين» نقلها إلى العربية عبد الواحد كرم. وقد ذهب الكاتب إلى أن الثورة العراقية كانت ثورة عمال وفلاحين على الاقطاع والرأسمالية على الرغم من قادتتها من شيوخ الدين والعشائر، ومنح العوامل الاقتصادية والصراع الطبقي أهمية بالغة في نشوب الثورة. وسجل للشيبسي محمد رضا الشيبسي آراء تؤيد ما ذهب إليه. فسألنا الشيبسي عن تلك الآراء، فقال ما معناه: جاءني ذات يوم المؤلف بموعود سابق ومعه مترجمان رجل وامرأة، إذ كان لا يحسن سوى اللغة الروسية. وقد بحث معي عن ثورة العشرين وأسبابها، وكان يتكلم بالروسية فينقل المترجم كلامه إلى الانكليزية ثم تترجمه المترجمة إلى العربية، فأرد عليه وينقل كلامي إلى الإنكليزية فالروسية ليفهم صاحبنا مآله. وكانت تلك طريقة متعبة فضلاً عن احتمال ضياع المعنى أو اختلافه خلال هذا النقل المزدوج.

وقد أرسل المؤلف نسخة كتابه بالروسية إلى الشيبسي بعد طبعه (وذلك قبل سنوات من ترجمته إلى العربية)، فاستعان بأحد الطلاب العراقيين لترجمة ما جاء فيه على لسانه. ولما اطلع على الآراء المنسوبة إليه استنكرها وتناولها بالنقد والتجريح.

وقد ناقش الدكتور علي الوردي، في الجزء الخامس من كتابه «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث» (القسم الثاني)، آراء كوتلوف في ثورة العشرين، فأبدى عدم موافقته على ما ذهب إليه المؤلف من نسبة الثورة إلى جماهير الفلاحين والبدو وعمال المدن. قال الوردي: «وأعترف أنني، حين قرأت الكتاب، شعرت كأنه يتحدث عن ثورة غير الثورة التي عرفناها وأدركنا رجالها، وعن بلاد غير البلاد التي نعيش فيها». وأضاف قائلاً: «ويبدو أن كوتلوف حاول أن يصبّ ثورة العشرين في القوالب التي يميلها في ذهنه بغض النظر عما جرى في الثورة من وقائع مشهودة».

حدثني محمد رضا الشيبسي أنه هاجم نوري السعيد، وهو رئيس الوزراء، في مجلس الاعيان وندد بسياسته تنديداً شديداً، فوقف نوري يردّ عليه بحدة وانفعال، وقال ما معناه: ليس هذا كلام سياسي مسؤول بل هو خيالات شاعر وأوهام كاتب.

ولم يكن من الشيبسي إلا أن التفّ بعباءته وخرج غاضباً من القاعة. ولكن لم يحلّ المساء حتى فوجيء بزيارة نوري السعيد له في داره يطيب خاطره. وهكذا كان رجال ذلك العهد يميزون بين المناقشات والمهاترات السياسية والعلاقات الشخصية. وقال له السعيد: سوف يأتي يوم تترجمون فيه على عهدنا.

كثيراً ما كنت أسمع محمد رضا الشيبسي بعد ثورتي ١٩٥٨ و ١٩٦٣ يشكو ويترحم

على عهد الملك ونوري السعيد .

قلت له : كنت معارضاً مزمناً تسلق الحكومات المتعاقبة باللسنة حداد ، فما عدا مما بدا؟ قال : أجل ، كنت معارضاً أتسقط مخالفات الحكومة وانحرافها وأطلب الإصلاح ، لكنني لم أطلب انهيار النظام وذهاب ريح السلطة واستبداد فئة قليلة جديدة لا خبرة لها ولا حسن نية بأمور البلاد . حين كنت أصارع المسؤولين وأتعقب أخطاءهم وسوء أعمالهم وأخذ عليهم التواء طرقهم كانوا يصغون إليّ ولو على مضض ويفعلون أحياناً أو لا يفعلون . أما هؤلاء الذين ينعتون أنفسهم بالثورية والتقدمية وسائر الصفات فلا يستمعون إلى أحد ولا يقبلون مصارحة ، ويسرعون إلى اعتقال خصومهم والفتك بهم ، وكمّ الألسنة والصحف وحرية القول . . . وبقي الشيببي ساخطاً متألماً حتى أدركه الحماهم .

وقد جاء إلى داره زبانية الأمن في عهد الرئيس عبد السلام عارف بعد منتصف الليل للقبض على ابتته المتهمه بالشيوعية . حاول الشيببي اقناعهم بإرجاء الاعتقال إلى الصباح فلم يفلح . وأخيراً تمكن من الاتصال هاتفياً بعبد السلام فشكا له الأمر وترحم على العهد الملكي البائد ، فأمر الرئيس بصرف النظر عن اعتقال الفتاة .

انتخب الشيببي عضواً بجمع اللغة المصري في مقعد الأب أنستاس ماري الكرمل ، ولما كان المألوف أن يتكلم العضو الجديد عن سلفه الذي حل محله ، فقد طلب إليّ أن يطلع على قاموس الأب «المساعد» لبحث فيه . وقد اتصلت بالأباء الكرملين في الدير وهيأت للشيببي أن يطلع على مسودات المعجم ، فوضعت تحت تصرفه ونظر فيه ونقل ما يروم نقله لخطابه في المجمع المصري .

على أثر قيام ثورة ٨ شباط ١٩٦٣ والقضاء على حكم عبد الكريم قاسم ، قررت حكومة الرئيس عبد السلام محمد عارف مفاوضة الملا مصطفى البارزاني الذي قاد التمرد الكردي منذ سنة ١٩٦١ . وارتأت إيفاد لجنة مفاوضة للتعرف على مطالب الاكراد وأسندت رئاستها إلى محمد رضا الشيببي ، وكان من أعضائها فائق السامرائي .

ذهب الشيببي إلى المناطق الكردية وفافوض البارزاني ، واتفق معه على منح المنطقة الكردية «لا مركزية» إدارية ، وعاد فبلغ السلطات العراقية بنتيجة مساعيه .

قال الشيببي : بعد أيام سألني الرئيس عبد السلام عارف عن معنى «اللامركزية» ، فقلت له : انني رجل لغوي و «اللامركزية» ليست محددة لغة بل يحددها الاتفاق على نطاقها السياسي والإداري ، وذلك شأنكم أنتم السياسيين .

جاء إلى بغداد سنة ١٩٤٧ رشاد بيبي مندوباً عن إذاعة الشرق الأوسط التي كانت تذيع من قبرص ، فاتصل بالأدباء للحصول على أحاديث منهم .

وقابل محمد رضا الشبيبي الذي سأله : ما معنى لقبك «بيبي»؟
قال : انه الشبيبي بدون «ش» .

توفي صديق للشيخ محمد رضا الشبيبي فمضى لقراءة الفاتحة على روحه تتبعه حاشية كبيرة من أقربائه وأصحابه ، ولم يكن يعلم أن هذا الصديق الذي نعي إليه ولم يره منذ سنوات طويلة قد ترك داره في بعض شوارع بغداد القديمة وابتنى داراً انتقل إليها في أحد الأحياء الجديدة .

دخل الشيخ وجماعته إلى الزقاق الذي فيه دار الصديق الراحل القديمة فرأى رجالاً واقفين على الجانبين . ولم يكادوا يرون الشيخ حتى حفوا به واستقبلوه استقبالا لاثقاً وأدخلوه إلى الدار وأجلسوه وصحبه في صدر المجلس . ولكن . . كان المقرء يقرأ السورة القرآنية الخاصة بزواج موسى القوي الأمين ، وهي تقرأ عادةً في حفلات عقد القرآن . وقدمت للشيخ وصحبه الحلوى والعصير ، والجمع في أنس وسرور . إذن لم يكن هناك مجلس تعزية ، بل كانت حفلة عرس .

وخرج الشيخ بعد أن هنأ أسرتي العريس والعروس . وسأل بعد ذلك عن دار صاحبه المتوفى فأرشد إليها وقصدها ليقرأ الفاتحة على روحه .

حدثني محمد رضا الشبيبي أنه سافر ذات مرة إلى الشام ونزل في فندق أمية . وفد رجال السياسة والأدب للسلام عليه ، وجاءه معلم خدم في المدارس العراقية يوم كان وزيراً للمعارف ، فدعاه إلى تناول الغداء في داره . واعتذر الشبيبي بكثرة مشاغله ، لكن المعلم لم يقبل له عذراً .

وجاء المعلم إلى الفندق في اليوم الثاني قبل الظهر واصطحب الشيخ في عربة اكترها وقال للحوذي : مرّ في طريقك بسوق الحميدية . واستأذن ونزل إلى بعض الدكاكين واشترى خبزاً و «كباباً» وفاكهة وشيئاً من الحلوى وضعها في العربة وأمر الحوذي بالمضي إلى داره .

ولما بلغها وضع المعلم الطعام الذي ابتاعه على المائدة ، واتى بقدر ماء ، وقال للشيخ : تفضل باسم الله ، واعتذري عن التقصير في شأنك فإن زوجتي لا تطبخ . وفرغاً من تناول الطعام فأركب الشيخ عربة وأعاده إلى الفندق معزراً مكرماً .

دعي الشيخ الشبيبي إلى زيارة مدينة فاس عاصمة المغرب القديمة مع نخبة من أدباء العرب وأعضاء مجمع اللغة العربية المصري ، والمدينة قائمة في وادٍ ينزل إليه بطريق وعر متعرج من الهضبة ، وهو طريق يصعب على السيارات السير فيه . وقد اضطرّ الشيخ ورفاقه إلى النزول على أقدامهم ولقوا في ذلك مشقة عظيمة . وبعد زيارة معالم المدينة وقضاء بضعة أيام فيها وحان موعد العودة قال الشبيبي للدكتور عبد الهادي

التأزي المرافق للوفد أنه يصعب عليه وعلى رفيق له من شيوخ المصريين الصعود من الوادي ورجاه أن يجد لها وسيلة للركوب . وكلم التأزي هاتفياً أحد المسؤولين باللغة الفرنسية وقال له : لدي شيخان ميتان من التعب فجدهما وسيلة نقل . ولم يسمع المسؤول العبارة «من التعب» ، فظن ان الرجلين قد ماتا فعلاً فأسرع وارسل سيارة اسعاف تحمل تابوتين . رأى التأزي السيارة القادمة فبادر إلى إعادتها قبل أن يراها الشيخان ، ثم نبّه رفيقه أن الرجلين حيّان وطلب ارسال سيارة «جيب» لتقوم بمهمة النقل .

دعي الشيخ محمد رضا الشبيبي إلى زيارة الكويت ضيفاً على أميرها ، وقد استقبل فيها استقبالا حسناً ووضعت تحت تصرفه سيارة وسائقها . أخذه السائق لزيارة العمران الجديد والأسواق المليئة بالبضائع الشرقية والغربية وكل النعم التي نالها البلد الصغير من ثروته النفطية المفاجئة .

قال الشبيبي للسائق ذات يوم : أريد أن أرى الكويت القديمة . فأجابته : أنا على استعداد لأخذك إليها ، لكن السيارة لا تدخل السوق العتيق . قال الشيخ : أنا أستطيع المشي على قدمي .

وأخذه السائق إلى سوق الكويت القديم ، فشهد الدكاكين المتواضعة . ورأى امرأة جالسة على الأرض تباع بعض الاعشاب الهزيلة وترشها بالماء بين الحين والحين من سطل بين يديها . قال السائق : هذه الكويت القديمة . أما صناعة السفن الشراعية فقد انقرضت أو كادت .

أشاد عبد الرزاق الشخيلي ، في رثاء له لمحمد رضا الشبيبي ألقاه في حفلة تأبينه ، بمزايه الكثيرة وأدبه الجمّ ، وذكر مواهبه وصبره وجلده في التصميم والعمل ونضجه الفكري المنبعث من إدراك عميق وتمييز بين الحقائق والأوهام والانطلاق والجمود ، ومجاهته لدنيا الحقائق مباشرة باحثاً عن الجوهر ، غير أبه بالظواهر المتغيرة والمظاهر الخارجية ، والتزامه جانب البساطة وهي عماد الحياة ومحورها .

وقال ان التحدّث عن الفقيد الشبيبي ليس يسيراً ، إذ شمل جهاده كل الميادين من علمية وأدبية واجتماعية وسياسية ، بنظمه ونثره ، على مدار الساعة ولنصف قرن من الزمن . وقال إن الحياة التي عاشها والآفاق البعيدة التي امتد إليها بصره ونفذت إلى أعماق بصيرته تكاد تكون وثيقة تاريخية وسفراً ضخماً حافلاً بآثره ومحامده لعهدين متعاقبين : العهد العثماني في إبان احتضاره والعهد العراقي الذي تلاه . وقال إن سيرة الشيخ منبثقة من إيمانه العميق بكرامة الإنسان وحرّيته ومن مفهومه للسياسة بأنها ترمي إلى الإصلاح الجذري في الإنسان ذاته لتضمن له أخوته مع الغير وأمنه وسعادته .

ورثى الشبيبي الشاعر المصري عزيز أباظة (باشا) بقصيدة طويلة قال في مطلعها :

قم فأذ العزاء للإسلام في زعيم وشاعروإمام
الشبيبي ، أين ثلاني الشبيبي إذا طمّت الخطوب الدوامي؟

علي الشرقي

علي بن الشيخ جعفر بن محمد حسن بن أحمد بن موسى بن راشد الشرقي أو الشروقي ، وقد قال الدكتور محمد مهدي البصير في الشيخ جعفر (١٨٤٣ - ١٨٩٢) أنه كان من كبار فقهاء العراق وشعرائه في القرن التاسع عشر.

وقال : «وقد يَسَّر المترجم ، وهو في قبره ، أنِّي أعرفه بابنه (أي الشيخ علي الشرقي) ، ولكن ثَقُوا أَنَّهُ كَانَ أَنبَهُ شَأْنًا وَأَعْلَى قَدْرًا وَأَسِير ذِكْرًا مِنْ أَنْ يَعْرِفَ». وتنتمي أسرة الشرقي إلى قبيلة بني خاقان العربية ، المقيمة على ضفاف الغراف في قضاء الشطرة ، وكان أول من استوطن النجف منها جدُّها الشيخ موسى .

ولد علي الشرقي بالنجف سنة ١٨٩٠ ، وتوفي والده وهو طفل صغير ، فنشأ في كنف خاله الشيخ عبد الحسين الجواهري . ودرس علوم العربية والدين على علماء الغري فبرز فيها تبرزًا ، وقال الشعر صغيرًا وجوَّده شابًا . وكان من الشباب الواعي المتطلع إلى النهضة الأدبية والفكرية في أواخر العقد الأول من المائة العشرين .

وصف الشرقي طفولته أروع وصف في كتابه «الأحلام» فقال : «ويموت أبو الوليد ، ويتزعزع اليتيم يعوّضه حنان الأم عن حذب الأب .

وكانت لأمه جارة من آل الفخّام ، ذلك البيت الجليل المنجّم بالعلماء والأدباء ، تولّت تعليم الوليد . وكان لتلك المعلمة الحبيبة أخوان هما السيد حسن والسيد محمود ، وكان الكثير من ناشئة النجف يتأدّبون عليهما . وكان مجلسهما للتعليم في عمارة الميتم الذي أنشأه الدرويش إبراهيم خان في أواخر القرن الثالث عشر للهجرة وجعل فيه قسماً داخلياً وبذّل عليه أموالاً طائلة ، وموقعه في محلة العمارة تحت الطاق المعروف بطاق الدرويش . لقد أودعت المعلمة الوليد عند أخويها ، ولما أتقن الكتابة تقدم للدراسة العلمية . وكان يلبس البزة العربية الشائعة كوفية وعقالاً ، ولكن احتراماً للعلم وضعوا على رأسه العمامة . وكان من عادته أن يلف العمامة للشيخ الجديد شيخ قديم يحترم . وعندما كوّرت على رأس الشيخ الجديد ، دفعها الشيخ القديم ورصّها كي لا تكون قلقلة على هذا الرأس ، ولكن بكلّ أسف بقيت قلقلة حتى الآن» .

ثم وصف «الجامعة النجفية» التي نشأ في أحضانها ودرس في حلقاتها وتأدّب بأدائها وتخلّق بأخلاقيها فقال :

«فاتيكان الشيعة وأزهر العراق قبل أن يوجد الأزهر . ولا تمتاز هذه الجامعة بأسلوب فكريّ خاصّ ، إنما هو أسلوب الفكر القديم طبعته الكوفة بطابعها : طابعه الآداب العربية والعلوم الإسلامية ، وكانت على الأخص مدرسة علوية أسسها منبر عليّ عليه السلام ومن تتلمذ عليه من أبنائه وأصحابه . . .»

ويقول بعد ذلك : «أما طريقة التدريس في النجف فقديمة تتردّد بين الطريقتين

اليونانيتين: طريقة التحليل وطريقة التفسير. . . ومراحل التدريس في النجف ثلاث: المرحلة الأولى في المقدمات يدرس فيها النحو وعلم الصرف وعلم المنطق وعلم البيان والبدیع. . . المرحلة الثانية: السطوح، وهي دراسة الفقه والأصول على سطح كتاب مفتوح ينشر بين يدي الاستاذ والتلميذ. . . وفي هذه المرحلة يدرس الحساب والجدل والفلسفة النظرية. . . ويدرسون أشكال إقليدس للهندسة، ويراجع الطلاب لدراسة اللغة القاموس المحيط للفيروز آبادي والصحاح للجوهري ومجمع البحرين للطبري، ويراجعون لعلم الرجال كما يسمونه كتاب رجال أبي علي، ويراجعون للحديث كتاب الوسائل، وللتربية كتاب المفيد والمستفيد للشهيد العاملي».

ثم يتطرق إلى ذكر المرحلة الثالثة، وهي الدراسة الخارجية، أو كما يسمونها «الخارج» فيقول: «وهي محاضرات يلقيها الاستاذ على مجموعة من التلاميذ لا ينشر لها كتاب، بل هي أشبه بمذكرات على موضوع مركز وللتلميذ الحرية الكاملة في المراحل الثلاث أن يختار المدرس والمدرسة والكتاب المدروس. . .».

لم يكبد الشرقي يبلغ مبلغ الشباب حتى مضى إلى كرمشاه لجباية حقوق للشيخ كاظم الخراساني، ثم عاد مسرعاً إلى النجف بعد تفشي وباء الهیضة في ربوع إيران. وأكّـب الشرقي الشاب على المطالعة والمناقشة والمباحثة واستشفاف معالم النهضة الأدبية في مصر وسورية ولبنان. واتفق مع نفر من أقرانه على جمع الكتب والدواوين الشعرية وتبويبها وشرحها، فتولوا طبع ديوان إبراهيم الطباطبائي وغيره.

ونشبت الحرب العظمى في أواخر سنة ١٩١٤، فلعجاً إلى الشطرة، وكان ذلك مبدأ اتصاله بالعرّاف والمنتفق، مسقط رأس آبائه من قبل، وتعرّفه بزعمائها من آل السعدون وسواهم. ثم لحق بالمجاهد السيد محمد سعيد الحبوبى في الناصرية، وكان له يد في محاربة الانكليز. ونشر الاحتلال البريطاني ظله على بغداد وجنوبي الفراتين، فجاء إلى النجف وقدم منها إلى بغداد، ثم عاد إلى المنتفق مساهماً في الحركة الثورية.

رحل إلى الحجار سنة ١٩٢١ عن طريق البصرة والبحر الأحمر وقابل الملك حسيناً في جدّة ومكة وألقى بين يديه قصيدة مطلعها:

أعلاك ربّي، ما أعزّ وأشرفاً، علماً على الملك الأغرّ مرفرفاً

وقفل عائداً بعد نحو من سبعة أشهر. وقد عين عضواً بمجلس التمييز الشرعي الجعفري في بغداد (٧ تموز ١٩٢٨) ونقل قاضياً في البصرة (آب ١٩٣٣) وأعيد عضواً بمجلس التمييز الشرعي بعد أمد وجيز (شباط ١٩٣٤)، ولم يلبث أن أصبح رئيساً له (٢٥ كانون الاول ١٩٣٤). وقضى في هذا المنصب نحواً من ١٣ عاماً، حتى عين عضواً بمجلس الأعيان في تموز ١٩٤٧. واختير نائباً أول لرئيس مجلس الأعيان (٥ آذار ١٩٤٩) وجدّد انتخابه في أول كانون الاول ١٩٤٩ حتى عين وزيراً بلا وزارة (١٠ كانون

الاول ١٩٤٩ - ٥ شباط ١٩٥٠).

وأعيد تعيينه وزيراً بلا وزارة في ٧ أيار ١٩٥٣ إلى ١٧ أيلول ١٩٥٣، ثم في ٣ آب ١٩٥٤. واحتفظ بمنصبه في الوزارات المتعاقبة المؤلفة في ١٧ كانون الاول ١٩٥٥ و ٢٠ حزيران ١٩٥٧ و ١٥ كانون الاول ١٩٥٧ إلى ٣ آذار ١٩٥٨، ثم من ١٩ ايار ١٩٥٨ إلى ١٤ تموز ١٩٥٨. وقد استمر عضواً بمجلس الأعيان إلى ٦ تموز ١٩٥٥، وجدّد تسميته عيناً في شهر تشرين الثاني من نفس السنة إلى ثورة تموز ١٩٥٨. واعتقل عند قيام الثورة، ثم أفرج عنه بعد مدة قصيرة.

وضع مؤلفات منها: عواطف وعواصف (ويحوي جانباً من شعره، طبع ١٩٥٣)، ذكرى السعدون (١٩٢٩) الأحلام (١٩٦٣) العرب والعراق (١٩٦٣). وقد نشر مقالات متسلسلة في المجلات والجرائد، منها: الغراف والبطائح (في مجلة لغة العرب) والألواح التاريخية (في مجلة الاعتدال النجفية) والأحلام والأندية العراقية (في جريدة العراق) ونكت القلم الخ..

توفي ببغداد في ١١ آب ١٩٦٤ ووري التراب في مقبرة أسرته بالنجف.

علي الشرقي الشاعر:

كان علي الشرقي رجل قضاء ورجل سياسة، لكنه لم يكن طوال حياته الا شاعراً بالفطرة. تطّبع بالمظاهر الدينية والدنيوية، فتغلّب عليه الشعر في أخرج مواقفه وأشدها قسوة وغلظة وانقاد لزام العاطفة في مقام الجذّ والصرامة.

ولقد نشر طائفة من شعره في ديوانه الموسوم بـ «عواطف وعواصف» فأهدى إلي نسخة وشّحها بالكلمة الآتية:

«إذا جاز أن تحمل الفاكهة إلى بستانها فإني أحمل اليكم هذا الأثر، مع إخلاص الشاعر».

وكتبت إليه برسالة جاء فيها:

«أما الشعر فسحر وعطر. وهو شعر نابض بالحياة، صادق اللهجة، واضح السّات، ينطق بلسان البلد والجيل، ويحمل طابع العصر ورسالته. وقد مرّ زمان كان في مقياسه أعذب الشعر أكذبه، أما اليوم فخير الشعر ما عبّر عن آلام الشعب وآماله ومشاعر الأمة في طموحها وتحفّزها.

وخير الشعر ما أفصح عن حبّ المغرم وبهجة الخليّ وحسرة الشجيّ وأمل الشباب وذكرىات الشيخوخة وجميع ما يهز أوتار القلب البشري من نوازع ولواعج.

«ولقد وقّعت لترديد نواح البلبل السجين وصداح البلبل الطليق، ولوعة الفلاح في كوخه، وترجّتهم عن نزعات الشعب المتطلع إلى الحياة والحرية، ودعوتهم إلى الألفة والإخاء، وأشدّتم بالنهضة والإصلاح، فجاء ديوانكم سجلاً حافلاً للحياة العراقية في النصف الأول من المائة العشرين...».

أجل، إن في شعر الشرقي كل ذلك وأكثر من كل ذلك . وشعر الشرقي قبل كل شيء شعر الشعب، فهو يفصح عن آماني الفقراء والكادحين ويعبر عن مشاعرهم ونزعاتهم، وهو يأنس إلى الأرياف وفلاحيها ويحنّ إلى مرابعها وأكواخها، ولا سبيها إلى نواحي الغراف التي قضى فيها شطراً من صدر شبابه، وقال في ذكرها:

زهو القصور ونزهة الأرياف	غرف مطّلات على الغراف
تلقي الحضارة والبداءة عندها	بإزاء فرع أو بجنب طراف
أنفت على الأحقاف، فهي مدّلة	لكنها ببساطة الأحقاف
الفارشات ببساطة وجلالة	هذي القصور وغيرهن أثافي
نهضت على حمراء دجلية زانها	صافي الأديم على الأديم الصافي
بمحلّة الأغصان تحسب أنها	من حسنّها بمحلّة الأعطاف
ملء المجالس عقّة وطهارة	ومحبّة وتكرّم وتصافي
معمورة الأطراف، كم من ليلة	بجوارها معمورة الأطراف
النهر مضافور السلاسل فله	جري النسيم وكفّ منه الضافي . . .
قمر السما، لك فوق دجلة منظر	متنوع الأطياف والألطاف
وكأنّ دجلة شلعة وهاجة	سالت أشعتها على الأجراف

ولا يأنف الشرقي أن يضمّن شعره كلمات أبناء الشعب وأمثالهم وحكاياتهم . ولعلّ هذا الشعر لا يتّسم بجزالة اللفظ ومثانة التركيب لكنه يفيض بالأصالة والإخلاص وصدق اللهجة وطبقة النفس وحبّ البشرية والناس، تقطر منه أنداء اللطف والعطف والحنان كالعبرات الباردة التي تسكبها المآقي الحزينة .

لقد تمنّى لو تمطر السماء مروءة وحناناً، وروّعته دمة المظلوم، فقال:

معدّ زعيم لطيب يداً	كانت على رغمي ملثومة
قال له: ليس بها من أذى	فصاح: لا . . . كفيّ محمومة
ومرّ من حولها شاعر	ردّدت الدنيّا ترانيمه
فقال: ظنّني بمكان الأذى	قد سقطت دمة مظلومة!

وعلي الشرقي شاعر الأسى والألم: فقد أباه طفلاً، وذاق مرارة اليتيم والحاجة حتى إذا ما ابتسم له بعد لأي الزمان ومنحه السعادة والأمن وأتاح له الحبّ والزواج، فاجأه بموت عروسه في ليلة الزفاف . فإذا بالشموع التي أعدّت لموكب العرس قد أدرجت في موكب الموت . وإذا بالشاعر قد أخرسه هول المصائب حيناً ثم أنطقه شعراً مؤسّياً حزيناً:

شمعة العرس، ما أجدتِ التأني
أنت مثلي مشعولة القلب، لكن
يارعى الله للزفاف شموعاً
عاكست حظها الليالي فذابت
هكذا ذاب باحتراقٍ فؤادي،
جلوة أم مناحية لنجوم
كان حديسي تذكو الأماني شموعاً
والليالي خيّن ظني وحديسي

إنّ العروس الشابّة التي قضت نحبها ليلة الزفاف لتذكرنا بقصيدة الشاعر الفرنسي أندره شنييه (١٧٦٢ - ١٧٩٤)، تلك القصيدة التي قالها في رثاء «ميرتو» الثارنتيّة الفتاة الحسنة التي ركبّت السفينة لتلحق بخطيئها حيث تنتظرها السعادة والأغاني والزواج . وقفت وحيدة تحدّق في الأمواج المتلاطمة ، فهبّت ريح هوجاء نفخت الشراع وأطاحت بالفتاة في حوض المياه المزبدة . لقد تلقت الأعماق جسدها الجميل ، فخرجت إليها ربّة البحر دامعة العين من كهفها السحيق ، وحفظت جسمها من أنياب الوحوش الضارية ، وأمّرت قيان الماء فأخذنها إلى الساحل واستدعين غيد المروج والمنابع والجبال ، فأقمن لها مناحة لم تشهد الأرض مثلها . وقلن لها نادبات : «أسفا عليك ، أيتها العروس ، لم تبليغي دار الحبيب ولم ترتدي ثياب العرس ، وحل الذهب لم تحط بساعدك البض ، ولم يزيّن إكليل الزفاف شعرك المنسدل على كتفيك» .

ولا عجب أن يطغى الألم على نفس الشاعر الشرقي فيخطب البلبل الأسير قائلاً :

أيها البلبل المعلق في السجّـن
إن تكن ذكرياتك الورد والأطيّار
كلّ يوم يلوح فجر لعينيك
سـلام، وهكـذا لي روح
تشدو فذكرياتي جروح
فهلاًّ يوماً لعيني يلوح ؟ . .

إنّ هذا البلبل السجين الذي خاطبه في رباعياته لم يكن سوى طيف الشاعر نفسه . لقد كان هذا الشاعر أسير الحياة الاجتماعية يبغى الانعتاق والانطلاق ، فهل بدع أن يلتقي وبلبله الحبيب في قفص السجين ، كما يقول :

التقى الشاعران في قفص السّجن
يرسلان الألمان للملا الخابط
فكـأنّ الأسير غير أسير
فلم يعبراً بحبس وضيق
تیهـاً في عالم مصعوق
وكأنّ الطليق غير طليق

لقد مزج الشرقي في رباعياته التصريح بالرمز وقرن السياسة بالاجتماع والمادة بالمعنى
فلا بد للقارئ من إمعان الفكر في خفايا السطور ليستشف معاني بعيدة في أغوار
الكلمات الظاهرة . وان شاعرنا ليكثر من الصور والاستعارات والتشابه والكنيات ،
أليس هو القائل :

أنا أصدح باللفظ لمن في صدره المعنى
والقائل : ثوب الصداقة يبلى سريعاً ، وبيت الحكم الذي أسسوه له ألف باب ،
واليوم المضرج بحر هائج والغد المؤمل في ساحل الأمان ، والمرأة لا تفيد في كف
الأعمى ، وماذا يلقط الطائر من دكان الحداد ؟ ، وأية خيرة ترجى من الفطير؟ . . .

وهو يقول :

هذي الصدر مواقـد خمدت فبثت بالدخان

ويقول :

إننا ، ولا غزل لنا ، نحسن قتل المغـزل

ويقول :

من وراء المرأة صوت يناغي بيغاء تـوحي عن المرأة

ويقول :

جسدي قارب وقلبي شراع وحياتي حبل وعقلي نـووي

ويقول :

بعض القلوب طيور لم تستطع أن تطيرا

ويقول :

بلدي رؤوس كلـه : أرايت مـزرعة البصل؟

ويقول :

شمعتي بالرغم من مقراضها ، كل آن ولها رأس جـديـد . . .

شمعة طاف بها الجثم الغفير تتلالا بابتهاج وارتياح

تهادى من ضريـر لضريـر قضوا العمر عثاراً ونطاح . . .

أقام الشرقي شطراً من حياته في الريف ورأى نصب الفلاح وعناءه ورثى لبؤسه
وشقائه فقال :

أتـراني بين القرى والضواحي طفت ظهراً وفي يدي مصباحي

إن تفتش عن ارتياح بلاد فتفقد شؤونها في الضواحي

أهـو من معشر بـلا أرواح؟
وهو تحت الأشجار أجرد ضاح
من قـراه إلا من الأتـراح . . .
ووس للزهو ناشر بجناح
لوجدناه منجل الفلاح!

في الكتـب بحثاً كأني دودة الكتب
لـورود بـدون عقل ولـب
لآتي منـغص بـاليقين

أن يمعن في الفكـر
رفـاق تحطت الثـارينا
فورثنا جـراها المنفـوخا
على الأرض سـادة وشـيوخا

كم طليق يكـابد التـكيـدا
من رياض عن طـيرها لن تـلـودا

فغـرد لنا بلحن السـليـقه

فأنـا قد سـجنت روحاً وجـسماً

فإني بـلـواي قلب وراس

من يفتح أبـوابـه؟

ما لهذا الفـلاح في الأرض روح،
هو في جـنة ينال عذاباً
وقرى النمل، لهف نفسي، أثرى
رب قصر من فوق دجلة كالطـام(م)
لو كشفنا أطباقه عن أساس
ولقد ضاق الشاعر بأمر نفسه فقال:
لهفي لخمسين من سنـي قد اندرست
وضاق ذرعاً بالعقل والفكر واليقين فقال:
ليتني كنت في الرياض شقيقاً
وقال:

انني قد غـدت أنعم في الشك
وقال:

وبلـوى البشر المـكـار
وضاق ذرعاً بالتاريخ ورجاله فقال:
في رمال التاريخ أثار أقـدام
نفخت في الجراب دهرراً وولت
وإذا بي ما بين أجـربة تمشي

ولقد حسد الطائر السـجين فقال:
ولا يضيرك أن غـدت أسيراً،
قفص من جـريـدة النخل خير
ونفس عليه أنغامه الفطرية فقال:

بلـدتنا صنـاعة اللحن في القول
وقال أيضاً:

إن تكن قد سـجنت، يا طـير، جـسماً
وقال:

إن يكن قلبك المولع بـلـواك
وقال:

وهـذا قلبي المغلق

وقال من فرط الوجد والألم :

عسى أن تـرقص السـديـا ، ولـو رقصـة مـذبـوح !

وأساء الظن في المجتمع فقال :

لست أخشى عليك من سـارق قط ولكن خـسوفـي من الحراس

والشرقي بعد ذلك عدو التعصب والرياء ، فهو يقول :

ذممت التعصب من قبل ذا وهـا أنـا في ذمـه لا هـج

دعونا نوسّع آفاقنا ليقبلنا المزج والمزج

أقول ، وقد سألتني الرفاق : أنت على وضعنا خارج ؟

أبى الثمر الفجّ عن جذعه فصلاً وينفصل الناضج

ويقول :

سبعون معصية قد أتيتها في الخفاء

كانت أبـرّ وأزكى من طاعة في رياء

ولقد هام علي الشرقي بوطنه وبلاده ورثى لخالها وطلب رقيتها ورفعتهاء ومجدها ، وردّد في شعره ذكر أقطار العروبة من مصر والشام والحجاز ونجد إلى طرابلس وفلسطين .

وأقضى مضجعه خمول العراق ، فقال :

نطقت بحاجتها الشعوب وأفصحت وأرى عـراقـي واجماً لا ينطق

وكأنّ هذا الشرق سـفر غرائب شرحوا عليه الدارجون وعلّقوا

ختمت صحائفه وجئنا بعدها حتّى كأننا فيه فصل ملحق

وفي موشحه « صفيّر العسس » عرض لأحداث الدهر في بلاد الرافدين من سقوط عبد الحميد ودك عرشه وغليان الثورة القومية إلى تشتت الآراء وتخاذل الرجال . ولقد طالما راودته الأحلام ، فرأى الفراتين وقد ازدهرت على ضفافهما نينوى وبابل وأور ، وممرت مواكب آل ساسان وأكاسرة المدائن ، ورأى شبيح الموبدان خاشعاً بين يدي سابور .

ثم ازدحمت الجموع في يوم ذي قار والقادسية ، وارتفعت رايات الرشيد والمأمون ، وهجمت المغول ، وجاءت دولة آل عثمان ، وإذا العين تحلم بدولة عربية ، وإذا العراق قد بنى بيتاً له ألف باب ، واحتفل بدولة الألقاب ، فنعم الغدوّ ونعم المآب .

تألم الشاعر لحال بلاده فقال :

لم يبقَ وجـهه بشـوش في الكـوخ أوفـي الخـصـاص

وقال :

في جانبَي قطري زيت يفور فأين أين الأئمة الشاعلة؟
وقال:

ليس تجديك سكتة الأفواه حين نمسي بثورة في الصدور
والشرقي شاعر يجيد الوصف ولا سيما وصف الحالات النفسية والنوازع الخفية، فهو يقول:

شاعر خاشع يحس بها في النفس من وحشة وفرط التضاع
رجف الصوت بالحنين وأصغى لـ رفيف الأرواح في الأسماع
ذلك علي الشرقي الرجل والشاعر!

إيه، يا أبا إحسان، أيها الإنسان الفاضل. إنِّي لأذكر ساعات وأياماً وسنين مضيتة قضيتها متمتعاً بأدبك الرفيع ولطفك الجَم ومودتك الجميلة المتواضعة. لقد كنت في عهدك الأخير تشعر بدنو الأجل، سافرت للاستشفاء في لندن، ثم عدت وكأنك متجرد عن الحياة الدنيا. فأسرعت بطبع كتابين لك وهيأت كتاباً ثالثاً لم يمهلك الزمن لنشره. وكنت تقول: ليس لي شيء من المتاع، فداري وسيارتي وكل ما ملكت يميني إنما هي لإحسان وللعائلة. . . ولا أنسى أنني زرتك قبل مرضك القاتل الأخير، وكان لديك جمع من الزوار، فلما استأذنت بالخروج ومضيت في توديعي متفضلاً إلى الباب، قلتُ: أريد أن أستشيرك في أمور، يا أبا إحسان، فاسمح لي أن أزورك في فرصة قريبة. وقلت لي: بل عد الآن، وأنا كفيل بصرف الزوار، فنختلي ونتكلم. ولكنني قلت: لا داعي للعجلة، وانصرفت ولم أعلم أن القدر يقف بالمرصاد، وأن زيارتي التالية ستكون للسؤال عن صحتك وأنت راقد في الفراش تعاني أوصاب الداء الفتاك. ثم دق جرس التلفون بعد أيام قليلة، وكان نعيك الذي صكَّ السَّمع وأضنى النفس وأدمع العين.

كان الشيخ علي الشرقي متواضعاً، أنيس المحضر، لا يأنف، وقد أصبح شاعراً عربياً ووزيراً عراقياً مرموقاً، أن يتحدث عما لقيه في صباه وصدر شبابه من ضيق وشظف عيش، حتى شقَّ طريقه في الحياة وبلغ منزلته الرفيعة. وقد حدثني يوماً أنه كان، وهو شاب، يعاني عسراً شديداً حتى ضاقت به السبل ولم يعرف باباً للأمل. وفي تلك اللحظات العسيرة طرق بابه وجاء أحد أبناء شيوخ العشائر يسأل عن الشيخ علي الشرقي.

ولما عرفه بنفسه قال القادم: ان الفرس عربية أصيلة ولكنها لا تساوي أكثر من ستين ليرة ذهباً، فإذا شئت دفعت لك ثلاثين ليرة عن نصف ثمنها، أو رغبت في أخذها فادفع لنا ثلاثين ليرة وخذها، بارك الله لك فيها!

ولم يدر علي الشرقي قصة الفرس ولم يسأل عن أمرها، ولا ساوم في ثمنها، بل قال:

هات ثلاثين ليرة واحتفظ بالفرس .

وقبض المبلغ وحمد الله الذي فَرَّجَ كربته من حيث لا يعلم .

ومضى اسبوع أو اسبوعان ، وجاء صديق علي الشرقي إلى النجف وقال له : هل قبضت نصف ثمن الفرس ؟
قال : قبضت ثلاثين ليرة ، وحقق محفوظ فيها . ولكن حدثني ما القصة ، وما شأنك في الأمر ؟

قال : انني نازل في مضارب الشيخ . . . رئيس عشيرة . . . وقد أدركته الوفاة ، فاستدعاني وقال لي : أعلم ان هذه الساعة آخر عهدي بالحياة ، ولي فرس أصيلة أريد أن أصرف نصف ثمنها في وجوه البر ، فأني جهة من جهات الخير أجدر بها ؟ فقلت : أوص بنصف ثمنها إلى مقام علي الشرقي (وهو مزار يقابل قرية علي الغربي على الجانب الآخر من نهر دجلة) . وأوصي الشيخ ، ثم قضى نحبه .

وأتم الصديق حديثه قائلاً : وجاءني أولاد الشيخ الراحل يسألون انفاذ وصية والدهم ، فقالوا انهم قدروا ثمن الفرس بستين ليرة ذهب ، وسألوا عن مقام علي الشرقي ، فقلت : اسألوا عنه في النجف الأشرف . وأرسلوا أحدهم إلى النجف ، فكان ما رأيته وسمعت !

قال علي الشرقي : بل كان ذلك الفرج الذي أرسله الله .

ولقد تحدّث علي الشرقي في «الأحلام» عن فقر النجف المذقع وأحلامها العريضة ، تلك البلدة التي كما قال :

الرجاء وبها مغالقة	فيها مفاتيح لأبواب
بالسالكين إلى حقائق	ولها مجاز يتتبع
من كل معجزة وخارق	ملأى بكل طريفة

حار ورفاقه من الشباب في التماس الرزق ، فألفوا «شركة مقاومة الفقر» وشرعوا بطبع الكتب والدواوين الشعرية . ثم ضربوا في القرى والديساكر ومنازل الريفيين والعشائر ، وباتوا في الخيام والعراء وحجر الطين التي تجري فيها الفئران وتصب السقوف ميزاب أمطارها ، وجابوا ساحات الحرب ودهاليزها الخلفية وميادين الثورة والجهاد . . . وقد كتب الشرقي صفحات صادقة من تجارب الشباب وتجوّلاته وتطلّعاته ، صفحات تمتاز بنثرها القلق القافز المتعثر وتكاد تشبه أحاديث جان جاك روسو في اعترافاته . وقد قال :

إلا لكوني شاعراً وفصيحا	فصح الشعور به ، ولم أكن شاكياً
حرّ الفضاء لأشتكي وأبوحاً	في النفس أشياء ، فهل من موضع

امتحن علي الشرقي الحياة وعرك الدهر فخرج بحكمة عملية لخصها بقوله :
 «وإني أكاد أن أكون مخضراً : لقد توسطت جيلين وشهدت عهدين لا يلتقي أحدهما مع الآخر، ولكنني التقيت مع هذا وذاك وأدركت وداع أحدهما واستقبلت الآخر. لقد تتلمذت على منبر ذاك وتوسطت حلقة هذا، وأغرب ما أدهشني وحدة الجوهر واختلاف الأسلوب. الضجة التي سمعها المعري في اللاذقية، وإن الأصوات التي كانت مرتفعة في أروقة البصرة والكوفة وبغداد ودمشق والقاهرة وغرناطة واشبيلية، وما كان يتصاعد من أبواق دراويش المتصوفة ومن قعقة السيوف الخشبية التي يتكئ عليها خطباء الجمعة، كلها تطلب البلمس للجرح وتريد العلاج لهذه الدنيا المريضة، ولكن كل ما جاءت به مسكن لا العلاج الشافي. وكذلك دعاوة اليوم وما تقوم به هذه الأكوام من المؤلفات والمحاضرات والمجلات والجرائد ومكاتب السياسيين ومنابر البرلمانات وصفوف الجامعات وأنباء المراسلين، وكل ما سجلته الأفلام وربته حروف المطابع، تلك الأقلام وتلك المطابع التي تكتب وتطبع بحبر رماد الحق. فقد قيل إن الباطل أحرق الحق، وجاء البشر أو شياطين البشر فلم يجدوا إلا رماد الحق، وسرعان ما جعلوه مادة حبر لما يكتبون وما يطبعون. والدنيا في يومها وأمسها برغم الانقلاب الأول والثاني أساليب تتبدل وظواهر تتطور، ولكن كل ما جاءت به علاج مسكن وليس بالشافي.

«إنك إذا تقصيت وفحصت بعمق لم تجد في الرؤوس شيئاً. وهذا الإنسان في قديمه وحديثه لم تنفعه تفاحة آدم ولا صمونة مولوتوف(*)، بل هذي وتلك طردته من الجنة وأبعدته عن النعيم...»

الشيخ علي الشرقي :

كان عاطفياً سريع الإنفعال في حياته الشخصية والأدبية، وقد أثر فيه يتمه ونشأته الصعبة في البيئة النجفية الجامدة تأثيراً عميقاً. ولذلك نرى شعره يختلف اختلافاً بيئياً عن شعر معاصريه بكثرة مجازاته وإيماؤه وصوره الغريبة وحده على الفقراء والفلاحين والكادحين.

لم يكد يبلغ مبلغ الشباب حتى ثار على بيئته الجامدة ووجد نفسه سجيناً يصبو إلى الحرية والانطلاق ويزنو إلى آفاق بعيدة خارج مجتمعه. وهو يحمل على رجال الدين المتزمتين ويداعب الأفكار الحرة الجديدة التي انبثقت من النهضة الفكرية في مصر ولبنان على قدر ما تسمح به ثقافته الدينية الأصيلة وعدم معرفته باللغات الغربية. وقد جاء نشره وشعره متواجهين بين القديم والحديث لا يستقر لهما قرار شأن نفسيته القلقة المضطربة.

(*) صمونة مولوتوف (أو قنينة مولوتوف، على الأصح) اسم أطلق خلال الحرب العالمية الثانية على قنابل بدائية استعمالها الروس في الدفاع عن بلادهم، ومولوتوف وزير الخارجية السوفيتية عهدئذ.

ولعل هناك بوناً شاسعاً بين الشرقي الشاعر والشرقي القاضي الشرعي العالم الناجح والشرقي الوزير الذي مالاً الوضع الذي ينتقده وسايه لينعم بمنصبه . لكنه كان دائماً مخلصاً وفيماً لأصحابه معتدل السيرة غير مندفع في خصومته ونقده . عرف في القضاء فقيهاً ملماً بالأحكام الشرعية متمسكاً بالتسامح والتزام مفاهيم العدالة في تطبيقاته وتخريجاته . أما في الوزارة فكان شفافاً كالماء الذي يتلون بلون الإناء ، فلما جاءت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وقضت على العهد الملكي الذي زامله في حياته السياسية مضى في «أحلامه» يحمل على سياسة الأمير عبد الاله ونوري السعيد . ومن الحق أن يقال إن شعره قبل الثورة كان زاخراً بالشكوى والتبرم من الأوضاع السائدة ، فكان ثمة ستار فاصل بين حياته العملية والفكرية لم يحاول رفعه . لم يكن الشيخ علي الشرقي من الرجال المكافحين في سبيل المبادئ والآراء ، الراضين بالتضحية وتحمل المشاق ، بل كان بطبعه سهلاً ينقاد للواقع ويياشي ويجامل إلى أبعد الحدود .

وقد قال في إحدى ربايعاته :

يا رامي الشجر العالي بأكرته ، هلاً تعلمت أخلاقاً من الشجر
ترميه بالحجر القاسي بلا خجل وإنه دائماً يرميك بالثمر
لقد هادن المغالين المندفعين والمعتدلين المساييرين وقنع برفاهة العيش وهناء الأسرة
والقبيل واكتفى بالنقد البريء والقول الهاديء ، فقال :

هذي الرؤوس ولكن كلها وجع ، وذئ العيون ولكن كلها رمد
وكم صدور بهذا القطر فارغة جوفاء ليس بها قلب ولا كبـد
صدور أنديّة في جهلها انتفخت حتى تشابه فيها الهـر والأسـد
وصحّ فيه قوله :

يا بلاداً تجهّمت بظلام المصاييح فيك ملأى بزيت
إنني هامس بأذنك قد كنت ولكن لا أريد أرفع صـوتي

وكان المسالم الذي قال :

ما لدار السلام أضحت برغمي تشتهي أن تكون دار الخصام؟
تنطح الصخر في قـرون الطين وتغزو الأجداد بالأقـزام

اطلع احد شعراء النجف المتزمتين على منظومة إيليا أبي ماضي «لست أدري»
فعارضها بمنظومة مثلها حسب أنها نقضت كل شكوك الشاعر المهجري وجعل عنوانها
«أنا أدري» . فأنبرى له علي الشرقي بمعارضة جديدة مختصرة ختمها بقوله :

أنت مجنون ولكن لست تدري ، أنا ————— أدري .

علي الشرقي :

حدثني علي الشرقي أنه جاء من النجف إلى بغداد بعد أمد قصير من احتلال الانكليز لها سنة ١٩١٧ ونزل في بعض خانات الكاظمية . وتحلق رواد الخان عصراً في الساحة وأخذوا يتحدثون عن الأتراك وما جنوه على العراق فسلقوهم بالسنة حداد ، وقال بعضهم إن الأتراك كانوا كفاراً والإسلام بريء منهم . . . فاعترض علي الشرقي ، وكان جالساً معهم تمضية للوقت ، وقال إن الأتراك مسلمون ولا ريب ، وليسوا كفاراً ، والأولى انتقادهم بأنهم علّة تأخر البلاد التي حكموها نحواً من أربعة قرون في دياجير الجهل والفقر . . .

وفي صباح الغد مضى الشرقي إلى بغداد ودخل السوق وجلس في دكان السيد محمد رحمة الله ، وكان جعفر الشبيبي عاملاً لديه . وفيما هم يتحدثون إذ جاء بعض أفراد الشرطة وتفحص وجهه علي الشرقي وقال له : أنت علي الشرقي القادم أمس من النجف؟

قال : نعم

فأشار إليه الشرطي أن يرافقه إلى «خان دلة» وهو آنذاك مقر الشرطة الانكليزية . ومضى بصحبته فأدخل على قوميسير (مفوض شرطة) انكليزي يتكلم العربية بطلاقة ، وقال له : أنت علي الشرقي (ومضى يسرد حياته وأعماله) . ثم سأله : ماذا قلت أمس في خان الكاظمية وأنت جالس تتسامر مع الجماعة؟

فأخبره الشرقي بما دار الحديث حوله وما قاله هو نفسه ، فقال المفوض : هذا صحيح ، وكلامك لا غضاضة فيه . لكن العوام لا تفهمه وتؤوله شتى التأويلات في هذه الظروف التي تخيم عليها سحابة الحرب ، فالأولى أن تحذر الكلام وتلوذ بالصمت . وأذن له بالذهاب بعد هذا التحذير ، فخرج وهو يعجب لدقة الاستخبارات البريطانية .

عبد الحسين الأزري

عبد الحسين الأزري من شعراء الطبقة الثانية التي برزت بعد رائد النهضة الأدبية الزهاوي والرصافي . لكنه بقي محافظاً إلى حد ما ولم يساير التجديد إلى آخر أشواطه شأن محمد رضا الشبيبي وأخيه محمد باقر وعلي الشرقي وأقرانهم .

نسبه علي الشرقي إلى الأسرة الأزرية المتفرعة من محمد بن مراد التميمي البغدادي المتوفى سنة ١٧٤٩ ، وهو أول من لقب بالأزري لتعاطيه بيع الأزر المنسوجة من القطن والصوف ، وقد نبغ من هذه الأسرة الشاعران محمد كاظم (١٧٣٠ - ١٧٩٦) ومحمد رضا المتوفى سنة ١٨٢٤ .

لكن جعفر الخليلي يذكر مستنداً إلى أصح المصادر أن الحاج عبد الحسين بن يوسف ابن محمد المعروف بالأزري ابن محمود بن ابراهيم الحضيري التميمي لا صلة له بآل الأزري المتقدم ذكرهم سوى أن أحد جدوده من الحضيريين تزوج بابنة الشيخ محمد رضا أخي الشاعر الشيخ كاظم فطغت شهرة الأزرية على هذا لبيت .

ولد عبد الحسين الأزري في بغداد في شهر شباط ١٨٨١ ، ودرس في مدارسها الابتدائية . ثم تتلمذ على الشيخ شكر الله قاضي الجعفرية فأخذ عنه العلوم العربية والدينية . وأكّـب على مطالعة الشعر والأدب ، ونظم القريض وهو يافع . عمل في التجارة حيناً ، وهي مهنة أسرته ، وكان موظفاً في شركة ترام الكاظمية .

وافتتحت المدرسة الجعفرية في بغداد سنة ١٩٠٨ فألقى في حفل الافتتاح قصيدة قال فيها :

زيـدي بنيك محاسناً وجمالاً ودعي الحوادث تقنع العــــذالاً
وامشي بهم مشي الهلال معانيناً حلك السيـر السـدجى حتى يتم كمالاً

وأعلن الدستور العثماني في تلك السنة فكفل حرية الكلام والصحافة . وأصدر الأزري جريدة «الروضة» (٢٢ حزيران ١٩٠٩) ، لكنها أغلقت قبل مرور سنة على صدورها فشنفها بجريدة «مصبح الشرق» (أول آب ١٩١٠) . وصدرت هذه الصحيفة أشهراً ثم أصابها يد التعطيل .

وأصدر بعد ذلك جريدته الثالثة «المصبح» (٧ آذار ١٩١١) فـ «المصبح الأغر» (١٤ تشرين الثاني ١٩١١) وظلّت تصدر ثلاث سنوات . وتولّى الأزري في الوقت نفسه إدارة مجلة «العلم» التي أصدرها هبة الدين الحسيني الشهرستاني .

ولما نشبت الحرب العظمى وخاضت الدولة التركية غمارها ، نفي إلى قيصرية الأناضول مع لفيف من أحرار العراق ورجال الفكر والإصلاح ، فمكث في منفاه نحواً من سنة وعشرة أشهر . وسمح له بالعودة إلى بغداد مع صحبه سنة ١٩١٦ . وقال يذكر وادي أرجيوس من قمم جبال طوروس القريبة من قيصري :

وادي أرْجِيُوس ، حسبي ما أقاسيه ، شيت رأسي كما شابت نواصيه
كفالك سجن غريب بين مجتمع يعدّه كأسير من أعاديّه
ضيت ، ويليّك ، شطراً من شبيته قد ظنّه برغيد العيش يقضيه
يشكو إلى الليل من صبح يعيد له (م) البلوى وللمصبح من ليل يداجيه

ويحنّ إلى بغداد فيقول :

إذا ذكرتك ، يا بغداد ، أرّقني ذكرى حبيب بروحي كنت أفديه
تركته ساعة التوديع في ولـ لم يدرك كيف عن الأنظار يخفيه

وبين جنبيه نفس لا تطاوعه على النوى وفؤاد لا يواتيه . . .
وهي من رقيق الشعر تذكّرنا بهائية ابن زريق البغدادي (لا تعذليه فإنّ العذل يولعه)
ونونية محمود سامي البارودي:
محا البين ما أبقت عيون المهامني فثبت ولم أقض اللبّانة من سني
أصدر الأزري بعد الحرب مجلة «الإصلاح» (٢ آب ١٩٢٤) فلم ينشر منها سوى
عدد دين .

وانتخب نائباً عن الديوانية في مجلس النواب (كانون الاول ١٩٣٤) فلم تدم نيابته إلا
أشهرًا إذ حلّ المجلس في نيسان ١٩٣٥ . وقد قال في المجلس النيابي :

يسار رواق المجلس الحافل	بالوفد الضيوف ،
يسار جناح المطعم الغاض	برواد الـرغيف ،
أيها الحافظ لـلائرار	ريّبات الـرفوف . . .
حسرت في الأمـر، فهل	عنـدك من رأي حصيف؟؟
كيف مـالت كـفـة	الميزان بالـوزن الخفيف؟

وعدّ المجلس صالة تمثيل هزلي تحرّكه الإشارات من وراء الستار ويعيش جوقه اللاهي
على كدّ الألوف من المواطنين . وقد قال الشاعر العراقي في القرن التاسع عشر - ولعله
عبد الباقي العمري -:

صور وأشباح تروح وتغتدي خلف الستارة والمحرك باقي

وكان للأزري بعض الإلمام باللغات التركية والفارسية والفرنسية . ومن أولاده
الوزيران المهندس عبد الأمير والاقتصادي عبد الكريم . أدركه الحما في بغداد في ١٧
كانون الاول ١٩٥٤ .

مؤلفاته :

له شعر نشر في معظم المجلات والصحف العربية ، ثم جمع في ديوان طبع في بيروت
سنة ١٩٧٩ بمقدمة للشيخ علي الشرقي . ووضع تاريخاً للعراق قديماً وحديثاً وروايات
متها : قصر التاج ، بوران ، بطل الحلة ، وكلها لم تطبع ، ومجموعة مقالات في السياسة
والاجتماع والأخلاق .

شعره :

عبد الحسين الأزري شاعر محافظ في معانيه ومبانيه ، جزل الألفاظ ، مشرق
الديباجة . ذكر علي الشرقي مزايا شعره فقال : «هو إقليمي في فنّه ، انساني في نزعته ،
قومي في أهدافه . وبما أنه ترعرع في أحضان الثورات والانتفاضات فقد كان يكثر في
شعره النقد اللاذع وتصطبغ قصائده أحياناً باللون القاتم . . . يحب من الشعر الخيال

الجميل ويدع في الأسلوب القصصي» .

وقال جعفر الخليلي إن الأزرى ، إلى جانب شاعريته الفياضة ، محدث بارع وظريف لبق . كان على جانب كبير من الوقوف على التاريخ العربي ، ولما روى شيئاً دون أن يستشهد بأقوال شعراء الجاهلية والإسلام والوقائع التاريخية . وكان لغوياً واسع المعرفة ، خفيف الروح ، يعشق الجمال في كل شيء ولا سيما في المرأة . (اهـ)

امتاز شعر الأزرى بالجزالة والرواء . وهو شاعر وجداني قبل كل شيء . أليس هو القائل :

خطأ كان ، فاذهبي بسلام	واغفري ما اقترفت من أثامي
وتناسي بحرمة العهد ما كنت	تقاسين في سبيل غرامي
من عتاب مرّ وآلم شكوى	فيهما قد تصرمت أيامي
غمرني طيفك الملمّ بجفني	حينما كنت غارقاً في منامي
وتحيت أنني فزت بالقرب	وأدركت منك بعض مرامي
لست أدري ، وليتني كنت أدري ،	أنما في سورة من الأحلام . . .

والقائل :

صدق الهوى ، ما كلّ ودّ صادق ،	فلكم تذرع بالوداد مماذق
ومكابره بالعشق لو كاشفته	لعرفت منه سرّ ما هو عاشق . . .
أحامسة الوادي ، سبتك بالغنا ،	لولا فمي بالماء دونك شارق
ولربما سكت الحزين ، وفي الحشا	نفس معذبة وقلب خافق

وقال يخاطب شجر البان :

هل متك الوجد مثلي ، أيها البانُ فأذنت بذبول منك أغصان؟

سأل الشاعر شجر البان : هل روت له الحمامة حديث الهوى مشوباً بالأشجان والأحزان ، وهل اتخذت الظباء ملجأ في ظله الوارف الفينان ، ثم أمست مغانيه قفرة موحشة كنفس الشاعر الوهان ؟

وفي قصيدته «اليتيم» التي أنشدها سنة ١٩٢٥ في حفلة المعهد العلمي لرعاية الجمعية الخيرية للأيتام يقول :

هدأ الدجى لولا أنين عليل	ومدّد بسقامه مشغول
ونشيج وهى خشية من أنها	تبقى وصيئتها بغير كفيل

طال السقام على الشقي المريض ، وبجانبه صبية صغار وحليلة تتكلف الصبر الجميل ، ومن الصبر ما يثقل ويرهق إرهاقاً . وقفت عند سريره تكفكف دمعها وتنظر

إلى أولادها وقد باتوا على الطوي . حتى إذا ما قضى رب الأسرة بقيت المرأة المفجوعة تعاني البؤس ، حتى سئمت الذل ووردت حياض الموت تاركة أيتامها طعائن في قفر راحت مشتتة بغير دليل .

وقصيدة الأزري مؤثرة حزينة تبتدىء وتنتهي بالفاجعة على عادة شعراء زمانه وفي مقدمتهم الرصافي ناظم «أم اليتيم» و «اليتيم في العيد» .

وفي شعر شاعرنا ، أنات وحسرات ، فهو نفسه قد ابتلي بالمصائب فقال :

عشتُ دهرًا فلم أجد غير ما بُتُّ (م) أقاسيه من نوائب دهري
غصص لـو حسبتها لتلاشت دون إحصائها دقائقي عمري
فلا عجب أن أصبح سيء الظن بالدهر وبالناس .

ألم يقل :

أضحكتنا ، ورب ضحك بكاء ، فترة من زماننا رعناء
وقال أيضاً :

نحن في كل غُمدوة ورواح هدف الموت والقضاء المتاح
وقال :

لم يبق في الناس موثوق بعفته إلا الذي عصمته رحمة الباري
وقال :

تمشي بنا القهقري مثنى الكسيح بها دنيا تقدم أذناباً على الراس
وقال :

قد ذهب الصديق وظل اسمه ، يا ليتيه ولي مع الصديق
وقال يرثي لحال الأديب :

جهلوه في قيد الحياة ، وبعدها لما مضى أسفوا على فقدانه
فكأنهم فيضمان دجلة حينها يأتي إلى الوادي بغير أوانسه
وقال يذكر صديقاً خانه :

ولي صاحب قد كنت أوثر حبه فلما أساء انسل من قلبي الحب
لقد خانني فيما عليه ائتمنته ورب أذى مستبج بعده العتب

وقال ، ولعلها الغاية في الشكوى من العقوق والكند :

حسبي عتاباً على من قد خلصت له وقد جفاني أي لا أعاتبه
من تحذر من صُلبي نفصت يدي فكيف أرجو الوفا من أصحابه؟
والأزري شاعر وطني تألم لحال بلاده وسائر أقطار العرب والشرق وطلب لها الحرية

والعلم والنهوض . فيها هو ذا يخاطب وطن الرشيد قائلاً :

وطني ، لأجلك قد عدت قراري
أحيي الليالي والعيون هـواجع
وسئمت فيك حياة هـذي الدار
وهـواجسي في جنحها سـمّاري
حتّى يقول :

ناديت أوطاني ، وما أعني بما
النائرات فضائي ومفاخري
والنـاظـرات إلّـي نظـرة آمـل
والباعثات بنفسي الشـمـم الـذي
ناديت غير دوارس الأثـار
والشاهـدات بعـزّي ونـجـاري
إحياء مجد دارس وفخـار
يأبى الحـيـاة بـذلّة وصـغـار . .

ويقول في قصيدته «المجد مكتسب» :

دم ذاكرأ فيك ، يا شعبان ، من وثبوا
واحفظ لهم عهد صدق عند نهضتهم
واسعد بقوم على ورد الرّدى عقدوا
فسوف يحفل في تمجيدك العرب
بنبوذه الشرف الموروث والحسب
راياتهم أو ينالوا كلّ ما طلبوا . . .

ويقول في قصيدته «مظاهر ودّ كلّهن مصائد» :

ألا أيها السوادي الكتيب الذي له
لقد كنت أرجو أن تحلّ من الإبا
ظمتنا ولاغيار فيك موارد
على بؤسه مجد طريف وتالد
محلاً به تلقى إليك المقالـد
إذا علّ منهم صـادـر حلّ وارد

ويقول في قصيدة أخرى :

ليس يجدي من الضعيف الكلام ،
إنما الحقّ سلوة العاجز الأعزل (م)
يتسلّى بــــــــــــــــــه كما يتسلّى
يسمع الناس ما يقول الحسام
فيما لو جارت الأحكام
بحديث الصّباية المستهام

ولا يفوته - على عادة شعراء عصره - أن يطلب العلم لأمته ، فيقول :

نال فيك الغرب ، يا علم ، المراما
أشرقتم شمسك في الغرب ولم
فغدا لم يـنـزّ للشرق ذماما
نـر من أنـارها إلّا ظلاما . . .

حتّى يقول :

يا بني الشرق ، خذوا العلم ولا
واتقوا عادية الدهر به ،
ثم يلتفت إلى وطنه فيخاطبه قائلاً :

أيها القطر السذي في مجده ضارع النجم علواً ومقاماً
كلما رمث أنساجيك بما في فؤادي قطع الدمع الكلاماً
لك في عهد حورابي على سائر الأقطار فضل لا يسامى
وعلى آثاره قد شهدوا أنك المبدع في الأرض النظاماً
ببدأ العلم بمغناك فهل فيه تحظى اليوم بدءاً وختاماً؟

خلا شعر الأزري من المديح باستثناء الأماديع النبوية والمراثي الحسينية . لكنه رثى رجال عصره ، وفي طليعتهم الملوك الهاشميون حسين وفيصل وغازي ، والسياسيون محمد جعفر أبو التمن ورستم حيدر وسعد زغلول ، والأدباء الزهاوي وشوقي والرافعي والمنفلوطي ، والزعماء الروحيون محمد تقي الشيرازي ومهدي الخالصي ، الخ . ولعله الشاعر العربي الوحيد الذي رثى شاعر الهند طاغور ، وإن يكن الأدباء كتبوا عنه وترجموا له كثيراً ومنهم مصطفى صادق الرافعي . قال الأزري في طاغور:

أيها الراحل الذي كان يشدو وهو رهن القيود والأغلال
مثلما تصدح الطيور صباحاً من وراء الأقفاص والأقفال

والحقيقة ان طاغور لم يعرف القيود والأقفاص ، بل شدا وترثم حراً طليقاً ، فلقني التكريم في موطنه وفي بريطانية والمحافل الدولية التي منحته جائزة نوبل للآداب . واقتصر نضاله في سبيل الهند على إعادة الأوسمة التي منحته إياها الحكومة الانكليزية بعد الحرب العظمى الأولى .

وقال الأزري :

لم تصل للكمال نفس ، ولكن كدت فيها تتجاز باب الكمال
أدب لذت من شجونك فيه عدت فيه بمعجزات الخيال
خطرات شغافة ككؤوس من رحيق معتق سلسال
أو نسيم بين الرياض بليل أو كهاء عذب المذاق زلال . . .

وهو يستطرد في رثاء الزهاوي إلى حكمة الحياة والموت ، فيقول :

ضرب الغموض على الحياة حجاباً ، فسارفق بنفسك ، أيها المتعمق
قصرت خطاك عن الوصول ولم تزل تدنو فتبعد أو تعوم فتغرق
مشت العصور على غرار واحد : نفس بها تحيا وأخرى تزهرق
والليل يجمع والنهار يفرق والليل يجمع والنهار يفرق
والدهر كالبحر الخضم يفيض في رحم الذين مضوا ويجرف من بقوا
.....

ويرثي ولداً احتسب به صبيّاً فيقول ملثاعاً :

بين نشر السدجى وطىّ النهار
أيها الحاملون للقبر دُرجاً
كفّنوه بالورد فهو أخوه،
لا تهيلوا على الأقاحي تراباً،
ويرثي قريبة له عزيزة عليه فيقول :

كأنك في قبرين : قبر بأضلعي
أجدد فيك العهد كلّ عشية
وقبر به وسّدتُ خدك تُربه،
وقفت عليه خاشع القلب مطرقاً

وهو يرثي سعد زغلول فيطلقها صرخة وطنية مدوية، ويرثي أحمد شوقي فيمجّد
الأدب ويكبر الشاعر والأديب، ويرثي يوسف رجب فياسى لهوان الأديب الحرّ ويجزن
لبؤسه وشقائه .

والمواضيع الأخرى التي يطرقها الأزري يماثل معظمها تلك التي شغلت بال
معاصريه من الشعراء .

فهو يرثي لحال وطنه - ذلك الوطن الذي قال فيه :

وطن يرانا الخير من غربائه وتعدّنا النكبات من أبنائه
وتكاد تنكرنا الحياة، كأننا لسنا بهذا القطر من أحيائه

لقد عدم قراره لأجل هذا الوطن وشم الحياة فيه ، فأرقت لياليه . طلب لقومه العلم
والنهضة والسودد، وحثّى ذكرى الثورة العربية وثورة العشرين، وقال إن الحق لا ينال
بغير النضال، واستنكر الشقاق وتفرق الكلمة، وقال :

تعهدوا، يا شباب اليوم موطنكم من أن تضعيه الأحزاب والشيع
كان الوفاق لكم أيام نهضتكم ركناً، ولكن أراه اليوم ينصدع .

والأزري بعد ذلك رجل محافظ وقف من قضية تحرير المرأة موقف السوجل والحذر،
ورّد على دعاة السفور قائلاً :

أمنازل الحفّرات في الزوراء، لا زعزعتك عواصف الأهواء

قال لبنات قومه إنّ الحجاب لم يكن إساراً، وحذرهنّ من أن يخدعهنّ الشعراء
بخيائهم، ونذّر بالمسارح والملاهي قارناً التهذيب بالفضيلة والحياء . وطلب تشييد

المدارس للفتيات ورفع مستوى أخلاقهن ليكن نساءً فاضلات ، صالحات لتربية الأجيال الطالعة .

ومن طريف شعره قصيدته «الغادة العذراء في أحلامها» . وللشاعر الفرنسي ألفرد دي موسيه مسرحية منظومة لطيفة عنوانها «فيم تحلم الفتيات» أو «أحلام الفتيات» يصور فيها أختين تتناجيان في الحب والزواج والتبرج والجمال . تحلم احدهما بالعريس الذي دعاه أبوها لزيارة الأسرة في الغداة وتسمع ، وهي على فراشها سكرى بحسنها وصباها ، صوت شاب يغني لها خارج النافذة ويقول : أيتها الفتاة ، ماذا تفعلين بحياتك؟ الساعات تهرب ، والورود تذبل ، والشتاء يعقب الخريف . قلبك يخفق وعيناك تتوهجان . أنت تذهبين إلى البحر بلا نجم هاد وإلى المعركة بلا نشيد . وما قيمة الحياة بلا حب؟ إنما الحياة رقاد والحب أحلامه .

وتقول الفتاة : إنني أشعر بهزار يترنم في أعماق قلبي . ويأتي الحبيب ليختار إحدى الفتاتين فيتردد ويحار ، ويقول : لا تسخروا مني ، أنا لا أعرف طرق الحب . أنا لا أعرف سوى النظر وإنزال عبرة ساكنة وترديد آهة خجلة . النار تضطرم في صدري ولساني عاجز عن البوح بهيامي . . . وتنتهي الأحلام بالزواج السعيد .

إن أحلام فتيات الشاعر الفرنسي تضحج بالبطولة والحب والمجازفة والغناء . أما غادة الشاعر العراقي فتريد سعادة هادئة لا تعصف بها الرياح . قال الشاعر :

عصفت بها ريح الهوى فتدلّدت ،	من ذا يرّد الريح عن أدراجها؟
وتطلعت في الأفق من أستارها	كتطلّع الأقمار من أبراجها
عذراء فاتنة وكم من فتنة	كان الهوى سبباً إلى إرهابها؟
قد جاوزت اعصارها وتهايت	للطف كالثمرات في إنضاجها
وبدت ترائبها كماء بحيرة	وكأنها النهدان من أمواجها
نظرت رشاقة قدّها فتنهدت	وكأنها خشيت فوات زواجها
خلع الإهاب عليه أجل حلّة	يسمو برقته على ديباجها
ويشفّ عن هيف القوام رداؤها	كالراح تظهر من وراء زجاجها
تختال ضامرة الحشا ، لكنها	تشاقل الخطوات من رجراجها
جاءت لتعرضه على مرآتها	من بعد ما عبث الهوى بمزاجها
وتلفّت لترى انعكاس خيالها	في ميسها ودلالها وغُناجها
وتكفّ ما قد سال فوق جيئها	من شعرها لتزيد نور سراجها

وأيقنت الفتاة أنها تسنمت عرش الجمال ، فتساءلت عن الذي سيكون حارس تاجها . غير أننا نرى الشاعر ينتقل إلى موضوع أحبّ إلى نفسه وأقرب إلى فكره ، فيفصح عن خوفه من أن يعود عصر حواء فتستتر الغيد بأوراق الشجر .

ولالأزري غزل لطيف، منه :

بدا لي محيّاها على حين غفلة
فقلت : أفق من سكرة أنا كأسها،
وهمت بإسدال القناع تعطفاً
فقلت : أصاب السهم مرماء فارقي،
رأيت الهوى استوفى بأول نظرة
قفي أتزود من محياك لحظة
وقال :

فخرّ على أقدامها صعباً قلبي
وها أنني أستغفر الله من ذنبي
على كبد شبت به جذوة الحب
وهيهات برء الجرح من نصله الزهب
نهاية ما استوفاه من عاشق صب
قفي قبلما أقضي على حكمه نجبي

بينني وبينك ألف القــــــدر
لقد أحسن الأزري رواية قصص الحب الخيالية في شعره العذب المنسجم، فقال :

زارني طيفك فاستقبلته
مثلاً عـــــــودتني في يقظتي
فتنسّمك لطفاً كالصبا
وتحدثت بصــــوت مثلاً
هل تحولت خيالاً في الكرى
وعجيب أنت والطيف معاً
خفق القلب لمأرك بــــه،
لم لا؟ أحسب حلمي يقظــــة
حلليــــه كيفما شئت فما

وأنا في مضجعي لثماً وضماً
أن تــــزوري دون أن أسبق علماً
وتنشقتك كالزهره شماً
كان عهدي في اليقظة نغماً
وتقمصت من الأحلام جسماً؟
كيف لم تختلفا لــــوناً وطعماً
ليت شعري كيف عدّوا الطيف وهماً؟
عندما ألقاك واليقظة حلماً
زال رؤياي لك اللغز المعمى

إن شاعرنا قد طوّف في المدائن والمعاهد، وتجسّم المتاعب والمشاق، عاشر الشيوخ
في آلامهم والشباب في آمالهم، وعللّ النفس وهددها بالآماني والأحلام، فرجع إلى
عزلته خائباً حائراً. والتجأ إلى «واحة الإيمان» ينشد الراحة والسكينة في ظلال الأدب،
منشداً لنفسه :

حسبي يــــراعي ساقياً
وأنا الســــذي لم يبق لي

ومــــداد محبرتي شرابي
الآ منادمة الكتاب

محمد حبيب العبيدي

مفتي الموصل وشاعرها ولد فيها سنة ١٨٧٩ وتوفي بها في ١٩ تشرين الاول ١٩٦٣ .
وقد نشرت ترجمة وافية له في «أعلام اليقظة الفكرية» .

وأضيف هنا أنه كان مع الجيش التركي في ساحة فلسطين حين احتلها الانكليز سنة ١٩١٨ ، فقبضوا عليه واعتقلوه في معتقل الأسرى بالاسكندرية . وأطلق سراحه بعد انتهاء الحرب .

من شعره الوطني :

أضرموا النار، يا سراة العراق ،
إنّ ضيماً حملتمــــــــــــــــوه عظيم
كُلّ أن تُسْقون كأس هـــــــــوان
يا رجال العراق ، لستم أسارى
واغسلوا العار بالدم المهبراق
كاحتمال الأطواق في الأعناق
فاقطعوا بالسيوف كُفّ السّاقبي
لتزينوا الأعناق بالأطواق . . .

قال فيه إبراهيم صالح شكر انه تعشق البطولة والعظمة من الصغر، فوضع العمامة على رأسه وتحيل نفسه نذير القضاء على جمود المسلمين وبشير الإصلاح المنشود في الشرق . فلما وصل سنّ الشباب رأى نفسه أهلاً لأن يقوم بالدعوة لإصلاح حال الشرق والمسلمين ، فأخذ يخطب ويكتب في هذا الباب . ورحل إلى سورية والاستانة مراراً ، ثم قام برحلة يطوف فيها العالم الإسلامي داعياً إلى الإصلاح . ونشرت له جريدة الرأي العام البيروتية قصائد ومقالات طنانة حماسية واجتماعية . ولما نشبت الحرب العظمى أصبح خطيباً للفيلق التركي الرابع بقيادة جمال باشا السفاح . وألف كتاباً عن «جناية الانكليز» وآخر بعنوان «حبل الاعتصام ووجوب الخلافة في دين الإسلام» .

وجاء إلى الموصل بعد الحرب فخلع عن نفسه ثوبه التركي الطوراني . وعادته فكرة الزعامة ، كما قال إبراهيم صالح شكر، فجمع له زمرة من الشبيبة الموصلية وأخذ يدعو إلى العرب ونهضتهم ويتغنى بأجناد قحطان وعدنان ويمتدح ملوك العرب ومجاهديهم . . .

الشيخ كاظم الدجيلي

سلام على شطّ الدّجيل ، فحسبه
أديب سياسي أريب وشاعر
إذا قال شعراً ردّد الدّهر شذوه
على أنه مَغْنَى الدّجيل كاظم
وبالفضل معروف كثير المكارم
وفي نشره سحر كسّجع الحمايم

وصاغت أيادي الشيب تاجاً لرأسه لجيناً، وقلب الشيخ غصن البراعم
يفيض بأوصاف الحسان قصيده ويا قلماً قد خاض غمر الملاحم!
شبيهه بأفلاطون في الطهر حبه على أن شعـر الحب جمـ المزايم
على أن شعـر الحب عذب نشيده فلا تستمع فيه للوم اللوائيم
قرأ علينا الاستاذ الشيخ كاظم الدجيلي في السنوات الأخيرة طرفاً رائعاً من شعره غير
المنشور أمتع أسماعنا وسحر ألبابنا، فكان أن خاطبته بتلك الأبيات مازجاً التقدير
والتعظيم الذي أكنه للصديق الشاعر بالدعابة والملاطفة .

ولد كاظم الدجيلي في قرية دجيل المعروفة بسميكة شمالي بغداد في ١٠ آذار ١٨٨٤ ،
وهو ابن حسين بن عيدان بن درويش بن نهار الخزرجي . وجاء به والده إلى بغداد
وعمره ستة أشهر فاستوطن جانب الكرخ . ودرس في الكتاتيب فحفظ القرآن والم
باللغة العربية وطرف من العلوم ، ثم لازم فريقاً من أفاضل العلماء والأدباء كشكري
الألوسي والسيد حسن الصدر والأب أنستاس ماري الكرمل وجميل صدقي الزهاوي
فأفاد منهم فوائد جليلة .

وقد حدثني أنه كان يغشى مجالس رجالات بغداد كالسيد عبد الرحمن النقيب وعبد
المجيد الشاوي وغيرهما ، فكان النقيب يستقبله كلما وافى ديوانه مردداً البيتين التاليين :
أسـال بـالصـبح سـيل أم زيـد في اللـيل لـيل؟
يـا إـخـوتي بـدجيل وأيـن مـنـي دجيل

والبيتان للشاعر علي بن الجهم قالهما حينما مضى إلى الشام ، فلما قرب حلب ، خرج
عليه اللصوص وجرحوه وأخذوا ما معه وتركوه على الطريق ، فاستنجد بإخوته في
دجيل ، وأين منه دجيل ؟ (وكان مقامه بمحلة دجيل في بغداد) .

وأتيح له بعد ذلك أن انتمى إلى مدرسة الحقوق في بغداد فنال شهادتها في سنة
١٩٢٣ .

وقد عمل مع أبيه في تجارة الحبوب ربحاً من الزمن في صدر شبابه ، ثم أقبل على
المطالعة ونظم الشعر . وأعلن الدستور في السلطنة العثمانية سنة ١٩٠٨ فحيّاه بقصيدة
ألقاها في الاحتفال الذي أقيم في السراي تخليداً لهذا اليوم ، ومطلعها :
بشرى الأنـام وبشرى أهـل بـغداد فالدهـر وافى بإقبال وإسعاد

وصدرت الصحف بعد أن كانت الأفواه مكبوتة في العهد الحميدي الدابر ، فحرر
الدجيلي في جريدة «بغداد» التي أصدرها مراد سليمان و«الإرشاد» لحسين فريد وجريدة
«الحقيقة» لصاحبها عبد المجيد طلعت من رجال حزب الاتحاد والترقي . وأصبح في
سنة ١٩١١ مديراً لمجلة «لغة العرب» التي أصدرها الأب أنستاس الكرمل حتى

أغلقت عند نشوب الحرب في أواخر سنة ١٩١٤ . وحكم عليه بالسجن في نفس هذه السنة لمقالة نشرها في مجلة «المستقبل» المصرية لصاحبها سلامه موسى ، ولم يلبث أن أطلق سراحه ، وقد نظم في السجن قصائد منها قصيدته «بوليس بغداد» التي يصف فيها مآسي السجن وأحواله ختمها بقوله :

ولا يحسبنّ المرء تلك خرافة فناظمها سمعها وخبرها
ولم تك مأساة لعمرى غريبة ففي جانبي بغداد جمّ نظيرها

وقام الدجيلي في السنوات السابقة للحرب العظمى برحلات إلى إيران وكردستان وأطراف العراق وعربستان وجاب القرى ومنازل الأعراب ودرس أخلاقهم وعاداتهم وأحوالهم الاجتماعية وكتب عنهم ما لم يتهياً لغيره من الرحالين والرواة .

وقد رحل إلى البصرة على اثر احتلال الإنكليز فوظف بدائرة الشرطة (٢٨ كانون الاول ١٩١٤) . ثم رفع إلى وظيفة معاون مفتش شرطة (كانون الاول ١٩١٦) فمفتش شرطة (تموز ١٩١٧) ، لكنه استقال في ايلول من تلك السنة ، وقد عاد إلى الشرطة بصفة معاون مفتش في (كانون الثاني ١٩١٨) ولم يلبث أن استقال بعد شهرين . ثم اعتقل في النجف في كانون الاول من تلك السنة وسجن في بغداد نحواً من ٤٠ يوماً .

وانتمى إلى مدرسة الحقوق عند إعادة افتتاحها ، وعين في الوقت نفسه سكرتيراً خاصاً لرئيس محكمة الاستئناف في بغداد ومحرراً لمجلة «العدلية» (حزيران ١٩٢١) فمحرراً للوقائع العراقية ، وهي جريدة الحكومة الرسمية ، عند صدورها في (كانون الاول ١٩٢٢) .

وانتخب عضواً بالمجمع العلمي العربي في دمشق (١٩٢٣)

وعين في أواخر سنة ١٩٢٣ مدرساً للغة العربية في معهد الدراسات الشرقية في لندن فبقي فيها إلى سنة ١٩٢٩ . وقام في الوقت نفسه بتدريس اللغة العربية للأمر غازي ولي عهد العراق في أثناء دراسته في العاصمة البريطانية (١٩٢٦ - ٢٨) ، وقام أيضاً بوكالة سكرتيرية الممثلة السياسية العراقية في لندن (٤ أيلول ١٩٢٧ - ١٢ آذار ١٩٢٨) .

وعاد الدجيلي بعد ذلك إلى بغداد (ت ١٩٢٩) ، فلم يلبث أن عين في السلك الخارجي وسمّي نائب قنصل في مصر (٥ كانون الاول ١٩٣٠) . ونقل في السنة التالية مراقباً للبعثات العلمية في لندن (تشرين الاول ١٩٣١) فثائب قنصل في المحمرة (أيار ١٩٣٤) في بيروت (١٩٣٥) فقنصلاً في حيفا (١٩٣٥) فالقدس (١٩٣٧) فبومبي (آب ١٩٣٨) ، ونقل قنصلاً في كراچی (كانون الأول ١٩٣٩) فتنبريز (حزيران ١٩٤٣) . ولما أنشئت المفوضية العراقية في موسكو عين مشاوراً (١٨ تشرين الأول ١٩٤٥) وأصبح بعد ذلك قائماً بأعمالها حتى أحيل على التقاعد (آب ١٩٤٨) .

وقضى الأعوام الأخيرة من حياته متنقلاً بين العراق وأوروبا، حتى أدركه الحما في فيينا عاصمة النمسة في ٢٣ آذار ١٩٧٠، وجلب جثمانه إلى بغداد ودفن في النجف.

وقد وضع كاظم الدجيلي رسالة في «أحداث ثورة العشرين» حققها حكمت رحمان ونشرها سنة ١٩٧٣.

مؤلفاته:

لكاظم الدجيلي شعر كثير متفرّق في الصحف والمجلات العراقية والمصرية والسورية واللبنانية. وقد وضع مؤلفات عديدة نشرت معظم بحوثها في مجلة «لغة العرب» والهلال والمقتطف وسواها من المجلات والجرائد، لكنها لم تطبع كتباً. منها: رحلة الفرات، تاريخ النجف، تاريخ الكوفة، تاريخ كربلاء، المشاهد المقدسة في العراق، سامراء قديماً وحديثاً، تاريخ الكاظمية، وتاريخ البصرة، الآثار العراقية، أشعار الأعراب، أعراب العراق، الأغاني العراقية، صابئة العراق، اليزيدية، الأسر البغدادية، الفرق الثلاث (وهي الفرق الامامية الأصولية والأخبارية والشيخية أو الكشفية)، الأمثال العراقية، المصطلحات العراقية، السفن العراقية، الشعر القصصي الحماسي، الخ.

وكتب بالانكليزية بحثاً عن الشيعة نشر في كتاب «أديان الانبراطورية». وقال انه وضع روايتين باللغة الانكليزية أيضاً باسم «رواية عربية» و «باشا بغداد».

وللدجيلي بصر بالمخطوطات والآثار. ولم يمنعه عمله في السلك الخارجي وتنقله بين العواصم والبلدان المختلفة من الاهتمام بالأدب، فكثيراً ما كان يكتب إلّي وهو في الخارج رسائل تتناول تعليقات وشؤون أدبية.

شعره وأدبه:

كاظم الدجيلي أديب حرّ الفكر، صريح القول، واسع الأفق، زادته اقامته في الأقطار الأوروبية وغيرها واتصاله بأرباب الفكر العالمين ثقافة وإطلاعاً. وقد أودع أشعاره ومقالاته آراء بعيدة الغور اقتبسها من تأملاته ومطالعاته الكثيرة. يدور شعره في الغالب على المواضيع الاجتماعية والفكرية، وله غزل ووصف رائع. ولكم يشور على التقاليد البالية وينعى على المجتمع الرياء والتعصب والجهل. وراثؤه قليل، منه مرثاته لأخيه المحامي جواد الدجيلي وهي تقطر لوعة وأسى. وقد أرسل من موسكو بمرثية لشيخه وصديقه أنستاس الكرمل، يقول في مطلعها:

ويح المنــــون ! فما لها من رادع وقفت لكل الخلق بالمرصاد
ان الحياة على تعاطم شرها محبوبة حتى لدى الزهاد

الدجيلي والنقد الذاتي :

حديثك عن غير القويّ حرام وسعيك في نصر الضعيف أثم
تحدث بمجد الأقوياء فإنهم قعود بأحكام الورى وقيام
يؤله مذ صار ابن آدم قوة وما الكون الا قوة ونظام . . .

لم ينظم هذه الأبيات بعض أعوان هتلر أو تلاميذ نيتشه، بل قالها شاعر عراقي وديع هو كاظم الدجيلي الذي روعته أهوال الحرب العظمى فحدثه على الجهر بما لا يعتقده ويرتضيه . ولذا أقدم على نقد نفسه في مقال طريف نشرته له صحيفة «الحقائق المصورة» البغدادية في عددها المؤرخ في ٢٢ شباط ١٩٢٥ . قال الدجيلي : «في ليلة مطيرة تراكمت فيها الأحزان على قلبي وحاولت أن أسري الهم عني بالمطالعة ، التفت نحو عالمي الصغير - أي مكتبتي - وأخذت أضرب أخماساً لأسداس . فقلت : هل أقرأ «علم الحب» لأوفيد وأنا سوداوي ، أم أقرأ «أصل الأنواع» لداروين وأنا أعتقد حتى الآن بأن الإنسان وحش مفترس ؟ هل أقرأ «الفردوس المفقود» وأنا في جهنم ، أم أقرأ رواية «البؤساء» وعلاقتي معهم تقضي عليّ أن لا أنبش قبورهم ؟

«هل أقرأ «بحيرة» لامارتين أم «جان الصغير» لهوغو، وفي النفس صوت يمنعني عن المطالعة في هذه الليلة إلا في لغتي العربية . وبينما كانت هذه التأملات تجول في فكري المتضعضع الإحساس ، رأيت شبحاً ينظرني بألف عين ، فقلت في نفسي : لا شك أن هذا شاعر حيرتي وترددي ، ولذا تراه يصوّب نظره إليّ لأنشد أحلامه ولأرثي أمانيه . ثم اختفى بين صحائف «الأدب العصريّ في العراق العربي» . أما أنا فلله حال أخذت الكتاب وبدأت أقلب صفحاته حتى عثرت على الشيخ الذي اختفى عني ، فإذا به كاظم الدجيلي .»

ويمضي الشيخ كاظم في مقاله فيقول :

«دخلت أول مدينة في عالمه واسمها «الحياة الاجتماعية» وفي البيت الاول من أول شارع وجدت فيه :

حديثك عن غير القويّ حرام وسعيك في نصر الضعيف أثم
«أما تخاف الله أيها الشاعر؟ أتروم أن نتحدث دائماً عن الأقوياء ، ومن سعى في نصره الضعيف والأخذ بيده يعدّ اقتراف ذنب يحاسبه الله عليه؟»

ثم يضي الشاعر في نقد أبيات قصيدته حتى يقول : «رباه ! أتروم أن تنتقم مني لهبوطي العالم الذي لم أجد فيه سلوتي بل ترك لي حسرة وزفرة تتصاعد وتنخفض . . .» اهـ
إن قصيدة الدجيلي هذه تزخر بالأفكار وتعبّر عن حيرة الشاعر في رتبة الحياة وتناقضها . فهو يقول :

إذا كنت بين العالمين أخا قوئ
رعتك عيون الناس حين تنام
حى الغاب بأس الليث من كل طارق
ولم ينبج من فتك البسزة حمام
يقولون: إن الحق من فوق قوّة
وما الحق الامدفع وحسام
ولو درسوا علم الطبيعة لانشوا
وفيهم غرام بالقوى وهيام

ثم يلتفت إلى الخلق فيراه جائراً باسم عادل، ينوح على الميت ويأكل لحمه، ويهدي الصديق الزاد ممزوجاً بالسّم الزعاف. وماذا يرى الشاعر في الناس؟ انهم أشياع مذاهب يزعم كل منهم صلاح مذهبه وسداده، فهذا قد أفنى الحياة في العبادة، لكن معبوده الأوثان وهي رجام، يقدم لها النذور ويروم الرزق والمغفرة والعافية. وذلك خرافي يروح ويغتدي وأفعاله الشرّ والمعاصي، حتى إذا ما قضى نحبه قدّسه بعد مماته الطغام وشادوا عليه قبة وجأؤوه من شرق البلاد وغربها يطوفون بقبره ويلتمسون بركته وشفاعته:

وقالوا، وهم يبكون شوقاً ورهبة
وصار لهم حول الضريح زحام:
بك الله يميننا غداً ويميتنا
وأنت شفاء للورى وسقام.

ويمضي الشاعر في جولته الاجتماعية، فيقف عند جحود ينكر الله جهرة وينعى على القوم أساطيرهم وخرافاتهم، وعالم يحار في سرّ الطبيعة الغامض ويحاول حل ألغاز الكون فيموت وفي نفسه حسرة منها وفي حشاه ضرام.

وما الأديان؟

حكاية أديان الأنعام عجبية
تريد الهدى والخير للناس كلهم
وغايتها القصوى عبادة واحد
وعظيم لديه يصغر الخلق كلّه
له أثر في كل شيء وآية
دعوه بأسماء قد اختلفوا بها
وقالوا وهم في حالة اليأس والرجا:
متى تجمع الأديان في الأرض وحدة
ويسلك كلّ العالمين سبيلها
تجمّع فيها فرقة ووثام
وكم ثار منها فتنة وخصام
حقيقته ما إن ترى وترام
وتستصغر الأجرام وهي عظام
وبين قواه والوجود لزام
وعذوه نوراً لا يكاد يُشام
متى تتلاشى ظلمة وغمام؟
لها سنّة مشروعة ونظام
وغايتهم منها هدى وسلام...

وينفذ الشاعر في قصيدة أخرى إلى أعماق النفس البشرية فيخاطبها قائلاً:

يالك من أمرة ناهية
أحكامها نافذة ماضية

لم يقو مخلوق على ردها
جامعة الأضداد شيطانة
قاسية رقيقة الحاشية
خبثية شريرة باغية
عاجزة قادرة إن ونت
تقلبت كالريح أوضاعها
الحب والبغض لها شيممة
أعني بها النفس التي حيرت
وهو يرى الشر أصيلاً في النفس فيقول :
تجنب الشر لا خوفاً ولا طمعا
ويقول :

إلى الناس نشكو الناس من سوء فعلهم
أرى الشر قد عم البرية كلها ،
فلا الدين مناع ولا العقل رادع
أرى الناس في هيجاء من أمر عيشهم
فكانوا ودياهم سباعاً وجيفة
تقدم في الدنيا فساد أخو الغنى
إذا قال رب المال قولاً تطاولت
له حرمة في الناس وهي عظيمة
له الرأي متبوع ، له الحكم نافذ

وقد غشي التشاؤم بصر الشاعر فقال :
وسائل يسأل عن مبدئي
خبرت دنياي وأبناءها
فلم أشاهد غير ما حالة

وساء ظنه بالناس فقال :

الجميل يصنعــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــه
والألــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــه يعبدــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــه
وخاب فآله في بلده وصحابه فقال :

لو كان رب السلطة القاضية
إلهة رشيدة غاوية
سافلة عالية راقية
طيبة طاهرة زاكية
أو عزمت ، خالدة فانيه
هادئة عاصفة عاتية
فدأها غاضبة راضية . . .
أفكار أرباب النهى السامية
والشر في النفس قبل الخير قد طُبعاً

فقد كثرت آثامها وشورها
أكل الوري ، يا قوم ، مات شعورها ؟
ولا العلم جالٍ ظلمة أو منيرها
تنازع فيها عبدها وأميرها
تعاون عليها أسدها ونمورها
وأبعد كل البعد عنها فقيرها
إلى وعيه من كل قوم نحورها
وقدر جليل لم يحزه قديرها
له شهرة كالشمس سار مسيرها

فقلت : إني رجل أســــــــــــــــــــــــــــــــــــــــوئي
مــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــد نشأني خبرة مستقــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــرى
أرتني الســــــــــــــــــــــــــــــــــــــــوء بكل امــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــرء

من لــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــه بــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــه أرب
من يخيفــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــه اللهب !

إني أرى العيش في أرض سوى وطني
والعيش في بلد قل الرفاق به
وقال متأماً :

أنا حرّ مقيّد بقيود
أنا من قال في الحقيقة قولاً
لكنه يتألم لحال بلاده وحال الشرق المتأخر فيرجو لبلاده وللشرق الرقيّ والمعرفة
والنهوض ، فيقول :

يا نديمي ، وأين منّي نديمي ،
فلقد هاجني تهذّم مجد
هدّ أركانه الزمان وأبقى
أيها الشرق ، هل ليومك عود؟
يا مقرّ الآله ، يا معبد الكون ،
نهض الغرب للبرقي ففاز
سبقونا إلى العلاء بعلم
ووقفنا جهلاً ونحن كسالى
نتمنّى البرقي حيث قعدنا
وآدعينا بأننا علماء
وينظر إلى حال وطنه المريض فيقول :

ولي وطن يعدّ به أناس
ولوتركوه يختار المداوي
ويفكر في حال وطنه الفقير فيقول :

يا سواد العراق ، ييْضك الجذب
يا سواد العراق ، فيك كنوز
يا سواد العراق ، أمحلك القوم
يا سواد العراق ، شلّت يمين
ومن طريف شعره في المرأة :

يا زوجة المرء ويا أمّه
ما أنت إلا امرأة فلذة
حارت بك الأبصار والباصرة
قد نعتها الأمم الحاضرة

إلاهة معبودة تارة
تغضب في حال الرضا مثلاً
لا وصلها دام ولا قطعها
وقال في دلال الحب وذله :

أرأيت كيف تمنع المعشوق
يا للرجال المُسْعدين لعاشق
من ذا يساعده على فتانة
حوراء ألبسها الجمال بهاءه
صبت بهيكلها الطبيعة حسنهما
وروت محاسنها حديث جلالها
ولما يفرغ من وصف المحبوبة ومقلتها
وبشرتها ، يشيد بحلو حديثها ومنادمتها في الشراب ، ثم يقول :

أصبو فيتركني الغرام مكشافاً
لله ما يلقي فؤادي من جوى
يا سعد ، كن لي في الصبابة مسعداً
شان الزمان وتلك سيرة أهله

الدجيلي والأنسة مي :

كانت الأنسة مي زيادة الأدبية النابغة قد اتصلت بالأب انتاس ماري الكرمل
وراسلته في سنة ١٩٢٠ وساجلته في شؤون الأدب ، فاهتم بحسبها ونسبها وكتب إلى
زميل له من رهبان الناصرة - حيث رأت أديبتنا نور الشمس - يسأله مراجعة سجل
الكنسية وتحقيق مولدها وأسرته . فأجابه الراهب أنها ولدت في الناصرة وعمدت في
كنيستها في ١١ نيسان ١٨٨٦ ، وسميت «بربارة» ، وأمها من الناصرة ، أما أبوها الياس
زيادة فمن قضاء كسروان في لبنان ، وكان عند ميلاد ابنته معلماً في مدرسة «الأرض
المقدسة» (تيراستا) الفرنسية في الناصرة .

وقد كتبت الأنسة مي في مجلة «المقتطف» سنة ١٩١٩ عن الشعر القصصي الحماسي
وعدم معرفة العرب آياه ، فردّ عليها كاظم الدجيلي ، ثم ترضاها بقصيدة قال فيها :

قلبي بكل هواي لاسمك ذاكر
يرتاح للذكرى ويطرب كلما
يا من تحدثت الرجال بفضلها

هل أنت شاعرة؟ فإني شاعر!
وافاء طيف من خيالك زائر
وبها النساء التباغيات تفاخر

لك في سويداء الفؤاد وفكرتي
إني امرؤ بالنابغات مقيم
الحب أضناه وبرّج قلبه
لم يبق منه الشوق الا صورة
في كل قلب، يا أميمة، نبعة
والحبّ منتجع الحياة وكلّ ما
والحبّ سلطان تملك أهله
والحبّ فلسفة تعذّر وصفها
والحبّ معنى الله أو هو ذاته
إني لأحوي في الفؤاد محبة
ليتممة الشرق المضيع حقّه
في عدلها جور وإن حكمت له

وبمقلتي وفمي محلّ عامر
وإلى النوايغ شوقه متكائر
وأمضُ آلاماً محبّ صابر
يأسى لها لما يراها الناظر...
للحبّ زاهرة وغصن ناضر
أحيا النفوس فذاك حبّ طاهر
خضعت سلاطين لها وجبابر
وعن الحقيقة كلّ فهم قاصر
طمحت إليه خواطر ونواظر
لم تحوها للعاشقين ضماير
دول له تقضي وفيه تناظر
ومن الغريب يقال: عدل جائر!

ولم يكن الدجيلي أوّل من تغزل بميّ غزلاً أدبياً بريئاً طاهراً، فقد تغزل بها الادباء والشعراء، وهي الفتاة العبقريّة الفريدة، غزلاً كثيراً لا يخرج عن التجاوب الفكري والتعاطف الروحي والتعارف الأدبي الذي جعل المرأة المثقفة الحساسة حلماً في العيون ومغناطيساً جذاباً للأفئدة والقلوب وخيالاً ماثلاً ولكنه، في الوقت عينه، عزيزاً بعيد المنال. وهل كان وليّ الدين يكن يقصدها حين قال:

تمسين ناسية وأمسي ذاكرة
عجبا، أشاعرة تهاجر شاعرا؟
فهل الملائك كالخسان هواجر
ان الملائك لا تكون هواجرا
إن كنت لا أسعى لـدارك زائراً
فلكم سعى فكري لـدارك زائرا

ولنعد إلى شاعرنا الدجيلي فقد شكته الأنسة ميّ إلى الأب الكرمل، فكتب إليها رسالة مطوّلة، وكان ذلك في سنة ١٩٢٢، فكان أن أرسلت إليه بأحد كتبها وخاطبته في كلمة الاهداء: «إلى أعدل الظالمين من الشعراء».

وعين الشيخ كاظم مدرساً للغة العربية في جامعة لندن فمرّ في طريقه بالقاهرة في أوّل سنة ١٩٢٤ ومكث فيها أياماً التقى في أثنائها بالدكتور يعقوب صروف صاحب المقتطف، لكنه سافر إلى لندن دون أن يتاح له التعرّف بالأنسة. وعاد إلى اثاره النقاش في موضوع الشعر القصصي الحماسي عند العرب فكتبت ميّ تقول:

«لقد عاد الشيخ كاظم الدجيلي في فبراير ١٩٢٤ إلى موضوع الشعر القصصي الحماسي... ناقشني وصمت خمسة أعوام درس خلالها الحقوق ونفحني بقصيدة

نشرها في «الهلل» ودعاني فيها ببعض الأسماء الحلوة التي يبتكرها الشعراء يوم يوطدون النفس على معالجة العناد عند امرئ بوجه من الوجوه وعلى أن يسترضوه بالأوزان والاسجاع ليخاصموه بالثر المرسل . . . » .

وختمت ردّها تقول : « قيل لي يا سيدي الاستاذ ، إنك رحلت إلى انجلترا لتدرّس اللغة العربية في جامعة لندن . وسواء كنت الآن في انجلترا أم في العراق فهات يدك أصفاحها ! . . »

ومرّت الاعوام ، وحلّت سنة ١٩٣٠ ، فإذا بالدجيلي ينقل إلى القنصلية العراقية في القاهرة ، فيؤمّها ويغشى محافلها الأدبية والاجتماعية . وهىء له لقاء ميّ لأول مرة في بعض الحفلات ، وكان الذي قدمه إليها الدكتور أمين معلوف ، فقد أخذ بيده واتجه صوب سيدة مشرقة الطلعة من غير جمال أخاذ وقال : هل تعرفين هذا الرجل ؟

قالت : لم يسعفني الحظّ بلقائه من قبل . فضحك الدكتور معلوف وقال : كيف ذلك ؟ إنه صديقك وخصمك كاظم الدجيلي ! فصافحته ببشاشة وقالت : إذن أنت ذلك البغدادى الذي ناظرني وقارعني وترضاني منذ سنين ! . .

ولبت الدجيلي في القاهرة سنة واحدة كان يزور الأنسة في أثنائها مساء الخميس من كل أسبوع بحضور والدتها . وكان الكلام يدور حول الأدب والعلم والتاريخ والاجتماع . وفي سنة ١٩٣١ أعيد نقله إلى لندن مراقباً للبعثة العلمية في المفوضية العراقية . ومضت ستان أو ثلاث ، وفوجئ شاعرنا ذات يوم بزيارة ميّ على غير موعد ، وكانت قد جاءت إلى العاصمة البريطانية في رحلة قصيرة . وقد سرّ بلقائها أيما سرور واحتفى بها في خلال الأيام القليلة التي أمضتها قبل عودتها إلى مصر ، واحتفل بها أيضاً عطا أمين القائم بأعمال المفوضية آنذاك وثابت عبد النور . وقد وجدها الشيخ كاظم في اضطراب نفسي شديد : فقد توفيت والدتها التي كانت تلازمها وتتعهدها برعايتها وبقيت وحيدة لا أخ لها ولا أخت ولا صديق يؤاسيها ويعطف عليها .

عادت ميّ إلى القاهرة فكتبت إلى الشيخ رسالة شكر ختمتها بقولها : « أسأل الله أن يوحى إلى شاعرنا ألف قصيدة وقصيدة ! » ولم يكن بوسع الدجيلي إلا أن يجيبها بقصيدة قال منها :

سلام على ميّ ، سلام على مصر	سلام على صبحي بها أبداً الدهر
وإني ، وتهامي بميّة ، عاجز	عن النظم حتى في محاسنها الغرّ
تطالبني بالشعر ميّ وتبغني	لشاعرها وحيّاً من الله بالشعر
ولم تدّر أي في حياة بعيدة	عن الشعر إذ آتي تقدّمت في عمري
ومارست أعمال السياسة سالكاً	مسالكها القصوى إلى حيث لا أدري
وكان بعد ذلك من أمر ميّ ما كان ، فغلب عليها الداء وحجرت في المستشفى لتعود	

بعدها فلا تلبث حتى تقضي نحبها . وكان ذلك اخر العهد بالمناظرات الأدبية بين الشاعر العراقي والأدبية المصرية التي شغلت المحافل والناس سنين طويلة .

محمود الملاح

في دار منعزلة بمحلة السعدون في بغداد يعيش شاعر منزو يعدّ من كبار شعراء المدرسة القديمة في العراق . ذلكم الشاعر «محمود الملاح» الذي يلازم داره وحيداً منذ عشرات السنين لا يكاد يبرحها ولا يزوره إلا نفر يسير من أقرانه وأصدقائه .

ولد محمود الملاح في الموصل سنة ١٨٩١ ، وهو محمود بن عبد الله بن يونس الملاح ، ونسبته إلى سوق الملاحين في مسقط رأسه ، وهو سوق قديم يباع فيه الملح وسائر الحاجات . وقد نشأ في ربوع الموصل ودرس العلوم الدينية والأدبية على علمائها وفي مقدمتهم عبد الله النعمة وعثمان الديوه جي قاضي الموصل . ونال الاجازة العلمية في سنة ١٩١٢ فوظف مداوماً في قلم تحرير الولاية . ولم تلبث الحرب العظمى أن اضطرم أوارها فجنّد لكنه استمر على مزاولة وظيفته في الولاية إلى عقد الهدنة وانسحاب الاتراك وتسليم المدينة إلى القوات الانكليزية .

كانت الموصل في ذلك العهد بلدة منعزلة راكدة الثقافة لا تكاد تستشف بصيصاً من أنوار المدنية الحديثة . وكانت الثقافة التركية تعمّ المحافل الرسمية وتستهوِي الطبقة الراقية ، أما الثقافة العربية فكانت ضيقة الأفق محصورة في نطاق المحافل الدينية . وقد استطاع فتانا مع ذلك أن يحصل على طائفة من الكتب الصادرة في القطرين المصري والسوري وأن يتتبع سيرة دعاة الاصلاح أمثال جمال الدين الافغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي ومحمد رشيد رضا ويغذي روحه النهضة بأرائهم وتصانيفهم . وأعلن الدستور في السلطنة العثمانية على أثر انقلاب سنة ١٩٠٨ وانتشرت المبادئ الاصلاحية واللامركزية في ربوع الشام وانتقلت منها إلى العراق . فكان أدبنا الشاب في طليعة الشباب الموصلية الناهض الذي آمن بهذه المبادئ وأشرب حبّ الثقافة العربية الجديدة على بعد الشقة وعسر الاتصال . وقد قام بتدريس التاريخ والجغرافية بصورة فخرية في مدرسة محمد رؤوف الغلامي ، واشترك مع فريق من الشعراء منهم داود سليمان الملاح ، وفاضل الصيدلي في نظم أناشيد عربية للأطفال تولى الغلامي طبعها في كتيب .

وفي سنة ١٩١٩ شدّ الرحال إلى سورية واستقرّ في حلب أمداً على عهد حكومتها العربية . ووظف في مجلس إدارة الولاية ومدير التحرير آنذاك ابراهيم هنانو الذي عرف بمواقفه الوطنية السامية ، وقد رثاه الملاح عند وفاته في سنة ١٩٣٥ بقصيدة مطلعها :

جللوا الأرض بالسواد حدادا
إن فقد الزعيم هزّ البلادا

ولما شدد الفرنسيون سيطرتهم على البلاد السورية وقضوا على حكومتها العربية ضاق محمود الملاح ذرعاً بوظيفته فعاد إلى الموصل سنة ١٩٢٢ . ولم يلبث أن قدم بغداد سنة ١٩٢٤ وألقى بها عصا الترحال . قام في أول الأمر بإعطاء دروس خاصة في اللغة العربية ثم عين رئيساً لكتاب مجلس النواب عند إنشائه في سنة ١٩٢٥ لكنه قضى في هذه الوظيفة أياماً معدودة . وعين بعد ذلك مدرساً في بعض المدارس الأهلية فمدرساً في المدرسة الثانوية الرسمية (١٩٢٥ - ٢٨) . وعين بعد سنتين معلماً للغة العربية في المدرسة العسكرية (١٩٣١ - ٣٣) ، وأصدر جريدة أدبية باسم «التجدد» (٢٤) تموز (١٩٣٠) ، فلم يكتب لها التعمير طويلاً . وانتخب نائباً عن الموصل في كانون الأول ١٩٣٧ ، فلم يطل عهد نيابته سوى أمد قصير، إلى حل المجلس في شباط ١٩٣٩ . وقد توفي محمود الملاح في بغداد في ١٩ آذار ١٩٦٩ ، ودفن في الموصل .

عالج محمود الملاح قرض الشعر صبيّاً . وما إن وفد على بغداد حتى اتصل بمحافلها الأدبية والثقافية ونشر قصائده ومقالاته في مجلاتها وجرائدها . ومن بواكير شعره الذي نظمه في مدينة السلام قصيدته «تمثال مود» . فقد شاهد تمثال القائد الانكليزي ولم يكن له سابق عهد بالتمائيل والأنصاب فخاطبه قائلاً :

أتروم في جوّ السماء مطارا	أم أنت ملتمس لها أخبـارا؟
لم نلق حيا طائراً بجـواده	لكنّ ميتاً فوق مهر طارا
فكانها ضاقت به فسح الفلا	فأراد في فسح الهواء مغـارا

ويقول منها :

يا أيها الشعب الجهول تعلّمن	من ميّت دوس الحياة جهـارا
طأطأت رأسك للحوافر بعدما	طأولت فوق متونها الأقمـارا
ما زلت عن وقع الخطا متغافلا	وكفى بلوغك وقعها إنذارا
وأراك في ذيل الشقا متلفعاً	فمتى أراك تسابق الأبراراً؟
فيم ادعواؤك للأصول ، ولا أرى	نفعاً بوصف الفاكه الأشجارا
يا خابراً من أمتي أعراقها	أتري الدم الجاري بهنّ معاراً؟

ومنها :

الغرب ييني في السماء منازلا	والشرق يحفر في الثرى آبارا
والغرب في درج العلا متصاعد	والشرق تحت طباقها يتوارى
جهلوا الطريق ولا دليل مبصر	فهم ببذاء الحياة حيارى . . .

نشر هذه القصيدة في جريدة «العراق» بتوقيع مستعار فاستحسنها الشاعر محمد

الهاشمي ونقلها في مجلته «اليقين» وقدم لها بتوطئة كلها مدح وإطراء . ولم تمض أيام حتى لقيه محمود الملاح وأخبره ان القصيدة له ، فقال الهاشمي : «لقد أنثيت عليها لأنني ظنتها للسيد محمد حبيب العبيدي مفتي الموصل» .

لازم محمود الملاح في أثناء إقامته ببغداد أدباءها وفضلاءها وغشي مجالس الزهاوي والرصافي والكرملي وعبد العزيز الثعالبي وفهمي المدرس وطه الراوي وعبد اللطيف ثنيان وياسين الهاشمي ومولود مخلص وعباس العزاوي وأضرابهم وشارك في المناسبات الوطنية والأدبية بشعره ونثره . وله مباحث في اللغة وقواعدها والتاريخ العربي والاسلامي . واجتمع له ديوان ضخم تفرقت قصائده في الصحف والمجلات . ونشر رسائل منها «الوحدة الاسلامية بين الأخذ والرد» (١٩٥١) عبد الباقي العمري (١٩٥٣) ، تاريخنا القومي بين السلب والايجاب (١٩٥٦) ، دقائق وحقائق في مقدمة ابن خلدون (١٩٥٥) نظره ثانية في مقدمة ابن خلدون (١٩٥٦) تحذير المسلمين من المتلاعبن بالدين ، تعليقات وحواشي على كتاب ابن سينا (١٩٥٣) حقيقة إخوان الصفا (١٩٥٤) تشريح شرح نهج البلاغة (١٩٥٤) النحلة الاحمدية ، البابية والبهائية (١٩٥٥) ، المجيز على الوجيز (١٩٥٦) ، الآراء الصريحة لبناء قومية صحيحة (١٩٥٦) ، الزرية في القصيدة الأزرية (١٩٥٢) حجة الخالصي (١٩٥٢) .

وللملاح مطارحات شعرية ومداعبات إخوانية كثيرة مع أصدقائه وفي مقدمتهم عباس العزاوي ومحبي الدين أبو الخطاب المحامي ، وقد سجل طرفاً منها المرحوم ابراهيم الواعظ في كتابه الجامع «الروض الأزهر» .

تعرف محمود الملاح على أثر قدومه إلى بغداد بالأب أنستاس ماري الكرملي ونشر المقالات في مجلة «لغة العرب» ثم نشب خلاف بينهما في أثناء الاحتفال بيوبيل الكرملي فلم يلتقيا بعد ذلك .

ومن طريف ما يرويه الملاح أن الكرملي تحدث أمامه ذات يوم عن المآكل والمشارب الطيبة التي تقدم لرهبان الدير وخصّ بالذكر النبيذ المعتق الذي يقدم على مائدة الطعام ، فتأقت نفس الشاعر إلى مشاهدة هذا النبيذ وسأل الأب أن يخصصه بشيء منه . قال الأب «إن النبيذ ملك الدير ولا سبيل إلى إخراج شيء منه» . وألح الاستاذ الملاح وألح في الطلب وقال : «إذا قدم لكم النبيذ على الخوان فصب قليلاً منه في قنينة وأحكم سدّها وضعها في جيب ثوبك الفضفاض» . فلم يسع الراهب إلا أن يمثل واحتفظ بالقنينة حتى إذا ما جاءه صديقه الشاعر بعد أيام قدمها إليه قائلاً : «هاك النبيذ المعتق الذي طلبته» .

أخذ الملاح القنينة وأطال النظر إلى السائل الأحمر القاني الذي تحويه وقال : «إذن هذا

هو النبيذ الذي يسيل له اللعاب ويطرى به الالهاب ويخضّل الشباب» ومضى بالقنينة إلى داره ووضعها على الرف في بعض الغرف وقال: «لعلّي أذوّق هذا الشراب يوماً». لكنه لم يفعل بل كان كلما دخل الغرفة نظر إلى القنينة وكسّر ذلك القول. وفي ذات يوم وجد القنينة قد سقطت على الأرض وكسرت وسال شرابها الثمين. لقد مرّ فأر على الرف فعثر بها، وكذلك كانت نهاية النبيذ المعتق الذي لم يذقه الشاعر.

إنّ الملاح على المعيته وحده ذكائه كثيراً ما تجوز عليه الهنات: فمن ذلك أنه حين استحدثت مسكوكة المائة فلس لأول مرة ظنّها ريالاً، فمضى إلى الحلاق وكان من عادته أن ينفحه بمائتي فلس، فلما فرغ من الحلاقة سلمه القطعة الجديدة ذات المائة فلس، فلم ينبس الرجل ببنت شفة بل شكره بانحناءة إلى الأرض وتبجيل لم يعهده من قبل.

وخطر له بعد ذلك أن يتحقق عن قيمة هذه القطعة النقدية فسأل صبيّاً عنها فأجابته: «إنها مائة فلس، ألا تقرأ الكتابة على وجهها؟» وعجب الملاح من نفسه كيف فاته مثل هذه البداهة.

وحدث مرة أخرى أنه اكترى سيارة وأراد أن يدفع ١٥٠ فلساً إلى السائق. ولم يكن في جيبه إلا ورقة نقدية ذات ربع دينار وقطعة ذات مائة فلس، فدفع إلى السائق القطعة من فئة مائة فلس وسأله أن يستوفي أجرته ويعيد الباقي.

ومن النوادر التي اتفقت للاستاذ الملاح أنه كان يسكن داراً تطلّ على حديقة الأمة. فلما قرر هدم هذه الدور والحاق أرضها بالحديقة، جاءه مأمور التبليغ وطرق الباب. وكان الوقت عصراً والحر شديداً، فخرج إليه الشاعر في مبادله.

قال المأمور: «أين صاحب الدار؟»

- تفضل، أيها السيد، ما تريد؟

- لقد تقرر هدم البيوت المطلّة على الحديقة فوراً، فيجب إخلاء الدار في أيام معدودة.

وما أن بوغت الشاعر المنزوي بهذا الكلام حتى صقع وعظم عليه الأمر، فصاح:

«سبحان الله، كيف أفرغ داري خلال أيام وأين أذهب...»

لكن المأمور قال بغير اكتراث: لا بدّ من ذلك، وأرجو أن تبليغ بالأمر. ولم يدع له مجالاً للتفكير أو الجواب بل سحب يده وغمس إبهامه في الخبر وطبع به ورقة التبليغ، ثم أخذها وودع وخرج.

قال الشاعر: «لم يسألني هل أحسن الكتابة، وكان من هول المفاجأة وشدة وقعها عليّ أني لم يخطر ببالي أن أقول له إني أعرف التوقيع باسمي».

وقد ذكرتني هذه الحادثة الطريفة بنادرة تنسب إلى اللغوي الأميركي نوح وبستر صاحب القاموس الشهير الذي أفنى عمره في وضعه . كان يعمل طوال النهار مجهداً فكره وجسمه لإنجاز معجمله ، فلما أمسى المساء خرج للترويح عن نفسه وقصد بعض المطاعم لتناول العشاء . ولم تلبث الخادمة أن جاءت به بقائمة الطعام ، فأخذها ببطء وألقى عليها نظرة كلية مرهقة ثم أعادها إلى الفتاة وقال : «ألا تختارين لي برأيك شيئاً نفيساً أكله؟» .

واختارت له الخادمة ما شاءت من الطعام ، فلما فرغ من تناوله وأتت لترفع الصحون ، قالت : «هل أعجبك طعامنا؟» .

قال : «أجل ، أجل ، لقد أحسنت الاختيار فشكراً» .

فقالت : «لا تنس أن ترسل إلينا أصحابك ممن لا يحسنون القراءة ، فأنا كفيفة بخدمتهم وإرضائهم» . . .

يجمع محمود الملاح في شعره كل خصائص مدرسة النهضة الشعرية الأولى التي حمل لواءها محمود سامي البارودي في مصر وترسم خطاه شوقي وحافظ والزهاوي والرصافي وأضرابهم . والسمات العامة لهذه المدرسة الاعجاب بالديباجة العباسية والالتزام بالأساليب الفصحى والعمود الشعري الدقيق . ذلك من حيث الأسلوب ، أما من حيث المعاني والأغراض فالغالب على شعراء هذه المدرسة النظم في المواضيع الوطنية والاجتماعية والدعوة إلى النهضة والإصلاح والتقدم والتضامن العربي والشرقي والحملات على الاستعمار والاستغلال وتكريم مشاهير الأمة ومصلحيها وراثتهم وإحياء أجداد العرب والإسلام ووصف الطبيعة والمخترعات الحديثة ومباراة القصائد القديمة وطرق المواضيع الأخرى من حكم وقصص وأمثال وغزل ونسيب والاعراب عن المشاعر والعواطف ، كل ذلك مع الاهتمام بوحدة القصيدة والتوسع في الأغراض والمطالب وتحري المعاني المنفردة والحكم الماثورة واستلهاهم آداب الأمم الغربية والشرقية إن راساً وإن عن طريق الترجمة والاقتباس .

وقد عني الملاح بتلك الأساليب والمواضيع . وتفتحت قريحته بعد قدومه إلى بغداد واتصاله بمحافلها الأدبية والوطنية ، فنظم أكثر ما نظم في الوطنيات والسياسيات والاجتماعيات والمراثي وشارك في الندوات والحفلات وأنشد في الموالد النبوية ومواسم المعهد العلمي . وكان صوته ينطلق في كل مناسبة سانحة ينعى على الأمة العربية تشتت كلمتها وتمزق شملها .

لكن تفرقنا أودى بعزتنا ففاتنا في الأنعام العز والخطر

وهو يدافع عن عروبة فلسطين ويرثي شهداء عالية وينافح عن سيادة العراق وكرامته واستقلال البلاد العربية في المشرق والمغرب ويدعو إلى النهضة والإصلاح

والتمسك بلباب الدين ونبذ القشور والخرافات . وهو يتفجع للانسانية المعذبة المهانة في الحرب العالمية الثانية ويقارع الاستعمار والانتداب ويندد بالادواء الاجتماعية ويهاجم النواب الذين يستهينون بحقوق الشعب وكرامة الأمة . وهو يرى أن كل ما يهز الشاعر يصلح أن يكون موضوعاً للشعر فيستهجن التقليد والمحاكاة والتصنع ويجبذ إرسال الشعر على طبيعته . ونظراً إلى دراسته اللغوية وإدمانه مطالعة الشعر القديم وحفظه ، نراه يهتم كل الاهتمام بصقل منظوماته وتجديدها ولا يتورّع عن استعمال الكلمات الفصيحة المهجورة . وهو ينقاد أحياناً لقوافيه ، فإذا طأعته القافية - كثيراً ما تطاوعه - توسع في المعنى وكرر القول حرصاً على استيفاء القوافي المؤاتية ، ولذلك جاء معظم منظومه من القصائد المطولات يتبسّط فيها تبسّطاً ويشعب آفاق الكلام .

إن شعر محمود الملاح يصور عهداً تاريخياً حافلاً من عهود العراق والأمة العربية ، وقد ظل يلقي هذا الشعر وينشره قرابة ثلث قرن . وحفلت به صفحات الجرائد والمجلات المعروفة كالعراق والاستقلال والبلاد والاخاء الوطني والزمان واليقين ولغة العرب والحاصد والهداية الاسلامية . واتخذ الرثاء ذريعة لاطراء الشيم واستنهاض الهمم ، فممن رثاهم سعد زغلول وعبد المحسن السعدون وشعلان ابو الجون وعمر المختار وابراهيم هنانو وجمال الدين الافغاني والمنفلوطي واحمد تيمور وحافظ ابراهيم واحمد شوقي واحمد زكي وعبد المحسن الكاظمي وعبد المسيح وزير وعبود الكرخي ومحمد أمين العمري ومولود مخلص وعبد الوهاب عزام وغيرهم من رجال الوطنية والسياسة والقلم . انتصر الملاح لفلسطين فقال (سنة ١٩٣٦) :

فلسطين ، يتضت وجه العرب	وقمت بحقّ جهنم
لقد هان عندك بذل النفوس	كما هان عندك بذل النشب
غلاء النفوس بإرخاصها	وأحياؤها بإرثياد العطب
صعبدك من عُصّر خاليات	يسرّو بكل دم منكسب
ولا يرجع المجد مثل الدماء	إلى أمة مجدها قد سلب . . .
فلسطين ، رجحت سلّ الحسام	على شغف بيبي
ولا نفع في خطب صارخات	إذا لم تؤيد بحمد القضب
ولكسيف أخطب من قسائم	على منبر نادباً يتحب . . .

وقد دافع عن جميل صدقي الزهاوي أول قدومه إلى بغداد وقبل أن يتعرف بشخصه فقال على لسانه :

سائل عن أحبتي وخليلي	صاح ، هلاً سألت عن مستحيل ؟
كنت من غير مازن فاستيحت	أبلي بعد شيتي ونحو لي . . .
إن ستمتم إقامتي سوف لا يسأم	ذكرى مدى الزمان الطويل

فلما مات الزهاوي رثاه بقصيدة فريدة صور فيها الشاعر الذي غمط حقه في حياته

ينظر إلى موكب تشييعه الحافل فيعجب ويستغرب :

أطل الزهاوي من نعشه فشاهد من حوله محشرا
 رأى منظرا لم يكن في الحياة يؤمل من جنسه منظرا
 كأن المناكب من تحته غوارب بحر إذا زجرا
 وللقوم همس فهذا يقول لقد جل ما قطرنا أخسرا
 وذاك يقول : « هوى كوكب من الأفق من بعد لن يظهر
 فيا أسفاً يذهب الفيلسوف ويترك مربعا مقفرا » . .
 جرت خلفه زخرات الجموع فأنشأ يسأل « ماذا جرى ؟
 فقالوا : « حيت وقد كنت ميتاً فصرت لتقديسنا مظهرا
 ورجلك عرجاء كانت فصارت بموتك تعرج نحو النذرى . .
 وقال على لسان الشاعر الحكيم :

فماذا يريد الألى أنكروا علي سلوكي وقالوا : « افترى »

عجبت لمن جاء يبغي الصلاة علي وبالأمس لي كفرا
 ومن الذكريات التي يرويها الملاح أن الزعيم التونسي عبد العزيز الثعالبي سعى مرة
 بالصلح بين الشعاعين المتنافسين الزهاوي والرصافي ودعاهما إلى داره لتناول الطعام ،
 وكان الملاح حاضراً . ولما علم الضيوف أن الثعالبي قد طهى الطعام بنفسه وأحسن
 طهيه ، قالوا له : « لو لم تكن لك إلا هذه الملكة لاستغنيت بها . . » .

إن شعر الرثاء قد كان في النصف الأول من القرن العشرين في مصر وسورية ولبنان
 والعراق وسائر الاقطار العربية المنبر المدوي لروح الوطنية والنهضة السياسية والاجتماعية
 واللسان المعبر عن المطامح والأمانى السامية . من منّا لم يقرأ آيات الوطنية والنهضة في
 مرثي اسماعيل صبري وأحمد شوقي وحافظ ابراهيم والزهاوي والرصافي وخليل مطران
 وعبد المحسن الكاظمي وأحمد محرم وأحمد نسيم وأحمد الكاشف ومحمد عبد المطلب
 وعلي الجارم وبشارة الخوري ومهدي الجواهري وعباس محمود العقاد وبدوي الجبل
 وغيرهم من شعراء العربية الملهمين ؟ من منّا لم يهتز للمراثي التي قيلت في أعلام الوطنية
 والجهاد من مصطفى كامل ومحمد عبده ومحمد فريد وشهداء العروبة في سورية ولبنان
 إلى سعد زغلول وعبد المحسن السعدون وابراهيم هنانو ومحمود شكري الألوسي ومحمد
 جعفر آل أبي التمن وغيرهم من الزعماء والافذاذ الخالدين ؟ ولقد أدلى شاعرنا محمود
 الملاح بدلوه بين الدلاء فاتخذ الرثاء أداة للتعبير عن طموح الأمة ونهضة الشعب .

قال يرثي السعدون :

فوادح خطب سيلها متتابع
سليل العلا هلاً التمسّت ذريعة
وأنى لجفن منك غصّ على القفا
وقال لشريان يقول به الإيا
أيجري دم الأجداد فيك وأمتي
رأيت اعوجاجاً ظاهراً وتلوّناً
فقدت مطيعاً بينهم لنصائح
زرعت لآمال العراق نواتها

وقال يرثي عمر المختار بطل برقة الشهيد :

أراه لا تقرّ على قرار
تنازلنا الحوادث في جيوش
رويد، رويد، دكتاتور روما
وربّ هزيمة شنعاء تبدو
دماء الأبرياء إذا تجارت
حقرت غاريلدي إذ رميت
هما بطلان مختلفان أصلاً
والقيتم على الأقسوام درسا
فلا يفخر بقتل العزل باغ
وقال في جمال الدين الافغاني عند نقل وفاته عن طريق بغداد في سنة ١٩٤٤ :
جمال الدين كان فريد عصر
أتوا برفاته من ألف ميل
وحاز الفخر موطننا بحفل

وأحداث دهر كلهن فواجه . . .
سوى الموت إذ سدّت عليك الذرائع
غداة هوت فوق الرؤوس المقامع
لي الذمّ إن وقاك مني مانع
لقد قصمت منها الظهور الفظائع
فلا عضدي يوم الكفاح يشايح
ولم يبق لي إلا المسدّس طائع
إذا أحسنوا استغلال ما أنا زارع

زوابع ما فتن على مثار
تسير على التتابع كالقطار . . .
فكم كثر يؤول إلى فرار
لعين الغرّ في زي انتصار
بأس الملك آل إلى انهيار
غريلدي العروبة باحتقار
ومتفقان في كرم النجار
يعاف سماعه وحش الصحاري
فما في قتل أعزل من فخر
وقال في جمال الدين الافغاني عند نقل وفاته عن طريق بغداد في سنة ١٩٤٤ :
به اعترف المصادق والمعادي
تلقاه بلاد عن بلاد
أقيم لمصلح للشرق هادي . . .

وقد قدّر الملاح شعر عبود الكرخي وأثره في العوام فقال يرثيه :

من بعد عبود الكرخي لا تثقن
بمنطق لو غدا حشان يطلبه
خير من اللغة الفصحى يشوّها
سن الخطيئة للأخلاف سنّه
ليس العراق بريئاً من مهازل في

بالشعر غلب ألباب الجماهير
ما كان مطلوبه يوماً بميسور
تخليط أجوف ذي جهل وتقصير . . .
لما رأى الفضل شيئاً غير مشكور
شعر لأحمد في النوبي كافور

أما هجاؤك عندي فهو أصدق من
حب الصراحة في الآراء أنطقني
إن ديوان محمود الملاح الذي نرجو أن يتاح له النشر روضة غناء فيها من الأزهار
والاثار أفانين . فمن قصيدة له يخاطب طاغور:

طاغور عدت إلى موطنك التي
أفأنت للاقرار جئت بحقها
عاودت أصلك والأصول حقيقة
ومنها :

طاغور، وهم الناس غال عقولهم
لا يستطيعون الحياة بدونهم
فلذلك كان الوهم أكثر ناصرا
وله من «خواطر مرتجلة» :

إن الحياة اغتراب
فلإنما الوطن الأصلي
وقد يسمى حياة
كما يسمى وفـحياة
إن الحياة لعمري
نار بأيدي السرياح
كأنما الأرض كأس
وكل ما حوت الكأس
وقال من «خواطر شتى» :

يأتي على أجسامنا أبد
سيان سابقنا ولاحقنا
غرقى ببحر لا قرار له
ذراتنا في الكون سباحة
يني وبين المشتري صلة

ومن طريف شعره قصيدة عنوانها «لو قدر للسود أن يسودوا البيض...» يقول منها :
اقتلوا البيض ولا تبقوا رمت
اقتلوا الناصل منه صبغة
صبغة الله ، ولا أحسن من

مدح تكلفته لم يخل من زور
وللصراحة ذنب غير مغفور
منها خرجت وكنت عنها غافلا
حتى إذا أقررت عدت مواصلا ؟
ما زلت مفتونا بها متساثلا

وهو المصيب من العقول مقاتلا
كالماء يجري الفلك فيه حافلا
ولذلك كان العقل أكثر خاذلا

وفي المسمات المـآب
الثرى والتراب
عن التراب الغياب
إلى التراب الإياب
كما ينهار الثقباب
الخمود والالتهاب...
ونحن فيها حباب
للهملاك شراب

مثل الذي قد مرّ من أزل
ماتم من آخر ولا أول
إلا الذي يأتي من الأجل
في وهدة طوراً وفي جبل
ما ليس بين النفس والأمل

إن لـون البيض من لـون البهق
فهو للشيطان صنو إذ أبق
صبغة الله تعالى من خلق

أيها السود انبذوا البيض ولا
لم يكونوا من أبنينا آدم
ليس في البيض عقول رجحت
تأكلوا معهم طعاماً في طبق
إن ما قالوه شيء مختلف . . .
كل ما في البيض طيش ونزق

ولقد نقل معروف الرصافي عن قصيدة تركية للشاعر توفيق فكرت فقال :

كلوا يا أيها السادة
كلوا من مطبخ الدستور
كلوا بالسبعة الأمعاء
كلوا لا تخشوا الناس
كما تنكسره العداة
أكل الساسة القادة
حتى تنقذوا زاده
فإن الناس منكساده . . .

أما شاعرنا الملاح فقال في «مطبخ الوحدة» :

كلوا من مطبخ الوحدة
كلوا من فاخر الألوان
كلوا ما فيه من حلوى
كلوا المطعموم والمشروب
وإن العود محمود
ضعوا في الفم والجيب
ولا تصغروا إلى عدل
ففيه طابيت الشرده
حتى تطفح المعسده
كلوا ما فيه من زبده
والشموم كالسورده
لمن يرغب في العوده
وفي الصرة والعقده
فإن المأكّل العمده

ورأى الملاح طغيان الماء في بغداد فقال :

بغداد مشرفة على الغرق
لا يخذعوك إذا هم اختلفوا
لهفي على بلد ذووه شقوا
لم يسق من ماء الحياة وإن
أما القصور فليس ضائرها
سكنت إلى الأيام واثقة
بين الرياض تلوح زاهية
قلبي يرفّ إذ أشاهدها
والقوم مختلفون في الطبق
فالقوم كلهم على نسق . . .
فيه غداة بخاذليه شقي
هو من دماء الثائرين سقي
تيسر نهر مشرف العنق
بوعودهن غداة قلن : ثقي
مثل الكواكب لحن في غسق
مخضوبة الشرفات بالشفق

وأشفق من النفط فقال في «المارد الأسود» :

وطال تسهيدي عن السهد
قوم على ضيم به رقد
شعب إلى أحلامه غلجد
بعد النهى من مارد أسود
وصير الأحرار كالأعبـد
حتى اعتلى مرتبة السيـد
حاز الذي للنقط من سؤدد
غريرته في الأصل والمحتـد
لما خلوا من ناصح مرشد...
نكبتهم في المرفق الأوحـد

الانس من جنهم أحق بلعن
بأعمالهم لبساء بغبن
فهم خارجون، لكن بفن
وهم حاربوه دون مجن
ويقولون حكمة غير ظن
مثبتاً رأيـه، بجنسة عذن
إذا اتحفوا بلعقة دهن

لما قعدت من المليحة مقعدا
تحنو عليك بلطفها لكفت يدا
كم غافل في القصد نال المقصدا
أيقنت تحريكاً له أنى بدا
إن كنت أبيض منظرأ أو أسودا
ذنباً لطا ووس يضاهي عسجدا
جعل النعيم عليك وقفاً مرصدا؟
ما كان خالقه الكريم ليحجدا

ضللت حتى صرت لا أهتدي
ولم يطل سهدي إلا على
فبددت أحلامي الغر في
واعترضتني في السورى جنـة
فياله أسود أزرى بنا
قد كان موطوءاً بأقدامنا
تالله ما كافور في مصره
إن جار كافور فعذر له
وعبدنا جار على أهله
لم تنكب الأوطان في مرفق

وقال في قسوة الناس وحقارتهم:

لعن الله قسوة الإنس، إن
مقتوا الشيطان الرجيم ولو قيس
إن يكن خارجاً على الله إبليس
حارب الله من وراء مجن
يفترون الهراء وجهاً لوجه
كان صلباً في ظننه حين ضحى،
وهم إن رأوا يضحون بالرأي

وقال مداعباً في كلب سيـدة:

يا كلب سيـدة، حسبك سيـدا
لو لم يكن إلا يد من غادة
نلت المنى من غير قصد للمنى
السر كل السر في الذنب الذي
لا تكثرث ما دمت تحمل سره
ذنب ثمين لست منه مبدلاً
هل أنت منه مبدل، وهو الذي
لو أن زنديقاً بعيشك راتع

وقال في سنة ١٩٢٩ يدافع عن حقوق البلاد :

حَتّام تهضم للبلاد حقوق
عجباً لشعب واجم لعواصف
الشعب مهضوم الحقوق وساكن
هذا يضيق به الطريق إذا مشى

ويبينها من ولدهنّ عقوق
والصخر إن مرّت به منطيق
في الرمس كلّ في البلاء شقيق
ذلّاً وذاك به اللحود تضيق

ومنها :

لو أن طغيانا تحمّله الثرى
تصرف واسراف بمثلها هـوت
ما جمعه من دموع بوائس
بين الجوانح شعلة مشبوبة

صبرت على حكم الطغاة «فروق»
من قبل ذا الرومان والاغريق
في كل مويقة له تفريق
إنّي لأخشى أن يشبّ حريق

وقد لازمت الملاح ثلاثين عاماً أو يزيد ، ونعمت بصداقته ومودّته ، وأفدت من أدبه وفضله . وكان لي معه مطارحات شعرية ومراسلات أدبية ومساجلات اخوانية كثيرة لا تزال ذكرها تثير القريحة وترهف الفكر وتنعش الروح .

كان للملاح هزّ يعنى به ويطعمه حتى هرب ذات يوم بلا وداع . وأعرب الشاعر عن أسفه لفراقه ، فأرسلت إليه بالأبيات الآتية :

قد كان يؤنسنا هزّ ونؤنسه
يأتي فنطعمه من زادنا ، فنرى
لكن مضى لم يودّعنا بلا سبب
لقد محضناه ودّاً يوم مقدمه ،
إنّ الطبيعة نادت فاستجاب لها ،

في وحشة الدار بين الصبح والغسق
فناً عجيباً من الألعاب والملق
تخلّفنا حسرة بانّت على الحدق
فياله أبقاً مستهجن الخلق
وراح يسرح حراً في دُرى الطرق

وتذاكرنا يوماً في الكتب القديمة وما ضاع منها فنسي الحاج خليفة كاتب جلبي وكتابه الفدّ «كشف الظنون» ، فقلت له :

عجباً لملك عالماً
تنسى أريباً فاضلاً
للترك يُنمى أصله
قد شاد صرحاً سامقاً
لو أن «عبّاساً» درى
واحتجّ غضباناً على

جمّ المعارف والفنّون
وكتابه كشف الظنون
والعرب فازت بالثمين
للعلم والأدب الصرصين
لاستواء من ظلم وهـون
إنكار ذي الفضل المين

والإشارة إلى صديقنا المؤرخ عباس العزاوي . وقد أجباني الملاح بأبيات يعرض فيها بالعزاوي ، منها :

أسباب ذلك أن عباساً غزانياً بالمجسون
فتشتت أفكارنا حتى حكمت مسحوق طين . . .
لا تغتررتنا هـ إذ عندنا كل اليقين

حين حلّ محمود الملاح في بغداد أشير عليه بالانتماء إلى مدرسة الحقوق كما فعل الكثيرون من صحبه وأبناء بلده ، فقال إنه لا يحمل الشهادة الثانوية الرسمية . لكن سمح له ولأمثاله من أصحاب الدراسة الخاصة أن ينتموا إلى الصف الأول على أن يؤدوا بعد ذلك امتحاناً في المواضيع العامة موازياً لامتحان الدراسة الإعدادية .

داوم الملاح في مدرسة الحقوق شهراً ، ثم عين موعد الامتحان العام ، ووجهت إلى الطلاب الذين لا يحملون الشهادة الثانوية أسئلة في الرياضيات والطبيعات واللغة ومواضيع أخرى ، وكان منها أسئلة في العروض . وقد سرّ الشاعر الملاح بهذا السؤال بوجه خاص لبعده عهده بالمواضيع العلمية والحسابية ، وهنأ نفسه سلفاً مؤملاً أن يحمل إلى النجاح على موجة سعيدة من بحور الخليل . لكن كل الطلاب الذين شاركوه في الامتحان أو جلهم لم يجيبوا على أسئلة العروض ، فتقرر آخر الأمر إهمالها وإسقاط درجاتها من متوسط النجاح العام . فخاب أمل شاعرنا ، وكان ذلك آخر عهده بدراسة الحقوق .

نشر محمود الملاح :

كان الجمود فاشياً في عهد نشأة محمود الملاح ، وكان الكتاب يلتزمون بالسجع غير مكثرين بأسلوب الترسّل الواضح المؤدّي للمعنى . ووجد الملاح نفسه صعوبة في التخلص من ذلك الأسلوب العقيم ، فقال في ذلك في كتابه «نظرة ثانية في مقدمة ابن خلدون» :

«ومن الغريب أن الأدباء درجوا على السجع حتى عصرنا الذي أدركناه ولم يحدث أحد نفسه باطّراح هذه البدعة . ولعلّ لابن خلدون الفضل في اطّراح كتاب العصر الحاضر لها .

وكنّت أنا من أواخر من نهج نهجه بعد قراءتي وصيته في المقدّمة وأنا في عهد التحصيل . وعانيت في الانتقال من طبيعة إلى طبيعة صعوبة حتى أنّي جشمت نفسي حفظ النثر المرسل للتخلص من السجع ! وأتذكر أنّي حفظت قسماً من كليلة ودمنة . . . وكنّت أعكف على المقدّمة لذلك ، وكانت الكتب البليغة النثر عسرة التحصيل .

«وطبيعة السجع التي كانت فيّ لم تأتني من قبل حفظ كلام مسجع، كلا، فإني لم أحفظ كلاماً مسجعاً قط. ولكنني أسمع كلاماً مسجعاً وأطالع في كتب مسجعة كمقامات الحريري ومقامات البديع ونهج البلاغة، فينطبع في ذهني السجع، ولا يزال في أثر منه!»

وكان محمود الملاح معجباً بابن خلدون، وقد قال:

«إن مقدمة ابن خلدون فتح في الفكر الاسلامي يشبه الفتح الأموي في التاريخ الاسلامي، وكلاهما آية من آيات الاسلام». وكان ابن خلدون يلي الكتابة والسفارة والأعمال لأمرأء المغرب والأندلس في دويلاتهم المتصارعة فيما بينها، ثم اعتزل أربعة أعوام في قلعة ابن سلامة متخلياً عن الشواغل ألف في أثنائها مقدمته الشهيرة.

قال الملاح: «ولولا مطاردة ابن خلدون لحرمانا أثمن ما أنتجه المخ العربي. فإذا ذكرت ضروب الاضطهاد، فحيّلاً بالضرب الذي عاناه ابن خلدون!».

ومن نشره الرائق مقالته «القطوب بعد الابتسام» التي نشرها في صحيفة البلاد (١٤ كانون الثاني ١٩٣٠)، قال فيها:

ما من ابتسامة إلا في عقبها قطوب.

كذلك كانت ابتسامة المغيب، إذ هي أشبه بصحوة المحتضر. هنالك قطعت صلاتي بكل ما كان يطيف بي من شواغل «القهوة» (المقهى) وضوضائها وتكلفت شبه غفوة نرغمت فيها لمشاهدة طيوف الماضي معروضة على رقوق الخيال، وهي مخفوفة بالحلك شأن السنين.

فثارت حينئذ ذكريات «العروبة» ومجدها الرافل ببرده على ضفاف الرافدين، حيث الراية السوداء سواد مقلة الأيام وسويداء فؤاد الدهر، فعن لبالي بيت من قصيدة نظمها في عهد الترك، ثم غالها غول التجسس، وهي:

ما زالت الأيام تبكي دولة كانت سواد عيونها سوادها

أما أنه لو نطق هذه الأمواج، أو لو ترجمنا لغة خريرها التي تشبه غمغمة السياسة أو لغة الدواوين، لغمرتنا بالقصص ولحدثتنا بواقعة الجسر وواقعة القادسية من أيامنا البيض وأخبار هولاء وأحاديث تيمور من أيامنا السود.

نعم، لو ألحنا على هذا الماء واستجوبناه استجواب متهم لاعترف لنا بالجرم الذي اقترفه أو كان عوناً على اقترافه يوم ألقيت في قعره كتب المستنصرية وأسفار النظامية، فانطوى عليها انطواء القمطر. ويوم تحرّى أحوال المأمون... أخاه ابن زبيدة بالحراقات التي أنفذهها طاهر بن الحسين كما يتحرّى السمك هؤلاء الذين أراهم الآن يمحرون دجلة بزوارقهم...

ثم شخصت ببصري إلى الأفق الغربي لأعاتب الغرب على جفائه لأخيه الشرق جفاء المأمون للأمين، وإن كنت لا أملك من وسائل عتابه إلا أضعفها، وهي هذه القصة التي هو من بها علي! لكن قطع على نظري الطريق منظر حدائق النخيل المسطورة على هامش الشاطئ الغربي، إذ كان لون لمها أشبه ببقايا الخضاب في لم الكواعب. فهاج ذلك المنظر ذكرى الصقالية يوم كانوا حولاً للعرب يتخللون بنواصيههم الشقراء حدائق الخلفاء.

ثم رجعت إلى نفسي وقلت: هل أذاقنا الموت الأحمر إلا الافتتان بذيالك الشعر الأشقر الذي خلّب الأبواب فأضعف إرادتها؟ وهل ثلّ عروش الملوك إلا الاندفاع وراء الشهوات واتخاذ الأبعد ركائب لاقتناص شواردها حتى يصبحوا شبحاً في حلق أهل البلاد الذين بنيت العروش على سواعدهم؟ كذلك نفّض العباسيون أيديهم من العرب، فنفضت العرب أيديها منهم، فكان نفضها نقضاً، وما بين النفّض والنقض إلا نقطة!

ها هي ذي ملكة النهار تزفّ لترسب في قعر الظلمات كما كانت الفتاة المصرية تزفّ لترسب في قعر النيل. وصورة زفافها أن يحاك لها إكليل من الغمام مبرقش بالحمرة والصّفرة والزرقة، ثم يقام على جمّة تسرحها الرياح فلا تتركها ثابتة على قرار، كأنها تحاول أن تستوعب عامة «الموضات» وتجرب جميع الأوضاع، فهي حائرة في الاعتماد على واحد منها. وللغواني أحلام وأمان لا يضبط منتشرها ولا يضطلع بتحديداتها إلا بياض الكفن أو بياض الهرم.

وهناك ثارت رفاف من أطيّار النهار متراجعة إلى أوكارها فأحدثت في الفضاء شبه الخيلان، وقامت على أثرها رفاف من أطيّار الليل التي لا تطيق النظر إلى بهجة الكون إلا في بهمة الخندس. أطيّار ليلها النهار ونهارها الليل، وشروقها الغروب وغروبها الشروق، وأصيلها الفجر وفجرها الأصيل، بحيث لو كانت بشراً لاحتاجت إلى الشمس التي تخيلها المتنبي في مدح «الأسود» ولما استغنت عن مصابيح من الظلمة. وغاصت الغزالة ولم يبق منها إلا غدائر طافية تلكأت عن الرسوب وارتكم الدم في وجنتها حين شدّ عليها الخناق، فانبسط جانب من لونه على حاشية الأفق. وعلى أثر خمود تلك الشعلة الكبرى من العالم الأكبر، خمدت شعلة الفكر من العالم الأصغر وعرا نشوتي فتور اضطرني إلى التقهقر بفلول آمالي...

محمود الملاح:

سألت محمود الملاح يوماً لم لا يجمع شعره ويسعى إلى طبعه؟ فقال: إنني بيّضت شعري منذ أعوام طويلة، لكنني أخاف معاودة النظر فيه. فكلما وقع بيدي شيء من شعري السالف صرت على غير إرادة مني أضيف إليه

وأصحح فيه وأسقط منه حتى عييت وقررت أن أتركه وشأنه .
وجاءني بمجموعة شعره فنقلت منه ما شئت في جلسات متعددة .

استملاك دار الملاح :

لاستملاك دار الملاح قصة طريفة لا بأس من روايتها بعد أن استأثرت رحمة الله ببطلها . فقد قررت أمانة العاصمة منح الملاح بدل استملاك قدره ثلاثة آلاف دينار، فاستقله وجاء في المساء إلى المحامي عباس العزاوي في المقهى الذي اعتاد الجلوس فيه على شاطئ دجلة وشكا له قلة التعويض .

قال العزاوي : الأمر هين ، ويمكنك الاعتراض لدى المحكمة .

- ولكنني لا أعرف ما يجب أن أعمله .

- تعال غداً إلى دار المحاكم وأعمل وكالة باسمي ، وأنا أقوم بما يلزم .

- وكم تتقاضى أجرة أتعابك ؟

- نحن أصدقاء العمر ، ولن أتقاضى منك فلساً واحداً في سبيل رفع الغبن الذي وقع عليك .

- وماذا تفعل إذا وكلتك رسمياً ؟

- هناك إجراءات معلومة : فإنني أعترض على البدل ، فيعين الحاكم خبراء يمثلونك ويمثلون أمانة العاصمة ويقوموا بالكشف على الدار ، ثم يقرّر البدل المناسب .

وكذلك كان . وجاء الملاح بعد أيام يسأل العزاوي عن سير القضية فطمأنه وأعلمه أنها سائرة على وجهها الصحيح .

قال الملاح :

- إذا رفع البدل إلى خمسة آلاف دينار فإنني أعطيك أجراً كبيراً .

- قلت لك إنني أفعل ما أفعله لأجل صداقتنا ولا أرغب في تقاضي أي أجر .

وجاء الملاح في اليوم التالي وقال :

- إذا رفع البدل إلى ثمانية آلاف فإنني أمنحك الأجر الذي تطلبه .

- ولكنني قلت لك مراراً إنني لا أطمع في الأجر !

وظلّ الملاح يزيد كلّ يوم في بدل الاستملاك الذي يريجو الحكم له به ويعد صديقه العزاوي بأجر عظيم ، حتى كانت عشية البتّ في القضية . فجاء إلى المقهى وقال :

- إذا رفعت المحكمة البدل إلى خمسة عشر ألف دينار فإنني آتي بالمبلغ جميعه إليك لتتقاضى منه ما تشاء !

قال العزاوي : لا أدري ما ستقرّر المحكمة ولكنني أكرّر القول إنني لا أطمع في أجر ولا مثوبة .

وذهب الحاكم والخبراء في اليوم الثاني إلى الدار المستملكة وسأل الحاكم ممثل أمانة العاصمة عن البدل فقال : لقد تقرّر تعويض صاحب الدار بمبلغ ثلاثة آلاف دينار، وهو بدل مناسب إذا أخذنا بنظر الاعتبار حالة البناء والموقع . . .

ثم سأل الحاكم ممثل محمود الملاح عن رأيه ، وكان ذكياً ، فقال : أنا لا أعرف الأرقام المجملة ولكنني أدري أن المتر المربع الواحد في هذه المنطقة من بغداد لا يباع بأقل من مائة دينار بصرف النظر عن البناء .
فصاح ممثل أمانة العاصمة معترضاً : ماذا تقول؟ مائة دينار؟ إنك لا تجد مشترياً بثمانين ديناراً .

فقال ممثل الملاح : إنني أوافق على ثمانين ديناراً .
وقمت الموافقة على ذلك ، ولما حسب التعويض على هذا الأساس بلغ البدل ثلاثة وعشرين ألف دينار قبضها الملاح صكاً على المصرف وهو لا يكاد يصدق عينيه .
قبض الملاح المبلغ ومضى إلى داره وأرسل إلى العزاوي أياًتاً يقول فيها : لقد وكلتك محامياً عني فماذا فعلت؟ إن الفضل يعود إلى الخبير اللبق الذي عرف من أين تؤكل الكتف .

وغضب العزاوي غضباً شديداً وقال : إنني فعلت ما فعلت واخترت الخبير وسرت في الاجراءات القانونية بدافع الصداقة ولم أطمع في الأجر . ولكن صاحبنا يقبض أضعاف ما حلم به ، ثم يبخل عليّ بالشكر ، ويجازيني بشعر يبخس من حقي ويغضّ من شأني . والله لأعلمنه درساً لن ينساه أبداً واتقاضاه أجراً مضاعفاً .

واشتدت الجفوة بين الملاح والعزاوي الذي هدّد برفع الأمر إلى القضاء ، فقلت له : لا تفعل ، يا أبا فاضل ، وارك الأمر لي .
قال : لا أرضى بأقل من ألف دينار .

ومضيت إلى الملاح وعاتبته وقلت له : لو كنت قد مدحت صديقنا بشعر أشدت فيه بذكره وأطريت فضله لما وقع ما وقع .

قال : لقد كانت دعاية ولم أقصد شيئاً ، وهو لا يرضى بأي أجر .

قلت : أما الآن فهو يريد الأجر ولا يتنازل عنه .

وبعد مكالمة ومساومة فصلت مقدار الأجر بخمسة دینار قبضتها من الملاح ودفعتها إلى العزاوي ، فعادت مياه الصداقة بينهما إلى مجراها .

حدثني محمود الملاح قال : كنت كاتباً للنفوس في ولاية الموصل في أواخر عهد الاستبداد الحميدي . وكان السلطان يحرص ألا يشاركه أحد في لقبه ، فالويل لمن يجراً أن يكتب اسمه (سلطان) ولو سماه به أبواه عند الولادة . وكان هؤلاء - وهم كثر في الموصل - يكتبون اسمهم (سلطان) بالتاء ويتجنبون حرف الطاء .

قال الملاح : وكان عملي أن أكتب الأسماء في سجل النفوس الأساسي ، وهو سجل يحظر فيه الحك والشطب . ولذلك كنت أملاً المعلومات في حقوله بدقة شديدة وخط واضح خوفاً من حصول خطأ . فإذا حضر رجل اسمه (سلطان) لتسجيل أحواله المدنية ، ترك مميز الدائرة أعماله ووقف على رأسي يراقب الأمر بنفسه خوف الزلل وسوء العاقبة ، فيشير عليّ بأخذ الأهبة والعناية ، ويقول لي : احذر الغلط ، يا ولدي . اكتب (سلطان) بالتاء لا بالطاء ، أفهمت ؟ ويكرر ذلك مثني أو ثلاثاً ، حتى إذا ما خططت اسم الرجل انحنى على السجل ورأى الرسم صحيحاً فربت على كتفي وقال : آفرين ، يا ولدي ، أحسنت .

وكانت هذه الرواية تتكرر كلما جاءنا «سلطان» لتسجيل نفسه .

محمود الملاح في حلب :

حدثني محمود الملاح قال : كنت كاتباً في مجلس إدارة ولاية حلب بعد نهاية الحرب العظمى ، وكان مدير التحرير ابراهيم هنانو ، وكانت حلب تابعة للحكومة الفيصلية في الشام . ولم يمض أمد طويل حتى احتل الفرنسيون سورية وأخرجوا الملك فيصلاً منها (١٩٢٠) ، فظل مجلس الادارة يعمل تحت إمرة الحاكم الفرنسي .

وكان التنافس شديداً في المدينة بين المسلمين والأرمن . وجاءت في هذه الأثناء امرأة أرمنية بعريضة إلى مجلس الادارة تطلب اعتناق الدين الاسلامي ، وقد فهمنا أنها أقدمت على هذه الخطوة رغبة منها في التخلص من زوجها الذي كان يسيء معاملتها . وجاء زوجها الأرمني ، وكان فظاً غليظاً ، فأخذ يتوعد المجلس واعضائه وموظفيه ويهدد باستنزال نقمة الفرنسيين عليهم إذا هم ساعدوا امرأته على الدخول في الدين الاسلامي والتخلص من ربة زوجها .

وكان المجلس يميل إلى قبول اسلام المرأة ، لكنه كان يحسب حساباً للحكام الفرنسيين وموقفهم المعروف من الأمر . وفي هذه الأثناء اتصل الرجل بشيخ مسلم من المعممين وطلب إليه حل مشكلته ودفع له الأجر بسخاء . فقال المعمم : أتريد أن تحتفظ بزوجتك ؟

- نعم .

- إذن فاطلب أنت أيضاً اعتناق الدين الاسلامي ، وعند ذلك تبقى المرأة في عصمتك إذا قبل اسلامها .

ولم تجد المرأة المسكينة بداً من الاحتفاظ بدينها والعودة إلى منزل الزوجية .

الموصل في أواخر القرن التاسع عشر:

كانت الموصل في أواخر القرن التاسع عشر تشكو العزلة والخمول والانحطاط الاقتصادي ، وتعاني فقراً مدقعاً يعزّ على الوصف . حدثني محمود الملاح أن الرجل كان يسير في السوق فيرى بصقة على الأرض ، وأنه ليحدّق فيها ملياً لعلها تكون متلياً يهّم بالتقاطه ، والمتليك أدنى قطع النقد العثمانية .

وجاء أحد أمراء إيران لزيارة الموصل ، فحار الوالي التركي كيف يستقبله بما يليق بمنزلة الدولة . وكان الجند يلبسون الملابس البلدية ذات الأشكال والألوان المتباينة ، فقرّر الوالي يعد التفكير واعمال الرأي شراء قماش خشن من نسج الجبل وصبغه بالنيل ، فعمل منه بزات رسمية لعشرة أو بضعة عشر جندياً توحيداً لزيهم ، لتحية «الشاهزادة» عند قدومه . وظلّ هذا النفر من الجند بملابسه الخشنة المصبوغة مضرب المثل في الموصل عهداً غير قصيراً

وكان الناس لا يعرفون الشاي شرباً . ومن ذكريات الملاح عن طفولته أن جدّه أصيب بالمرض ، فجيء له بالشاي دواءً . وقال الجدّ: أعطوا شيئاً من الشاي إلى هذا الطفل ليدوقه ، فلما أشر به منه معّ طعمه وأخذ بالبكاء .

محمود الملاح:

حدثني محمود الملاح أنهم كانوا ثلاثة يدرسون على الشيخ عبد الله النعمة ، هو وضياء يونس وشيت خطاب ، وقد اتصلت بينهم المودة فصاروا لا ينقطعون بعضهم عن بعض نهائياً ولا مساءً . ولم يتزوج الملاح ، ولم ينجب ضياء يونس ولداً ، أما شيت خطاب فتزوج وأنجب ولدين سمّى أولهما باسم محمود الملاح ، وهو محمود شيت خطاب صاحب المؤلفات العسكرية واللواء في الجيش العراقي والوزير في العهد الجمهوري . وسمّى ثانيهما باسم ضياء يونس ، فكان ضياء شيت خطاب الذي أصبح رئيساً لديوان التدوين والقانوني ونائب رئيس محكمة التمييز ورئيسها بعد ذلك .

حدثني محمود الملاح أنه حين أنشئت الحياة النيابية في العراق سنة ١٩٢٥ ، عين صديقه ضياء يونس سكرتيراً لمجلس الأعيان . وتوسط له لدى رئيس الوزراء ياسين الهاشمي فعين الملاح رئيساً لكتاب مجلس النواب براتب ٢٥٠ روبية شهرياً .

قال : داومت في الدار التي قرّر اتخاذها مقراً للمجلس النيابي قبل افتتاحه ، وكان العمال والنجارون منهمكين في تنظيم قاعة الاجتماع ومقاعد لاعدادها لحفلة الافتتاح . وكنت أنا وسائر الموظفين المعيّنين واقفين نشرف على العمل ونصدر التعليمات

بشأن إقامته . فجاء رجل معتم باللباس الأهلي ووقف يراقب عملنا ، ثم صار ينتقد العمل ويصدر الابعازات والتوجيهات ، فقلت له : يا أسطى ، ما شأنك في الأمر؟ ورجوته أن يخرج ، فلم يفه بنت شفة .

فقال لي أحد الفراشين : خفف من غلوائك ، إنك تكلم الحاج عبد المحسن شلاش وزير المالية السابق . فخرجت ومضيت بعيداً .

ثم افتتح المجلس وانتخب رشيد عالي الكيلاني رئيساً ، فلم يقرّ التعيينات السابقة ، بل أصدر أوامره بتعيين موظفين جدد . وتلقيت أمراً بتعييني كاتباً براتب ١٥٠ روبية ، فغضبت وانقطعت عن الدوام . وقد نصحتني أصدقائي بقبول هذه الوظيفة ، فلم أفعل . ومرّ أسبوع أو أسبوعان فاعتبرت مستقيلاً وأنهيت خدمتي قبل بدئها .

محمد حسن أبو المحاسن

الشاعر الوطني ووزير المعارف العراقية الشيخ محمد حسن بن الشيخ حمادي بن مهدي آل محسن الحائري ، من قبيلة آل علي . تسكن أسرته في قرية جناحة بجوار الهندية في لواء الحلة وتنحدر من ابراهيم بن مالك الأشتر . وقد ولد في كربلاء سنة ١٨٧٦ وطلب العلم في مسقط رأسه ودرس علوم العربية والدين على يد محمد حسين الشهرستاني وكاظم الهرّ وغيرهما . وامتاز بشعره الجزل الرقيق ، وأمن في شبابه بالمبادئ الإسلامية وناصر الخلافة العثمانية حامية الاسلام ونظم في ذلك القصائد الكثيرة . وكان له اطلاع على الشعر الفارسي . ولما اختلّ نظام الحكم التركي في الحلة خلال الحرب العظمى ، خرج من كربلاء بأسرته إلى قرية جناحة وأقام فيها رداً من الزمن .

ونشبت الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ وتولّى زمام الأمور في مدينة كربلاء الزعيم الشيخ محمد تقي الشيرازي ، فعهد إلى مترجماً برئاسة المجلس المالي والحكومة الوقتية ، حتى إذا ما خبا أوار الثورة سجن في الهندية ، ثم أطلق سراحه في آخر أيار ١٩٢١ .

وعين وزيراً للمعارف في وزارة جعفر العسكري (٣ كانون الأول ١٩٢٣) ، وقد استقال في ٢٧ ايار ١٩٢٤ . وانزوى في قريته جناحة حيث وافاه الأجل في ٢٤ حزيران ١٩٢٦ . وطبع ديوان شعره سنة ١٩٦٤ بإشراف الشاعر الخطيب الشيخ محمد علي اليعقوبي .

شعره :

اشتهر أبو المحاسن بشعره الاسلامي والوطني ، فقد سجّل أحداث التاريخ العثماني بعد إعلان الدستور سنة ١٩٠٨ منتصراً للدولة العلية التي كانت تجمع شمل الاسلام وتدافع عن حماه . ومما قاله يخاطب الدين الاسلامي ويشيد ببيض أياديه :

لك الشرف الباقي ، وإن رغم العدى
تردّيت بالمجد الأثيل ، وما لهم
وما أنت إلا الشمس في الأرض ما لها
وما لنظام الكون غيرك كافل
نشرت لواء العدل في كل بلدة

وقال في رثاء محمود شوكت باشا بطل الانقلاب العثماني :

بكى الشرق ، يا خير الصدور الأعظم
نعتت إليه فاستمالت ربوعه

ومنها :

ألم يكشف الكرب الذي ضيق الفضا
فشيد صرح العدل مذهب سيفه
ومن شعره الوطني :

يا أيها الوطن العزيز لك الهنا
سعيد تاريخ العلى لك نفسه
أبناء يعرب يطلبون تراثهم
لا يقنعون من الفخار بتالد
حتى يقول :

فمتى تؤولف وحدة عربيّة
ليس العراق بموطني هو وحده
وقال يفتخر بقومه :

بقومي أسمو راقياً شرف العلى
هم القوم أما عزهم فمشيد
شائل كالروض الأريض تضوّعت
وقال في مدح النبي الأمين :

وأشرقت أنجم التوحيد محذقة
نبوة حاولوا إخفاءها فبدت :
كان شرعته ضوء النهار جلت
من صفو أخلاقه سلسال كوثره

أبى الله إلا أن يـدوم خلـدا
إذا اجتذبوا ذاك الرداء سوى الردى
غنى عن سواها فهي تطلع سمردا
لك الله فاسلم كي نعيش ونسعدا
وساويت فيها بالمسود المسودا . .

عليك بمنهل الدموع السواجم
مصاباً ومادت أرضه بالآتم . .

على أمة باتت بقبضة ظالم؟
على «يلدز» الشفاء صرح المظالم

قد نلت أشرف بغية ومـراد
ويعود مجد رجالك الأجماد
إنّ البنين أحقّ بالأجداد
ما لم يضيفوا طارفاً لتلاد

وطنيّة الاصدار والإيراد
فيلاد قومي كلهن بلادي

وأسطوبهم يوم الوغى وأصول
تليد وأما مجدهم فأثيل
بطيب شذاه شمأل وقبول

منه يدر هدىً يجلو دجى الظلم
إن الشموس سناها غير منكم
من الضلالة ليلاً حالك العتم
جرى بصفومعين سائغ شيم

وقال في السجن :

أنا والنجم كلانا ساهر
لا أبالي ، والمعالي غايتي ،
في سبيل المجد منّا أنفس
ليس غير الشعب واستقلاله
نحن للعلياء والعلينا لنا
عُرفَ المعروف والعدل بنا

ولأبي المحاسن غزل لطيف على الطريقة القديمة ، كقصيدته «شجو الغرام» التي يقول فيها :

أجلك هل لي من هواك مجير
أسامري في ليل التهام نجومه
وقد منعوا طيف الخيال ، فلا الكرى
ولما وقفنا للوداع بلذي النقى
وفي القلب من برج الصبابة لاعمج
وقد أشرقت للناظرين طوالعاً
جرت لمراعاة النظير مدامعي

ومن رقيق شعره الوجداني :

لعلّ النوى تدنو فيجتمع الشمل
فدئ لك نفسي ، كيفما شئت فاحتكم
وما أنا إلا عاشق قد تقاسمت
وما اختلفت سبل الهوى غير أنني
معاني جمال غير ما افتتنوا به

وقصيدته «الربيع الناضر» من أمثلة الوصف البارع الجميل :

بوركت يا زمن الربيع الناضر
أقبلت يا ملك البسيطة رافلاً
رجعت للأرض الموات حياتها
فتضوّعت أزهار كلّ خميلة
نطق الحمام عن الرياض بشكرها
ضحكت ثغور الأرض فهي بواسم

ما أنت إلا بهجة للناظر
بمطارف الحسن السنيّ الباهر
وكسوتها بُرد الشبّاب الزاهر
تجزيك بالنعماء حمد الشاكر
فاسمع ثناءك من غناء الطائر
مهما بكت عين السحاب الماطر

خطر التّسيم الغضّ يحمل نفحةً
والشمس صاغت بالشعاع سبائكاً
وجرى لجين الماء فيه فحلّيت
ومن شعره الغزليّ:

ما تشّى الغصن إلّا وصفا
يطرب الغصن إذا شتهته
وسلاف الراح في نشوتها
أرضاب الثغر أم مشمولة
فيه للظامي شفاء من جوى
ومهاة غادرت ألحاظها
إن مشت هزّت قناة صعدة
ما ثاها السكر، لكنّ الصبا
صفة الحسن بها قد أغريت

لك قلدّاً وقواماً أهيفاً
بك حتى ينثني منعطفها
تصف الثغر وتحلو مرشفا
قد جرت في لؤلؤ قد رصفا
لو رأى الظامي سيلاً للشفا
مهجة الصبّ المعنى هدفها
أو رنت سلّت حساماً مرهفا
من نعيم قد سقاها قرقفا
فزهت حسناً وفاقت شرفاً

كان لأبي المحاسن مطارحات شعرية مع رجال عصره كرضا الاصفهاني وعبد المهدي الحافظ وهادي عباس آل كاشف الغطاء وعبد المطلب الحلي وجواد الشيبلي وعبد الحسين الخويزي وغيرهم . ومن طرائفه التي رواها محمد علي اليعقوبي أبيات قالها يداعب الشيخ علي الأسدي الذي أناف على التسعين :

أممّراً عمر النسور، إلى متى
حدّث، فلا حرج، حديث جديمة
تبقى وأنت الميت في الأحياء؟
ما كان قصّته مع الزّباء؟
عن البسوس وماضيات حروبها
حدّث فإنّك حاضر الهيجاء

قال سلمان هادي آل طعمة : وكان الشاعر صلب الرأي، سامي الخلق، واسع الخيال، مرهف الاحساس، . ويمتاز شعره بحرارة العاطفة وصدق التعبير ورقة الشعور.

قال وهو سجين في الخلّة:

أناجز جيش الخطب، والخطب فادح،
إذا كلّ عزم القوم أو طاش حلمهم
فيثبت قلبي والقلوب مَرُوعة
وقد نصحو لي بالخضوع إلى العدى

يكافحني طوراً وطوراً أكافح
فعزّمي مسنون وحلمي راجح
ويشرق وجهي والوجوه كوالح
وما كلّ من يهدي لك النصيح ناصح

فقلت : معاذ الله أن يستذلّني
وأهون عندي أن أمدّ لهم يداً
عدوّ، فغيري للدينّة جانح
تصافحهم أن تحتلبها الصفائح

من قصيدة له يطالب بالاستقلال في أثناء ثورة سنة ١٩٢٠ :

وثق العراق بزاهر استقلاله
أضحى يؤمّل نيل أشرف غاية،
فله إلى التحرير، وهو حبيبه،
قد أطلق العاني وفكّ أساره
وردت شعوب الأرض باستقلالها
أفيحرم الشعب العراقي المنى،
فازوا بنيل حقوقهم، وحقوقه
إن يُعطَ واجب حقه فلدقه
والشعب متّفق على استقلاله
يا ربّ، أوصله مدى آماله
نظر المشوق المستهام الواله
فلّى مَ يبقّى وهو في أغلاله؟
عذب الرجاء وزوّيث بزلاله
والشيء محمول على أمثاله؟
بضمان أهليه وعزم رجاله
أولا فمفزعّة إلى أبطاله . . .

وقال من قصيدة يرثي الامام محمد تقي الشيرازي :

يا غلّة الأحشاء غاض المورد،
لا نجدة للمستغيث ولا روى
قلّ الغرار فلا فم لخطابة
بكر النعيّ وقال : قد أودى التقى
ومنها : إن كان قد أودى التقى محمد
يا آية الله المقدّسة التي
غادرتنا والخطب داج ليله
فمن المدافع والاستّانة شرّع
الشرق، يا شمس الهداية مظلم،
لو لم تعاجلك المنيّة لانجلي
يا أزيمة الأيام غاب المنجد
يشفي غليل حُشاشة تتوقّد
عند الخطوب ولا حسام ولا يد
ومضى إمام المسلمين الأوحّد
فلقد أصيب به النبيّ محمّد
أمست إليه بها الملائك تصعد
واليوم من صبغ الحوادث أسود
والبيض تبرق والمدافع ترعد؟
مد غاب عنه ضياؤك المتوقّد
عنه سحاب المغرب المتلبّد

أحمد الصافي النجفي

إن سيرة هذا الشاعر إنما هي شعره :

وهو أحمد بن علي بن صافي من أسرة نجفية يتصل نسبها بالامام موسى الكاظم وكانت تعرف بآل السيد عبد العزيز الذي نزل النجف ، وهو الجد السادس للشاعر . أما جده لأمه فهو الشيخ محمد حسين الكاظمي من آل معتوق في صور . ولد أحمد في النجف سنة ١٨٩٦ ، وتوفي والده بوباء الهیضة وعمر صبيّاً ١١ سنة ، فكفله أخوه الأكبر محمد رضا .

قال أمين الريحاني في كتابه «قلب العراق» إن هذا الشاعر رأى نور الشمس «يوم كان الحسن الخُلقي والصحة والنعمة تنتزه كلها في الكون الأعلى ، فما رمقته بنظرة ساعة الولادة ولا دنت بعد ذلك من ملعبه أو من رحله أو من كوخه . . انه لطير غريب يحسن الطيران والغناء ولا يحسن سواهما . . . » وقد قال الصافي :

أسير بجسم مشبه جسم ميت كأني إذا أمشي به حامل نعشي
ولما بلغ الخامسة من عمره أدخل الكتاب ، فتعلّم القرآن والخطّ وشيئاً من الحساب .

وقد قال في ترجمة مخطوطة لنفسه كتبها سنة ١٩٣٦ :

«وما كدت أتجاوز العقد الأول من عمري حتى نكبت بفقد والدي بمرض الوباء الذي اجتاح العراق يومئذ وترك في كل دار مناحة ، ولا سيما في بلدة النجف . وقد كانت الصدمة شديدة على نفسي ، وما زلت حتى اليوم أتمثل ذكراها الفظيعة وحوادثها المؤلمة ، ولا أنفك حتى اليوم أشعر بهولها .

فكفلني أخي الأكبر ، وكان بالرغم من عطفه عليّ ، قاسياً في معاملتي ، ضاغطاً على حُرّيتي ، مقيداً لي تقيداً يكاد يكون استعباداً أو استعماراً . . . »

وحين بلغ الثالثة عشرة أخذ يدرس قواعد اللغة والمنطق وعلم الكلام والمعاني والبيان والاصول وشيئاً من الفقه على أساتذة منهم الشيخ محمد حسن المظفر والسيد حسين الحماي والسيد علي اليزدي ، ثم حضر دروساً على السيد أبي الحسن الاصفهاني والشيخ مهدي الخالصي .

وكان منذ الطفولة ضعيف البنية ، ميالاً إلى الكسل والتأمل ، فلم يحتمل مواصلة الدرس الذي زاد في مرضه العصبيّ . ثم توفيت والدته سنة ١٩١٢ ، فاشتد عليه الداء ومنعه الأطباء من الانكباب على الدرس ، فانصرف إلى المطالعة ومراجعة الشعر والأدب وتصفح الكتب العصرية والمجلات كالمقتطف والهلal .

وكان أقرب كتاب إلى نفسه - كما يقول - لزوميّات المعريّ ، ومن الذين أثروا في تفكيره في تلك الحقبة محمد رضا الشيببي وعلي الشرقي .

وفي سنة ١٩١٦ ترك النجف مع رفيقه محمد علي كمال الدين قاصدين البصرة للعمل فيها ، فاخترقا خطوط الحرب ووصلا إلى البصرة ، لكن لم يجدا فيها شغلاً يمسك رفقهما .

وذهبا إلى المحمّرة (خرّمشهر) في ايران ، فخلع الصافي البزة الدينية وارتدى لباس العمّال وشرع يبحث عن عمل ، وانتقل لتلك الغاية إلى عبّادان والكويت . . . وكتب عن هذا الدور من حياته فقال :

«ثم إنني سافرت بعد ذاك إلى عبّادان لاشتغل عاملاً فيها فلم أوفق . فتوجهت إلى الكويت في سفينة شراعية ورمت الاشتغال فيها بأحد المخازن ، فلم يقبلوني مما اضطررتي أن أكون بناءً طيلة يوم كامل وقعت في انتهائه ميتاً من شدة التعب ، فذهبت قبل أن أستلم الأجرة . ولما رأيت عدم استعدادي لهذه المهنة الشاقة ، سافرت إلى بندر بوشهر المرفأ الفارسي ، وكانت رحى الحرب إذ ذاك دائرة بين القبائل الفارسية والانكليزية بتحريض القائد الألماني «وسموس» الذي كان قبل الحرب قنصل الحكومة الألمانية في شيراز . فلم أتمكن من الوصول إلى قرب بوشهر إلا بمشقة تعرّضت أثناءها إلى الغرق في الخليج الفارسي (العربي) ، لولا صندوق شاي كان معنا في الزورق ، فطفا على سطح الماء وتعلقت به فكان سبب إنقاذي .

«ومن هناك سافرت مشياً على الاقدام مع قافلة تجارية قاصداً شيراز ، فوصلت بعد اثني عشر يوماً قطعناها في الجبال والطرق الوعرة إلى بلدة فيروز آباد موطن الفيروز آبادي المشهور صاحب المعجم العربي المعروف بالقاموس المحيط . وهناك أصبت بالتيفوئيد ، فانفردت عن القافلة . وقد تعرّف إليّ المجتهد المرحوم الامام السيد عبد الحسين اللاري الذي كان تلميذاً لجلدي المرحوم الشيخ محمد حسين الكاظمي ، ولولا عنايته بي لقضى عليّ التيفوئيد . وبعد إبلاي من المرض سافرت إلى بندر عباس ، ومنها قفلت راجعاً إلى النجف الأشرف بعد مفارقتها تسعة أشهر ، كانت خلالها قد انقطعت أخباري عن أهلي . وقبل وصولي إلى النجف بشهرين كانت بغداد قد سقطت بيد الجيش الانكليزي . . . »

بدأ الصافي بنظم الشعر . وقد سمع بأنباء ثورة الحجاز التي رفع لواءها الشريف حسين ، فكانت باكورة نظمه قصيدتين في مدح الشريف وتحية الأمة العربية الثائرة . ثم شارك في الثورة الوطنية التي شبّ أوارها سنة ١٩٢٠ ، فسجن اخوه الاكبر محمد رضا الصافي ، وهبىء لشاعرنا أن فرّ إلى طهران عن طريق الكوت وجبل حلوان .

عكف الصافي على دراسة اللغة الفارسية وعمل مدرساً للأدب العربي في المدارس الثانوية. وترك التدريس بعد سنتين، واشتغل بالترجمة والتحرير في أمهات صحف طهران كجريدة «شفق سرخ» وغيرها. وأكّـب على مطالعة الادب الفارسي، فقرأ المثنوي ديوان جلال الدين الرومي ورباعيات الخيام ودواوين حافظ والمنوچهري وسعدي والشعر المعاصر. وتعرّف بشعراء إيران أمثال بهار ملك الشعراء وحيدر علي كميالي وجلال الممالك وعارف القزويني والشاعر عشقي الذي ذهب ضحية قصيدة حمل فيها على رضا شاه بهلوي. واختير بعد ذلك عضواً في النادي الأدبي، وقام بترجمة رباعيات الخيام، ولم ينقطع في تلك الاثناء عن مطالعة الادب العربي قديمه وحديثه.

ثم انخرط في سلك موظفي الحكومة الايرانية مترجماً بوزارة المعارف، فنقل إلى الفارسية كتاب علم النفس لعلـي الجارم ومصطفى أمين. وعاد إلى بغداد بعد ثمانية أعوام قضاهـا في ايران (١٩٢٨)، فاتّصل بمحافلها الأدبية وصادق الزهاوي وسواه من الشعراء. ورشحته الحكومة العراقية قاضياً شرعياً في الناصرية، لكن المرض عاوده بسبب المناخ واشتدّت عليه وطأته.

وأشار عليه الأطباء بالنزوح إلى سورية، فبارح العراق إلى دمشق سنة ١٩٣٠، ولم يستطع - كما قال - وبالرغم عن وصية الطبيب الابتعاد عن الاشغال الفكرية، فأخذت صحته بالتأخر وعانى جملة أمراض منها تضخم الكبد وضعف القلب ومرض الكلية والتهاب الحنجرة وضعف الأعصاب!

لقد هيمـى للصافي أن يتغلّب على جميع تلك الأمراض، وقد أناف على السبعين. وعاش متنقلاً بين ربوع سورية ولبنان. ولما احتل الانكليز بيروت في خلال الحرب العالمية الثانية اعتقلوه وأودعوه السجن (١٩٤١)، فلبث في غيابه شهرًا ونصف شهر، وخرج منه بديوان شعر أسماه «حصاد السجن».

وكانت حياته بعد ذلك تقتصر على كلمة واحدة، هي الشعر الذي واصل قرضه وأخرج دواوينه في تتابع وانسجام.

مؤلفاته:

دواوين شعره: الأمواج (١٩٣٢) أشعة ملوّنة (١٩٣٨) الأغوار (١٩٤٤) التيارات (١٩٤٦) ألحان اللّهيـب (١٩٤٨) هواجس (١٩٤٩) حصاد السجن (١٩٥١) شرر (١٩٥٢) اللفحات (١٩٥٨) الشلال (١٩٦٢) شباب السبعين (١٩٦٧) ثمالة الكأس (١٩٧١).

وله عدا ذلك: رباعيات الخيام (ترجمة شعرية (١٩٣١)، هزل وجدّ (نثر، (١٩٣٧).

شعره :

الصافي شاعر أصيل انصرف إلى الشعر وعاش له وعرف به ، حتى قال :

لي في الشعر عالم مستقل أنافيه فرد بدون خلاف
لم أشـارك غيري لآتي رب واحد لا شريك لي في القـوافي

وقال :

سموت بشعري فوق جيلي ، ولم يزل يشك بشعري معشر البلهاء
فإن لم أكن في أمة الشعر واحداً ، أكن أمة أعلى من الشعراء !

وقد أثر الحرية والانطلاق من القيود فقال :

يروم زيارتي عشاق شعري فلا يجدون لي في الأرض دارا
تراني كالنسيم أطوف حراً فلست ، ولا النسيم ، نرى قرارا
فزوروني بأنفس الخزامى وزوروني بآهات العذارى
وقد آوي لقلب أخي غرام وأبعد منه أنات حيارى
وعاف المجاملة والتقاليد الاجتماعية :

أفرّ من النوادي زاخرات بألوان المجاملة الوضيعة
وأوي للحقـول طليق نفس فلسك مجاملاً إلا الطبيعة

أرهفت حسّه الأمراض التي ركبت بدنه وأضنت جسمه ، فقال :

لقد عدت أمراضاً أحرار بعدها ومن ذا يطيق العذ للرمـل والنمل ؟
يقولون لي : ماذا بجسمك مؤلم ؟ أقلب ، رأس ؟ قلت : يؤلني كلي

وداهمته الخطوب وهذته المصائب فأوحت إليه أرق الشعر وأروعه :

سأشكر للدهر الخؤون خطوبه وإن كدت منها أفقد الرشـد والصبرا
فإن خطوب الدهر أذكت بصيرتي وإن خطوب الدهر أوحت لي الشعرا
وكم من مصاب حلّ بي فحسبته سيفقـدني روحي ويسكنني القبرا
فما زال يغلي فيّ حتى تفجّـرت ينابيع شعري منه وانصدقت نهرا
ولكنه نهر من النار سائل تشور به أمواجه شعلاً حمرا .

وهل عجب بعد ذلك أن يكون شاعراً إنسانياً يتفجّر قريضه رحمة وحناناً وأن يتخذ
مواضيع شعره أبناء الشعب الكادّين الكادحين والفقراء البائسين من بائع الحـصير
والأعمى والمسلول والسائل القروي إلى راعي الغنم والبلهاء والشحاذ . . . وإنه ليأسى
لحال صباغ الأحذية ، والشاعر وحداؤه عدوان للصّبغ والاناقة ، فلا يرده خائباً مع
ذلك :

جاء يوماً إليّ صباغ نعل
مرّ دهر عليه لم يرّ صبغاً
وكسته أشقة الشمس لوناً
جاء نحوي من بعد ما طاف يوماً
جاء نحوي يروم صبغ حذائي
أنا خصم الألوان تخفي عيوباً
رمت ردأله فلم يرّض قلبي
قلت: أحبّوه درهماً، غير أني
قلت: فاصبغ لي الحذاء بصبغ
فقد اصبغ الحذاء بحذقي
ثم بادرت به بما ضمّ جيبني
فمضى هاتئناً ورحت كأني

وبنعلي صبغ من الأيام
غير صبغ الغبار والأقدام
صار منه كقطعة من رغام
دون ربح غير العنا والسقام
وأنا للصبغ أعدى الأنام
إنّ عندي الألوان كالأوهام
رّده خائب المنى والمرام
خفت من أن يُذلّه إكرامي
فيه أغدو مثل الدّوات العظام
مبدياً فيه كل فنّ تمام
من نقود أعددتها لطعامي
ثمل بالسخاء لا بالمدام

إن هذه المقطوعة مثال الشعر الفطريّ الأصيل الذي لا تكلف فيه ولا صناعة ولا
إغراب، ينساب كالجدول الرائق: يصف حذاء الشاعر الذي كسته الأيام لون التراب،
ثم يلتفت إلى الصباغ المسكين وقد أخطأه التوفيق وفاته الرزق سحابة يومه، فيهمّ أن
يرده فلا ترضى عاطفته الانسانية، ويهمّ أن يمنحه صدقة فيخاف أن يهينه ويذله. فلا
يكون منه إلا أن يدعوه إلى صبغ حذائه ويمنحه أجره عمله النقود التي هيأها لطعامه.

وقد عظمت رحمة الشاعر وفاض حنانه حتى شملا الحيوان بعد الانسان، فقال:

لو يعلم الحيوان ما عندي له من رحمة لأتسلى إليّ مسلماً
ولأصبحث كل الوحوش أليفة عندي وخالتني أباً أو أرحماً

وقصيدته «على طريق بيروت» مأساة تهزّ النفس وتثير في أعماقها أسمى المشاعر
وأشدّها ألماً ووجداً. فلئن كان الشاعر الفرنسيّ ألفرد دي فيني يصف لنا في قصيدته
«موت الذئب» تسامي الوحش وأداءه للواجب بصمت وسكون وزهده بعد ذلك في
الحياة، إنّ شاعرنا الصافي ليصف لنا «موت الكلب» ويحيط فاجعته بإطار إنسانيّ حزين
من الشعور الدافق والوفاء النبيل والرحمة التي تنفذ إلى صميم القلب البشري. لقد كان
الشاعر مسافراً في سيارة تقطع الفلاة مثل الفيل الذي تشع عيناه في دجى الليل:

فلاح على الطريق لنا مشاة
أب شيخ وطفل دون سبع
ورابعهم، كأهل الكهف، كلب
يسير بجنبهم يحمّي هامهم

يؤلف بينهم نسب وحب
وأمّ زان منها الرأس شيب
يلوح كأنه في الشكل ذئب
وفي عينيه نيران تشب

ويحدّق الكلب في السيارة فيهجم عليها ويوسعها نباحاً ، وقد ظنّها وحشاً غريباً يريد سوءاً بالقافلة التي يجرسها ، فينتقم السائق القاسي منه بأن يسحقه ويقتله ظلماً وعدواناً .

ويمضي الشاعر في وصف المأساة فيقول :

عظّام حطّمت وانشقّ قلب	فظلّ الكلب يرفس رفس مـوت
بدمع ملوّه ألم وكرب	تفجّع أهلـه فبكوا عليه
له معه هـوىّ ماضٍ ولعب	وجاء الطفل يبغي ضمّ كلب
وليس عليه سنّ الطفل يربو	لقد نشأ معاً والكلب جـرو
وذاك الطفل فوق الأرض يجـو	يداعبه ويؤنسه بقفز
وصاح وصوته نوح ونذب	رأى دمـه فصبّ عليه دمـعاً
وللدم منه فوق الأرض سكب	وظلّ يـروم مسح التـرب عنه
ويبغي أن يسير به فيكبـو	يحاول حملـه حيناً فيعيـا
كانّ اللثم للمجـروح طـب	ويلثمـه لينعشـه بلثم

حتى يقول :

ولم يأبه معي للأمر صـحب	تركنـاهم ، وفي قلبي شـجون ،
وصرت كأنني للكلّ حـرب	فشررت على الأنـام لقتل كلب
رداه ، وهل دفاع الكلب ذنب ؟	وقلت : بأيّ ذنب أوردوه
وقلت : أمـا لهذا الكلب ربّ !	بكيـت وللسماء رفعت رأسي

وفي قصيدته «ذكرى سمكة» يذكر جلوسه على ضفاف العاصي فيرى الأسماك تنأى وتدنو من الشاطئ وكأنها جائعات ، ويلقي إليها بفتات الخبز طعاماً . وإذا بالصيد قد جاء يرمي شـبّه ، وقد كمن فيه الموت لهذه المخلوقات الضعيفة :

أطعموها لتجرع الموت مرّاً	أنـا أطعمتها لتحيـا وقـومي
فرأوا رحمتي جنوناً مضراً	ثم لم يكفهم نفـاق وغـدر
فأنـا أعظم المجانين طـراً	إن يك الرّق بالضعيف جنوناً

وبلغ من حنان الصافي ورأفته أن شمل النمل فرعى هذا المخلوق الصغير بعطفه

وقال :

لها ولع بالحلـو يجذبها قسرا	تضايق كأس الشاي عندي نـملة
تقول : أما أوحيت قبل لك الشعرا ؟	وأخجل من طـردي لها إذ أخـالها
لها السكّر المحبوب أنثره نثرا	تقبّلتها لي في الحياة شـريكة ،
وإن لم أكن في العيش متخذاً ذخرا	فتحمل مني للثـقوب ذخيـرة ،

وقديماً قيل عن الشاعر الفرنسي لافونتين (١٦٢١ - ١٦٩٥) أنه أحب الحيوانات وعرضها في أمثاله وقصصه التي سحرت أجيالاً متعاقبة من الصغار والكبار. وقد شوهه مراراً مكباً يراقب النمل في عمله الدائب ونظامه العجيب حتى نسي نفسه ساعات طويلة وسها عن مواعيد الطعام.

إن الصافي النجفي شاعر روحي عرف الله بوجدانه وسما إليه بآيمانه، قال:

راح يقــــــــــــــــوى على المكى إيماني	فبري قد امتلا وجداني
قيل لي: هل عرفتَه بدليل	أو بحسّ شهدته أو عيان؟
قلت: كلا، إيمان قلبي أقوى	من دعاوى الخواص والبرهان
واضح لي وضوح روحي وعقلي	مائل في مداركي ككياني
هو رمز الوجود، سرّ التجلي	هو روح الأكوان معنى المعاني

وقد نظر إلى الوجود بعين البشر فاستهجن قبحه ودمامته، ورآه بعين الاله فأبصر بهاءه وسناه:

نظرت الوجود بعين البشر	فلاح الوجود فييح الصور
ولما نظرت بعين الإله	إليه بدالي بوجه أغر
ولا بدع بعد ذلك أن يصيح: الله أكبر!	وأحسبها حقائق راهنات
أفكر بالسفاسف في الحياة	صياح مــــوذن: الله أكبر
فيقطع لي سلاسل ترهاتي	وأسعى للوصول إلى النعيم
وأضرب سادراً بين الهموم	هتاف مــــوذن: الله أكبر
فيدعوني إلى النهج القويم	كأني ميّت في جــــوف قبر
وأفني في الرقاد ثمين عمري	صياح مــــوذن: الله أكبر
فيوقظني لأحشر كلّ فجر	ونبقى بين هـاك وبين هـات
ونأخذ في أحاديث شتات	فأنهض صائحاً: الله أكبر
فأسمع صوت حيّ على الصلاة	

لقد عرف الصافي الغربة البدنية والروحية فجرع غصص الأولى وهفا إلى مغاني الثانية. نزع عن وطنه فقال:

حتّى مَ أقضي ثمين العمر مغترباً	كأنني ليس لي مثل الورى وطن؟
فمن رأي أطوي الأرض متقبلاً	يقول: ما لي لا أهل ولا سكّن...
لم يرض بي وطني، لم يرض بي وطن	فهل تُرى يرتضيني القبر والكفن؟
وحنّ إلى الوطن المجهول فهتف قائلاً:	

أبغى أسافر، لا إلى جهة
فكم قصدت جهات ما لها عدد
فلا الإقامة في الأوطان تسعدني
أنى جلست رأيت النفس في قلق
وأين سرت رأيت القلب منقبضاً
كأنني باحث في الكون عن وطن
لم ألقه وأنا حي وبى رمق،
كأنني عن وجودي أبغى السَّفر
فما بلغت بها قصداً ولا وطرا
ولا التغرّب يجلو عني الكدرا
يثيرها فتعاف الصَّحب والسَّمر
والعين في كل شيء تبغض النظرا
به شغفت ولم أعرف له أثرا
فهل سألقاه لما أغتدي خبراً؟

إنّ هذه الايات المفعمة بالضياح والخيرة والحنين لتذكرنا بقصيدة شارل بودلير:
الدعوة إلى السفر، ففي هذه القصيدة يتحدث شاعر «أزهار الشر» عن عالم بعيد يتمنى
أن يعيش فيه، عالم زاخر بالحب والموت، عالم يغشاها النظام والجمال والترف والهدوء
والهيام اللاهب، عالم تظلمه الشمس المبللة والسموات المضطربة، يسحر الشاعر بفتنة
خفية كعيني حبيبته الخائنتين اللامعتين خلال الدموع.

بل تذكرنا هذه الايات بقصيدة «السفر»، وهي من قصائد بودلير ايضاً، يتشوق
فيها إلى وطن مجهول ويقول: إن المسافرين الحقيقيين هم أولئك الذين يذهبون لأجل
الذهاب فحسب، قلوبهم خفيفة، يستجيبون لنداء القدر الذي يدعوهم دون أن
يتساءلوا عن السبب ويصيحون:

هيا ولنذهب! . . ويقول الشاعر الفرنسي: إن العالم لصغير وإنه ليجري على وتيرة
واحدة ولا يعكس إلا صورتنا كواحة من الهول في صحراء الملل والسَّامة. ثم يختتم
قصيدته داعياً الموت، ذلك الرّبان القديم، ليعد سفينته ويرفع قلوبه، فلئن كانت
السماء والبحر متشحين بالسواد القاتم، إن قلوبنا، نحن المسافرين، مغمورة بأشعة
النور البهية تترقب المجهول لتجد فيه الحديد الذي تتطلّع اليه!

وللصافي بعد ذلك ألوان شتى من الشعر، وطني واجتماعي ووصفي وغزلي. وله
شعر خفيف يتسم بالحلاوة والدعابة والسخرية، كقصيدته «حسناء تسوق سيارة
حسناء»:

وغانية فاقت على جيلها
ساقّت (أو تميلاً) رقيةاً لها
كأنه الطيف إذا ما سرى
الطف ما قد صيغ من جيله
آخر (موديل) جمال كما
نشوان من نفحة أردانها
وحق قرآني وانجيلها
يجري رُخاء وفق مأمولها
في ساحر المقلّة مكحولها
فيه التي ألطف من جيلها
(موديله) حلو كموديلها
يختال إذ خصّ بتفضيلها

أضحى ليكاً بين أترابه
أحيتَه فهي الروح حلت به
مرت كما مرت بنا نعمة
تعلق القلب بها فاغتدى
أهوى ركوباً لي في جنبها
متوجاً منها بإكيلها
بلمس كفّيهَا ومنديلها
من عاطر الأزهار مطلوها
يحوم كالطير لتقيلها
أو لا فدهساً باتوميلها

ومن ذلك بيتان قاهما في معرض دمشق الدولي:

ومليحة جاءت لمعرض جلتى
هى ما أتت كى تشاهد معرضاً:

تحفى مناظره بمنظرها الوضى
جاءت لتعرض حسنهما فى المعرض

قال من قصيدة حين خصصت له الحكومة العراقية راتباً تقاعدياً شهرياً قدره مائة

دینار:

ليس مالي فضة أو ذهباً،
مالي الخير الذي أعمله،
مالي النور الذي أرسله
مالي السوي الذي يلهمني،
لم يغير خلقه شيء أو سيري
أعشق الزهد صريحاً فكرتي،
أعشق العيش بسيطاً هادئاً،
كم هو بيت الصخر لي متكأً

سجنه الانكليز عند دخولهم إلى لبنان سنة ١٩٤١ بعد دحرهم سلطات فيشي،

فَقَالَ :

حبست وضاق الحبس بي حين نُزِّجَ بي
فقلت: علام الحبس؟ لا أنا سارق
ولما رأيت الذنب خدمة موطني
إلى غرفة ظلماء محكمة السِّدِّ
ولا آثم عمداً ولا دونها عمد
حالا السجن حتى خلته جنّة الخلد

وقال في أحداث لبنان التي جرح فيها (١٩٧٥):

بين الرصاص نفذت ضمن معارك،
 ولها ثقبوب في جداري خمسة

وصف أمين الريحاني الصافي في كتابه «قلب العراق» فقال إنه تنقل من كوخ إلى كوخ ومن بلد إلى بلد، وكان يدعى عجمياً في النجف وعريباً في بلاد العجم. ثم راح يقيم بين البدو فظنّوه من الحضرة، وجاء سورية فظنّه أهلها من البدو. ثم قال: إنه لطير

عجيب غريب يحسن الطيران والغناء ولا يحسن سواهما . وهو . . . وليد برج النحوس ،
فالدمامة أمه والسقم أبوه والبؤس أخوه . . . أما الروح منه فهي سليمة قوية ، بل هي
روح جبارة في هيكل سقيم :

أسير بجسم مشبه جسم ميت كأني إذا أمشي به حامل نعشي
من آخر ما نظمه احمد الصافي بيتان على لسان السياسي اللبناني صائب سلام على أثر
بلوغه السبعين (١٩٧٥) ، قال :

سني بروحي لا بعدد سنين فلاسخرن غداً من التسعين
عمري من السبعين يركض مسرعاً والروح ثابتة على العشرين

أيام الصافي الأخيرة ووفاته :

أصيب الصافي في أحداث لبنان برصاصات فنقل إلى بغداد في ١٩ شباط ١٩٧٦
حيث عولج . وكتب إليّ جعفر الخليلي يقول إنه لم ينقطع عن زيارة الشاعر منذ أن
جئى به إلى بغداد ليقضي دور النقاهة بعد استخراج الرصاصة من صدره . ثم قال :
والعجيب أنه شفي تماماً من هذه الاصابة الخطرة ثم مات بمرض الشيخوخة الذي لا
علاج له .

وكانت وفاته في بغداد في ١٧ حزيران ١٩٧٧ .

محمد مهدي الجواهري

شاعر العراق والعرب محمد مهدي بن عبد الحسين بن عبد علي بن صاحب الجواهر
الشيخ محمد حسن المتوفى سنة ١٨٥٠ . ولد محمد مهدي في النجف يوم الأربعاء ٢٦
تموز ١٨٩٩ ونشأ في كنف والده الذي توفي سنة ١٩١٧ . درس أمداً وجيزاً في المدرسة
العلوية في مسقط رأسه ، ثم أخذ علوم اللغة والأدب عن محمد علي المظفر وعلي ثامر
وحسين الحاملي وغيرهم من مشايخ الغري . ونبغ في الشعر ، قرضه قبل أن يبلغ الحلم
وبرز فيه تبريزاً ، وبدأ بنشر قصائده منذ مطلع سنة ١٩٢١ في جريدة الاستقلال
والعراق وغيرهما من صحف بغداد . وسافر إلى إيران لأول مرة سنة ١٩٢٤ ، فرأى من
طبيعتها الخلابة ومشاهدها الجذابة ما ساعد على تفتح مواهبه وصقل قريحته وتوسيع
آفاقه .

وجاء إلى بغداد سنة ١٩٢٧ فعيّن معلماً في بعض مدارس الكاظمية ، ولم يلبث أن
نقل موظفاً بدائرة التشريعات في البلاط الملكي . واستقال من الوظيفة بعد ثلاث
سنوات ، فأصدر جريدة «الفرات» (أيار ١٩٣٠) . وأعيد إلى سلك التعليم في أواخر

السنة التالية، ثم أصبح رئيساً لديوان التحرير في وزارة المعارف، فمدرساً في المدارس الثانوية بالبصرة والحلة والنجف ودار المعلمين الريفية، حتى اعتزل التدريس في تموز ١٩٣٦. وقد اهتم بنشر قصيدة سياسية في جريدة «الإصلاح» البغدادية، وأحيل على القضاء فبرأت محكمة الجزاء ساحته.

وأصدر جريدة «الانقلاب» في بغداد في ١٥ تشرين الثاني (١٩٣٦) فجريدة الرأي العام (١٩٣٧) والمعرض (١٩٣٧). وأيد حركة ايار ١٩٤١، فلما انتهت بالاحقاق مضى إلى إيران، ثم عاد في نفس تلك السنة واستأنف إصدار جريدته الرأي العام. وأصدر في آب ١٩٤٦ جريدة صدى الدستور. وانتخب نائباً عن كربلاء في المحل الشاغر بوفاة عبد الرزاق شمس (تشرين الثاني ١٩٤٧)، لكن المجلس حل في شباط ١٩٤٨.

وسافر إلى فرنسة سنة ١٩٤٩ فنظم ملحمة الغزلية «أنيتا» التي قال في سبب نظمها: «كان حباً عارماً لا يريد، ولا يقدر له لو أراد، أن يقف عند حد». وأقام في مصر سنة (١٩٥٠ - ٥٢)، ولما عاد إلى بغداد حرّر في صحف منها الأوقات البغدادية والجهاد والثبات والاستقلال. واعتقل في أبي غريب في تشرين الثاني ١٩٥٢. وأصدر جريدة «الجديد» في ايار ١٩٥٣. ثم غادر العراق إلى دمشق سنة ١٩٥٦، فاتخذها سكناً وعهد إليه بتحرير جريدة «الجندي» التي تصدرها رئاسة أركان الجيش السوري.

وعاد إلى بغداد في تموز ١٩٥٧، ولم تمض سنة واحدة حتى قامت ثورة تموز، فحيّاه بشعره وأعاد إصدار جريدته الرأي العام (تشرين الأول ١٩٥٨). وانتخب في السنة التالية رئيساً لاتحاد الأدباء ونقيباً للصحفيين. وفي سنة ١٩٦١ سافر إلى تشيكوسلوفاكية وأقام في براغ سبعة أعوام، ولم يعد إلى الوطن إلا في تشرين الأول ١٩٦٨. وأعيد انتخابه رئيساً لاتحاد الأدباء العراقيين عند إعادة تأليفه في كانون الثاني ١٩٧١. ثم عاود الرحلة إلى براغ ومكث فيها أمداً طويلاً. وانتقل منها إلى دمشق حيث يعيش الآن (١٩٩٤).

ديوان الجواهري ومؤلفاته:

أصدر الجواهري «حلبة الأدب» (١٩٢٣) وهي مجموعة أدبية، ثم طبع ديوانه سنة ١٩٢٧. وصدر الجزء الثاني من ديوان الجواهري في النجف (١٩٣٥). وطبع الديوان في ثلاثة أجزاء (١٩٤٩ - ٥٣)، ثم طبع للمرة الرابعة في الشام (١٩٥٦ - ٥٧) وللمرة الخامسة في بغداد (١٩٦١)، وثم في بيروت (١٩٦٨). وشرعت لجنة بوزارة الاعلام بطبع ديوانه الكامل، فصدر الجزء الأول منه سنة ١٩٧٣، وعقبته ستة أجزاء طبع آخرها سنة ١٩٨٠.

ولمحمد مهدي الجواهري عدا ذلك: شكوى إقبال وجوابها (١٩٣٦)، وهو ترجمة

شعرية لقصيدتين للشاعر محمد إقبال، بريد الغربية (١٩٦٥) بريد العودة (١٩٦٩) أيها الأرق (١٩٧١) خلجات (١٩٧٢).

وقد قرر المكتب الدائم لاتحاد الكتاب الأفريقيين والآسيويين في دورته الخامسة عشرة المعقودة في موسكو منح جائزة لوتس الدولية في الآداب لسنة ١٩٧٥ إلى الجواهري بالاشتراك مع كاتبين آخرين باكستاني ونيجيري.

مازال الجواهري يعيش في دمشق. وقد حضر في ١١ آذار ١٩٩١ مؤتمر الأحزاب العراقية المعارضة لحكم صدام حسين في بيروت وألقى فيه كلمة، ووضع مذكرات بعنوان «ذكريات» صدر الجزء الأول في دمشق سنة ١٩٨٨، ثم صدر الجزء الثاني.

وقد رغب في المجيء إلى لندن في آب ١٩٩١، لكنه مرّ في طريقه ببراغ ومرض فبقي فيها للمعالجة. ثم حضر إلى لندن في كانون الأول ١٩٩١ وتوفيت زوجته بها في الشهر التالي، ونقل جثمانها إلى دمشق حيث دفن. وعاد الجواهري للإقامة في دمشق.

شعره:

الجواهري عملاق الشعر العربي الحديث، عباسي الديباجة، طويل النفس، يرصّ كلماته وأشطره رصاً فتجيب قصائده كالصرح الممرّد أو الطود الشامخ، ويكسو معانيه أثواباً مؤنقة من جزل الألفاظ. قرص الشعر يافعاً وجوّلاً في آفاقه وجلي في حلقاته وتفنّن في أغراضه من غزل ووصف واجتماعيات وسياسيات ووطنيات، وله من القصائد آيات بينات. ولئن كان في حياته الشخصية متقلّب الأهواء، كثير النزوات شأن العباقرة النابغين، لقد كان شعره دائماً إنسانياً النزعة، فوّار العاطفة، تقدّمي الأغراض. وكان الشاعر مؤمناً بجماهير الشعب، معبراً عن آمالها وآلامها.

يرثي محمد جعفر أبا التّمّن فيستهلّ رثاءه أيّما استهلال:

طالت، ولو قصرت، يد الأقدار	لرمت سواك، عظّمت من مختار
من صفوة لوقيل: أي فذّهم؟	لم تعدّ شخصك أعين النظّار
لكن أرادت أن تحوز لنفسها	عين القلادة فازدرت بنّشار
وأرى المنايا بالذي تختاره	للموت عاطلة وذات سوار
فطوتك في درج الخلود فعطّرت	بك سالف الأحقاب والآثار
واستنزلتك لغربة، ولأنت من	عليك في لجج من الأنصار
وتجاهلت أن البلاد بحاجة	لك حاجة الأعمى إلى الإبصار

ثم يصف الراحل فيقول:

بكر النعي فما سمعت بمثلها	عشاً على الأسع والأبصار
وترنّج الأحرار ينذر بعضهم	بعضاً بفقدهم أبا الأحرار

أذباله ضر من الأوضار
شبهاتها حتى على الأخيار
ألق الجبين، مكللاً بالغار
فطنى عليه، فضاع في التار
في ضعفها خطر من الأخطار
في عمقها حجر من الأحجار
ومن المكائد جالب للعار
ليلوذ من تأويلها بجدار
ومسالم مستعمرراً ونجار

لله درك من نقبي لم ينل
في حيث تزدحم الشرور وترتمي
خاض السياسة وانجلي عن لجها
في حين رام سواه خوض عباها
وصليب عود حين بعض مرونة
وطري نفس حين بعض صلابة
وخفي كيد حيث يسمو كائد،
وصريح رأي لم يجد عن خطبة
حرب على مستعمر وريبه

ويلتفت إلى حالة البلاد التي كان الفقيد يذود عنها ويريد حريتها ورفعته فيقول:

متكفلين سياسة استعمار
في ظل مائمة له وفجار
وشل لما استحل من الأوطار
مفروشة بنشارة الأزهار
وشكا الشمال فليل صنع جوار
بعض لبعض ظنة لفخار
فرؤموا بكل شنيعة وشنار
وعلى العمرة بجحفل جرار
نكراء: من هم أهل هذي الدار؟
من كل بدري وكل حوار
ولصفوة الأسباط والأصهار
زاهي الوسام، مدوخ الأقطار
لعجبت من سخرية الأقدار
كاس، ومن جهد يشرف عار

ومفرقين عناصراً ومذاهباً
نزلوا على حكم الغريب وعرسوا
وتحلبوا أوطارهم، فإذا بها
واستفرش الشعب الثرى، ودروهم
ذعر الجنوب فليل كيد خوارج
وتنابذ الوسط المدل فلم يدع
ودعا فريق أن تسود عدالة
ومشى المغيث على الجيعاء بقوتهم
وتساءل المتعجبون لحالة
هي للصحابة من بني الأنصار
للحكاكين بأمرهم عن غيرهم
من كل غاز شامخ في صدره
هي للذين لو امتحنت بلاءهم
هي للذي من كل ما يصم الفتى

ويحيى الجواهري ثورة تموز بقصيدة عصماء يقول منها:

فيما مضى بالمرحلات وبالكنى
إما اعتلت ومن اللهيب إذا دنا
ومن النفوس الكاظمات تحيى

لم يبق شيء لم نقله تشكياً
كننا نقول لهم: حذار من لظى
ومن الصدور الحاسبات زيرها

ومن السجون الداجيات، فإنها
ومن السياط، فإن حرّ نسيدها
ستحول سلسلة السجين وقيده
كنّا نحذرهم ونضرب راعياً
ما أقبح الدنيا إذا ضلّ الصوى
إنّ شعر الجواهري الثائر المتأجج، المنافع عن الشعب المظلوم، النازل على ظهر
الحاكم الظالم كالسوط اللاهب، ليشبه شعر فكتور هوغو في دفاعه عن الحرية وتنديده
بالطغيان والطغاة. أجل، إنه ليشبه فكتور هوغو خطيب الجماهير في ثورة ١٨٤٨،
وصاحب «نابليون الصغير» و«العقوبات»، والمبعد إلى جزيرة بحر المانش «تلك الصخرة
التي حطم عليها جناحه». وسبق شعر الجواهري أبداً سجلاً حافلاً للجهاد العربي
وتحفز الشعب وظمأه إلى الحرية والكرامة.

الرصافي والجواهري

تلاقى الشاعران الرصافي والجواهري على صعيد الفكر فتناجيا وبث كل منهما
لاعجته وشكواه. قال الرصافي:

أقول لربّ الشعر مهدي الجواهر
فترسلها غراً هواتف بالعلی
وتشدد بها، والقوم صم عن العلی
أترجو من الحساد عوناً وناصراً
كأنك لم تبصر سواد قلوبهم
إلى كم تناعي بالقوافي السواحر
يزود منها سمعه كل شاعر
فلم تلق إلا غير واع وذاكـــــــر؟
فتدعو منهم خاذلاً غير ناصراً؟
فهل أنت مغرور ببيض المنسافر؟

ثم ناغاه الجواهري فهزّ - كما قال - الأسد الرابض الضائق ذرعاً بعريته، المنطوي
على نفسه الماء وغضباً وكبرياء، فزار الأسد الرصافي وقال في معرض الجواب:

بك الشعر لا بي أصبح اليوم زاهرا
فأنت الذي ألقت مقاليد أمرها
بلغت من الإيــــداع أرفع ذورة
إذا شيء ظلم قمت للظلم رادعاً
وقد كنت قبل اليوم مثلك شاعرا
إليه القوافي شرداً ونوافرا
هوى النجم عنها صاغراً متقاصرا
وإن شيء حق قمت للحق ناصرا

تذكرنا هذه المطارحة الشعرية بين معروف الرصافي والجواهري المراسلة الشعرية التي
جرت في أواخر القرن الماضي بين الشاعر المنفي الشيخ محمود سامي البارودي والشاعر
اللبناني الشاب شبيب ارسلان، وقد نشرتها مجلة الزهور المصرية في مختاراتها.

وللجواهري صرخات ثورية مدوية ، أليس هو القائل :

يتججحون بأن موجاً طاغياً سدّوا عليه منافذاً ومسارياً
كذبوا ، فملء فم الزمان قصائدي أبداً تجوب مشارقاً ومغارباً
تستلّ من أظفارهم ، وتحطّ من أقدارهم ، وتثل مجداً كاذباً
أنا حتفهم ، ألج اليوت عليهم أغري الوليد بشتهم والحاجباً

ومن موشحات الجواهري التي نظمها في عهد شبابه «وشاح من ورد» قال فيها :

روح الصبا تسري بالبعث والنشر على البطاح
ويانع الزهر يلتفّ بالنهر مثل الشواح

الروض مزدان

تكسوه ألوان من الربيع

والنبت فينان

روح وريحان صنع البديع

والرند والبان

صاد وريان زاهي الفروع

والشمس في سكر من رشفة الخمر من الإقحاح
تسري ولا تسري بالنهاي والأمر بلا جراح

وسيمة الفجر

يفترّ عن دّر من السقيط

وكائر النسر

يلوذ بالوكر خوف السقوط

والبدر في الأسر

يغزل للفجر بيض الخيوط

والصباح إذ يسري بطالع البشر على النواحي
وريّ القَطَر يحوك للزهر ثوب ارتياح

والكأس ملآن

والشهب نُدْمان بعض لبعض
والكل فرسان
والروض ميدان للقطف والعض
والصدغ بستان
والخطّ وسانان كالترجس الغض
والشعر كالشعر في اللفّ والنشر فيه افتضاحي
والحدّ كالبدّر كالشمس في الظهر في الأفق ضاحي

ناجي القشطيني

تنسب الأسرة الى قشطين من أعمال حلب ، وهي أسرة طائفة امتهن أفرادها التجارة ونزحت الى بغداد بعد فتح السلطان مراد الرابع . وقد عرف منها محمود القشطيني رئيس بلدية الكرخ المتوفى في ١٩ كانون الثاني ١٩١٥ ، وهو عمّ الشاعر الربيعي محمد ناجي القشطيني .

ولد محمد ناجي بن عبد الوهاب بن عبد الحميد بن أحمد في كربلاء سنة ١٨٩٦ ، وكان أبوه زراعاً قبل الوظيفة على مضض لخسائر حاقت به ، فعمل في كربلاء أربع سنوات ، ثم عاد الى الزراعة وتوفي سنة ١٩١٣ . وجيء بناجي طفلاً الى بغداد ، فلما كبر أخذ يدرس على خاله عباس حلمي القصاب وغيره من العلماء . وعين القصاب مدرساً للمدرسة الدينية في سامراء ، فلحق به الفتى ناجي وقضى في تلك المدينة سبعة أعوام يتلقى العلم في مدرستها .

قرض ناجي القشطيني الشعر في صباه ، وكان من أوائل نظمته رثاؤه لوالده الذي أدمت وفاته قلبه الغض فقال :

لم أدرِ مصرع والـدي أم مصرعي هو لا يعي ، وأنا كذلك لا أعي
وصحوت أسأل من رأيت ، فلم أجد أحداً يجيب سوى غزير الأدمع

ثم رثى عمه الذي تعهده برعايته وحنانه فقال :

موت عمي أمات منّي اللسانا فاعذروني إذا فقدت البيانا
كان لي حجّة وكان إماماً أتلقى منه الهدى والأمانا
كان لي جُنة وكان حساماً أتحدّى به العدى والزمانا

وكان شبابه عهد جدّ ودرس وصرامة ، فلا عجب أن ذكره قائلاً :

شيئاً من مـرّاي كـلمـح البصر عهد شبـابي وجمال الصـُـورِ
 أما شبـابي فهو ما يؤسفني مضى ومـما خـلف غير العبر
 واحتل الإنكليز بغداد ففتحوا في حزيران ١٩١٧ دورة لتدريب المعلمين انضمت إليها
 الشاعر فيمن انضم من الشباب الناهض . ولما تخرج فيها عين معلماً فمديراً للمدرسة
 البارودية (أول نيسان ١٩١٨) . وقد حيا عهد العلم والعرفان فقال :
 إن المعارف قد لاحت بشائرها متى بنهضة أوطاني تبشّري؟
 هي التي ضاءت الدنيا بطلعتها : لولا المعارف هذا النور لم يكن
 ثم عين بعد ذلك مديراً لمدرسة الكرخ فالكاظمية (أيلول ١٩٢٣) ثم عين مدرساً
 للعربية في المدرسة الثانوية المركزية (١٩٢٤) ، وانتمى في السنة نفسها الى دار المعلمين
 العالية التي افتتحت آنذاك وكانت الدراسة فيها مسائية استمرت سنتين . وعين مديراً
 لجريدة الوقائع العراقية الرسمية (آب ١٩٢٦) ثم عمل مدرساً أعواماً طويلة حتى عين
 مديراً للمدرسة الشرقية المتوسطة (آب ١٩٣٦) . ونقل في آذار ١٩٣٨ الى مديرية
 الدعاية العامة مميزاً للمطبوعات الداخلية ثم أعيد مديراً للمدرسة المتوسطة المسائية
 (آذار ١٩٣٩) فمميزاً للمطبوعات العربية (آب ١٩٤١) . وأعيد إلى سلك التدريس في
 تشرين الأول ١٩٤٦ ، ثم عين مفتشاً لإختصاصياً بوزارة المعارف (آذار ١٩٥٣) حتى
 اعتزل الخدمة سنة ١٩٥٩ . وتوفي ببغداد في ١٥ كانون الأول ١٩٧٢ .

شعره :

نشر ناجي القشطيني «الللهفات» ديوان شعر ونثر (١٩٦٨) ، «ومن عيون الشعر»
 (١٩٦٨) ، وهي مختاراته لشعراء العربية ، ونفثات الأخرس (١٩٦٩) .
 وشعره وطني النزعة ، إسلامي الطابع ، يكاد يقتصر على المواضيع القومية والدينية ،
 وليس له شعر وجداني يذكر . ولئن كان القشطيني المربي قد أنشأ أجيالاً من الشباب
 المثقف الواعي ، لقد شارك القشطيني الشاعر في المناسبات الوطنية والاجتماعية خلال
 نصف قرن ، فأنشد قصائده في ميلاد الرسول الأعظم ، وارتفع صوته في عيد الثورة
 العربية وتكريم جميل صدقي الزهاوي والثعالبي التونسي وطلعت حرب ورناء محمود
 شكري الألوسي والمنفلوطي وشوقي والزهاوي وفهمي المدرس ويوسف السويدي وعبد
 المحسن السعدون وغيرهم من رجال الأدب والزعامة والسياسة .

إن القشطيني غيور على دينه وأمته ، فلنستمع اليه يقول :

ربّ ، هب لي من فنون الأدب حكمة الشعر وسحر الخطب
 ربّ ، هب لي رشاداً وحجى ربّ ، أهدني بآيات النبي
 لأنـاجي أمـتي فيأري وأريها مـما وراء الحجب

أو يقول:

الحق أبلج وضاح إلى الأبد
فقل عن الحق ما تهوى، فأنفسنا
وإن ترد مثلاً أعلى لتضربه
طه، ومن مثل طه في خلائقه،
سر من الله لم تعرف حقيقته
قد جاءنا بنظام كله حكم
كانوا يطوفون بالأصنام جامدة
يدعون لله أبناءً تشاركه،

وهو وطني صلب، ثابت المبدأ، يقول:
لا السجن يُبكيُنّا ولا التباعد
سنظل نهباً بالخطوب تجلّداً
وإذا تناوشت الحراب صدورنا
إنّا تحالفنا على نيل المنى
الصبر شيمتنا وليس يهمنّا
والقيّد مهما أحكمت حلقاته
ويكبر عزم الشباب وقوة الشعب فيقول:

هو الشعب كالبركان يقلد ناره
لقد كان مخدوعاً فثاب لرشده
فلم ير إلا زمرة أشعيّة
قد اجتمعت لما صفا الجو ضحوة
تحاول ستر الحق في بـرقع الهوى
وتزعم أن الشعب طوع بنائها،
ألا قل لمن يبغى الخيانة بعدما
تكتّم وحاذر ما استطعت، فلإنه
لقد أنهكت ظهر العراق ضرائب
أناخ عليه الأجنبيّ بجيشه
فهانت كرامات وضاعت فضائل،

كالصبح يسطع لا يخفى على أحد
تلتذ في ذكره المسول كالشّهد
للحق غير أبي الزهراء لم تجد
أثنى عليها كتاب الواحد الصمد
ولم يلدز كُنْهُ معناه على تحلّد
وأنعم نفست عن كل مضطهد
ويسجدون لها في زيّ معتقّد
والله حاشاه لم يولد ولم يلد

كلّا، ولا الإرهاب والتهديد
مهما استمرّ الضغط والتشديد
هتفت إليها في الصدور كبود
وتسجلت منّا بذاك عهد
إن قال فينا ما يشاء حسود
كسرتنه منّا أذرع وذنود

وهل تمنع البركان يوماً موانع؟
وفحص فيما يدّعيه المخادع
تناضل عن غاياتها وتدافع
كما اجتمعت حول النقود الأصابع
وهل سترت شمس النهار البراقع؟
لقد كذبت فالشعب ما فيه طائع...
رأها وفي أنيابها السمّ ناقع
لسرّ على رغم التكتّم شوائع
يقبّدها من جلده وهو جائع
وبتّ به ما حرّته الشرائع
وبارت تجارات وماتت مزارع...

وقد هزّته نكبة حزيران سنة ١٩٦٧ فأطلقها لهفة أخيرة من نفس ذاهلة كسيرة،

وقال :

أتبكي أم تعدّد أم تنوح ،
ولو أنشدت قومك ألف بيت
لماذا تستغيث ولا مغيث ،
وليس لنا إذا رمنا حياة
سوى صبر يؤزره جهاد
وكم شفيكت لأمتنا دماء

فهل يطغى اللظى دمك النضوح؟
وييتاً هل ستندمل الجروح؟
أسمعك الروابي والسفوح؟ ...
يحيتها التأمل والطمّوح
ويغسل عاره دمنا السّفوح
وكم هدمت لموطنها صروح

من شعر ناجي القشطيني :

أمن مصائب عصر النور، يا قلم،
وهل هيامك فوق الطرس من ألم
صدى أنينك أشجاني وأزقني
لني عهدتك لا تخشى الخطوب ولم

أراك تـعرّش أم أودى بك الهرم
أم عادة لك هذا الحال لا ألم؟
وراعني إذ جرى من مقلتيك دم
تسام، فمن أين هذا الخوف والتّسام؟

وقال أيضاً :

خطر التّسيم الغضّ يحمل نفحة
والشمس صاغت بالشّعاع سبائكاً
وجرى لجين الماء فيه فحلّيت

مسكية فيها ارتياح الخاطر
يجلو النّضار بها جميل مناظر
أشجاره بمعاضد وأساور

عبد العزيز الجواهري

شاعر عراقي عاش في إيران، لكنّ روحه بقيت متّصلة بوطنه العراق ومسقط رأسه النجف، وهو الأخ الأكبر لمحمد مهدي الجواهري: عبد العزيز بن عبد الحسين بن عبد عليّ المولود بالنجف في ٣٠ أيلول سنة ١٨٩٠.

وقد أُرّخ مولده الشاعر جعفر الحلي فقال :

بشراكُم هذا غلام لكم
سمعاً، أباه، إنّ تاريخه

مثل الذي بشر فيه العزير
أعقب، يا بشراك، عبد العزير

درس عبد العزيز الجواهري في معاهد بلدته وحصل العلوم العربية والدينية على عادة أهل زمانه، حتى إذا ما بلغ مبلغ الشباب اتصل بالحركة الفكرية الجديدة التي هبّت أنسامها على البلد المنعزل وراء الصحراء. لقد أعلن الدستور في إيران وعقبه

إعلان الدستور في السلطنة العثمانية، وصدرت الصحف في بغداد بعد أن أطلقت حرية النشر والتعبير، ووردت الجرائد والمجلات من مصر وسورية ولبنان تحمل الأفكار الجديدة والشعر المحفّز للهمم، المفصح عن يقظة دينية ووطنية بعد سبات القرون الطويل.

وسار فتانا في ركاب النهضة الى جانب محمد رضا الشبيبي وعلي الشرقي وأضرابهما، وأخذ ينظم في المطالب العصرية ويخلع عنه رداء الجمود والانغلاق الذهني. وقد نشر قصائده في المجلات العربية الكبرى كالعرفان والمقتطف، وتولّى طبع ديوان محمد سعيد الحبوبي في بيروت سنة ١٩١٣.

ثم غادر العراق بعد الحرب العظمى الأولى واتخذ مقامه في طهران. وقد ترجم مقدّمة ابن خلدون الى اللغة الفارسية، ووضع دائرة معارف إسلامية في عشرة مجلدات، وصنّف تأليف أخرى منها: النهاية في الشرح والتحرير للكفاية (في ثلاثة أجزاء) آثار الشيعة الإمامية (في عشرين مجلداً طبع منه الثالث بالفارسية والرابع بالعربية) المكتبات الإيرانية (بالفارسية ١٩٣٣)، جواهر الآثار في ترجمة مثنوي جلال الدين الرومي شعراً (١٩٥٨) الخ.

تفتّح ذهن عبد العزيز الجواهري الشاب للحياة العاملة العاملة فخاطب الشباب قائلاً:

تطلّب في شبابك للصّعاب	فما عمر الفتى غير الشباب
وسلّ حسام عزمك للمعالي	فإن السيف يصدأ بالقرباب
ودع طلب الهوان لمبتغيه	فإن المجد أجدر بالطّلاب
وكرّر لو خطأت الجدّ يوماً	فكم خطأ يؤول الى الصواب

وأمن بالشعر الحيّ الذي لا يموت فقال:

خليليّ، ما معنى الشعور؟ فإنني	أرى كلّ شيء شاعراً مترنماً
أرى الكون في لوح الوجود قصيدة	تخطّ عليها الخلق شعراً منظماً
هو الشعر باقٍ ليس تفنى حياته	نقيم احتفالاً أو نشيداً مأتماً
تصوّره روح الخيال، فلو بدا	إذن لراه الطرف شخصاً مجسّماً
وتنشر أسفار الطبيعة شعرها	رموزاً فيمليها الهزار مترجماً
هل النجم إلّا روضة نرجسية	أرى البدر فيها شاعراً متبسّماً
فدىّ لدموع العاشقين فإنها	قصيدة شعر بينها الحبّ نظماً

عرّائس حبّ إن تجلّت بدورها لدى الصبّ ليلاً زفّها الوجد أنجما
تقبّل خدّ الجلنّارة وجنّة وتلثم ثغر الأقحوانة مهبّماً
ويمضي الشاعر في اقتفاء خطي الشعر، فيسمعه في الروض الذي تداعبه أضواء
البدر ونسيج الليل فوقه وشياً منمّناً، حتى يقول :

تقرّيت أسفار الخلائق في الثرى وفتشت أسرار العوالم في السّما
فلم أر إلا روضة أو هريضة ولم أَلِفْ إلا شعاعاً أو متبّياً
ألا كل صوت طارق صوت شاعر وسيّان فينا من بكى أو ترنّياً

وليس من ريب أن هذا الصوت يعيد إلى أذهاننا صوت معروف الرصافي الذي قال :
قرأت، وما غير الطبيعة من سفر، صحائف تحوي كلّ فنّ من الشعر
وخلع السلطان عبد الحميد الثاني في سنة ١٩٠٩، فكان لخلعه صدى كبير دوى في
جوانب الدولة العثمانية المترامية الأطراف من مصر إلى العراق. قال شوقي :

سَلْ يَلْدِزْأ ذات القصور هل جاءها نبأ البدور؟
ورّد عليه وليّ الدين يكن قائلاً :

هاجتك خالصة القصور وشجتك آفلة البدور
وذكرت سكّان الحمى ونسيت سكّان القبور
أما صاحبنا عبد العزيز الجواهري فبدّل الوزن واحتفظ بالرويّ، وخاطب السلطان
السّجين قائلاً :

بعيشك كم تحنّ إلى السّريـر وكم ترنو بطرفك للقصور
هـلّاليّاً أراك نحت جسماً أمّا تشفيك آفلة البدور؟
طواك الرعب قبل الموت مَيْتاً وأحيتك المنى قبل النشـور
أهانتك القصور وكنت ملكاً تهيبّ منه سكّان القبور
قرّيت الوحش من جثث البرايا ورؤيت الرّبيّ بدم النحور
بكت منك الثغور دماً مراقباً وتضحك عند باسمه الثغور
فأقسم أن عود السّدست لولم يكن من حرّ بأسك في سـعير
لأثمر في رؤوس الجنود روضاً وأزهر من دماها في غدير

لقد سقط السلطان المخيف وتألّب عليه الشعراء والأدباء يشيعونه بسخطهم
ولعناتهم .

وأين صاحبنا الجواهري الذي ودّع عبد الحميد بتلك القصيدة، أين منه هو نفسه
قبل أعوام قليلة حين مدح خليفة الإسلام قائلاً :

عَلَى بطـريرف مجدك والتليـد وليس وراء مجدك من مـزيد
وفخـراً في علاك فقد تحلّ بفيض نـداك عاطل كل جيد

ومن شعر عبد العزيز الجواهري في رثاء الشيخ محمد كاظم الخراساني :

بكاك الحيا دمعاً كما بكت الورى فهل كنت فوق النجم أم كنت في الثرى ؟
تخبر عقلي كيف أرتيك واصفـاً ، تعالى الذي صفاك للناس جوهرأ
لئن كنت نوراً في حشا الكون مظهرأ فقد عدت سرأ في حشا الغيب مضمرا
وهذه المراثية قديمة الطراز فيها المعاني المتصيدة والمبالغة المتعمدة . لكنّ شاعرنا حين
يفقد أخاه يثيره الوجد ويرهفه الحزن والأسى ، فيبت صبايته تهزّ النفوس وتكوي
الضلوع :

بزغ الهلال ، فأين عهد وفائه أن لا ينحون بسوّد وإخـائه ؟
أبرى أخاه مغيّاً تحت الثرى قمراً ويشرق زاهراً بسمايه ؟
لاني خضبت أناملي بمدماعي وطلبت طوق الحزن في ورقائه
وعكفت حول أزاھر من قبره نبتت تسبح في ضريح ثـوائه
نذر عليّ لئن زها ریحانه لأروين السـود في أنـدائه
يالهف أيار تفرط ورده بيد المنون وجفّ قبل نائه . . .
أهلال عيدي ، أين غيتك الثرى فحسرتني من يشه وهـائه
أغنته عن جدد الحل أكفانه وكفاه صبغ الدمع عن حنائه
وتركت قلبي حول قبرك حائماً شبه الفراش يحوم حول ضيائه
إن شئت لي قبس الحياة فلأنه لهب السراج يلوح في أطفائه
أخي ، يا قوسي ونبل كنانتي ومدير جيشي بل أمير لوائه
أبقيت قلبي للزمان دريثة ونصبتني غرضاً إلى أبنايه . . .

وفي هذه القصيدة الحزينة صور متعاقبة رسمت هول الفاجعة في ذهن الشاعر الذي
سلبه الموت شقيقه الحبيب : فلقد بزغ هلال العيد ، فالقمر يتألق في العلاء لكنّ أخاه
مغيّب في أطباق الثرى . ثم هذه الخميلة الزاهية في فصل الربيع ، تفتح زهرها وجرى
ماؤها وصدح عندليبها ، لكن زهرة الشاعر قد صوّحتها يد الردى قبل الأوان ، وبلبله
رقد في قفص التراب . ولقد حامت نفس الشاعر حول القبر كالفراشة التي يجتذّبها
النور، وهيئات، وهيئات، فقد خبا ذلك النور ولم يكد يشرق .

وكان الشاعر يأمل في أخيه نصراً ومعونة ، فإذا هو قد بات طريدة الزمان ونهب
المصائب واللواعج ، كالفارس الذي أضاع قوسه وكنانته وكالجيش الذي فقد قائده

وأمره . ويختتم الشاعر المفجوع مرثيته راجياً أن يحظى بلقاء أخيه في المنام وسائلاً رضوان أن يحفظه في فردوسه الخالد .

إن الشاعر قد فكر في الحياة فلم ير سوى نار تضطرم ثم تخمد ، فقال :
أرى عمر الحياة شواظ نار من الأجسام تكمن في زناد
وما ليل الشباب سوى دخان وما صبح المشيب سوى رماد
ذكر عبد العزيز الجواهري ، فيمن ذكره ، الشيخ علي الشرقي فقال إن عبد العزيز
الأرغنى الذي يجس بتوقيعه العواطف ولا يغني في الغالب إلا على رحيق الوطنيات . . .
وقد توفي عبد العزيز الجواهري في طهران سنة ١٩٧٦ .

محمد الهاشمي

الشاعر الأديب القاضي محمد الهاشمي ، ولد في بغداد سنة ١٨٩٨ وأبوه يحيى بن
عبد القادر ينتهي نسبه إلى الشيخ علاء الدين الحموي الفقيه الشافعي المتصوف ،
صاحب المزار في حماه ، المتوفى سنة ٩٣٦ هـ = ١٥٣٠ م . وقد انتقلت الأسرة إلى هيت ثم
استوطنت جانب الكرخ من بغداد ، وعرفت بآل مطر . وللمترجم ثلاثة أشقاء عرفوا
بالأدب ، أكبرهم عبد المجيد عمل في القضاء والتدريس وتوفي سنة ١٩٤٦ ، وثانيهم
عبد الرزاق (١٨٨٣ - ١٩٦٤) وكان شاعراً وقاضياً وعضواً بمجلس التمييز الشرعي
(١٩٤١ - ٤٦) . وثالثهم الشاعر محمد رشيد (١٨٩٦ - ١٩٤٣) ، وقد كانت حياته
مأساة من المآسي .

توفي والده وشاعرنا محمد الهاشمي لا يزال في السابعة من عمره فتعهده أخوه عبد
المجيد برعايته وأشرف على تدريسه . ثم دخل المدرسة الرشدية (١٩٠٨) فالمدرسة
السلطانية (١٩١٢) ولزم محمود شكري الألوسي فأفاد منه . ونظم الشعر صبيّاً ،
فاستدعته السلطات التركية وحاكمته عن قصيدة نشرها في جريدة «الرياض» لصاحبها
سليمان الدخيل ، ومطلعها :

يا قيصروس ، شلّ الله عرشك هل علمت منقلب الظلام إذ ظلموا؟
وقصيدة أخرى ينتصر فيها للغة العربية قال فيها :

تركوك ، يا لغة النبي ، وآثروا في المسلمين سياسة التتريك
وحكم عليه بالسجن ثلاثة أشهر . واستطاع أن يسافر إلى القاهرة قبل تنفيذ الحكم ،
وكان ذلك في أواخر ١٩١٣ .

وانتمى إلى الجامع الأزهر فنال شهادته الأهلية (١٩١٧) . وعاد إلى مصر بعد زيارة
للحجاز فالتحق بالجامعة المصرية ، وقضى فيها سنتين . ثم مضى إلى دمشق ومكث
فيها إلى سنة ١٩٢٠ حين عاد إلى مسقط رأسه بغداد .

وقد أحبّ مصر التي أقام فيها عهداً من شبابه كما أحبّ وطنه العراق فقال مودّعاً:
 أن يوم من الرحيل قريب فيه يدمى قلب وتبكي عيون
 ما بقاء الغريب في البلد النازح إلا صباباً وحنين
 كيف بالنيل إن ذهب إلى دجلة؟ إني بالسواديين ضنين
 قد تحيّرت بين هذا وهذا وانتحتني قبل الرحيل شجون
 فتمتع قبل الفراق ففي مصر زمـان غصّ وعيش ثمين
 وظف في وزارة الدفاع كاتباً ثم نقل إلى الديوان الملكي ودرّس بعد ذلك في المدرسة
 الثانوية . ودخل مدرسة الحقوق فنال شهادتها سنة ١٩٢٥ . وأصدر في الوقت نفسه
 مجلّة اليقين (نيسان ١٩٢٢ - ١٩٢٥)، وكانت من المجلات الأدبية الراقية في عهدها .

وعيّن حاكماً في المحاكم العراقية (٢٦ أيار ١٩٢٧) فخدم في القضاء أكثر من ثلث
 قرن وتنقل بحكم منصبه في معظم أنحاء العراق . وكان أول تعيينه حاكماً للصلح في أبي
 الخصيب (أيار ١٩٢٧) فحاكم بداءة البصرة (حزيران ١٩٢٨) فحاكم صلح قلعة
 صالح (ت ٢، ١٩٢٨) فالفلوجة (أيلول ١٩٣١) فدلثاوة (أيار ١٩٣٣) فالشطرة (آب
 ١٩٣٥) . ونقل حاكماً في محكمة بداءة بغداد (ك ٢ ١٩٣٦) فكركوك (آذار ١٩٣٧)
 فحاكم كربلاء المنفرد (١٩٣٧) فحاكم جزاء النقليات () فحاكم جزاء بغداد (آذار
 ١٩٣٩) . ونقل حاكماً في محكمة بداءة بعقوبا (نيسان ١٩٤٠) فحاكم جزاء بغداد
 (١٩٤٢) فحاكم صلح تكريت () فحاكماً منفرداً للكوت (تموز ١٩٤٣)
 فحاكم بداءة الناصرية () فبغداد (تموز ١٩٤٦) فحاكم محكمة استئناف
 تسوية حقوق الأراضي في بغداد (آذار ١٩٤٧) فعضو المحكمة الكبرى فيها (آذار
 ١٩٤٨) . ونقل مفتشاً عدلياً (ك ١، ١٩٤٨) ف نائب رئيس محكمة استئناف البصرة
 (ك ٢، ١٩٤٩) ف رئيس المنطقة العدلية في بعقوبا (نيسان ١٩٤٩) فحاكم بداءة
 الرمادي (أيلول ١٩٥٠) فالعمارة (آب ١٩٥٢) . وأصبح عضواً في مجلس التمييز
 الشرعي السنّي (أيلول ١٩٥٣) ف رئيساً له (٣ كانون الثاني ١٩٥٦)، وانتدب للعمل في
 محكمة التمييز العراقية (أيلول ١٩٦٠) . وقد أحيل على التقاعد فاعتزل الخدمة في أول
 تموز ١٩٦١ .

وقد أصيب محمد الهاشمي بداء عضال ألزمه داره بضعة سنوات ، حتى وافاه الأجل
 في بغداد في ١٠ تشرين الثاني ١٩٧٣ .

مؤلفاته

له : عبارات الغريب وقد تضمن شعره إلى سنة ١٩١٨ وطبع في الشام (١٩٢٠) أبو
 العلاء المعري (١٩٤٤) الأبطال الثلاثة (١٩٣٣)، النعت (١٩٤٧) سميراميس بين
 الحقيقة والأسطورة (١٩٥٩) ديوان المثاني (١٩٦٢) القضاء بين يديك (١٩٥٧) . وقد
 نظم رباعيات الخيام شعراً ونشر ديوان عبد الله بن الدمينية مشروحاً مع السيد محي الدين

رضا في أثناء إقامته في مصر (١٩١٨) وجمع «أراجيز العرب» وهي تضم مئات الأراجيز التي عثر عليها في مصر وسورية والعراق . وله عدا ذلك ديوان شعر كبير معدّ للطبع ومقالات نشرت في مجلة المقتطف واليقين وسواهما من المجلات والصحف العربية . وقد نظم ملاحم وقصصاً شعرية منها : سميراميس الأنف ذكرها ، بلقيس ، إعرافات مقامر ، الفتاة المخدوعة ، في الوفاء وفي الغدر ، قصة الإمام عليّ الخ .

شعره :

ذاق محمد الهاشمي مرارة اليتيم طفلاً وخبر آلام البؤس والفاقة والغربة شاباً ، فلا عجب أن جاء شعره حزينا ناطقاً بالشجو والألم .

فهذه قصيدته «اليتيم الباكي» تعرب عن حاله وتفصح عن ذات نفسه لا زيف فيها

ولا إغراب :

إلى كم أنت تكتب بالدموع	روايات عن الخطب الفجيع ؟
على قلبي دموعك نازلات	ألم تره يمدق من الدموع
كأن وقوعها حجرات نار	أحرّ من الصهير على الضلوع
دموع قد أفاضتها عيون	بها لليتيم آثار الخشوع
إذا أجهشت أجهش لي فؤاد	يطاوعني على الألم الوجيع
أرق من النسيم هوى وعطفاً	أبي الطبع للـزمن الفطيع
يؤاسي كل ذي حزن بحزن	ويقتسم الشجعون على الجميع
ولو حملته قسطاً ثقيلاً	من الآلام آذن بالخضوع
ولو تشفى الدموع غليل قلب	إذن لشفيت بالدمع الهموع . . .
سألقي نظرة ملئت حناناً	على البؤساء من طرف خشوع
يعيش الأغنياء على رخاء	ونحن نعيش في بؤس وجوع
تنام عيونهم بالليل ، لكن	عيون البائسين بلا هجوع
نسوا البؤساء في الدنيا جوعاً	وخلّوهم الى الزمن المنوع
لكل من بنهم ألف ثوب	عليه علامة الصنع البديع
أناموهم على بيض الحشايا	وفي غرف من القصر الرفيع
وأطفال على الأوساخ ناموا	كأفـراخ الحمام على الجذوع
وليس لهم سوى الدقعاء فرش	ولا التحفوا سوى الثوب اللدوع
يقضون النهار طوى وجوعاً	ويطوون الليالي بالدموع
أحاديث الشقاء لهم عزاء	تعلّل نفس ذي البؤس الجزوع
ويضرب منهم ذو السقم عتياً	بليته هزيعاً في هزيع
رأيت اليتيم ذنباً لليتامى	يراه الأغنياء بلا شفيع

وقال منها :

مضى أهلي وعرضني زماني	لفتك من مصائبه ذريع
يتيم ليس يعرفني قريب	ولست على الشقاء بمستطيع
أبي، أمي! علام تركتاني	ضعيف مطامع وقصير بُوع
أجيباً دعوتي، أنا مستغيث	وليس سواكما لي من سميع
لقد هما بيوم نوى قدوف	ولكن لم يها بالرجوع
تذكر أمه وأباه يوماً	فأسبل ديمة أخذت بروعي
له قلب وليس له لسان	يطاوعه على الدمع المطيع
مضى أبواه قد تركاه طفلاً	ترعرع قبل أيام الربيع

وقصيدته «الفتاة المخدوعة» صرخة مدوية من صرخات الألم والفجعة تروي قصة فتاة أوقعها أمها بين برائن وحش مفترس وعدها بالزواج لكنه نصب لها فخاً وألقى بها في مهاوي الرذيلة ، فابتليت بالسل وقضت نحبها شهيدة الفضيلة والعفاف .

وهو يردد أنغام الحزن والأسى حتى في الحب ، فيقول في موشحه «آلام الحياة» :

ثم في الصحراء ، في القفر الجديب	فوق غصن شائك غير رطيب
أخذت منه شمال وجنوب	يثباكي بلبل الوادي الغريب
كان من قبل محباً مغرمًا	علمته الحب أملاك السما
فلماذا لا يمرى مبتسماً	بعد إلا بسات بقطوب؟
أي قلب للمحبّ المبتلى	ضبيح الماضي والمستقبلا
ذاهل عن كل شيء ما خلا	نزعته من ذلك الحبّ الكئيب
يا غريباً ضاع في أوطانه	يملاً الصحراء من ألحانه
نغمًا يكشف عن أحزانه	كلنا مثلك مهجور قريب

إِسْأَلُ الْأَسْحَارِ عَنْ أَحْلَامِنَا وَاسْأَلِ الظُّلُمَاءَ عَنْ أَلَامِنَا
 قَدْ نَفَثْنَا السَّمَّ مِنْ أَقْلَامِنَا هُوَ سَمٌّ لَا يَدَاوِيهِ طِيبٌ . . .
 آهٍ عَلَى هَذِهِ الدُّنْيَا الْمَلِيشَةِ بِالْأَحْزَانِ وَالْكَرُوبِ ! إِنْ الْمَرْءَ لِيَصْرَخَ وَلِيَبْكِي وَيَسْتَغِيثَ ،
 وَلَكِنْ الصَّرَاحُ وَالْدُمُوعُ كُلُّهَا عَقِيمَةٌ فَلَا سَامِعَ وَلَا مُجِيبَ :
 هِيَ دُنْيَا كُلِّ مَا فِيهَا شَجَوْنَ فَاغْضُ عَنْ كُلِّ مَسَاوِيهَا الْجَفَوْنَ
 إِنَّمَا سَخَطْتُكَ فِيهَا كَالْجَنَوْنَ وَالتَّغَابِي سَلْوَةُ الصَّبِّ الْأَرِيبِ
 نَادِ أَفْلَاكَ السَّمَوَاتِ الْعُلَى وَانْدَبِ الْفَجَرَ إِذَا الْفَجْرُ انْجَلَى
 وَامْلَأِ السَّهْلَ بِكَأٍ وَالْجِبْلَ نَادِ! هَلْ مِنْ سَامِعٍ أَوْ مِنْ مُجِيبٍ ؟
 آهٍ مِنْ صَمْتٍ عَلَى الْأَرْضِ عَمِيقٍ خَرَسَ الْكُـوْنُ فَهَلَّا تُسْتَفِيقُ
 هَذِهِ الْأَلَامُ تَذْكُو كَالْحَرِيقِ فِي فُرُودٍ دَنْفٍ كَادَ يَنْذُوبُ
 وَالْهَاشِمِيُّ يَقْرُنُ الْحُبَّ دَائِمًا بِالشَّجْوِ وَالْأَلَمِ ، فَهُوَ يَقُولُ فِي قَصِيدَتِهِ «لَيْلَةُ عَاشِقٍ» :
 أَيُّهَا السَّاهِرُ ، مَا هَذَا الْأَرْقُ لَذِكْرِ أُمِّ بَعَادٍ أَمْ قَلَقُ ؟
 غُرُقُ النَّوَامِ فِي لَيْلِهِمْ وَتَوَلَّيْ هَمْ قَدْ طَرَقَ
 ظِلْمَةٌ تَأْتِي وَأُخْرَى بَعْدَهَا تَشْبِهُ الْبَحْرَ إِذَا الْبَحْرُ انْدَفَقَ
 أَنَا فِي اللَّيْلِ غُرِيقٌ ، وَأَرَى مُوجُهُ يَسْبِقُنِي قَبْلَ الْغُرُقِ . . .
 فَيْكَ ، يَا لَيْلَ ، مَوَاعِيدُ الْهَوَى يَتَقَاضَاهَا الْأَسَى تَمَنُّ عَشَقَ
 إِنْ فِلَسْفَةُ مُحَمَّدِ الْهَاشِمِيِّ فِي شَعْرِهِ فِلَسْفَةُ الْيَأْسِ وَالشُّكُوفِ : فَالْإِنْسَانِيَّةُ مَعَذِبَةٌ
 وَالْحَيَاةُ شَقِيَّةٌ بَائِسَةٌ ، وَالْحَنَانُ قَدْ مَاتَ فِي النَفُوسِ ، وَالْعَدَالَةُ لَا مَكَانَ لَهَا فِي الْأَرْضِ ،
 وَالدَّمَاءُ تَسِيلُ مَسِيلَ الْأَنْهَرِ ، وَالنَّارُ وَالْأَعَاصِيرُ تَفْتَكُ بِالْأَرْوَاحِ . وَهَذِهِ قَصِيدَتُهُ «صَوْتُ
 مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ» صُورَةٌ مُؤَسِّسَةٌ لِلْبَشَرِيَّةِ فِي عَصْرِ الْحَضَارَةِ وَالْعُرْفَانِ ، فَلْنَصْغِ إِلَيْهِ يَقُولُ :
 أَفِي الْأَرْضِ تَبْقَى أُمُّ إِلَى النُّجْمِ تَرْفَعُ نَفْسُوسُ لَهَا فِي الْأَرْضِ مَبْكَى وَمَجْنَعُ ؟

لعلّ لها بعد المنيّة رقدة
وتنسى بها بؤس الحياة وشرّها
لقد ساءها ما في الحياة وشرّها
ويقول :

تمتعت من نجم الثريّا بنظرة
أحاول أن أرقى إليها بجثتي
أهيم إذا لاحت بها وبحسنهـا
فيا أيّها النجم المطلّ على الورى ،
فيا ليت أنى قبل موتى صاعد
وكنت إذا ما جنّ ليل وأشرقت
نظرت الثريّا ثم أغضيت ناظري
لأنجسو من أرض بها الفضل ضائع
فقد سئمت نفسى الثواء بمجمع
يذلّ به المستضعفون ويعتلي

تحقّف عنها بعض ما تتوجّع
فإنّ حياة البائسين تفجّع
لها في الثرى بين المقابر مضجع

لك الله ، ما هذا الذي أتمتع !
وما لي إليها سلّم فيه أطلع
ويخفق قلبي كلما هي تلمع
لمثلي أن يثوي بمثلك مطمع
إليك وأنى في بلادك أرتع
كواكب في داج من الليل شرع
وقلت : ألا ليت المنيّة تسرع
وفي أهلها بالشرّ والسوء مقنع
تزيّن فيه المنكرات وتصنع
به الظالم المستكبر المترفع . . .

ومحمد الهاشمي شاعر وطني يجري في عروقه حبّ العراق والأقطار العربية جمعاء ،
فمن قصائده الوطنية « تحية الشهداء » نظمها في القاهرة وقد شهد بعينيه مصرع شهداء
الثورة المصرية سنة ١٩١٩ ورأى القتلى تتخبّط بدمائها على قارعة الطريق ، فقال :

يجري لنصر الحقّ فهو مطهر
كليمًا كئيران الغصا تتسع
لا تركوه على البسيطة يهدر . . .

لا تدفنوا الدم بالتراب فإنّه
بل فاكتبوا منه على أعلامكم
هذا دم الشهداء يهدر فيكم
وقال يذكر المجد العربي الضائع :

إذ كنت للعفافين سعدا
من الندى صبرا ووردا
والملوان معبوداً وعبدا
وإن دنوت دنسا وجدا
مارستها حلاً وعقدا
إبراماً ورذا
صار لآمال مهدا
خراها عهداً فعهدا

نقضت لك الأيام عهدا
إذ كنت تبغي من بغداك
فأطاعك العصران
وإذا أبيت أبى الزمان
تمضي الحوادث كيفما
وتدور بين العزّ والإقبال
ولقد سميت الملك حتّى
ولقد عمّرت الأرض بعد

وإليك أخلدت الأنعام
وعددت فيما كنت تحكم
ومضيت بالحكم الرشيد
ولقد بنيت مفاخرأ
وعنت لك الأقمار إذ
غالبت دهرأ عاتياً
فأضاع دهرك غادراً
وأعـرضت عمن تعدى
بينهم فأصبت رشدا
مدى فما جاوزت قصدا . .
شم السـدى وبنيت مجدا
ملكـت يـسـداك لها مـردأ
حتى تجبر واستبـدا
بك ناكشأ لك منه عهدا

ويختتم الشاعر قصيدته بالدعوة إلى النهوض وزرع بذور العز لحصد جناه .

ويحب الهاشمي الأمثال الشعرية حبّه للقصص المنظومة . فمن أشعاره «الوردة والفراشة» و «القبر والزهرة» ، وكلاهما مقتبس عن فكتور هوغو ، و «الذئب والحمل» أو القوة والضعف ، و «النحلة والجلنارة» . وقصيدة هوغو «الوردة والفراشة» ترجمها شاعر لبنان الدكتور نقولا فياض (١٨٧٤ - ١٩٥٨) بعنوان (الزهرة والفراشة) ، قال :

زهرة في الحقل يوماً سألت
ما الذي يهلك عني جاعلاً
غائباً حيناً وحيناً حاضراً
أفما أنست رفيقي في الهوى
عائشاً في عزلة الحب معي
قد تماثلنا جمالاً وسنى
ولبسنا ثوب نور واحد
لا أرى ما بيننا فرقاً ، بلى
أنت في الجوّ طليق وأنا
كم سرت نحبك أنفاسي فلم
هائماً بين أزاهير الرّبي
وأنا أنظر ظلي دائراً
وأبيت الليل أشكو وحشتي
ولذا تلقى بجفني أدمعاً
هاجري ، إن صبح عهد بيننا
وانخذ مثلي أصلاً في الثرى

من فراش الحقل معشوقاً صغيراً
لك كالنجم اختفاء وظهوراً؟
مالتاً نفسي غياباً وحضوراً
أبدأ أرشفك الثغر الطهوراً
لا تنرى إنساً ولا تخشى شروراً
وتفاهمنا حفيفاً وشعوراً
فكلانا زهرة تسطع نوراً
سوء حظي جعل الفرق كبيراً
بالتري رابطة جسمي الأسير
تتزوّد عطـرهما إلّا يسيراً
تائهماً في الجوّ زهواً وسروراً
حول جسم عاجز عن أن يدورا
بفؤاد لم يكن عنك صبوراً
كلما غـدّت مع الفجر منيراً
فدع الهجر طويلاً وقصيراً
أو أعز جسمي جناحاً فأطيرا

وقد أضاف نقولا فياض تكملة لقصيدة هوغو فأجاب عن لسان الفراشة يخاطب الزهرة قائلاً إنها مفتونة بهواها، متيمة بحسنها، ويعادها عنها إنها هو سر من أسرار الطبيعة، فهي كالريح رسول الهوى تحمل ذرات الغبار الى الأزهار القاصية.
أما شاعرنا الهاشمي فيقول في ترجمته :

فراشة وقعت يوماً على شجر	تفتحت فيه أزهار وأكمام
قالت لها زهرة صفراء ناضرة	وقلبها فيه أحزان وآلام :
لا تهربي وأجيبني بمسألة	عن حظنا، وحفظ الخلق أقسام
شأنني وشأنك في أمرهما مختلفا	لغيرنا فيهما نقض وإبرام
تمضين أنت الى العلياء طائفة	ولا أظير ولا لي ثم إعزام
لقد ضجرت ولكني على ضجري	أحب نفسي وما في حبهام
أعيش والناس عني مبعدون وكم	في قمرهم علل شتى وأسقام
أشبهتني فلنكن زهراً نظير معاً	لنا بما فوق هذا الروع الملام
لكن أرى الأرض، والهفاه، تمسكني	والريح عليك: هذا الحظ ظلام
إني سأعطيك من عرقي الجميل لكي	يعطى الجو نشر منه نعام
لا، لست أعطيك، إن الزهر يصحني	وأنت يقصيك إنجساد وإتهام
رضيت عيشي وحدي في الرياض أرى	ظلي وينعشني ضوء وإظلام
وتهربين فتأتين الضياء إذا	رأيت نهاراً لها مع وإضرام
في كل صبح بكائي دائم وعلى	خدي من عبرات الفجر تسجام
آه لحبك الماضي الذي ذهب	به ليال سعيادات وأيام
خذي، كما لي، جذراً أو هبي ورقي	جنحاً، كما لك، والآمال أوهام !

إن الهاشمي قد نظم رباعيات الخيام باللغة العربية جعلها خماسيات واستند في نقلها الى ترجمة أحمد حامد الصراف الشرية، لكن ترجمته لا تتسم بالدقة والسلاسة التي امتازت بها ترجمات عربية أخرى كترجمة الصافي النجفي وأحمد رامي. فمن أمثلة خياميات الهاشمي :

يا الهي، إذا جنيت فلأثم
يا الهي، على شبابي وجسمي
وعلى نفسي الحزينة جرمي

أنا جان رجوت عفواً وصفحاً منك قد غره رضاك فجارا
جيئتي في الدنيا أذى واضطراب

وبقــائــي تحيــر وارتيــاب
وبقــســر يــكــون مــنــي ذهــاب
أي قصــد مــن جيئــة وبقــاء وذهبــاب؟ قد ضلــت الألبــاب
مــن حضيض الثــرى إلى حيث يــدو
زحل كــل مشــكل فــيــه عــقــد
لاح مــنــه فــي حيلــتي لــي رشــد
كــل ســر حــلــت ثــمــة إلّا أــجل ما كــشــفــته عــن خــفــاء
لــم يــر الخــلد واطــرد والســعــير
مــن أتــى مــن ورائــه مــوت صغــير
أفــزع المــوت والرجــاء صــدور
نازعت ما يغيب عنها ويخفي غير ذكر الأسماء والأوتار

سميراميس

نظم شاعرنا الهاشمي ملحمة شعرية عن سميراميس بين الحقيقة والأسطورة .
وسميراميس ملكة بابل القديمة حبيبة إلى الشعراء ، أثيرة لدى رجال الفن ، طرق
موضوعها غير واحد منهم . فهذا فولتير ينسج من حياتها رواية مسرحية مأساوية ، وبول
فاليري يصوغ منها مسرحية جديدة ، وروسيني يخرج عنها أوبرا موسيقية . وهذا بلند
الحيدري صاحب «خفقة الطين» يقول فيها قصيدة تعج باللذة المحرمة والحب الآثم
واللظى المخمور والقشعريرة الداجية والضحكة المحمومة المغرية المغررة .

ويهم بالملكة الأسطورية عمر أبو ريشة شاعر سورية فيستوحي منها مسرحية
شعرية هي قصة الحب والجمال والطبوف والأحلام ، تقول سميراميس في مطلعها :

عبرك يا ليل وهج الحياة	فلا تتنفس على مضجعي
بعثت بآخر ما تمت	شفاه السريع على مسمعي
أحس به رعشة في دمي	وحلماً جريحاً على مدمعي
ألا أين بدعوة حلمي إذا	ترنحت بالقدرح المترع
وأين الصدى لنداء الحنين	إذا عربرد القلب في أضلعي
أريد . . . ودوني انبيار الفتون	على كل ذي هيف ممتع

أما سميراميس الهاشمي فصحراء ممتدة الأطراف تكتنفها الواحات والرياض .
ينظر الشاعر إلى الوجود قبل الخليفة بمنظار الأساطير البابلية ، فإذا هو فراغ عظيم
لا نور فيه ولا ظلام :

«أبسو» هو الإله العظيم
لا من ثلاثة أفتومما
ولا مجهولاً ولا معلومما
من عماء أن لا نراه سديها
في فراغ لا يقبل التقسيما
أم ثبوت، فما وعمّ وفيهم؟
قبل خلق السماء والأرض كان الأب
و «تيامات» الأم كانت فكان اثنان
حين لا ليل في المكان ولا يوم
قيل: لا شيء، قيل: سرّ بعيد
عدم من وجوده وهو صفر
أهو نفي، وكيف يدرك نفي؟

ثم كانت الخليقة وكانت الآلهة وكان الصراع والحرب . وكانت بعد ذلك بابل
وهوراي ونيوس ، وهذه سميراميس ترقى العرش فتخاطب شبح بعلمها قائلة :

هَوْنٌ، وحسبك مني أنني امرأة
نم مطمئناً فإنّ الملك يشغلني
يكفي النساء عير يذهنّ به ،
إن الكياسة في الأنثى مظاهرة
حورية أنا لا غول نزلت بهم
ويشهدان بأي غير قناعة
فأملاً الأرض من حرب ومن ظفر
لا يثقل التاج أحلامي ويلهيني
عن احتفال بتحسين وتزيين
وليس إلّا عير المجسد يكفيني
جهاها تقلب الدنيا مع الدين
من عرش مردخ^(١) ذي الخمسين أو «سين»^(٢)
حتى أرى مصر في ملكي الى الصين
ومن سلام ومن فتح إلى حين

لكن الدساتس والمؤامرات لا تلبث أن تسري في أروقة القصر الملكي فيقول الكاهن
الأشوري :

إذا سكتوا فعن داء دفين
يداهن بعضنا بعضاً ويحيى
عزيز النفس ذلّ، وكل حرّ
وقيسد الليث إن يصبر عليه
ومما شام الأذى أنف تحي
ومن حلم اللبيب مغامرات
أرى بشرية تدمى وهدر
وقل: كيف الإقامة في بلاد
وليس الملك من تاج وعرش
صلاتك للحسام العضب دين

(١) مردخ إله بابل.

(٢) «سين» القمر وهو «ود» عند العرب .

ويحل رأس السنة فيهرع أهل بابل للاحتفال بالمهرجان وإقامة طقوس العيد :

صباح غد عيد وجاءت وفوده
سما بهم شقوق الى أم بابل
وصفت جنود واستعدت نخية
وألهة في فلكهها ووفودهها
هنا معرض الدنيا فما شئت فاقبس
فهذا يريك العلم كيف فنونه
وهم زمر والناس فوضى بأنهم
وهزل وجد بالسيف وبالقنا

ليحتفلوا والوافدون جموع
وغصت ديار منهم وربوع
فمنهم سجدود دونها وركوع
أتوها وكل سامع ومطيع . . .
بروعاً، وآيات النبوغ بروع
وهذا يريك السحر كيف يروع
لكل الى ما يشتهيهِ نزوع
ووثب وقفز تارةً ووقوع . . .

تشهد سميراميس مشاهد المهرجان فلا تني تقول :

سلام وحب أيها البلد الخصب
على خير أرض فوقها خير أمة
وجنة عدن رافداها وأرضها
جرى كل إقليم اليها بهائه
مفجورة المائين في كل بقعة
خصوبة صقع من زكاة ترابه
وكالتبر لون الماء جار سبيكه
وغاب نخيل سابغ الظل والجنى
وما الشهد إلا تمرها لو تذوقه

بحبك فلتصبو القلوب التي تصبو
إذا ذكرت بالمجد قيل لها : حَسْبُ
بها النخل والكرم المعرّش والعشب
لها الشرق من أنهارها ولها الغرب
فتروى ويروي ما بها ماؤها العذب
فلا القحط معهود عليها ولا الجذب
وكنز عليها الطين والزرمل والترّب
ففاكهة ما تشتهي العين والقلب
لقلت : أشهد في الكوارة أم قسب . .

لكن الحياة لا تلبث أن تجور على الملكة فتبدّد أحلامها وتخيّب آمالها، فتقول :

هذه حيرة الحياة انتظار
والأماني شعاعه في سراب
لا تقل في الغناء نغمة سعد
هذه الشمس كلهم عبودها
من دليل على ابتكار؟ فقد طال
خذ إليك الكأس التي لك واشرب
قتل الأذكىء ما وجدوه
حيرتها دلائل الحرص حصى

يذكر المرء ما يكون ويُنسي
من ضياء على ظهور وطمس
إن تقل في البكاء أنه نحس
وإذا ما انفردت أعبد نفسي
وقسوفي على قرائح دُرس
فلغيري لا ينبغي أخذك كآسي
من فساد على النفوس ورجس
عقدت حظها بختم وكسري

وكانت الخاتمة ، فإذا نينياء الشاب يرقى عرش أمه وإذا سميراميس الملكة المخلوعة
تنسخ حمامة فتنوح قائلة :

صور: برج له سبعة
صور: يوم وأمس وغد
وتقول القهرمانه نانات :

آخر العهد كان في باب إيلا
خلعت ثوبها إليك وطارت
وأثارت في الأرض حرباً وسلاماً
الوداع، الوداع، أيتها الأرض
افتحوا لي باب السماء فبثت
مسحت وجنتيك أنمل بيلا
بعد أن مسحها التراب قليلا
وأطالت إقامته ورجيلا
احتملنا عليك حملاً ثقيلا
حفرة الأرض من سماء بديلا

رشيد الهاشمي

محمد رشيد بن يحيى بن عبد القادر الهاشمي ، ولد في بغداد من أسرة فقه وأدب في
سنة ١٨٩٦ ، ودرس اللغة العربية وآدابها على يد أخيه عبد المجيد ، ولازم بعد ذلك
محمود شكري الألوسي فأفاد من دروسه . ونظم الشعر ، ومال إلى الأدب ، وآمن
بالمبادئ القومية والوطنية ، فقصده الحجاز سنة ١٩١٦ والتحق بالثورة . ثم شخض إلى
القاهرة في بداية سنة ١٩١٨ . ومضى إلى الشام عند تأسيس حكومتها العربية فعين
كاتباً في المجمع العلمي العربي عند تأليفه سنة ١٩١٩ .

عاد إلى بغداد سنة ١٩٢٠ ، فعمل في ميدان الصحافة . وكان محرراً لجريدة «دجلة»
التي أصدرها داود السعدي (٢٥ حزيران ١٩٢١) وجريدة «الرافدين» لصاحبها سامي
خونده ، وقد صدرت في ١٦ أيلول ١٩٢١ ودامت إلى ٢٤ آب ١٩٢٢ . ونشر شعره
وبحوثاً أدبية واجتماعية في مجلة اليقين التي أصدرها شقيقه محمد الهاشمي (١٩٢٢ -
٢٥) . ونشرت مقالاته وقصائده في الجرائد العراقية كالعراق والاستقلال والفلاح
والصحف الحجازية والسورية والمصرية كالقبلة والعقاب والمقطم والنور ولسان العرب
والمفيد والنهضة الخ .

وغالى في تطرفه فهجا الملك فيصل الأول وحكومته ، وكان قبل ذلك قد مدحه حين
إعتلائه العرش سنة ١٩٢١ ، فقال :

رقاك، يا عرش، من ترجو وتنتظر
يهنيك فيصّل الجليل ومن
يا ابن النبي، وأحلى الشعر أصدقه،
وزانك العلم لا الياقوت والدرر
في راحتي جده قد سبّح الحجر
سيل المفاجر من واديك ينحدر
..... الخ

انتمى الى مدرسة الحقوق في أواخر سنة ١٩٢٢ ومكث فيها أربع سنوات ، حتى إذا ما أن أوان التخرج ، أصيب برجة عصبية فأودع مستشفى الأمراض العقلية حيث قضى نحواً من سبع عشرة سنة . وتوفي ببغداد في أوائل سنة ١٩٤٣ . وقد رثاه أخوه محمد الهاشمي فقال :

قل لهم : ما وفاء حق الأديب ؟ شغلوا عنك بالزمان العصيب
ليس داء الأعصاب فيك عياء بل دليل القضاء عجز الطبيب
كلهم يسألون عنك وعني فيقولون للدموع : أجبي
ما افترقنا ، وليس كالموت بُعدُ فيه عهد القرب غير قريب
ونحيبي حزن عليك وشعر وغناء الحزين صوت نحيب

وقد طبع ديوان رشيد الهاشمي سنة ١٩٦٤ بعناية عبد الله الجبوري - وصدر بمقدمة لمحمد بهجت الأثري .

وقيل إن رشيد الهاشمي توفي في ١٥ تموز ١٩٤٦ في دار الشفاء ببغداد حيث قضى الـ ١٩ سنة الأخيرة من حياته لمس أصابه في عقله .

مأساة النبوغ :

إن النبوغ إذا اقترن بإرهاق الحس ورقة الشعور ، وامتنح بالحرمان والفشل والجحود ، وصهر في بودقة ألم النفس وعذاب الجسم ، كثيراً ما يدفع بصاحبه الى الإرهاق العصبي والجنون أو الموت . وقد سجل التاريخ الأدبي فواجع رهية في إطار من البؤس والهوان والريثاء والدم : فهذا الفيلسوف المتصوّف أبو حيان التوحيدي الذي اتهم بالزندقة ولقي من العنف والاضطهاد ما حمله على إحراق مؤلفاته واستتاره عن الوزير المهلب الذي ألح في طلبه ، حتى مات في نحو سنة ١٠١٠ م .

وهذا الشاعر الإنكليزي توماس شاترتون (١٧٥٢ - ١٧٧٠) ، رأى نور الحياة يتيم الأب ، وتمرغ في أوجال الفاقة والجوع والحرمان ، حتى إذا ما غلب عليه القنوط ، مزق آثاره المخطوطة وتناول السم في ربيع الثامن عشر . كان شعره يفيض باللوعة والمرارة ، دعا القاريء الى البكاء معه ، فقد مات حبه تحت شجرة الصفصاف . كان حبه فاحم الشعر كليل الشتاء ، أبيض البشرة كثلج الصيف ، أحر الخدّ كضوء الصباح ، وهو يرقد الآن بارد الجسم في حفرة القبر .

وتصوّر الحرية ترتدي معطفاً ملوثاً بالدماء ، وقد كلّل رأسها بالأعشاب البرية .

وذلك الشاعر الفرنسي هيجيسيب مورو (١٨١٠ - ١٨٣٨) قضى الحياة هائماً شريداً ، وعمل ممرضاً في أثناء تفشي وافدة الهيضة في باريس سنة ١٨٣٢ سداً لرمقه . باع شعره لبعض الناشرين بدرهمات معدودة ، وانتهى به المطاف الى ملجأ حيث وجد

الراحة أخيراً في الموت . قال في بعض قصائده : «لقد كنت تلميذاً فقيراً حالمًا غريب الأطوار، ولكم نثرت فئات الخبز لطير الشاطئ فقال لي الماء : تمسك بأهداب الأمل ، فإن الله سوف يعيد لك خبزك ! لكن الله لا يزال مدينًا لي به» .

وماذا عن جبرار دي نرفال الأديب الشاعر (١٨٠٨ - ١٨٥٥) الذي هام بفانوس ، رواية غوتي ، ونقلها إلى اللغة الفرنسية بما يكتنفها من سحر وإغراء وظلمات جهنمية ؟ لقد ألم بشيء من العربية والفارسية ، وانصرف إلى قراءة كتب التصوف وما وراء الطبيعة ، وهام على وجهه في القسطنطينية وربوع سورّة وجبل الدروز . وزادت هواجسه يوماً بعد يوم ، واستغرق في لجج مظلمة بعيدة الغور من الرؤى والأمال ، حتى انتهى به المطاف إلى مصحّ للأمراض العقلية . وفي مساء يوم قارس البرد ، وجد مشنوقاً في شبّاك بعض الدور المنزوية بأحد الأزقة الباريسية . لقد انتحر ذلك الشاعر الذي يقول : «إنني فتى الظلام الثاكل الذي لا يعرف السلوان ، أنا الأمير الذي هدمت قلعته . أفل نجمي الوحيد ، وصدح قيثاري بأنغام الشمس السوداء والمخنولياء . . .» .

ومأساة الشاعر الأديب المرفه الحسّ محمد تيمور (١٨٩٢ - ١٩٢١) ابن العلامة أحمد تيمور باشا أشهر من أن تعرّف : فقد ضاق ذرعاً ببيئته الأرستقراطية وعزف عن دراسة الطب ، ثم احترق التمثيل وخالط المحافل الأدبية والفنية . ألحّ عليه المرض فقال :

هَيَّـوَالِي فِي بـاطن الأرض قبرا ودعوني أنام تحت التراب
في ظلام القبور راحة نفسي ومن النور شقوتي وعذابي . . .
وقضى في ميعة الشباب .

وذلك الشاعر المصري أحمد العاصي (١٩٠٣ - ١٩٣٠) الذي قال فيه شوقي :
هذا شباب الشعر يلمح مأوه من جدول العاصي ومن ديوانه
مرض بداء الصدر وعاش متبرماً بالحياة ، غلبته هواجسه فأغلق نوافذ حجرته في مسكنه بالقاهرة وصبّ على نفسه مادة كاوية أودت بحياته .
والأديب الغريب إسماعيل أدهم (١٩١١ - ١٩٤٠) الذي اختلف الناس في سيرته ودراسته ، نبغ في الرياضيات وألف في التاريخ الإسلامي والزهاوي الشاعر والإحاد ونظرية النسبية وعلم الأنساب . أضناه داء السل ، فلم يجد خيراً من الانتحار غرقاً في ساحل الإسكندرية اللازوردي .

والشاعر إبراهيم أدهم الزهاوي (١٩٠٢ - ١٩٦٢) رأيناه بيننا غريب الأطوار ، عجيب الأخبار ، يجمع العنف إلى الطيبة وسلامة الطوية ، ويمزج الورع الشديد بالتصوف والتحلل ، يحب الناس حباً أفلاطونياً خالصاً ويحتقرهم ويسيء الظنّ بهم في آن واحد . ولقد طالما شهدناه يجلس في المقهى أو يسير في الشارع متناقل الخطوات وقد أطلق لحيته وتهلّل شعره على كتفيه ورثت ملابسه ، وهو يحدّق في الفضاء ويرسل إلى اللانهاية نظرات شاردة جوفاء .

كان للبدر في سوادك ضوء
كنت، يا ليل، عبده، ولقد كان
كان يوليك رحمة وحناناً
ويشعر، وهو الشاعر الشاب الذي لا حول له ولا طول، كأنه مسؤول عما آل إليه
أمر أمته وبلاده، فيقول:

دافعت عن حق قومي حيث أنهم
بمنطق ترك الأسباع واعية
إننا لقوم ورثنا الفضل من قدم
جدي الذي قهر التيجان قاطبة
إننا هجمنا على كسرى ودولته

ويعيد النظر في حال بلاده فيصيح:

يا للرجال ويا للصييد من مضر
أين الحمية، بل أين الشهامة، بل
أين الألى تزار السدينا إذا زاروا
بغداد باكية، والشام شاكية،
لا تبخلن بروح أنت حاملها
ويغضب أخيراً ويشور فيخاطب ملك العراق خطاباً شديداً ويعاتبه عتاباً مرأً،
فيقول:

يا لابس التاج في بغداد هتتا
لا يكمل التاج إلا أن يكون له
فرزه بالحق والعدل الأعم، ولا
واستعمل الحزم وانقذ أمة نصبت
نحن السدين بنينا في جماجنا
شيخ الوزارة ميت لا حراك به

طغت الهواجس على نفس الشاعر وجثمت على صدره كالليل الرهيب، فناء بها
جسمه الواهن ولم تحتملها أعصابه المرهقة. وكذلك ذهب بلبه وطوح بعقله، وعاش
بقية عمره في فراغ ذهني، حتى انتقل من ضباب الخبل الى ظلمة الموت. ***

في تقرير سري للأنسة جرتروود بل كتبه إثر زيارتها لسورية في تشرين الأول ١٩١٩،
حين كان الأمير فيصل يرأس الحكم في دمشق، قالت إنها استدعت رشيد الهاشمي

الذي كانت تعرفه في بغداد، ثم مضى فجأة إلى الشام. قال لها إنه فرّ من العراق بعد اتهام أخ له بالاتصال بالأتراك.

قالت المس بل إن رشيد وأخاه محمد الهاشمي مناوئان بشدة للأوروبيين، ورشيد يعمل سكرتيراً لياسين الهاشمي. وقد خطب قبل أسابيع فقال إن دجلة ستجري دمًا، ولم يصريح أهو دم عربي أو بريطاني. وعلى أثر ذلك أمر علي رضا باشا الركابي حاكم دمشق بالقبض عليه وسجنه أمدًا قصيرًا. وقد بدأت علاقة رشيد بالبريطانيين سنة ١٩١٦ في البصرة جاءها هارباً من الترك، فمنحه الإنكليز مخصصات إلى ما بعد سقوط بغداد...

ولم يحصل بعد ذلك على وظيفة لأن عقله - كما قالت المس بل - لم يكن ثابتاً وظهر لها كأنه «ضئيل المسؤولية».

إبراهيم منيب الباجه جي

الشاعر إبراهيم منيب الباجه جي ينتمي إلى الأسرة الباجه جية المعروفة، وهو ابن أحمد بن محمد سليم بن عبد الرحمن. ولد في بغداد في سنة ١٨٧٦، وأحسن والده تربيته وتعليمه. ثم أدخل إحدى المدارس الابتدائية عهداً قصيراً، ووضع بعد ذلك في دائرة تحرير ولاية بغداد للتمرّن على الأعمال الكتابية (١٨٨٩). وتقدم في سلك الخدمة، ومهر في النظم والنثر باللغتين العربية والتركية. واستقال من الوظيفة سنة ١٨٩٦، وسافر إلى استانبول، ثم عاد منها واستأنف العمل في دائرة الولاية (١٩٠٠)، وعيّن أخيراً معاون رئيس التحرير في إدارة الأملاك السّنية.

كان إبراهيم منيب من فتيان زمانه المولعين بالخيل واللهو والغناء. وقد أطلق الرصاص على بعض شباب الملاهي سنة ١٩٠٧، فحكم عليه بالسجن. وسجّل معروف الرصافي تلك الحادثة - التي قامت لها بغداد وقعدت - شعراً في قصيدة رثى بها القتل وبرّر فعل القاتل، وقال:

قضى، والليل معتكـر بهيم، ولا أهل لـديـه ولا حميم

وأصدر بعد ذلك جريدة أدبية باسم «الرياحين» في ٢٨ آذار ١٩١٣.

واحتلّ الإنكليز بغداد فعين إبراهيم منيب مفتشاً في دائرة الشرطة (١٩١٧) أمداً وجيزاً، ثم عين كاتباً في وزارة الدفاع (١٩٢١). وأحيل على التقاعد في آخر آذار ١٩٣٧، ثم أعيد استخداً في تموز من نفس العام لعهد غير طويل.

وتوفي في بغداد في ١١ حزيران ١٩٤٨.

مؤلفاته وشعره :

وضع رسالتين في «التبصرة لمولعي الخمرة» و «نزهة الأحداق في مباحث السباق» ،
ورسالة ثالثة باللغة التركية عن رحلته الى الإستانة .

وطبع ديوانه الأول سنة ١٩١٣ ، ثم طبع مجموعة ثانية من شعره باسم «زنايق الحقل»
(١٩٣٨) .

ويتسم شعره بالرقّة والسّهولة ، ويزخر بالمعاني التقليدية والأفكار السائدة في عصره ،
فقلماً نجد فيه ابتكاراً أو التماعة ذهنية .

نظر شاعرنا الى طاق كسرى فقال :

دعائمه العدالة لا الصخور
لديّه كلّ ذي طولٍ قصير
كطايّ حوله الأفاق سُورُ
ولا خلّ لـديّه ولا سـمير
كطـود لا يزول ولا يـمـور
وما أبلت معالمه العـصـور
فلا تبلي معاليه الـدهـور

بنـاء شـاده ملك كبير
تسامى مشمخراً بارتفاع
كأنى بالسما عليه شيـدت
تفرّد في الفـلاة ولا أنيس
تعالجه الزعازع وهو رآيس
فكم عصر تقضى بعـدد عصر
وما قد كان شيّد فوق عدلٍ

ونزعت به نفسه الى المعالي فقال :

ولكن برأى كالتـهام مسدّد
وأصبح عندي وهو واحد أعـبـدي
وهيهات من إذلال أروغ أصيـد
سأشرق بعد اليوم كالشمس في غدٍ
فكل حسام إن مضى الحرب يغمـد
فعضب لساني مطلق دون حُـسـدي

طلبت العلى ، لا بالحسام المهتـد
فأدركتـه حتى ملكت قيـاده
لقد رام إذلالى العداة بكيدهم
فلاني ، وإن أمسيت في السجن غارباً ،
ولا بأس أن أصبحت كالسيف مغمداً
وما ضرّني سـجـني وتقييد أرجلي

حدث به تجاربه في الحياة على العزلة والانفراد فقال :

إذا ما رمت أن تحيا سعيدا
إذا هو لم يعيش فيها فريدا

تجرّد ما استطعت وعش وحيـدا
أرى الإنسان في دنياه يشقى

وقال على لسان طاق كسرى :

وإن أضحت دوائرها تدور
وحلّ محلّـه الظلم الكبير
ومثلي يفعل السـرـرـجـل البصير

يـد الأيـام لم تعبث بمثلي
ولكن قد رأيت العدل ولى
فملت الى التزهّد بانفرادي ،

وشعره طافح بالمعاني الإنسانية، فهو يحب أمه ويقول :

ولدت خلياً لست أدري بما عندي ولم أدر ما همّي ولم أدر ما قصدي
فأول شيء حلّ قلبي عبّــــة لأمي التي لم تنأى عني ما يجدي
يلاطفني منها حنان ولم يكن يقابله مني سوى الضحك في المهد
وذاك لديها نعمة عزّ مثلها تراقبها مني بباصرة الحمد .

وهو في قصيدته «في سبيل البؤساء» يأسى للبشرية المتألّمة ويقول :

وإني بــــدمع ذارف هتــــان يشكو الزمان وقسوة الخلان
شيخ ملامح وجهه دلّت على ماضي وجاهته بكلّ معاني
وعليه أطهار تراها رقت من فقره بغرائب الألوان
يمشي فتوقفه طواريء ضعفه متعكّزاً عوداً من العيـدان
والوجه منه قد علتـه صفرة تحكي هنالك صفرة اليرقان

وقف الشيخ يسأل ذليلاً وهو يتصوّر جوعاً، فأخذ الشاعر إلى داره وأتاه بأطياب
المأكّل والمشرب . ثم استعلم عن حاله فقال إنه عاش ستين عاماً هائلاً سعيداً، ثم
توالى عليه المصائب، فبارت تجارته وبقي بلا مال ولا ولد ولا سكن، ونأى عنه
الصحاب حتى لقد تمّنى الموت فلم يسعفه الموت :

ما لي أرى الإنسان يقسو قلبه تلقاء رقّة دمعة الإنسان؟
ما لي أرى الإنسان لم يعطف على حال الفقير البائس الحيران
أفّ لقلب لم يــــرقّ لبائس لهواً من الدنيا بعيش فان

وهو مولع بالقصص الشعري، ففي قصيدته «إقبال وإدبار» يروي قصة فتاة هيّفاء
جميلة من الأعراب، نشأت في عز وحشمة بين أبيها وأمها . ثم قضى الأب وقد فتك به
خنجر ظالم شرّير أراد خطف فتاته . ولم يمض وقت طويل حتى قضت الفتاة حزناً
وأسى، فشيّعها الشاعر إلى القبر أسيفاً . وشاء أن يكمل خطوط المأساة فجعل الأم
تلقي بنفسها في بئر قريبة من تربة ابنتها، فدفنوا الثلاثة جنباً إلى جنب .

إن شعر إبراهيم منيب يطفح بالألم، لكنه يذكر أحياناً هو شبابه وأنسه فيحن إلى
أيامه السالفات ويقول :

رعى الله ساعات تقضّت من العمر بدجلة، والأرجاء تزهر بالبدر
وزورقنا إذ ذاك طيراً تخالسه يمدّ جناحيه من الشوق كالنسر
ودجلة تجري في مذاب مفضض ييازجه ضوء المقاصير بالتبر
يلاعبه نفح النسيم فتنجلي مويجاته عن نسج درع من الدرّ
ويطرب سمعي من بعيد خريـره إذا انحطّ من عالٍ إلى أسفل يجري

وتغرق الباخرة «تيتانيك» سنة ١٩١٢ ، فيتبارى شعراء العراق في رثائها . ويدلي شاعرنا دلوه في الدلاء فيقول :

سرت والبدر في أفق السماء	يساريها بأجنحة الضياء
سبح تزدري بالبدر زهواً	منورة بنور الكهرباء . . .
ولما أن نأت عن كل أرض	ولم تر غير آفاق السماء
أتاهات تحت طي الماء طود	يطوف من الجليل على عماء
فشتت شملها الموصول قسراً	الى ما غير وصل والتقاء
وأغرقها بمن فيها سوى من	توصل بالسلامة للنجاء
وأمت وهي راسية بقعر	من الظلماء من بعد الزهاء
على حين الكواكب زاهرات	ووجه البحر يشرق بالضياء

وكذلك الحياة الى فناء ، والكواكب زاهية والطبيعة ضاحكة :

فلا عيش يدوم ولا صفاء ، وهل بعد الحياة سوى الفناء ؟
حدثني أحمد حامد الصراف قال : كان إبراهيم منيب الباجه جي مولعاً بالسباق لا يفوته يوم من أيامه . وكان حلاقه يشاركه نفس الهواية ، فلقبه يوماً في الحلبة وسأله عن الحصان الفائز ليراهن عليه ، ودله إبراهيم منيب على حصان أو حصانين فلم تصدق فراسته .

وفي صباح اليوم الثاني مضى الشاعر كعادته الى دكان الحلاق وجلس على الكرسي ليحلق ذقنه . وسلم عليه صاحبه هاشاً باشاً . وشد الفوطة على صدره ، ووضع على وجهه الصابون ثم قال :

يا أستاذ ، لم تصدقني البارحة في ساحة السباق . لقد دللتني على الخيل الخاسرة وراهننت على الفرس «الصقلاوية» التي فازت فربحت مبلغاً جسيماً .

واعتذر الباجه جي بأنه إنما دلّه على الخيل المعروفة ، أما «الصقلاوية» التي راهن عليها ففازت مصادفة ، وهو ما يعرف في اصطلاح أهل السباق بـ «فلوك» أي حظ .

ولم يقنع الحلاق بهذا الجواب ، بل ظلّ يجمع ويدمدم ، وصاح : يا غلام ، هات الموسى «الصقلاوية» لنحلق وجه الأستاذ . قال ذلك وهو يفرك وجهه بالصابون بحركة عصبية .

وبادر الباجه جي فنزع الفوطة وقام من الكرسي وجري قائلاً : عفواً ، لقد نسيت أمراً مهماً ويجب أن أعود الى الدار . ونخرج الى الشارع راكضاً لا يبالي بالصابون الذي يلمطخ وجهه .

قال الصراف : رأيته مضطرباً فهدأت من روعه وقلت له : ماذا دهالك ، ولم هذا الخوف ؟

فأجاب : رأيت الشرّ في عيني الخلاق وحركاته فنجوت بنفسي . ولو ذبحني بالموسى
لرقدت تحت التراب مضرّجاً بدمي ، مستعجلاً قدري ، مبتدراً منيتي . وهل كان يعزيني
أو يخفف عني أن يقبض على الخلاق ويحاكم ويلقى به في غياهبه السجن ؟

من شعر إبراهيم منيب الباجه جي

حماسة لا سياسة :

ولكن برأي كالسهام مسدّد
وأصبح عندي وهو واحد أعبد
وهيهات من إذلال أروع أصيد
سأشرق بعد اليوم كالشمس في غد
فكل حسام إن مضى الحرب يغمد
فعضب لساني مطلق دون حُسد
لدى الحرب أمضى من فعال المهتد
بنيت مقاماً فوق نر وفرقد
وأنت لهم لمس الكواكب باليد
وراح جوادي سابقاً كل أجود
إذا الحرب شبت كنت أول منجد
وإن ماد سطح الأرض لم أتميد
وحرب لأعدائي ولست بمعتدي
كراعي الشّهي وجداً بعجن مسهد
وإن خان يوماً لم يخنه توّدي
إذا جاء في ذنب غير تعمّد
بأنّي إن أغفر له الذنب أحمّد
ومالي سواه من فخار وسودد
قضى الباجه جي في السجن أعواماً حتى أطلق سراحه بعفو سلطاني سنة ١٩١٣ .

طلبت العلي ، لا بالحسام المهتد
فأدركته حتى ملكت قياده
لقد رام إذلال اللثام عداوة
فلاني ، وإن أمسيت في السجن غارياً ،
ولا بأس أن أصبحت كالسيف مغمداً
وما ضرّني سجن وتقييد أرجلي
فلأن يراعي مفلق وفعاله
ولاني بأرائي على الرغم منهم
فإن يقدروا فليهدموا ما بنيت
سيعرفني قومي إذا سلّ صارمي
فلاني مقدام وفارس نجدة
ولاني كطود في الثبات لدى الوغى
ولاني ذو سلم لكل مسالم
ولاني أراعي للصديق ذمامه
ولاني على عهد الصديق محافظ
ولاني مقيل للكريم عثاره
ولاني حلیم دون ذي الجهل عالماً
وهذا يراعي ناطق عن حقيقتي

وبما قاله في الحبس عند نشوب حرب طرابلس :

فظل يدك الأرض وهو يمانع
لنصر ربوع زعزعتها الزعازع
وتنهّل مثل السحب منه المدامع
ولكنها سدت عليه الشوارع
فأقعدته عما نوى وهو جازع

وذي عزمات أوقفته الموانع
يروم حراباً بين مشبك القنا
فيمنعه سدّ فيزع صارخاً
يروم الشرى نصراً إليها بنفسه
لقد سدها كفّ من الدهر ظالم

وقال في السجن أيضاً:

أما والذي في صنعهِ حَيَر الفكر
تري الناس فيه في ازدحام وضجّة
يقاسون أنواع الهوان بموقف
ولا تحسبنّ القبر أقوى مـرارة

لفي السجن ما ينسي القيامة والحشر
فمن مـرتج يسراً ومن مشتكٍ عسراً
تحكم فيه العبد واستعبد الحراً
من السجن، لا لا والذي فلق البحر

فاضل الصيدلي

الشاعر فاضل حامد المعروف بالصيدلي، ولد في الموصل سنة ١٨٨٢، وتعلّم الصيدلة في استانبول دار الخلافة. ودرس اللغات العربية والتركية والفارسية والكردية وشدا شيئاً من الفرنسية.

وقد عيّن صيدلياً في نجد، ثم عاد الى العراق، فأُسندت إليه وظيفة كتابية في بغداد، واختير من بعد مديراً لبعض نواحي قضاء سنجار. وعيّن في المعهد الوطني مفتشاً صحياً في الموصل، وعمل صيدلياً في الجيش في الموصل وبغداد وكركوك والسليمانية، حتى استقال في سنة ١٩٢٧. وعيّن كاتباً للضبط في مجلس الأعيان (١٩٢٨)، واعتزل الخدمة سنة ١٩٣٣. وعاد الى الموصل ملازماً للعزلة، منصرفاً الى الشعر والأدب حتى توفي فيها في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٤٩.

مال فاضل الصيدلي الى الشعر يافعاً. وأصدر في سنة ١٩١١ كراساً باسم «بدائع الأفكار» باللغتين العربية والتركية. ونشر ديوان شعره في دمشق بعنوان «هدية الأحرار» (١٩٢٧)، ونظم بعد ذلك شعراً كثيراً لم ينتظم في مجموعة. وكان له شعر غزليّ كثير أحرقه حين اعتنق مذهب التصوف.

قال فيه إبراهيم الواعظ: «تعرفت به فعرفت فيه الروح الأبيّ والوطني المجاهد والأديب الكامل والشاعر الذي أخلص لأُمته ووطنه إخلاصاً منقطع النظير».

وقال عنه ذو النون أيّوب: «... مؤمن متدين الى حدّ التعصّب، متزمت متمسك بالقوالب الأخلاقية تمسكاً لا يقبل تأويلاً ولا تعليلاً، كاره للتجديد الذي يجد فيه كل الجرائم التي سببت انهيار هذا المجتمع وتفسّخه السياسي والاجتماعي والأخلاقي، وذلك طبيعي جداً عند من حبس نفسه في داره بعد أن يشس من إمكان تبديل الفاسد وتقويم ما اعوجّ من أمر هذا البلد».

وقال محمد توفيق حسين أستاذ التاريخ العربي في جامعة بيروت الأميركية: «ولم يسعد في حياته العائلية فحوّل حياة العائلة كلها شقاء. ولم يسعد في حياته العاملة فانسحب من معترك الحياة مخفّفاً بائساً. ولم يسعد في آماله الأدبية... ورأى آماله في

الحياة وآراءه الدينية والوطنية تتهاوى مندحرة، فحزن وابتأس وعاش شقياً .
وقال مجيد شوقي البكري في تقديم ديوانه «هدية الأحرار»: «فهو لم يكتب إلا ما شعر
ولم يعرب إلا عن هاجس، وما انقاد في كل ما كتب، (اللهم غير الغزل والنسيب
اللذين هما مسرح الخيال وفاكهة الشعراء) إلا لإحساسه وقلبه السليم. وليس له رائد إلا
الإخلاص، ولا قصد إلا وجه الله وخدمة الوطن والدين فالأخلاق فالإنسانية».

شعره

كان فاضل الصيدلي من أوائل شعراء الموصل الذين تأثروا بالنهضة الأدبية الحديثة،
فترك الأساليب القديمة وسار على نهج الزهاوي والرصافي وحافظ وشوقي وأندادهم .
وقد نظم في المواضيع الوطنية والاجتماعية، واستنهض الهمم المتقاعسة، ووصف الأدوية
والقطار والسيارة والسينما وكرة القدم. ووضع الأشعار الروائية على لسان المعتمض
وموسى بن نصير والمقوقس صاحب مصر والأرمانوسة وعمرو بن العاص وغيرهم من
الشخصيات التمثيلية.

وقد عدّ الصيدلي رسالة الشعر رسالة خلق وهداية فقال:
ألا إن شعراً ليس يدعوا إلى هدى فذلك شعر لا يقام له وزن
لكن بيانه كثيراً ما يقصر عن شأو شعراء النهضة الحديثة البارزين .
رأى أهوال الحرب العظمى التي فتكت بالبشرية سنة ١٩١٤ فقال:

لقد فاجأتنا بالمصائب والردى	ليالٍ تردت بالمكايد والغدر
فليت الذي قد حلّ فينا من العنا	بأعدائنا، بل بالليالي وبالدهر
فيا ليت شعري، ما يكون مصيرنا	وماذا لنا قد أضمر الدهر من نُكرٍ؟
فإن كان خيراً فالمراد، ولم أخل،	وإن كان شراً فالزمان أبو الشرِّ
وإنّا لفي يوم تشيب لهولته	نواصي الرزايا السود لو أنّها تدري
وإنّا بهذا اليوم في وسط لجّة	فإنّا إلى قعر وإمّا إلى قفر
وإنّا حياة بعد موت مريئة	وإنّا فمّن قبل الممات إلى القبر

وأنكر على الإنسان عدوانه على أخيه الإنسان وخوضه غمار الحرب الطاحنة فقال:
ألا هل ترى الإنسان قد فقد اللبّا
طغى فبغى واستبدل الغيِّ بالهدى
لماذا، لماذا ذي الرجال تطاحت،
لم البغي والعدوان في غير طائل؟
ألا شاه وجه الحرص كم أمة أصبى...

ونعى على المجتمع ضعة الأخلاق ورواج النفاق فقال:

شكوت لصاحب إدبار حظي
وقلت له: اهديني، جوزيت خيراً،
فجئت السوق، سوق العصر، أبغي
رأيت الناس قد حاموا عليه
فلم أظفر بشيء منه، لكن
لدى أهل الزمان، وكان حاذق
الى نهج السلوك، فقال: نفاق!
نفاقاً أشتريه ولو بدائق
جميعاً بين مسبوق وسابق
تيقنت النفاق اليوم نفاق

وقد آمن بالعزة، والإباء والكرامة، فلنستمع إليه يقول:

إنما العيش عـزة وإبـاء
والذي يتغني الحياة صفاء
فحياة الانسان علم وعـز
وما لذة الحياة في مذهبه؟
وعلى العيش دون ذين العفاء
ليس تطفي أوامره الاقضاء...
وحياة الانعام تبين وماء

لذة العيش صحة وشباب
وكفاف وكفاء زوج لها من
واقتناع مع التقى وكتاب
نعمة العلم والخلاق نصاب

وقد هوى الشعر فقال:

إني ليطربني السماع فأسكر
ويميل قلبي للغرام مع الصبا
فالشعر لهوي والمحاسن لذتي
فأظل أشدو كالهزار مغرداً
ويروقني نظير الجبال فأشعر
فأروح نشواناً به أتبختر
والصوت كأسي لست عنه أصبر
برقيق وصف كالمدامة يقطر

ودعا الى العلم والنهوض فقال:

طلول العلم والعصر الخوالي
ألا يوماً لنا بين الليالي
ويا عهد المفاخر والمعالي
رجاء في تلاقٍ كالمحال

فيرجع فيك جيد العيش حالي؟

وصالاً منك، يا علم، جديدا
بحقك لا تضع فيك النشيدا
وعد عوداً ولا تعد الوعودا
وبدل نحس طالعنا سعودا

فندرك صبحنا قبل الزوال...

بهجرنا شرقنا أمسى ظلاما
وأضحى الغرب فيك لنا إماما
مشينا القهقري ومشى أماما
وياليت اقتدينا حين قاما
لسعي فيه قد بلغ المعالي . . .

متى هذا العراق يقرّ عيننا
ونجلو عن ثماننا فيك زينا
فبادر قبل أن يقضى علينا
جعلتْ بدمتي إن عدتْ ديننا
بأن أقضي بخدمتك الليالي

هام الصيدلي بحبّ وطنه وقومه فندب تأخرهم وطلب لهم اليقظة والمجد والحرية
والعلی ، ونظم في ذلك قصائد كثيرة . قال :

أيشرب الغير برداً من مواردنا
أعيد قومي ، وقومي من عرفتهم ،
يا آل يعرب ، نهضاً للرجوع الى
لقد كفانا رقاد ملء أعيننا
واهياً لأيماننا الغرّ التي سلفت
ونحن نشرها حراً وغسلينا؟
من أن يساموا على الإذلال توطينا
عهود مجد لنا أضحت تناديننا
فإن هذا التواني كاد يُزديننا
متى تقرّ بليهاها ماآقينا؟
وقال :

وطني ، كيف ، والحبيب حبيب ،
كيف أنسى منك الأيادي وفضلاً
كيف أجفوك ، والجفاء عقوق ،
وطني ، أنت ملجأ وملاذي
عقدت بينك الولاء وبينني
وقال نادياً :

تولت عن حمانا المكرمات
وساد على النفوس هوى الأعادي
تعالى الله ، يا قومي ، لماذا
هدمتم مجد آباء مشيداً
بنوك ، بنوك ، يا أوطان ، خانوا
لقد عاد العراق غريب قوم
وأضحى العرب غرضة كل رام
وصار الشرق مطمح كل عين
فلا صدق هناك ولا ثبات
لحب الذات ، فلتنا العداة
وحثى مّ التهوان والسبات؟
فمن يني وقد عدم البناء؟
فمن يحمسي إذا سرق الحياة؟
فلا أهل تقييه ولا رعاة
وأمسى العرب ليس بهم رماة
ولا عين تـردّ ولا زُناة

بمن تثق المواطن بعهد هذا
فلا تذكر أباة الضيم يوماً
وقد بكى شاعرنا الحق الهضم فقال:
قضى الحق إلا ما به يتمطق
فلا العهد مسؤول ولا الشرط أملك
يقولون: نبغي الحق، والفعل عكسه،
يقولون: نقضي العدل، والنقض ظاهر،
وما رزىء الأقوام تالله رزءُهُم
وقد خانت بذمتها الثقات؟
لدى ضيم فقد رضي الأباة
وأخلق ثوب العدل أو كاد يخلق
ولا الوعد مفعول ولا القول موثق
فقلت: كذبتهم، ها هو الفعل أصدق
ولو سكت الأشهاد فالحال ينطق
بموت حقوق دونها النفس تزهرق

الشقاء والصيدلي:

وسم الشقاء شاعرنا الصيدلي بميسمه، فرافقه رفقة العمر وناء بأثقاله وأوصابه.
ولقد وصف الشاعر الفرنسي ألفرد دي فيني (1797 - 1863) Alfred de Vigny
الشقاء في قصيدة له فقال:

«يجوس الشقاء خلال المدائن الباهتة، وقد لاذ بأذياله شبح الانتحار العاق، يرقبنا
على عتباتنا الوجلة طالباً فريسته.

فيسمع الشباب المنغمس في ملذاته ويتأوه ويدبل ريعانه، ويهبط الشيخ إلى قبره كما
تسقط أوراق الشجر، وقد حرم الجذوة التي تنعشه وتغذيه.

«أين المفر؟ لقد جلس الشقاء ذات يوم على عتبة داري، وأنا أحمله منذ ذلك الحين
في غضون أيامي المكفّهرة.

«تلك أجنحته المفجعة تطبق عليّ كالرداء القاتم، في وهج الشمس وغيابة الدياجي
وفي كل صقع ومكان. تلقني ذراعاه الجشعتان بالأمهما، وتشهر يدها الدكناوان المديّة
على فؤادي...»

ونظم الشاعر الإنكليزي توماس غراي (1716 - 1771) Thomas Gray نشيداً إلى
الشقاء، فخاطبه قائلاً:

«أيها الشقاء، ذو الحول والطول، مروّض القلوب البشرية، يا من يخيف الأشرار
بسوطه الحديدي وساعته الرهيبة ويتلى الأخيار الطيبين...».

ووصفه بأنه يربط بسلاسله المتجبرّين فيذيقهم طعم الألم ويترك الطغاة لاسي
الأرجوان بثنون، وقد عصرت الغصص أرواحهم عصراً، لا يرحمهم أحد في وحدتهم
القاسية.

ثم يبتهل الشاعر الى ربة الشقاء ويسألها أن تسبغ على قلبه الرقة لا الجروح والكلام، وأن توقد شرارة النبل المنطفئة في أعماق ذاته، وأن تلقنه المحبة والصفح والغفران، وتستل شوائبه ومعائبه ليعرف نفسه رجلاً.

أما شاعرنا الموصلي فتغنى بالبؤس والشقاء في أكثر من قصيدة. قال:

خلقت، ويا ليت لم أخلق،	لكل شقاء، ومن للشقي؟
تطاردني عاديّات الخطوب	ولو أنني لذت بالألق
سئمت الحياة وععب الحياة	وصرت ممن الموت لا أتقي
حياة مضت كلّها مُرّة	وهيهات تخلّو بها قد بقي
فحظي استعمار سواد الشباب	ولون ضميري دهى مفريقي
شباب تولى بلا طائل	وغصن تدلى ولم يورق
ولكنّا أثقلته الهموم	فأوهت قسواه فلم ييسق .
ولي طالع أين وجهته	أبى أن يعبرود ولم يخفني
وأحلام سؤل تعلقته	ولكن بها الكف لم تعلق
ولييس طماحني لمال ولا	منال له لست بالشقي
ولكن لما لم يحم حوله	سواي وفي العصر لم ينطق
ونصرة حق وقوم ودين	وخلق أراه على مزلق

وقال:

سئمت حياتي بعد فقد شبابها	ولو تشتري بالموت كنت أبيعها
حياة الفتى عام به الصيف والشتا	حروراً وبرداً والشباب ربيعها
إذا ما انقضى عهد الشباب تقلصت	ظلال حياة ثم أقوت ربوعها
على أنني ما فزت في لذة الصبا	ومرت حياتي بالهموم جميعها

وقال:

يا عيش، إنك نُكُـرُ	فهل لذنبك عُـذُرُ؟
إن لم تك الموت حقاً	فأنت منزهة أَمـُرُ
إن كان بعضك خيراً	فإن جألك شر

وقد رأى النحس حتى في طلعة القمر، فقال:

أطل علينا البدر جلدان ضاحكاً	يشرّنا بالنحس والويل والشقا
فلا كنت، يا شهر الفجائع، طالعاً	ففيك قضت آمالنا ولك البقا

ساء ظنّه في الناس والإنسانية فقال :

بلوت الناس حتى ساء ظني
وعاشرت الأنعام فشبت غماً
وكدت أموت من أسف وحزن
وصرت أودّ لو أنست جنّياً
وأخجل مطرّقاً لما أراني
بكل الناس حتى في نفسي
لما قد مرّ من عجب برأسي
ومما أغنى التّصبّر والتّأسي
وأنفّر وحشة من كل إنسي
بأن القوم من أبناء جنسي

لقد ساء ظنه حتى في نفسه ، وقال نظير ذلك محمد رضا الشبيبي :

كلّنا يطلب ما ليس له
كلّنا يطلب ذا حتّى أنا
وضجّ الصيديل بالشكوى من سقوط الأخلاق وموت الفضيلة وانتشار الرذيلة
فقال :

هوت رفعة الأخلاق للهوّة السّفلى
أضلّوا طريق الحق والرشد حينما
أضاعوا نُباهم مذ شروا بالهدى الهوى
وعن كرم الأخلاق زاغوا، فما ترى
فيا ويح قومي للرزّيّة، واويلا
أحبّوا على باقي الثّنا عرضاً ييلي؟
وبالجهل باع العلم أكثرهم جهلا
لها أثراً في العصر فعلاً ولا قولاً

حتى يقول :

وإني لأزري بالحضارة عندما
وقال في قصيدة أخرى :
مات الوفاء وخانت الإخوان
وتقلّبت ظهراً لبطن مثله
لهفي على خالي العصور وأهلها
أراها أذاعت بيننا الغشّ والغلا

وقد بلغ من ريبتّه وسوء ظنّه أنه حدّر القمر قبل أن يغزو الإنسان القمر، فقال :

إن رمت تسلّم فاغرب، أيّها القمر،
جاسوا خلال نواحي الأرض قاطبةً
واليوم مدّوا شباكاً للسّماء لكي
وقال :

ليلى وليلك، يا بدر الدجى، سهر
هل غايلتك لحاظ الغيد من بُعْدٍ
أم قد دهاك هوى الغزلان أم سلبت
أم هاج وجدك ألحان البلابل في
هل أنت مثلي معنّى، أيّها القمر؟
فرّاح يعبث فيك الكحلّ والخوّر؟
قرارك الوجنات البيض والطّمر؟
رياضها أم شجّاك العود والوتر؟

أم أنت تعشق من ذي الشهب جارية
أم أنت مثلي من الأيام في نكد
وكذلك نرى شاعرنا قد افتقد البهجة والهناء ولم يجد صديقاً يبثه ألمه وشجاءه،
فخاطب القمر وباح له بأسراره:

هيهات، يا بدر، ما ليلى كليلك في
أبيت منفرد الهجران محتجباً،
وأنت تفرح في علياء واسعة
وإن هوى لك نجم بت مكتباً،

أحب الصيدلي التمثيل المسرحي فقال:

إنّ للماضين روحاً تنجلي
إن للغيب لمرآة بها
وهي التمثيل والفرّ الذي
فهي من جدّ علوم وحجى
وهي النزّهة للنفس، بها

ووصف كرة القدم قائلاً:

كمروق السّهام بعد السّهام
ترتقي للفضاء شوطاً وتهوي
كرة حوّم الرّمّة عليها
بين خطف وبين جذب ودفع
بين كسرّ وبين فرّ وزحف
حيثها الأضداد أين تولّي
ذا ليمنّي وذا ليسرى وهذا
لا تكاد الأنظار تثبت فيها
أو خيال الأديب عند ارتجال
أو كقلبي من الوجيب وجيفاً

ووصف فوّارة ماء فقال:

وفوّارة ترمي بقضبان فضّة
ويخرج كالسلك النّضيد مُسلّلاً

وحال بينكما التغريب والسفر
فصرت تطلع حيناً ثم تستر
فما أقول وفي قومي هوى القدر؟

صفو، ولكن ليلى كلّها كدر
وأنت حولك تزهر الأنجم الزُّهر
وإنني رهن ضيق فيه أنحدر
فما أقول وفي قومي هوى القدر؟

ما لها غيب وإن هم غُيِّبوا
يُجتلى منه الحجى والأدب
ليس عنه غائب يحتجب
ما بها هزل يُرى أو لعب
يُجتنى أنس ويجلسو طرب

وانقضاض الرجوم من أجرام
مثل صقّر يخرّ فوق حَمَام
ترتيمها الشبان بالأقدام
واقترحام وحلّة وازدحام
واستباق وخلفة والتحام
وجهها من تقاذف واصطدام
لوراء يرمي بها وأمّام
لمرور بسرعة الأوهام
أو كطيف الحبيب في الإلام
واضطراباً لكربة أو سقام

من الماء يعلو للفضا ويرفرف
ويلوي كمثور اللاّلي يعطف

إذا صعدت فهي السهام صواعداً وإن هبطت فهي الشواقب تقذف
فما هو إلا اللؤلؤ الرطب ساقط على الأرض نثراً حين يهدي فيرجف
وهذا الوصف قد جاء على طريقة ابن المعتز العباسي الذي قال في الهلال :
أنظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر
وقد سئل ابن الرومي لم لم يبلغ في تشبيهاته مبلغ ابن المعتز، فأجاب : واغوثاه ! لا
يكلف الله نفساً إلا وسعها . ذاك إنما يصف ما عون بيته لأنه ابن خليفة ، وأنا أي شيء
أصف ؟ . . .

ونظم فاضل الصيدلي في الغزل والنسيب ، لكنه طوى هذا الباب من شعره في عهد
كهولته وعفا عنه ، وكان تشبيهه مصنوعاً لا عاطفة فيها ولا حياة ، فمما قاله :
واعدتنا بوصلها الحسنة ثم لم يعقب الوعود وفاء
تصل الليل بالنهار وعوداً فصباح يمضي ويأتي مساء
ولنا الوعد والوفاء لسوانا قسمة ما قضى بها الإقتاء
نحن همنا بحسنها فحرمنا ثم فازت بوصلها الرقباء
وأنت من تشاء قريباً ولقيا وكذا تمنع اللقاء من تشاء
أنفتننا وآلفت بهواهنا لأناس ما هم لها أكفاء
قاضي الحب ، هل يجوز لديكم مثل هذا؟ إذن فبئس القضاء
أنا أهوى والوصل يجنيه غيري فعلى العشق ، إن يكن ذا ، عفاء

وقال :

يا حمي ليلي ، ويا أهل الحمى ، كيف ليل ، هل تراعي خلتي؟ . . .
قاتل الله وشاة بيننا فلکم قد سلبوا من نعمتي
ليت ربي في الهوى أوقعهم ليروا كم للهوى من غصة
لوعه الوجد وتبريح الهوى ولظى العزل وحرر الغيرة
وتصاريف زمان لم يزل كل يوم بارزاً في مخنة

وقال :

أمن الحور أم ظباء الفلاة أم سراج يضيء في الظلمات؟
غلط القائلون عنها فتاة ، أي شيء ينعنون؟ أي فتاة؟ . . .
هي شمس ، وفي الملاحاة بدر ، وهي الريم ، ويك ، في اللفتات
ودعا حسنهما الأنعام ينادي : أيتها الناس ، فانظروا معجزاتي

الموصل والربيع :

وصف شعراء العرب فصل الربيع في مختلف عصورهم وأجاد الأندلسيون في ذلك أيما إجادة لجمال رياضهم وسناء طبيعتهم وشغفهم بالماء والخضراء . ولم يقصّر المشاركة في ذلك ، فقال صفي الدين الحلي :

ورد الربيع فمرحجاً بوروده وبنور بهجته ونور وروده
وقال أيضاً :

خلع الربيع على غصون البان حلاً فواضلها على الكبان
ونمت فروع الدّوح حتى صافحت كفل الكثيب ذوائب الأغصان
وتنوّجت هام الغصون وضرجت خدّ الرياض شقائق النعمان
وتنوّعت بُسَط الرياض ، فزهرها متباين الأشكال والألوان
والظّل يسرع في الخوائل خطوه والغصن يخطر خطرة النشوان . . .

وقد كان لشعراء الموصل القدح المعلى في وصف الربيع والتمتّع بحسنه ومباهجه ، ولعلّ مردّد ذلك لبرد صقعههم ، فيقبع أهل الموصل في دورهم طوال الشتاء ، حتى إذا ما حلّ فصل الربيع ، اكتست البرية المحيطة بالمدينة والمطلة على دجلة بالورود والأعشاب وخرج إليها أبناء البلد زرافات ووحداناً ، رجالاً ونساءً وأطفالاً ، للنزهة والاستجمام واجتلاء محاسن الطبيعة ، يعقدون مجالس الأنس واللهو البريء على بُسَط الحشائش السندسية ويتلذذون بالغناء والموسيقى تحت قبة السماء الزرقاء بين خرير الماء وحفيف الشجر . وصف شعراؤهم مجالس الربيع ومآدبه وتغنّوا بالطبيعة التي نضت عنها سربال الغيث والصقيع والضباب ، كما قال الشاعر الفرنسي القديم شارل دورليان Charles D'Orléans (١٣٩١ - ١٤٦٥ م) في مقطوعته الربيعية اللطيفة :

«إنّ الزمان قد خلع رداءه ، رداء الريح والبرد والمطر
واثترز بوشاح مطرّز من السماء الساطعة الصافية الجميلة .
ولم يبق من حيوان ولا طير إلّا تغنى بلغته وصاح . . .
وقد لبس النهر والغدير والجدول حلّة أنيقة موشاة باللّجين والنّضار ، وجدّد كلّ شيء لباسه . . .»

ومن شعراء الموصل المحدثين الذين وصفوا الربيع أحمد الفخري ومحمد حبيب العبيدي . ومنهم شاعرنا فاضل الصيدلي الذي قال في تحية فصل الزهور:

بسم الربيع بزهره ووروده فأقرّ عين الكون عند شهوده
وشبيبة الأيام عادت غضة فرحاً بإدبار الشتاء وجهوده

والنبت يمرح في بهاء بروده
والورد حرّك عُودَه لنشيدَه
واهتزّ ذا طرباً بكلّ وجوده
شغفاً لترشف من رحيق خدوده
من كُـمّه بعيونه وبجيده
متواجداً بركوعه وسجوده

وأتى وانيلاً يجرّ النديولاً؟
أم سقاماً به دعاه كليلاً...
هُوَ العيش لو يعيش طويلاً
فهو ينفي العنا ويفني المحولاً
غير خافٍ معنى بليغاً جليلاً
ثم رتل آياتَه تـرتيلاً
عاد طرف الزمان أحوى كحيلاً
وإن كان دومه مستحيلاً

وشباب الأيام جيلاً فجيلاً
كلّ عام تردّداً ومثولاً
ورواء وبهجة وبقولاً

ولئن كان ربيع الموصل فصل السرور والزهور، إنّ خريفها حزين يحمل النفس على
الأسى والانقباض . وقد قال الصيدلي في ذلك :

فلا شاعر يهفو ولا طائر يشدو
خيام له فالعيش وجهه مُسَوّدُ
عبوس كثيب قاحل سبطه جعد
هزيباً نحيفاً أو هو العظم والجُلْدُ
فتبكي السّماً وجداً، وما إنّ بها وجد
ولا نورها فوق البسيطة عمتد
يليه من الثلج المشيب لَدُنْ يبدو

فالروض يزهو في بديع حليّه
والطير بالألحان غنّى مطرباً
والغصن والأوراق هـذي صفقت
والشمس فوق الورد ألقت نفسها
والنرجس الزاهي تطلّع شاخصاً
كبرت إذ شاهدته متخاشعاً

وقال من قصيدة أخرى :

ما لهذا النسيم هبّ عليلاً
ليت شعري أزهوة واختيالاً
إنّ فصل الربيع — طال بقاه —
فيه تحمي الأرض الموات فتزهي
هو سرّ الأزمان والدهر، لكن
هو بيت القصيد في العمر، فاصدع
غرة الدهر، شامة الحول، فيه
ما أحيل الربيع في العيش، لو دام،

ثم يقول :

يا زمان الربيع، أنت شبابي
أنت أوفى من الشباب ذماماً
أنت تأتي فتوسع الأرض خصباً

تساقطت الأوراق وانتشر العققد
إذا القيظ ولّى والربيع تقوّضت
ويبدو محيلاً للطبيعة كالح
ويكشف عن ساقٍ به الروح حاسراً
ويغتر وجه الجدّ كالأرض كاسفاً
فلا الأفق بـسّام ولا الشمس تزدهي
تولّى شباب للطبيعة زاهر

إنّ حياة الشاعر الصيدلي كانت كهذا الخريف الموصل الذي أجاد وصفه، تناثرت أوراقه وتصوّحت أزهاره وصمّنت عنادله بعد التغريد والغناء، فلا عجب أن ودّع الأرض غير مشفق ولا آسف، يرجو في الموت أملاً لم تجد به الأيام.
عرف من أبناء الشاعر فاضل الصيدلي عبد الحق وأكرم.

عبد الحق فاضل

الأديب القاصّ اللغوي الدبلوماسي عبد الحق ابن فاضل الصيدلي ولد في الموصل سنة ١٩١١. تخرّج في كلية حقوق بغداد، ووظف أمداً في وزارة المالية (١٩٣١) ومديرية الأوقاف العامة. ثم عاد إلى الموصل ومارس المحاماة، وكان رئيس تحرير مجلة «المجلة» التي صدرت في تشرين الأول ١٩٣٨.

التحق بالسلك الخارجي فعين ملحقاً في المفوضية العراقية في طهران (١٩٤٥) فملحقاً أول في مفوضية أنقرة (١٩٤٦) فمفوضية كابل (١٩٤٨). ونقل سكرتيراً ثالثاً في طهران أيضاً (١٩٤٩) فسكرتيراً ثانياً في مفوضية روما (١٩٥٤). وأعيد إلى ديوان وزارة الخارجية سنة ١٩٥٧ مديراً عاماً للشعبة الشرقية. عين بعد ثورة ١٤ تموز وكيلاً لوزارة الخارجية فسفيراً في بكين (١٩٦٠)، ولما سقط حكم عبد الكريم قاسم فصل من منصبه في نيسان ١٩٦٣.

مضى إلى المغرب وانصرف إلى الدراسات اللغوية. وعاد إلى بغداد بعد نحو ٢٠ سنة، وتوفي بها في كانون الثاني ١٩٩٣.

أصدر مجموعات قصصية: مجنونان (١٩٣٩) فرح وما أشبه (١٩٤٠) حائرون (١٩٥٨) طواغيت (١٩٥٨). وله أيضاً: ثورة الخيام (١٩٥٢) ٤ نساء و٣ ضفادع (مسرحة، ١٩٦٨) مغامرات لغوية (١٩٦٨) الخ.

الدكتور أكرم فاضل

أكرم فاضل الصيدلي ولد في الموصل سنة ١٩١٨ ودرس في مدرسة الصناعة، وعين معلم مدرسة ابتدائية في بعض القرى. ثم مضى إلى بغداد ودرس في كلية الحقوق. وقد أُلِّع منذ حداثته بالأدب الفرنسي المترجم واللغة الفرنسية فدرسها على نفسه. وأوفد في بعثة دراسية إلى باريس فدرس الحقوق في جامعتها وحصل على درجة الدكتوراه.

كان حيناً ما كاتباً في محاكم الموصل. وعين أخيراً مديراً للفنون والثقافة الشعبية في وزارة الإعلام في العهد الجمهوري فقضى في منصبه أعواماً طويلة، وأشرف على إصدار مجلة «بغداد» بالفرنسية.

أدركته الوفاة ببغداد سنة ١٩٨٧ .

أصدر مجموعة شعر بعنوان «الكوميديا البشرية» (١٩٤٨) . وله كتب منها : مأساة الشعب الجزائري (١٩٦٠) . وقد اشترك في ترجمة رواية «الآباء والبنون» لإيفان تورغنيف (١٩٥٠) ، كما ترجم إلى العربية : يا حياة المنفى من مهنة شاقة للشاعر التركي اليساري ناظم حكمت (١٩٥٩) ، اللقيطة للسيدة لوسيت توفيق (١٩٦١) الحياة في العراق منذ قرن ١٨١٤ - ١٩١٤ للسفير الفرنسي بيير دي فوسيل (١٩٦٨) أسطورة الشعب المختار (١٩٦٩) ، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب للمستشرق الهولندي رينهارت دوزي (١٩٧١) . وله أيضاً : تعليقات على لهجة بغداد العربية للويس ماسنيجون (١٩٦٢) .

أكرم فاضل شاعر خفيف الروح إنسانيّ النزعة يرى العالم كله مهزلة ، فجعل عنوان مجموعته «الكوميديا البشرية» . لكن هذه «الكوميديا» في الحقيقة تخفي في طياتها «دراما» بل مأساة . وأبطال شعره البخيل والغانية والضحية والراقصة والحلاق والفلاح والحمال والشحاذ والفنانة البائسة ، فضلاً عن دون جوان الجاري وراء الحب ومحكمة الهررة والحظوظ بين المعدمين والمتخمين ومهزلة الغرام ودموع البائسين .

خاطب القارئ في مقدمة شعره :

أيها القارئ ، هذا ديدني	فارض أو لا ترض ، فالأمر سواء
وإذا مهاجرت أحسنت إلى	شاعر يهوى هياج السخفاء
وإذا لم تستسغ لفظي ولم	تقبل فكري دون عناء
فاطرح «الديوان» واعلم ، يا أخي ،	أنني لا أستضيف الثقلاء . . .

كان شاعرنا رقيق القلب يحنو على البائسين ويتألم للمتألمين أشخاصاً وأعمالاً . وبلغ به الحال أنه كاتب مجلة فرنسية تختص بالعجز البوهيميين . وقد نظمت قصيدة في الغجر فطلب مني ترجمتها إلى الفرنسية وأرسل بها إلى تلك المجلة لنشرها .

قال ذنون أيوب في مقدمة «الكوميديا البشرية» مقدماً صديقه الناظم إنه «شاب صغير السن ، رقيق المزاج ، تضيق نفسه ويضيق عقله وحسه بكل ما في الوجود من قيود ، فينطلق على سجيته بعض الأحيان ثائراً متجاهلاً كل عرف وتقليد ، ثم ينتبه فجأة كما ينتبه المرء من حلم فيدرك أنه قد اشتط في سلوكه ، فينكص على عقبيه خائفاً خائباً تعباً . . . » ثم قال : «إني أعتقد أن أكرم من أولئك الذين لا يتقصّدون أن يكونوا شعراء ، ولكنهم يجدون أنفسهم شعراء ، فيندفعون مع الشعر محاولين أن يثبتوا لهم قدماً فيه ويقطعوا شوطاً في مضماره» .

وقال إن شعره ليس من النوع الذي يرتفع إلى السماء السابعة ليشرف على العالم من عليائه ويعطي نتائج قطعية جازمة في الأخلاق والسلوك ومصير البشرية وعلل العالم ،

بل يزحف على الأرض محتكاً بال مخلوقات الزاحفة مثله من حيوان وإنسان، فيتبادل معها العواطف والإحساس بل والآراء أيضاً فما أكثر ما نراه في شعره «مشاهداً» في محكمة عقدت لعقاب الققط أو محامياً عن شحاذ أو متآخياً مع كلب . . . وهو بذلك صوفي بطبعه، لكن شطحاته مع المخلوق لا مع الخالق .

محمد علي اليعقوبي

الشيخ محمد علي بن الشيخ يعقوب الحاج جعفر النجفي، الشاعر الخطيب، ولد في النجف في ٢٩ شباط ١٨٩٦، وكان والده الشيخ يعقوب شاعراً (١٨٥٤ - ١٩١١)، ولد في النجف وتوفي في الحلة. وقد حقق ابنه ديوانه ونشره سنة ١٩٦٢.

وانتقل والده الى الحلة سنة ١٨٨٣ إثر نزاع وقع بينه وبين إخوته على وقف لهم في النجف، وكان لهذا الاغتراب أثر عميق في نفس الشاعر الشيخ فقال:

تغرّبت عن أرض الغريّ، فلم تكن تقرّ عيوني أو تطيب حياتي
حبست ركابي عندها اليوم بعدما أذبت عليها النفس بالزفرات
مواطن آبائي بها وأحبّتي، وفيها مغاني أسرتي وسراتي
فمن تربها أصلي ومبدأ نشأتي، وأرجو بها مثواي بعد وفاتي

ونشأ الفتى محمد علي في الفيحاء وأخذ عن والده مبادئ علوم العربية والدين، حتى إذا ما أدركته الوفاة سنة ١٩١١، انقطع فتانا الى السيد محمد القزويني الذي أحسن تربيته وتهذيبه. ثم خرج الى قرية جناحة على ضفة الهندية اليسرى واتصل بمحمد حسن أبي المحاسن وأفاد منه فوائد جزيلة في الشعر والأدب. ولما نشبت الحرب العامة التحق بالمجاهدين في الشعيبة تحت لواء السيد محمد سعيد الحبوبي (١٩١٥). وعاد اليعقوبي الى النجف سنة ١٩١٧ بعد تنكيل الأتراك بقيادة عاكف بك الأرناؤوطي بأهل الحلة، واشتهر خطيباً من خطباء المنبر الحسيني وداعية من دعاة الإصلاح الديني. وظلّ يتنقل بين الحيرة والكوفة حتى استقرّ في النجف، وتولى رئاسة جمعية الرابطة الأدبية فيها في كانون الأول ١٩٣٦. وتوفي بالنجف في ١٧ تشرين الأول ١٩٦٥. كان الشيخ محمد علي اليعقوبي شاعراً مجيداً عرف بقصائده الوطنية التي أشادت

بذكر العرب من الريف والجزائر إلى العراق وفلسطين، وله ديوان خاص بمأساة فلسطين. وكان إلى ذلك عالماً بتاريخ الأدب، اشتهرت خزائنه بما ضمته من كنوز أدبية مجهولة تصدّى لنشر بعضها في أعوامه الأخيرة.

شعره وأدبه :

نشر ديوان الشيخ محمد علي يعقوبي سنة ١٩٥٧، ومن آثاره الأخرى «البابليات»، وهي مجموعة أدبية تاريخية في ثلاثة أجزاء (١٩٥١ - ١٩٥٥). وله «المقصورة العلية» (في سيرة الإمام علي ١٩٢٦) و«عنوان المصائب» (في مقتل الإمام علي ١٩٢٩) والذخائر (في مدح آل البيت ١٩٥٠) وجهاد المغرب العربي (شعر، ١٩٦٠).

وقد حقق ونشر دواوين كثيرة، منها: الجعفریات (شعر جعفر القزويني، ١٩٥٠)، ديوان الشيخ عبد الحسين شكر (١٩٥٥)، ديوان الشيخ عباس الملا علي (١٩٥٥)، ديوان أبيه الشيخ يعقوب (١٩٦٢)، ديوان الشيخ محمد حسن أبي المحاسن (١٩٦٤)، ديوان الشيخ صالح الكواز (١٩٦٥)، ديوان الحاج حسن القيم (١٩٦٥) الخ. وترك في خزائنه دواوين شعرية أخرى لم يهتأ له طبعها، منها: ديوان الشيخ مير رشيد الهندي، وديوان سبط ابن التعاويذي، وديوان صادق الفحام، وديوان الشيخ علي الناصر.

وعرف يعقوبي بارتجال الشعر وسرعة البديهة وحدة الذاكرة والظرف والفكاهة المشوبين بالحشمة والوقار.

ويُسم شعر يعقوبي بنزعة إنسانية، فقد نشأ بين الشعب وعاش في أنديةهم وشارك في سرائهم وضرائهم، فلا عجب أن رثى لحال فقيرهم ومريضهم وجاهلهم. وتما قاله في ألم الفقر ووطأة المرض:

يا شعب، ما أكثر هذا العنا	من هاهنا طوراً ومن هاهنا
قد علقت فيك، ولا منقذ،	مخالب الفقر وناب الضنا
خطب عظيم الوقع، لكننه	يراه من لم يعنه هيتنا
ألم كالضيف ثقيلاً، أما	أن لهذا الضيف أن يظعننا؟
في مدن الشعب وأريافه	ما شطّ منها نائياً أو دننا
ما أكثر الشاكين، لو أنهم	تمكنوا أن يطلقوا الأسنا
من يَر أهليك ومناهم	لم يَر إلا منظراً محزننا

من لوعة ما ذاقها ذو الغنى
ورد المنيايا، وهي أقصى المنى
والبؤس ييدي سره معلنا...
دهراً فأضحى للشقا موطناً،
تكاد منها الهضب أن توهنا
هل غاية الحالين إلا الفنا؟

ألاً وكنت لذكرهم عنوانا
جأشاً وأثبت في الخطوب جَنَانا؟
تستغفر الأحوال والحدثانا
فيه وكان سواك عنه جبانا
للفضل مقياساً ولا ميزانا
كالجاهلية تعبد الأوثانا
دنس، فكنت أجلّ منهم شاننا
طرفاً وكنت الساهر اليقظانا
وبقيت أنفذ منهم سلطاننا
إلا الثنا والمجد والإحساننا

غربت دُكَاك وبدر سعدك آفل
طخياء جاء بها القضاء النازل
هضب الشأم لها وماجت بابل
لكنه لشعوب يعرب شامل...
وأب يكافح دونها ويناضل
فاستيأس الراجي وخاب الأمل

طاش الحليم بها وحرار العاقل
بل عن جميع الشرق قمت تجادل...

وكم لذي الفقر بجنج الدجى
مستعذباً من دون آلامه
يكتم ما فيه لفرط الإيبا،
يا موطناً كنّا سعدنا به
حملت أعباء الخطوب التي
تئنّ من سقم ومن فاقية،

ومن شعره في رثاء يوسف رجيبي:
ما مرّ ذكر أولي المكارم والوفاء
أولست في الأحداث أربط منهم
لك نفس حرّ للعلی وثابة
كم موطن قد كنت أشجع واقف
لا قسّ فيك معاشراً لم يعرفوا
العابدين هياكلًا منصوبة
جهلوا مبادئك التي ما شاها
كم محنة في الشعب غَضُّوا دونها
فمضوا وسلطتهم مضت في إثرهم
وتركت دنيا لم تدع من وفرها

وقال في رثاء سعد زغلول:
يا مصر، ما لصباح شعبك حائل؟
يا مصر، ما نزلت حاك كهذه
عصفت على مصر فمالت دهشة
ما خصّ هذا الزرع شعبك وحده
فجعت بنوك بمنقذٍ ومحرر
ذهب المؤمل والزعيم المرتجى

حتى يقول:

يا قطب دائرة السياسة كلما
ما قمت عن مصر تجادل وحدها

إن تمض فالشرف الذي خلّده
أو يخلُ منك بمصر أكرم منزل
ولأن طويّت فقد نشرت صحائفها
خلّفت بعدك أمة أيقظتها
نهضت بأعباء نهضت بها وما
ما مات من بقيت بأندية العلي
باقٍ وذكرك في حياتك كافل
فلك الخواطر والقلوب منازل
عنواهن مناقب وفضائل
للعرز، ليس بها نؤوم كاسل
وهنت لها عن حملهن كـواهل
تشني عليه أواخر وأوائل

ومن لطيف شعر اليعقوبي :

من عادة الناس للأصنام تعبدها ، من حطة النفس لا من رفعة الصنم
ولا أنسى سفره لطيفة الى النجف وربوع الفرات قمنا بها في شتاء ١٩٥٠ برفقة
الصدّيقين أحمد حامد الصّراف ومصطفى جواد ، ثم صحبنا الشيخ محمد علي اليعقوبي
الى كربلاء . كان الطريق وعراً غير معبّد ، كثير الغبار تثيره عجلات السيّارة فيملاً
الخياشيم ويلقى بالوجوه والثياب ، لكننا قضيناه نستمتع الى لطائف اليعقوبي وبداحه
الشعرية والثرية ، حتى بلغنا مدينة الحسين ولم نكد نصدّق أننا قطعنا تلك المرحلة ولم
نشعر بمزعجاتها . ولعلها كانت المرة الوحيدة التي رضي فيها الصّراف أن يفسح لغيره
مجال الكلام فلا يحتكره ويستأثر به على جاري عادته .

إشتهر محمد علي اليعقوبي خطيباً من خطباء المجالس الحسينية ، وكان يقيم في بداءة
أمّره في بلدة الحيرة المعروفة باسم «الجعارة» . ثم علت شهرته وانتقل الى النجف سنة
١٩٢٩ أو بعيدها وصار ينافس أبرز خطباء ذلك العهد وهو السيد صالح الحلي .
وتطرق جعفر الخليلي في الجزء الثاني من كتابه «هكذا عرفتهم» الى ذكر المنافسة بين
الخطيب المخضرم والخطيب الناشئ ، فقال إن نجم السيد صالح بدأ بالأفول ، وبدأ
نجم اليعقوبي بالصعود ، على الرغم مما كان يوجهه الحلي اليه من نقد وتنديد وصراحة
وكناية . فقد كان السيد صالح - كما قال الخليلي - سليط اللسان جريئاً يخشاه أجراً
العلماء . وكان اليعقوبي مسلماً عفّ اللسان بعيداً عن اللمز والغمز ، ولذلك لم تبد منه
ولا كلمة شائنة في حق السيد صالح وإنما كان يظهر عليه باطلاعه الواسع ووقوفه التام
على التاريخ الإسلامي وتاريخ الأدب : فقد كان اليعقوبي موهوباً ، وكانت له ملكات
طبيعية ممتازة نهاها وصقلها أبوه الشيخ يعقوب الذي كان هو الآخر من خطباء المنبر
الحسيني البارعين .

وقال الخليلي إن اليعقوبي عرف بسعة الاطلاع والعلم والظرف والأدب وصوغ النكتة
وسرعة الخاطر ، كما عرف بارتجال الشعر وصناعة التاريخ المنظوم . ويزخر شعره بالبديع
من الجناس والثورية والأمثال والتضمين يرسله عفو الخاطر بلا تكلف ولا تعقيد . ومن

طرائفه أنه هجا شاعراً تنقّص المتنبي فقال :
يا هاجياً ربّ القوافي «أحمداً» بلواذع من قوله وقوارص
حسبي وحسبك في جوابك قوله : «وإذا أتتك مذمتي من ناقص!»

ابراهيم أدهم الزهاوي

الشاعر إبراهيم أدهم بن الحاج صالح بن المفتي محمد فيضي الزهاوي ، ولد في بغداد في ٣٠ كانون الأول ١٩٠٣ ، ودرس في مدارسها الابتدائية ثم حضر دروس عبد المحسن آل بكتاش وقاسم القيسي وأحمد الزهاوي . وانتمى الى جامعة آل البيت وتخرّج فيها سنة ١٩٣٠ . وقرض الشعر صبياً ، فبرز فيه تبرزاً حتى لقد أمل عمه جميل صدقي الزهاوي أن يكون خليفته .

كان عنيفاً في وطنيته وتدينه ، غريباً في أطواره ، متقلب النوازع والأهواء ، فحفلت حياته بالأمسي والمناقضات والآلام . وقد اشترك مع عبد الستار القراغولي في طبع ديوان صديقهما نعمان ثابت عبد اللطيف باسم «شقائق النعمان» (١٩٣٨) وكتابه «الجنديّة في الدولة العباسية» (١٩٣٩) . ووظف كاتباً في وزارة الشؤون الاجتماعية (كانون الثاني ١٩٤٠) فلم يطق قيد الوظيفة طويلاً وتوفي ببغداد في ١٥ آب ١٩٦٢ .

ألّف كتاب «إبطال اللانهاية في الفلسفة» (١٩٤٧) . وجمع شعره عبد الله الجبوري وطبعه في القاهرة بعنوان «اللهفات» (١٩٦٩) .

شعره :

له شعر وطني واجتماعي متين ، شديد اللهجة .

فمن شعره الوطني :

لنا مثلاً للغاصبين سواعد	فما بالنا عن مجدننا لا نجالد؟
وأيّ حياة هذه فنلذّها	لأيسر منها يشتهي الموت خالد
وإنّنا لفي عصر تيقّظ أهله	فأدرك معنى العيش حتى الخرائد
فلا تطمعنّ الغرب فينا فنونه	فما هي إلا رغبة وعوائد
لنا أصلها النامي ، وهل من عجيبة	إذا انتقلت منه إلينا الزوائد؟
فنحن الألى لولا نتاج عقولنا	لما كانت الدنيا على ما نشاهد
لئن قابلونا بالإساءة والأذى	فما عرفت غير العضاض الأسود

جزى الله عنا الحادثات فإنها
فيثبت ودين شعبي خالص
فلا يرتجوا من بعد هذا وادنا
خرجنا عليها وهي منا قريبة
فهل وضعت أغلالها عن رقابنا
فأين ادعاءات لهم يدعونها :

ومنه :

يا بني العرب ، والحروب سجال ،
وحدوا وحدوا الصفوف ولا تست
لا تميزكم الديدار ولكن
فهي لولا تحاذل السائسها
وقال :

أنا الداعي إلى أمجاد قومي
وأدفع عنهم طعن الأعادي
أعدد منهم بيض الأيدي
فكل يد لهم جحدت سنان

وقال في رثاء سعد زغلول زعيم مصر:
هي الأعمار أثواب تعار
وأيام تسديم النحاس حتى
تغير خطوبها في الناس ترى
حتى يقول :

كذا الدنيا شؤون الدهر فيها
لحاهها الله لم تترك عليها
فملك العجم مغبر النواحي
فلا أمر الجزيرة مستقر
ولا حكم الجزيرة في بنيتها
فقد أمسوا حيارى في ديار

تقارب ما بين السورى وتباعدا
ويمحق ودين شعبي فاسد
لقد خابت الآمال والترك شاهد
إن اختلف الأصولان فالدين واحد
لتخلفها أغلالهم والمقادير
أ تلك ثعابين وهذي قلائد؟

والليالي بمن تحط تقوم
صعبوا السهل فهو خلق ذميم
لغة الضاد والتجار الكريم
لم يفرق ما بينهما التقسيم

أذكرهم عهد الأولينا
فأترك شلو طاعنهم طعينا
على أهل البسيطة أجمعينا
تراه بقلب جاحدها مكينا

وأوقات تزور ولا تزار
تساوى الليل فيها والنهار
وما غير النفوس لها مغار

شؤون في مجاريها بحار
مكاناً يجتبي فيه الجوار
وملك العرب أنذره البوار
ولا قطر العراق له خيار
ولا في الشام لأحرار دار
شعار القاطنين بها الصغار

تليهم — إذا طلبوا — العوالي
وتلك دماؤهم نادى نزاراً
ووادي النيل لم يفتقاً مضياً
وفارقه الزعيم فزاد كرباً
سرت بنعيته الأنبياء حتى
ففضج لها بقـاع الشرق حتى
وقيل: دم الحقوق، حقوق مصر،
ولو غير الزمان رماء نالت
ولكن دهره أحنى عليه

وتخبرهم — إذا سألوا — الشفار
فما لبث لها الدعوى نزار
يهده إذا وثب السدمار
على كرب وتم له الخسار
أذاعتها المفاز والبحار
خشيناً أن تشب بهن نزار
أمير وسعددها ذاك الممار
مناها من حشاشته الشفار
فلم يؤخذ لها فيهن ثار. .

وكان سيء الظن بالناس، يراهم يميلون إلى الشر، يحفلون بالغني ويظلمون الفقير والضعيف، لا يخضعون إلا للقوة القاهرة ولا يتمسكون إلا بأهداب الغني، ويسعون إلى المنافع ويعتروا بالمطامع. فإذا جادوا بالمال أو طلبوا العلم قصدوا التباهي والتعالي والتفاخر. وهم يثيرون الحرب تارة باسم الدين وطوراً بحجة نشر العلوم والفنون وإحياء المكرمات وجمع الشتات:

محال، وإن خيل في الممكنات،
خلا نفراً شذ في طبعه
وقد يخرج الحي من ميت
فرقاً بنفسك أن تستغر
فما الناس مزرعة للصلاح
ركون الأنعام إلى الصالحات
فكاد يعد من المعجزات
وقد يخرج الميت من ذي الحياة
بهاء يساق لأرض موات
ولا معدن الفضل والطيبات

كتب إبراهيم أدهم الزهاوي في سنة ١٩٣٦ كلمة خطية موجزة يترجم فيها لنفسه بضمير الغائب، قال منها:

«إبتدأ ينظم الشعر وعمره ١٧ أو ١٨ سنة، ولو قرأ العربية قبل ذلك لنظم الشعر قبل هذه السن. وهو شديد النقد لشعره، لا يثبت منه إلا ما جزل لفظه وحسن معناه. وينظم في كل زمان ومكان، وأكثر ما ينظم في المقاهي، ولا يبالي بما يكون حوله من الضجيج، لأنه لا يحس به أثناء النظم لاستغراقه فيه. وهو لا يكتب شيئاً مما ينظم حتى تتم القصيدة، فيكتبها حينئذ بنفسه أو يملئها على أحد معارفه. وأحب الشعراء إليه من المتقدمين أبو الطيب المتنبي، ومن المتأخرين أحمد شوقي، ولا يقدم على المتنبي شاعراً، ويحفظ كثيراً من شعره، ويعتبره أستاذه. وفي ذاك يقول من قصيدة طويلة

ترجم فيها المتنبي :

أنت علمتني نظام القوافي أنت أعليت في البلاغة كعبي
لم يحل بيننا التراب، وأنتى للشـرى أن يغيب بـالمتنبي

وهو شديد الولع بمطالعة الكتب القديمة والحديثة، ولا تكاد تراه إلا ومعه كتاب يطالعه، ويرى في ذلك سعادته. وهو لا يحب الظهور ولا يسعى له، لأن حب الظهور عنده رياء، والرياء من أقبح خلائق الإنسان وآلامها، لأنه غش، ومن غشنا فليس منا. وقد حرق شعره مرة وصتم على ترك نظم الشعر، فلم يلبث طويلاً حتى عاد إليه، لأن الشاعر غير مختار في نظم الشعر، ولو ظن أنه مختار بحسب الظاهر، بل ليس في الكون كله حركة اختيارية إذا أمعنت النظر ولم تنخدع بالظواهر. والنثر عنده أفضل من الشعر، لأنه الأساس الذي قام عليه رقي البشر، والله لم يخلق الإنسان إلا للرفي، وليس في استطاعة الشعر أن يقوم مقامه، بل متى تورط في ذلك خرج عن أن يكون شعراً. ويرى أن النثر العربي قد بلغ في هذا العصر شأواً بعيداً من الجودة لم يبلغه الشعر، إلا فيما خلّده شوقي من الآيات البينات. ولا يرى في ذلك عيباً على اللغة ولا قصوراً منها، لأن الشاعر من مواهب الطبيعة تهبه متى تشاء، وقد تشجّ الطبيعة بالشاعر النابغ وتهادى في شحها أجيالاً كثيرة وعصوراً متطاولة.

قال حسين الظريفي :

« . . . والمرحوم إبراهيم أدهم الزهاوي كان معجباً، بل كلفاً، بشعر المتنبي، فتراه متأبطاً ديوانه في كل أنائه، وإني لأعجب كيف لم يحفظه مع طول قراءته له، كما كنت قد حفظته في صيف العام قبل الماضي وكما حفظه أخوه عبد الرزاق الزهاوي.

«إن بين المتنبي والزهاوي أكثر من شبه واحد، وقد انعكست هذه المشابهة في شعر الرجلين. وهي مشابهة موروثية لا يد فيها لأي منهما. وإن وقائع الحياة التي يمر بها الإنسان تتولى ما انتقل إليه إراثاً من الآباء والأجداد بالصقل أنا وبالطمس أنا آخر، بحسب ما تكون عليه تلك الوقائع من تفاعل مع الموارث تفاعلاً موجباً أو غير موجب.

«وأول هذه المشابهة تلك الشخصية القوية التي يتأثر بها القارئ تأثراً يصل به إلى عمق الانفعال، فتراه مأخوذاً ببريق ما يقرأه وكأنه يركض به في فهم المعنى الطافي على وجه ألفاظه فهماً مبهرًا، ومن ثم يكون مؤثراً، حتى إذا تكررت النظرة ظهر له في ما يمكن أن يحمل عليه من مأخذ . . . ».

وأضاف حسين الظريفي أن المتنبي سلك في شعره كله طريق الغوص على المعاني أولاً، ثم إيجاد القوالب الشكلية لها بعد ذلك، مستجيباً فيما قدم وأتخر إلى نداء الطبع فيه. وكذلك فعل إبراهيم أدهم الزهاوي، فإن المعنى الطافي على وجه شعره يكاد

يخطف البصر. ولكن متى انتهت الهزة الأولى وأعاد القارئ أو السامع مع النظر في البيت إعادة الناقد الهادي، تبين له أن وراء ما عليه من طلاء ظاهر باهر شيئاً يستوقف النظر. . . (جريدة التآخي، في ٩/٣/١٩٧١).

وكتب عبد القادر البراك عن إبراهيم أدهم الزهاوي فقال: «إن الزهاوي الصغير كان من الكتاب المقتدرين وقد تجلّت قدرته الكتابية وأحاطته بالعديد من العلوم العقلية والنقلية في الفصول التي ردّها على آراء عمه الشاعر المتفلسف المرحوم جميل صدقي الزهاوي في الفلسفة والفلك والكون وغير ذلك مما تضمنه كتابه «المجمل مما أرى». . . كما سبق له أن نشر مقالات في الدفاع عن الشعر العمودي يوم انطلقت الدعوات إلى الشعر المرسل والشعر المطلق والشعر الحر في مطلع القرن الحالي، فكان بحق أول المدافعين عن عروض الخليل والذاتين عن اتهامه بعدم وفائه بالتعبير عما استجدّ من أغراض الشعر الحديث. هذا إضافة إلى المقالات العديدة التي ناقش بها فيلسوف الفريكة أمين الريحاني حول ما تضمنه كتابه «قلب العراق»، والمقالات الأخرى في المل والنحل والمعتقدات والتي يعتبر كتابه «إبطال اللانهاية» المطبوع في القاهرة في أواخر الأربعينات من أهم نماذجها».

هذا وقد جمع عبد الله الجبوري ديوان شعر إبراهيم أدهم الزهاوي وطبعه في القاهرة سنة ١٩٦٩ مع دراسته بقلم الدكتور شوقي ضيف.

عباس الخليلي

الشاعر الأديب العراقي المغترب في إيران عباس بن أسد بن المولى علي بن الخليل الطيب الطهراني الأصل، المتوفى سنة ١٨٦٤ في النجف.

قدم الخليل الذي تنتسب إليه الأسرة إلى العراق في نحو سنة ١٨٠٠ ومارس الطب وعمر زهاء مائة سنة. واشتهر ابنه المولى علي (١٨١١ - ١٨٨٠) عالماً زاهداً بلغ رتبة عالية في الاجتهاد وألف خزائن الأحكام وسبيل الهداية وغيرها من كتب الفقه والأصول. واشتهر أيضاً الشيخ حسين الخليلي الذي انتهت إليه الزعامة الدينية بعد وفاة السيد حسن الشيرازي، وتوفي سنة ١٩٠٨ عن نحو تسعين عاماً.

ولد عباس الخليلي في النجف سنة ١٨٩٦، ودرس في معاهدها، وقرض الشعر وهو شاب يافع. وقد اشترك في ثورة النجف الأولى على الاحتلال البريطاني سنة ١٩١٨ - وهي الثورة التي قام بها الحاج نجم البقال - فحكم عليه بالاعدام، ولكنه استطاع الهروب والاختفاء في الآبار حتى بلغ إيران آمناً. وأقام عباس الخليلي في طهران، وأصدر فيها جريدة «إقدام» الفارسية اليومية، فظهرت أكثر من عشرين عاماً حتى سنة ١٩٤٨. وأبعد عن البلاد الإيرانية سنة ١٩٣١، فجاء إلى بغداد وأقام فيها بضعة

أشهر، ثم سمح له بالعودة الى طهران .

وقد وظف في دائرة بلدية طهران، ثم كان وكيلاً لدائرة القوانين في وزارة العدلية
فرئيساً لها . وعمل في وزارتي الداخلية والخارجية، ثم عين في سنة ١٩٤٨ سفيراً لإيران
في الحبشة واليمن، وكان بعد ذلك عضواً في لجنة مصايد أسماك بحر قزوين .

قال حين فرّ من العراق :

رويداً، رجال الإنكليز ورأفةً إن اليوم أسرفتم فإنّ لنا غداً . . .

ثم التفت الى أبناء وطنه يحییهم قائلاً :

یحییکم، أهل العراق، على النوى فتى في سبيل المجد أمسى مشرداً
تحيمة عانٍ كلما هبت الصبا ينوح كما نوح الحمام مغزداً
إن اليوم أطلقت اللسان بحبكم فبالأمس عنكم قد سللت المهندا

وهو كاتب باللغتين العربية والفارسية وشاعر عربي نشرت قصائده مجلة المقتطف
والهلال والعرفان الخ .

ومن شعره بعنوان «الرائد» :

أبتك ما بي من جوى يقلق الصبا يحیش إذا مـــــا رائد الأمل احتماً
وأخشى على نفس بجنبك حرّة إذا بحثت أن لا تحمل البثّ والهـما
جوى كلما أخفّيته عنك يلتوى على القلب صلاً أرقماً ينفث السـما
رعى الله قلباً قلبته يد الهوى على الجمـر إن سار الظلام رعى النجـما
تخيّر بين الحب والمجد تائهـاً فمن جانب عفواً ومن جانب رغما

وقال حين عاد الى العراق سنة ١٩٣١ :

قبلت منك بعيني الأرض لا بدمي وجفّ دمعـي فروّك الحشا بدمي
عفرت بالترب وجهي إذ سجدت ضحى فـناب للسعي رأسي فيك عن قـدمي
وكاد ينطق طرفي بالسّلام على أرض العراق فهـذي أدمعي كـلّمي
ما الدمع واللفظ إلا لؤلؤ رطب خلطت منتشراً منـه بـمنتظم
رضعت فيك لبان المجد من صغر فلست حتى الردي عنه بمنفطم . . .

توفي في طهران في ١٠ شباط ١٩٧٢ .

وضع مؤلفات عديدة ونقل الى اللغة الفارسية تاريخ ابن الأثير وكتاب «ضحى
الإسلام» لأحمد أمين الخ . وترجم الى العربية ١٧ ألف بيت من شاهنامة الفردوسي .
ومن مصنفاته : إيران بعد الإسلام، إيران والإسلام، الخ .

وكانت آخر قصائده «اللوح» نظمها قبيل وفاته ، قال في مطلعها :

ما على الصبح لو أزال الإزارا	فمحا الليل ثم خطّ النهارا
بمداد من عسجد ويـراع	من شعاع الشمس استمدّ النصارا
وبسفر زمـرّدي وكفّ	من لجين تنمّق الأسفـارا
هي كفّ الفجر التي لاح فيها	رمز خطّ تمحوبه الأسحارا . .

قال من قصيدة نظمها بعد فراره الى إيران سنة ١٩١٨ :

أما وغمام يشبه الظلم أسودا	ورعد حكى قصف المدافع بالصدى
وبرق يرينا ومضه الحقّ خافقاً ،	فسرعان ما يخفى عن الطرف إن بدا
وغيث همى هطلاً يذكّرني الوغى	يمثل رشاشاتها تمطر الردى
وأفق على فقد السياسة صدقها	جداداً بمسودّ من الفشل ارتدى
وعاصف ريح مرّ كالموعد الذي	لنا ضرب «السكون» ناهيك موعدا
وليل هو الحكم الحديديّ حالك	قضى لي قهراً أن أبيت مسهّدا
يميناً ، ولم يقسم فتى قبل بالذي	وصفت ولكنّي حلفتُ تعمّدا
لقد صبغت منّا الدما كلّ بقعة	زهت فبدت غناء في أعين العدى

عبد الكريم العلاف

الشاعر الأديب ، ناظم الأغاني الشعبية ، عبد الكريم بن مصطفى بن سلمان العلاف العزاوي ، كان أبوه مصطفى العلاف ينظم الشعر وله تواريف منظومة بحساب الجمل . ولد في بغداد سنة ١٨٩٤ ودرس على الشيخ عبد الوهاب النائب . ومال الى الأدب ونظم الشعر منذ فجر شبابه ، فقال أولى قصائده في مدح أستاذه النائب ، ومطلعها :

رعى الله صباً عنقته عواذله وشطّ به نحو البعاد منازلـه
وكان من شعراء الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ، ألقي قصائد حماسية في جامع الحيدرخانة والاجتماعات الوطنية . ثم فرّ الى مضارب عشيرته العزة وسجن في دلتاوة (الخالص) .

وعين سنة ١٩٢٦ كاتباً في دائرة المال بقضاء الكاظمية ، ثم عمل أعمالاً مختلفة وتولى تحرير مجلة الفنون الأسبوعية (شباط ١٩٣٤) .

وقد نظم أشعاراً رائقة لحنت وغنيت . من تأليفه : بغداد القديمة (١٩٦٠) الطرب عند العرب (١٩٤٥) الموالم البغدادي (١٩٦٣) ، نيل المرام في قاموس الأنغام ، الأغاني والمغنيات (١٩٣٣) أيام بغداد (١٩٦٩) قيان بغداد (١٩٦٩) مجموعة الأغاني والمغنيات (٢٤ حلقة ١٩٣٥ - ١٩٤٦) موجز الأغاني العراقية (١٩٣٠) ، قطف الأثرار في الأشعار والأخبار .

من شعره في رثاء شيخه النائب :

ترحل صاحب الفضل العميم	وخلف في القلوب لظى الجحيم
مضى عنا وكان العيش غصاً	بجانب ذلك الفد الرحيم
ومادت راسيات الأرض حزنأ	عليه وقد هوت زهر النجوم
وقد فاضت عليه كل عين	ولم تنج القلوب من الكلوم

حتى يقول :

لقد عفت الحياة ، ونحن فيها	نكابد لسوعة العيش الذميم
وحقك ما الحياة حياة عز	تطيب لكل شيطان رجم
خيار القوم تلقاهم نيامأ	على مضض كأصحاب الرقيم
فكيف يطيب عيش في بلاد	يدل بها الكريم على اللثيم ؟ . . .

وقد اشتدت به الفاقة في أيامه الأخيرة وهذ جسمه المرضي ، فاضطر أن يمتن كتابه العرائض في دائرة طابو بغداد سداً لرمقه . ثم عين مشرفاً أدبياً لفحص الأغاني بمصلحة المسرح والسينما .

وتوفي العلاف في بغداد في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٦٩ .

كان العلاف شاعراً عاطفياً ، سئل عن رأيه في الشعر الحر فقال : « ليس هناك شعر حر ، فالشعر يلتزم بالقافية والوزن . وهو كما هو معروف ينم عن العاطفة والوجدان . وإذا تحرر الشعر من القافية والوزن فقد أهم ميزاته ولا تكفي العاطفة وحدها لتسميته بالشعر . فنحن نقول أحياناً كلاماً عاطفياً جميلاً بكلمات منمقة رشيقة ، لكنها بعيدة من أن توصف بالشعر » .

نظم العلاف مئات الأغاني الشعبية التي انطلقت من حناجر مغنيات فترة ما بين الحربين فهزت النفوس وترددت على الألسنة ، وأشهرها : يا نبعة الريحان ، خذري الشاي خذري ، قلبك صخر جلمود الخ . ويصح مقايسة العلاف بأحمد رامي شاعر الشباب المصري لولا الفارق الفني الجسيم بين مصر والعراق في تلك الآونة .

وقد أعجب العلاف بالملا عثمان الموصلي فسار على نهجه في أغانيه الشعبية .

قال عبد الكريم العلاف من قصيدة له «هيا الى الحرب» في ثورة ١٩٢٠ :

أين أهل الحفاظ ، أهل الحميّة	أين أحفاد قادة القادسيّة
أين أبناء يعرب ونزار	أين تلك الشهامة العربيّة
يا أسود العراق ، أنتم حماه	من قديم الزمان بين البريّة
لكم في الوغى مواقف حرب	هي كالشمس في النهار جليّة
وثبات في الحادّثات وعزم	ونفوس عن الهوان أبيّة
كلما الحرب جاش فيها عباب	خضتم كلكم عباب المنيّة
كيف تغضون عن إغاثة شعب	مستجيراً يأبى قبول «الوصيّة»
كيف ترضون ، يا أباء ، وفيكم	رامت الحكم دولة أجنبيّة
حكمت في البلاد ظلماً وقالت :	إن هذي حكومة وطنيّة
آل قومي ، هيا الى الحرب هيا ،	إنّ فيها حياتنا الأبدية
واملاً مسمع العداة دويّاً	كدويّ الرعود وقت العشيّة
إنّ عين الإله ترعى حماكم	وتنير المسعى بكل قضيّة

القصص الشعري :

نظم عبد الكريم العلاف قصصاً شعرياً على منوال معروف الرصافي في «أمّ اليتيم» و «المطلقة» و «اليتيم في العيد» ، وخيري الهنداوي في قصيدته «زينب وخالد» أو «فتاة بغداد وفتاها» ، وكاظم الدجيلي في «بوليس بغداد» . رسم العلاف في قصيدته «الوحش الكاسر» صورة من صور بغداد في عهد الاحتلال البريطاني ، ولم ينس في مطلع قصيدته أن يصف حالته النفسية فيقول :

أرقتُ ، وضوء البدر في الليل يسطع	ونجم الدجى سهران والناس هُجّع
تحيط بي الأرزاء من كل جانب	وقلبي على ما حلّ فيه موجّع
كأنّي في دنيا الهموم أراكّة	يميل بها عساتي النسيم فتركع
وصرت أناجي الفكر في حال أمّتي	وأحسب اشتاق الأمور وأجمع
وطرفي على أطلال بغداد مرسل	سحائب دمع من جفوني تنبع

على موطن قد كان بالأمس أهلاً
سمعت به صوتاً على البعد راعني
نشيج له في ظلمة الليل رنة
وأصبح هذا اليوم والدار بلقع
وأَيّ فؤاد بالأسى لا يروّع؟
كأنّ به سيفاً لقلبي يقطع

قام من فراشه وسار يتحرّى مصدر البكاء ، فجاء الى دار خيم عليها الحزن والكآبة .
ووجد فيها امرأة حسناء تبكي بحرقة ، وقد أحاط بها فتيات أربع ، وفي حضنها طفل ألم
به الطوى . . . تقرب منها يستطلع حالها :

تقربت منها ، وهي تخشى تقربي ،
وقلت لها : من أنت ؟ بالله خبري ،
فقالت : أنا سعدى فقدت سعادتي
بكيت على حظي ، على ما أصابني ،
بكت سعدى على قرينها الذي كان ملازماً عسكرياً ، دعاه داعي الحرب فودّع زوجته
وأطفاله ، ومضى يؤدي واجبه في ساحة الوغى ، ومات شهيداً يناضل عن قومه ووطنه ،
مخلفاً أسرته بين فكي الحزن والمذلة والفاقة .

وقد دخل الأعداء بغداد عنوة
وجاروا علينا واستبدّوا بحكمهم
وبالأمس منهم واحد حلّ دارنا
و مال على إحدى البنات بقسوة
ولما رأيت الغدر يبدو بوجهه
صرخت بصوت من فؤاد مروّع :
أنادي فلا ألقى مجيباً سوى الصدى
وقاومت ذاك العليج في عزم حرّة
وصار لهم فيها نفوذ ومطمع
وخانوا عهود الإتفاق وضيعوا
بيهم كوحش بالفريسة يطمع
فجاذبها بالرغم والبنّت تدفع
وقد أوشك الملعون للبنّت يصرع
الينا ، الينا أيها الناس أسرعوا
ولا واحد وافي الى الخطب يدفع
فبساء بخسران الى حيث يهرع

وأسفت المرأة على ضياع النخوة وصبر القوم على الأذى وانغماسهم في الملاهي والملاذ
وتقويضهم صروح العلم لينشثوا المسارح والمراقص . ولا يبخل الشاعر عليها بالتسلية
والعزاء ، آملاً أن تكون الحال التي ذكرتها سحابة صيف عن قريب تقشع ، فيرتفع في
البلاد علم العرب الميامين ، وتزدهر الأوطان وتخصّر المزارع والمرايع ، ليعيش الناس في
عزّ ونعمة .

من شعره في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ :

شعب العراق :

لك الخير، لا راعت حِماك الأجانب
أبى الله إلا أن تعيش مؤيداً
ولا بلغت للخصم فيك مآرب
برغم العدى، والله لا شك غالب
وقال :

نهضتم، بني قومي، الى عزكم نهضاً
نهضتم الى استقلال شعبكم الذي
وقضتُم صرح التخالف والبغضا
يكاد عليه من يد الجور أن يُقضى
طلبتم حقوق الشعب، والشعب قائم
على قدم يبغي التقدم لا الفوضى

عبد الحسين الحليّ

الشاعر العالم الأديب الشيخ عبد الحسين بن القاسم بن صالح الحليّ ولد في الحلة سنة ١٨٨٣ ودرس في معاهد النجف وتصدّى للتدريس بها واشترك في الحركة الوطنية في النجف سنة ١٩١٨ - ٢٠، ثم عين قاضياً للبحرين، قال في ذلك جعفر الخليلي في الجزء الأول من كتابه «هكذا عرفتهم» :

«لا أدري كيف رضيت (النجف) لنفسها أن تراه يغادرها الى البحرين بصفة رئيس للتميز الشرعي دون أن تحرك النجف ساكناً؟ وهي تعلم - أي النجف - أن الشيخ عبد الحسين قد أفنى زهرة عمره في سبيل عزتها العلمية وشهرتها الأدبية . . . وإني لأذهب الى أن موقف أهل بغداد مع عبد الوهاب المالكي في القرن الرابع، الذي حمله ضيق ذات اليد على السفر الى مصر والذي اجتمع حوله العلماء والفضلاء ليحولوا بينه وبين الهجرة، فقال أنه لو وجد من يدفع له كيلاً من الباقلاء في اليوم لعدل عن الهجرة، فبكى الجميع ولكن لم يظهر أحد استعداداه لسد هذه الخلة، أقول: إنني لأذهب الى القول بأن موقف بغداد في القرن الرابع (الهجري) مع عبد الوهاب - على نبوة - كان ألطف بكثير من موقف النجف مع الشيخ عبد الحسين في القرن العشرين .

وقد أمضى في قضاء البحرين نحواً من عشرين سنة وتوفي بها سنة ١٩٥٥ . وقد قال :

تطلعت من الربأ الى العود الى المبدأ
وسرحت به طرفاً حديد الطرف لا ينسأ
وفكراً لم يزل يخطو ولكن قلماً يخطو . . .

نظم شعراً كثيراً نشر بعضه في مجلة الهاتف النجفية وسجل نماذج منه علي الخاقاني في

الجزء الخامس من «شعراء الغري». وألف الحلي كتاباً منها: نصرة المظلوم، النقد النزيه لرسالة التنزيه (١٩٢٩) مسائل فقهية (١٩٦٤) حياة الشريف الرضي (١٩٦٨) الخ.

روى جعفر الخليلي أن عبد الحسين الحلي رشح قاضياً شرعياً، لكن زعم أنه أخفق في الامتحان وعين بدلاً منه الشيخ مهدي سميسم. وزار هذا الأخير الشيخ جواد الشيبيني في أثناء ذلك، فقال الشيبيني وهو لا يدري أن سميسم قد حل محل الحلي: حسناً فعلت الحكومة، فإني لا أجد برهاناً أكبر على غباوتها وتحيزها من رفض تعيين رجل فاضل كالشيخ عبد الحسين وترشيح حمار لا يدري أي طرفيه أطول ليحل محله . . . فامتنع وجه مهدي سميسم وظهر عليه الاضطراب والخلجل وقال: أؤكد لكم أنني رفضت قبول القضاء لولا إلحاح وزارة العدلية وإصرارها.

قال عبد الحسين الحلي يحيتي النجف:

حيّ أوطاني اذا سعدت	بالتحايا الغرّ أوطان
وأصبح أباً عهدتهم	وهم في الله إخوان
لهم في كل مكرممة	أثر بالفضل ملان
كيف يخفى فضلهم، ولـ	بينهم من لطفه شأن؟

جعفر نقدي

الشيخ جعفر محمد تقي نقدي القاضي الشاعر الأديب، وهو جعفر بن محمد بن عبد الله النقدي من أسرة تنتمي إلى ربيعة، ولد في العمارة سنة ١٨٨٥، ودرس الفقه والعلوم العربية والدينية. وقد عين قاضياً للعمارة في حزيران ١٩١٩، وكان عضواً في مجلس التمييز الشرعي الجعفري، ثم تولى القضاء الشرعي في كربلاء (كانون الأول ١٩٣١)، وعين بعد ذلك قاضياً في البصرة (حزيران ١٩٤٥)، واعتزل الخدمة سنة ١٩٤٧.

توفي سنة ١٩٥١.

نشر علي الخاقاني جانباً من شعره في الجزء الثاني من «شعراء الغري». ووضع جعفر نقدي مؤلفات كثيرة، أهمها: الإسلام والمرأة (١٩٣٠) الحجاب والسفور (١٩٣٠) أباة الضيم في الإسلام، تنزيه الإسلام (١٩٤١) الدروس الأخلاقية (١٩٣٨)، ذخائر العقبي، زهرة الأدباء (١٩٣٨)، زينب الكبرى (١٩٤٧) ضبط التاريخ بالأحرف (١٩٤٧) نزهة المحبين في فضائل أمير المؤمنين (١٩٥٠) وسيلة النجاة في شرح الباقيات

الصالحات لعبد الباقي العمري، الأنوار العلوية (١٩٥٨) تاريخ الإمامين الكاظمين (١٩٥٠) غزوات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (١٩٦١) فاطمة بنت الحسين (١٩٦٤) . . . وحقق ونشر كتاب تدابير المنازل أو السياسات الأهلية للرئيس ابن سينا (١٩٢٩).

قال جعفر الخليلي: والشيخ جعفر نقدي عالم فقيه كان لفتاواه في أحكام القضاء حين كان يشغل القضاء الشرعي أثر كبير في التيسير. وكان من كبار العلماء في تاريخ الأدب العربي، وهو بعد ذلك من الشعراء المعروفين في عصره.

كان لجعفر نقدي مطارحات شعرية مع محمد مهدي الجواهري الذي خاطبه بقصيدة مطلعها:

مرّ النسيم برّياكم فأحيانا فهل كذكراكم في القلب ذكرانا؟
فأجابه جعفر نقدي:

لو كان يألف قلب الصبّ سلوانا ما بات يصلى بأيدي الشوق نيرانا
أو لم يكن ذاب وجداً في محبتكم لما تعذب بالأشجان ألوانا
حملتموه هموماً لو تجشمتها ثهلان دكت على الغبراء ثهلانا
مقدّمات على دعواه أنتجها قياسها مدمع الأجفان برهانا
إنسان عيني جرى دمعا فأغرقني وريّا أغرق الإنسان إنسانا . . .

وقال الجواهري:

أنا مذمت فيكم كان دأبي إن ما تشتهوه يحمله قلبي
فأجاب نقدي:

يا أخلاي في الحمى، أي وريي أنتم في الحياة منية قلبي
بهواكم أنست لا بسواكم ولكم في الوداد أخلصت حبي . . .

وقال الجواهري:

الله يصحب بالسلام مودعي عجلاً وإن أحنسى عليّ بعاده
فأجاب نقدي:

أحبابنا، بعض العتاب لواجد شوقاً للقيامكم يحنّ فؤاده
مهما تشبّب في الغريّ فأنتم، يا ساكني أرض الغريّ، مراده

قاسم الشعار

القاضي الفقيه الشاعر الشيخ قاسم الشعار، ولد في الموصل سنة ١٨٨٧. وكان أبوه الشيخ محمد ضياء الدين الشعار القادري الحاتمي عالماً شاعراً ناثراً، ألف كتاب «السعادة» المطبوع في استانبول سنة ١٨٩١، وتوفي في تموز ١٩١٢.

درس قاسم الشعار على أبيه وغيره من علماء الموصل وتصدى للتدريس سنة ١٩١٠. وعين قاضياً في المحاكم الشرعية في شباط ١٩١٩، وأصبح قاضياً في يعقوبا (أيلول ١٩٢٥) والموصل في كانون الثاني ١٩٣١، فكرّكوك فالموصل ثانية (آب ١٩٣٧) فالبصرة (آيار ١٩٤٢) فكرّكوك (شباط ١٩٤٦)، فالموصل أيضاً حتى اعتزل الخدمة في كانون الأول ١٩٤٩.

توفي في ٨ شباط ١٩٥٥. وكان شاعراً عالماً، وضع تصانيف في الأصول والفرائض والفقه والتصوّف.

محمد رضا الخطيب

الشاعر محمد رضا الخطيب الذي اشتهر بقصيدته في هجاء الطبيب، ولد في بلدة طويريج المعروفة بالهندية على الفرات سنة ١٨٩٣، وهو محمد رضا بن هاشم الموسوي، واتصل بآل القزويني فتأدّب عليهم، ونظم الشعر فأجاد فيه وأحسن.

كتب عنه عبد القادر البرّاك الذي عرفه حق المعرفة فقال: «... فرأيت أن أردّ بهذه الكلمة المحضّة الى الأذهان صورة ذلك الشيخ الذي كان يضطرب في الحياة، فلا يشعر بوجوده أحد لإيثاره الدعة ولطول الكبت الذي أقعد هممه عن كل طائلة يكسب من ورائها الراحة والاطمئنان...».

وكان الخطيب برماً بمحيطه الضيق، فكان يزور بغداد بين الحين والحين فيلتقي بأدبائها ويحضر ندواتها. وقد حظي بتقدير الزهاوي الذي قال فيه الخطيب:

تناب نفسي النائبات فتلتوي لكن بقربك تستعيد جمالها
وخاطب محمد رضا الخطيب معروفاً الرصافي بقصيدة قال منها:

لك في القريض مواقف مشهودة في الشرق هزّ الغرب صوت دويها
وسياسة كفكفت من غلوائها وجعلت عليها على سفليها
وكانني بك قد رفضت بأن ترى متربعا يوماً على كرسيتها
ولو أنها قد أنصفتك لأصبحت ولك التصدّر في رفيع نديها
فأجابه الرصافي قائلاً:

إني لأشكر من محمد الرضا
شعراً غدوت على جرير فآخرأ
قد دبجت به يراعة لمحمد
هي في التفنن ريشة لمصور
لو كان في كف الرضي نظيرها
شعراً ذكرت به زماناً قد مضى
فيه ، ورحت عن الفرزدق معرضاً
أخذت تقيم من القريض مَقَوَّضاً
ولدى القراع هي الحسام المنتضى
حسد الرضي بها أخوه المرتضى . . .

وقد توفي محمد رضا الخطيب في مسقط رأسه في ٩ شباط ١٩٤٦ . ونشرت نماذج من شعره في «بابلات» محمد علي اليعقوبي (١٩٥٥) . وألف : «الخبر والعيان في أحوال الأفاضل والأعيان» (في مجلدين) .

هجاء الطبيب

فَكَرَ لِنَفْسِكَ ، أَيُّهَا الدُّكْتُورُ ،
أصبحت تحكم بالنفوس فموتها
يمسي الفقير يثَنُّ من آلامه
لا أنت تـرحمه وليس يجيبه
متوسداً حـسك القتاد وماله
بدمائه أبواب قصرِكَ صَبَغَتْ
كم بائس هـدمت بظلم داره
بك يستجير ولا يجار فعند من
أَمَقَطَرَأ ماء الشراب وكان من
تـالله إن شهادة طيبة
قلب الغني تعيره سماعه
وإذا دعاك أخو الثراء لداره
وإذا جفـاً أكل الشعير حماره
أصبحت يبطاراً له ومضماً
والبائسون إذا أتوك فحظهم
وأخوك عزرائيل أنت وكيله
أَمَقَصَّرَ العمر الطويل ، وسعيه
بأغ المحاكم للبريء يناله

إن كان ينفع قاسياً تفكير
وحياتها أبداً عليك يدور
ليلاً وليلك ضاحك مسرور
مال سوى كف إليك تشير
منه فراشك سندس وحرير
وعلى الجماجم أُسَسَتْ لك دور
كيما تشيّد للطبيب قصور
يشكرو إذا كان المجير يجور
عبرات ذاك البائس التقطير . . .
صدرت بحقك كلها تزوير . . .
وتصمّ أذنك إن أتاك فقير
تسعى كأنك خادم مأجور
وعمره من أكل الشعير شخير
وحداك نحو علاجه التدبير
من لطفك الإزراء والتحقيق . . .
فينما وصهرك منكرو نكير . . .
عند الحكومة صالح مشكور
عسفاً وأماعنك فهو قصير

وسلمت من وخز الضمير لأنه من أين للرجل الخؤون ضمير؟
وهي طويلة اكتفينا منها بالأبيات المتقدمة . ومن الطريف أن الشاعر جعفر الحلي
ابتلي بطبيب نجفي اسمه صادق فقال بهجوه :
في كل شيء صادق صادق إلا إذا جاء اليه العليل
يقول : هذا داؤه قاتل ويوجب الإفطار لا عن دليل
ليس له في الطب شيء سوى نسبته للشيخ مرزا خليل
والمرزا خليل طبيب نجفي شهير طهراني الأصل .

عبد الوهاب الصافي

الشاعر القاضي عبد الوهاب الصافي ابن عم الشاعر أحمد الصافي النجفي ، ينتمي
الى الأسرة النجفية المعروفة ، وقد ولد بالنجف سنة ١٨٩٩ ودرس في معاهدها . وكلف
في أثناء ثورة العشرين بالإشراف على الأسرى الإنكليز والهنود في الجعارة والنجف تحت
إمرة عبد المحسن شلاش (أب ١٩٢٠) .

كان أحد مؤسسي جمعية الرابطة سنة ١٩٣٢ وتولى رئاستها . ثم انتمى الى سلك
القضاء (٢٨ كانون الأول ١٩٣٦) ، فعين قاضياً شرعياً للبصرة (أيار ١٩٣٨) فالناصرية
(١٩٤١) فالنجف (آذار ١٩٤٢) فالبصرة ثانية (كانون الثاني ١٩٤٣) فبغداد (أب
١٩٤٤) فالعمارة (أيار ١٩٤٥) فالنجف (حزيران ١٩٤٧) .

واعتزل القضاء سنة ١٩٥٠ ، وخول ممارسة المحاماة . ثم وظف في مديرية ميناء
البصرة حيث قضى عدة سنين .

وهو شاعر أديب ، يحسن اللغة الفارسية وقد ترجم عنها روائع من شعر شعرائها
نظماً .

أخبرني عبد الوهاب الصافي أنه اعتزل القضاء قبل أن يكمل المدة التي تؤهله
لاستحقاق راتب التقاعد ، فتشبث للعودة الى الخدمة الحكومية ، وعين موظفاً في إدارة
ميناء البصرة على عهد وزير المواصلات والأشغال عبد الوهاب مرجان . ولم يعهد إليه
بعمل ما ، بل أعطي كرسياً ومكتباً في غرفة واحدة مع موظف مرهق بالأعمال يشغل ليلاً
ونهاراً لإنجاز مهامه . فقال الصافي له : لا يصح أن نجلس في غرفة واحدة ، أنت تعمل
كثيراً وأنا عاطل لا أدري كيف أقضي ساعات الدوام . فأعطني جزءاً من عملك
لأساعدك على قدر إمكاني . فأجابه : وهل تعرف اللغة الإنكليزية أو تعلم أوليات
شؤون الملاحه الفنية؟ إذا كنت تعرف شيئاً من ذلك فهل ساعدني .

ومضى الصافي إلى رئيس الدائرة وقال له : أعطني عملاً أستطيع القيام به ، فلا يصح أن أقبض راتباً ولا أنجز عملاً . وبعد لأي عهد إلى الشاعر الصافي بمديرية زراعة الميناء ، وكلف بالإشراف على تنظيم الحدائق والبساتين ، فصار يعمل ليل نهار ولا ينجز مهام وظيفته . فقال : ألا يوجد شيء وسط ؟ فيما أن تبقى عاطلاً وما أن تشتغل آناء الليل وأطراف النهار؟

وعين اللواء مزهر الشاوي الجندي الشاعر بعد ثورة تموز ١٩٥٨ مديراً عاماً للميناء ، فأصبح عبد الوهاب الصافي ، على ما حدثني به ، سكرتيراً شعرياً له ينظر في منظوماته . توفي عبد الوهاب الصافي في بغداد شيخاً هرمًا سنة ١٩٨٩ .

الشيخ محمد حسن حيدر

محمد حسن حيدر ابن الشيخ باقر بن علي بن محمد علي حيدر من أسرة معروفة في سوق الشيوخ بالمتفق ومن رؤساء قبائل الأجود . ولد في سوق الشيوخ سنة ١٨٨٨ ، وكان أبوه من رجال الدين جاهد في الشعبية في بداية الحرب العظمى ، ثم مرض ونقل إلى بلده حيث توفي سنة ١٩١٥ .

درس محمد حسن العلوم العربية والدينية وحاز على مكانة روحية وأدبية ، ونظم شعراً نشر أغلبه في مجلة العرفان وجريدة دجلة والهاتف والغري ومجلة الاعتدال . واشترك في الحركة الوطنية سنة ١٩٢٠ . فلما استولت العشائر على بلدة سوق الشيوخ في إبان الثورة (آب ١٩٢٠) عهد إليه بإدارتها .

انتخب نائباً عن المتفق في المجلس التأسيسي (١٩٢٤) لكنه استقال . وانتخب بعد ذلك نائباً عن المتفق في مجلس النواب سنة ١٩٢٨ - ١٩٣٣ و ٣٤ و ١٩٣٤ - ٣٥ ، فنائباً عن العمارة ١٩٣٥ - ٣٦ ، فنائباً عن المتفق أيضاً في شباط ١٩٣٧ و ١٩٣٧ - ٣٩ و ١٩٣٩ - ٤٣ و ١٩٤٣ - ٤٤ . وانتخب نائباً ثانياً لرئيس مجلس النواب في ٥ تشرين الثاني ١٩٤٠ .

عارض المعاهدة العراقية البريطانية في المجلس التأسيسي عند المذاكرة فيها (١٩٢٤) . وقال : إن إعطاء زمام البلاد للأجنبي خيانة ، والخيانة خسران الدين والشرف والعيش الحر . واضطر بصفته نائب رئيس مجلس النواب في عهد حركة رشيد عالي الكيلاني (نيسان ١٩٤١) إلى دعوة المجلس للانعقاد واختيار الشريف شرف وصياً على العرش في محل الأمير عبد الإله . فلما قضي على الحركة وعاد الأمير إلى بغداد لوحق الشيخ محمد حسن وأهين ، فاعتذر بأنه كان مرغماً في فعلته غير مختير . وبقي منكسر النفس مكسوف الخاطر حتى أدركه الموت في بغداد في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٤٤ .

له مراسلات شعرية إخوانية مع إبراهيم الواعظ والملاعب الكرخي والشيخ عبد الغني الخصري وغيرهم . ونشر شعراً كثيراً في جريدة دجلة الصادرة في بغداد سنة ١٩٢١-٢٢، منه :

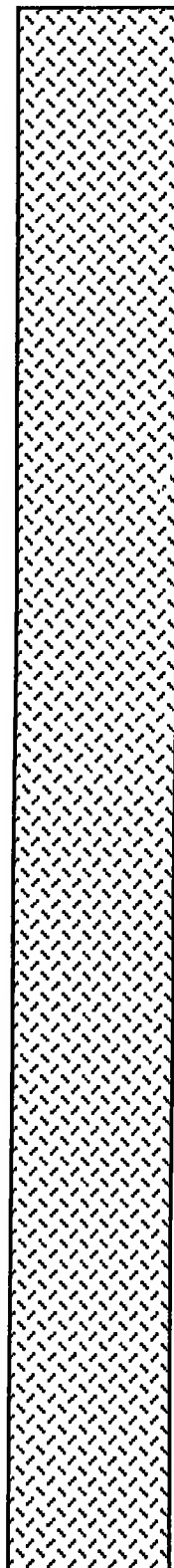
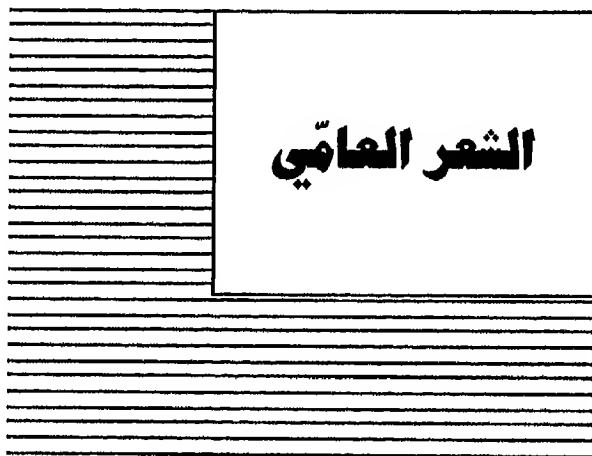
هي أمة العرب التي نهضت ، وقد
نهضت بعبء المكرمات فأحرزت
حتى أشادات وحدة عربية
نهضت فنالت دولة عربية
نهجت بمنهج الفخار فخلدت
ما كان لولا الإتفاق تنال ما
ما كان لولا الإتحاد بسعيها
سل أمة الفرس الألى والروم في
سل عن معاليها المواضي والقنا
بخصالها يزهو الزمان سناً غداً
بنوالها عمّت بني الدّنيا ندى ،
يا شرق ، تهُ فخراً فانت مؤيد

رفعت بنهضتها منار جلالها
علياءها بجلادها وجدالها
في أسد غابتها وفي أشبالها
قومية قد شيدت برجالها
عزّزاً لها يبقى الى أجيالها
رامت بمبدأ أمرها ومآلها
تحظى بسؤدها وباستقلالها
ذي قار ما فعلته في أقيالها
والخيل يسوم الحرب عند نزالها
يزهو الزمان سناً غداً بخصالها
عمّت بني الدّنيا ندى بنوالها
ومعزّز لا زلت في أبطلها . . .

وله أيضاً :

أقـراراً ولا أرى لي قـراراً
كم أنادي ولا حياة لمن قد
فلّى مَ الخـمول باق ، وهـلدي
نهجت منهمـج الكمال الى أن

بمحيط فيه الخـمول استدارا . . .
غار في منهج الخـمول وسارا
أهل بغداد قد تسامت فـخـارا؟
تخذت أنجـم السّماء سـمارا . . .



الملا عبود الكرخي

الشاعر الشعبي الذي ملأ الدنيا وشغل الناس في فترة ما بين الحربين، عبود بن الحاج حسين السهيل الكرخي، ينتسب إلى فرقة البوطيف من عشيرة البوسلطان الزبيدية، ولد في بغداد في ٢٢ حزيران ١٨٦٩، ودرس في الكتاتيب وحلقات الدرس في مساجد بغداد والكاظمية. ولما بلغ الرابعة عشرة من عمره انضم إلى والده الذي كان يتاجر بالإبل والجلود ورافقه في سفراته بطريق القوافل إلى إيران والشام والحجاز ومصر والأقطار التركية^(١).

واستقر في بغداد بعد وفاة والده سنة ١٨٩٦، وتعاطى أعمالاً مختلفة من متاجرة ونقل وأنشأ سنة ١٩٠٨ شركة مع آل عارف آغا لنقل المسافرين بين أمهات المدن العراقية. ثم أصبح متعهداً للبعثة الألمانية التي قامت بمد خط السكة الحديد إلى سامراء سنة ١٩١١ وألم بشيء من اللغة الألمانية، علاوة على ما كان يعرفه من التركية والفارسية والكردية.

ولما أعلنت الحرب العامة سنة ١٩١٤، رافق الحملة التركية إلى إيران ترجماناً ومجهزاً للمواد الغذائية والمواشي والخيول. وأسره الروس في بعض المعارك، لكنه استطاع الفرار والعودة إلى صفوف الجيش التركي. وسمع بأخبار الثورة التي أعلنها الشريف حسين في مكة سنة ١٩١٦، فترك القوات العثمانية ولجأ إلى بعض القرى والأرياف حتى آذنت الحرب بالانتهاء.

عمل بعد ذلك في الزراعة فلم يؤاته النجاح، وعاد إلى بغداد. واندلعت نار الثورة سنة ١٩٢٠، فأخذ ينشد قصائده الوطنية في جامع الحيدرخانة. وطبقت شهرته الآفاق، وتسابقت الجرائد إلى نشر شعره العامي الذي لقي من الجمهور إقبالاً. ثم أنشأ

(١) ذكر عبود الكرخي في ترجمة له كتبها سنة ١٩٣٥ أنه ولد في ١٢ ربيع الأول ١٢٨٦ هـ ويوافق ذلك الثلاثاء ٢٢ حزيران ١٨٦٩. أما في ديوانه فلذكر تاريخ ميلاده سنة ١٨٦١. وذكر فائق بطي تاريخ ميلاد الكرخي في كتابه «أعلام في صحافة العراق» ١٩ حزيران ١٨٦١.

جريدة «الكرخ» في ١٠ كانون الثاني ١٩٢٧ ، فكانت من الصحف الشعبية الرائجة . وعطلتها الحكومة فاعتاض عنها بجريدة «صدي الكرخ» (١٧ نيسان ١٩٢٨) و «صدي التعاون» (٢ نيسان ١٩٣١) و «الكرخي» (٢ تموز ١٩٣٢) و «الملا» (٣٠ أيلول ١٩٣٣) و «المزمار» (٤ حزيران ١٩٣٤) . وعادت الكرخ الى الظهور خلال تلك المدة وبعدها ، ففضى في الصحافة نحواً من خمسة عشر عاماً (الى سنة ١٩٤٢) .

وأسس مطبعة سنة ١٩٣٣ ، ونشر في تلك السنة الجزء الأول من ديوانه . ثم نشر بعد وفاته جزآن من شعره (١٩٥٥ - ٥٦) ونشر الجزء الثالث سنة ١٩٦٧ ، والأدب المكشوف (١٩٦٧) أيضاً . وساءت صحته في سنواته الأخيرة ، فلزم داره حتى قضى نحبه ببغداد في ٩ تشرين الثاني ١٩٤٦ .

شعره :

يمثل شعر عبود الكرخي نهجاً خاصاً في الأدب الشعبي العراقي ، وقد اتسم بسمات المرحلة الانتقالية التي مرّ بها العراق خلال السنين التي عقت الحرب العظمى الأولى (١٩٢٠ - ٤٠) . قرص الكرخي الشعر العامي منذ فجر شبابه ، وبرز فيه تبريزاً ، وذاع بعد ذلك على ألسنة الناس وتناقلته الصحف والإذاعة والمجالس الخاصة . وهو يبدع في النقد والهجاء ، وله في سائر الأغراض كالسياسيات والوطنيات والاجتماعيات والغزل والنسيب صولات وجولات . وهو يحسن إستخدام اللغة العامية العراقية بمختلف لهجاتها والقديم والحديث من عباراتها ، ويطعم شعره بالقصص والحكم والأمثال الشعبية ، ويرصعه بالكلمات الفصيحة والكردية والفارسية والتركية والهندية والانكليزية والعبرية وغيرها مما هو مألوف لدى أبناء الشعب .

وكانت للكرخي مساجلات ومطارحات شعرية مع شعراء العامية في عصره وفي مقدمتهم حسين قسام .

حظي شعر الكرخي بتقدير شعراء الفصحى وأدبائها ، فقال الرصافي :

لله درك ، يا عبود ، من رجل
جريت جري قدير في مزلقه ،
يا رافعاً في القوافي راية الزجل
لم تخش من زلق فيسه ولا زلل

وقال الزهاوي :

الشعر ما قاله الكرخي عبود
شعر يفيض من القلب المشع له
عبود إن عدت الأفذاذ في بلد
فتحت للشعر أبواباً ، ولا عجب
ففيه للأدب الشعبي تجديد
على اللسان ، فما إن فيه تعقيد . . .
فأنت في أول الأفذاذ معدود
ففي يمينك للنظم المقاليد
وإن شدوت فأغرود وأغرود

وقال عبد الرحمن البهاء :

إن رمت للجمهور من شاعر فشاعر الجمهور عبود
وقال محمود الملاح :

من بعد عبود الكرخي لا تثقن بالشعر يخلب ألباب الجماهير
وشبهه بالخطيئة الذي سنّ سنة الهجاء لما رأى الفضل في الناس منكوراً غير مشكور.
وقال فهمي المدرّس : « جمع أسلوبه بين لغة العوام وما يقارب اللغة الفصحى تدريباً
للعوام على الفصحى من القول ، وهو أسلوب حديث في الأدب العامي ، والأدب العامي
في بلاد تغلب عليها الأمية لا يقل شأناً عن أدب الخواص . . . » .

وقال محمد بهجت الأثري : « والشاعر قدير بلا شك ، وهو رافع لواء الشعر العامي
في العراق . . . وشعره صورة للمجتمع ، فإن فيه كثيراً من الحقائق الاجتماعية والسياسية
وفق في تصويرها الى مدى كبير . »

وقال رفايل بطي : « . . . وهو يكتز في أشعاره ثروة طائلة من إحساس العامة
وصور أفكارها ونظراتها الى الحياة ، وهو يمثل عيشة طبقات الشعب ذات الصبغة
المحلية البحتة . . . »

وقال انستاس الكرمل يخطب الكرخي : « وامتاز شعرك أيضاً بحفظ لغة العراق
الخاصة به ، بأدابه وأخلاقه وآرائه . . . » .

وقال علي الشريقي : « تفضل علي الشاعر الزجلي الاجتماعي الملا عبود بتقديم نسخة
من ديوانه العام . ولما تصفحته وجدته قد تصفحت العراق كله . نعم ، فإن بين دفتي
ذلك الديوان عراق الثلث الأول من القرن العشرين ، فها أنا أقجول في شوارعه ونواديه
ومراسحه ومقاهيه ، في ريفه وحواضره ، أسمع الحوار السياسي والاجتماعي والنقد الأدبي
والملوعة الاقتصادية ، والصبر إبتسامة الأمل ، وأسمع أنة الألم بلغة عراقية وتمثيل
صحيح يقوم به شاعر الجمهور . . . » .

وقال القاضي جعفر نقدي : « إن شعر الكرخي يشتمل على أبهة امرئ القيس
وطرب الأعشى ورغبة زهير واعتذارات النابغة وغضبة جرير وفخر الفرزدق ومدايح أبي
تمام ومحاسن البحري ونفسية المتنبي ولطائف كشاجم وظرائف ابن الحجاج وبدائع
بديع الزمان ، كل ذلك بلغتنا العراقية العامية التي يألّفها عشاق الأغاني الشعبية . . . » .

وقال عباس العزاوي : « وفي ديوان المترجم ما يعين سعة اللغة العامية . . . وقد اتفقت
كلمة أدبائنا على أن شعره من أفضل الشعر في الأدب العامي ، ولم يبخسه أحد حقاً » .
والكرخي بعد ذلك ظريف له دعاية حسنة وفكاهة مستملحة . وينقل عنه أنه قال :
لم يغلبني أحد سوى أعرابي لقيته في زورق في شط العرب ، وكان هذا الزورق يسير

بمحاذاة الشاطئ ويقوم مقام الباص ، يأخذ الركاب وينزلهم بين القرى المنبثة على ضفاف النهر. وقد ركبت ذات يوم قاصداً بعض الأنحاء لجمع بدلات اشتراك جريدة الكرخ ، فإذا بأعرابي يجلس الى جانبي ويحدثني بأحاديث لقطع الطريق . وسألني الأعرابي : ما اسمك ، يا ملا؟

- ملا عبود .

- نعم ، ماذا كنّا نقول ، يا ملا أحمد؟

- إسمي الملا عبود . . . عبود . . .

- عفواً ، عفواً ، يا ملا . . .

وناداه الأعرابي في خلال حديثه بكل الأسماء ، فتارة ملا حمد وطوراً ملا علي أو جواد ، والكرخي يقاطعه قائلاً : إسمي الملا عبود ، فيعتذر صاحبنا ويعود الى تسميته باسم آخر في سياق الكلام . وضاق الكرخي ذرعاً بالأعرابي المتغابي ، فقبض على ساعده وهزه هزاً عنيفاً وقال : اسمي جرو . . . جرو . . . ألا تعرف ما الجرو؟

وهنا بلغ الأعرابي المكان الذي يقصده وأشار الى صاحب الزورق بالوقوف ، فلما خرج الى الشاطئ صاح بملء فيه : «في أمان الله ، يا ملا جرو!» قال الكرخي : «قاتلك الله ، لقد نسيت الملا عبود عشرات المرات ، ولم تنس الجرو مرة واحدة!» .

حدثني مصطفى علي أن محمد مهدي الجواهري أصدر جريدته «الفرات» سنة ١٩٣٠ وسرعان ما دخل في مهاترات صحفية مع عبود الكرخي صاحب جريدة «الكرخ» ونوري ثابت (جزبوز) الذي كان آنئذ موظفاً بوزارة المعارف ويكتب في الوقت نفسه حقلاً هزلياً في جريدة رفائيل بطي «البلاد» . وقد هجا الكرخي محمد مهدي الجواهري هجاءاً مقذعاً بقصيدة عامية ختمها بأبيات يقرنه فيها بملهى الجواهري (وهو من ملاهي محلة الميدان المعروفة في ذلك العهد) ، فلم يكن من الجواهري إلا أن أقام عليه الدعوى بتهمة القذف والتشهير .

وكان حاكم جزاء بغداد آنذاك عبد العزيز الخياط ، فمثل الكرخي أمامه وقال : إن هذه القصيدة قديمة نظمها في العهد التركي ولا علاقة لها بالجواهري .

قال الحاكم : وهل كان ملهى الجواهري قائماً في العهد التركي؟

فالتفت الكرخي الى نوري ثابت الواقف وراءه وقال : كيف فاتنا هذا الأمر ، يا نوري؟

وقد حكم على الملا عبود بغرامة قدرها ٣٠٠ روبية دفعها عنه - على ما قيل - عبد الكاظم الشمخاني .

أصبح شعر الملا عبود الكرخي مصدراً من مصادر الفولكلور العراقي واللغة العامية

وصورة المجتمع في النصف الأول من القرن العشرين، وكان في الغالب مجتمعاً راکداً محافظاً على حالته قبل تطوره بدخول الإنكليز وتأليف الحكومة الوطنية. أما العامة فقد تطورت بعد ذلك كثيراً بتأثير الصحافة والإذاعة وانتشار المدارس. وقد استمد الكرخي ثقافته من التراث الشعبي، في حين أن شعراء الفصحى استوحوا أدبهم من التراث العربي الخالد والانفتاح الحديث على الآداب العالمية.

أشيع نبأ وفاة الملا عبود الكرخي في البصرة كذباً فخاطبه معروف الرصافي قائلاً:

أعبدود إنك ذو فطنة	تعيش بها عيش حرّ سعيد
قريحة شعرك فياضة	لها في الأناشيد مرمى بعيد
أتيت من الشعر بالمضحكات	وبالمبكمات التي لا تبيد

حتى يقول:

يهاهي بك الكرخ أنباءه	ويثني عليك بما لا مزيّد
ولكن حسّادك الخاسرين	يبتنون منك بغيط شديّد
أشعاعوا نعيك من غيظهم	يريدون للشعر ما لا يريد
ولما تبين بهتانهم لدى الناس	عادوا بغيط جديّد...

شعر عبود الكرخي

صوّر الكرخي في شعره حياة الفلاحين والنساء القرويات والمشاكل الاجتماعية، وذكر الأمثال والخرافات العامة. ودعا إلى العلم والاستقلال الوطني، حارب السفور مع الحجابيين سنة ١٩٢٤ - ٢٥، ورحب بالتجنيد الإجباري، ويكّي على نكبة دمشق وفلسطين. نوّه بمتاعب الزراعة وبؤس الفلاح وآلام الصحافة، وانتقد العادات الشعبية المستهجنة ومهازل الانتخابات النيابية وجهل بعض النواب. ونظم شعراً غزلياً على الطريقة القديمة. وله أشعار بذيئة منع نشرها في العراق فطبع بعد وفاته في بيروت.

المحالات:

قصيدة طويلة نظم فيها الأمور المستحيلة في رأيه. فقال: هل يتزوج وهو الشيخ الفاني بفتاة أم تكون له حورية في الجنة؟ هل يصعد إلى السماء بسلم وهل يطلب الفرج من المصلوب؟ هل تباع الخيل في سوق الهرج، وهل يحبى الأموات في المقابر؟ هل يجمد النهر في الصيف أم يعود الشيخ إلى الشباب؟ هل يأتلف القطّ والفأر أو يتساوى الفحم والماس؟ هل يغلب الحمار الحصان في السباق؟ هل تنشأ السفن من الورق وهل يأكل الأسد التبن والحشيش؟ هل يكون الهندي خطيباً في البدو؟ هل يفترس الحمل الذئب،

وهل يؤكل لحم الكلاب؟ هل يدرس العالم على الأغبياء وهل ينسج البدو القزّ والحريز؟ هل تربط البقة بالحبل، وهل يسحب النمل السفينة؟ هل يؤسس معمل ورق في الهندية؟ هل يكون الصليبي أعلم من أديسن وهل يكون ماركوني غيباً؟ هل يظهر نبيّ من زرباطية وهل يكون طلاب اكسفورد وحوشاً؟ هل يطيل فورد ذقنه؟ هل يزرع التبغ في الشامية، وهل ينبت جناح للجاموس فيطير؟ هل يصدر الغبار من أمواج البحر، وهل يدخل الفيل في شقّ الإبرة؟ الخ.

حسين قسام

الشاعر الشعبي الذي نafs عبود الكرخي فلم ينل شهرته وذويوع صيته، وهو حسين بن عبود قسام الخفاجي، ولد في النجف سنة ١٨٩٧، ونشأ في محافلها ومجالسها، وتفتحت قريحته بوحى المنابر الحسينية. وأولع بالأدب العامي، وهو غصّ العود، ومال إلى النظم والظرف والمفاكهة. قست عليه الحياة ومنحته البؤس والحرمان، فلاذ بالسخرية والهزء. نمت في نفسه نزعة إلى الدعابة والهزل، فظهر أثر ذلك في شعره كما ظهر في مساحره وحكاياته. وقد زار بغداد مراراً وطوّف في أنحاء الفرات الأوسط، وعرف شعره وانتشر في المحافل الشعبية ومجامع العوام، وكانت له مع أقرانه من شعراء اللغة العامية صولات ومساجلات ومفاخرات. وقد توفي سنة ١٩٥٨. طبعت مجموعات من شعره، منها: الأفكار المطلّسة (١٩٥٧) سنجاف الكلام (١٩٦٣) قيطان الكلام (١٩٦٣) محرّث الكلام (١٩٦٤).

ولعلّ شاعرنا قد أشبه في هزله والقياس مع الفارق الزمني - محمد بن دانيال الخزاعي الموصلّي المتوفّي بالقاهرة سنة ١٣١٠م، ذلك الشاعر الذي نعت بالأديب الحكيم الخليل وألف «طيف الخيال» وكان صاحب نكت ونوادر ومجون، وقد قال:

قد عقلنا والعقل أيّ وثاق وصبرنا والصبر مــــرّ المذاق
كلّ من كان فاضلاً كان مثلي فاضلاً عند قسمة الأرزاق

وقال سعيد الديوه جي أن ابن دانيال تفوّق في فنّ «خيال الظلّ» وكان يضع له القصة وينظم الأصوات ويلحنها ويعيّن الأزياء لها... أما حسين قسام فكان يسخر من السدّج الغرباء ولا سيّما الزوّار الهنود والفرس، ويمثّل في جموعهم مسرحيات يخرجها على قارعة الطريق، ويضيف عليها لبوس الجذّ والصرامة، ويكون في أكثر الأحيان مبدعها ومؤلفها وممثلها الوحيد.

كنّا ذات يوم نزور صديقاً لنا من أصحاب دور السينما، فجاء حسين قسام، ولم نكن نعرفه، فتقمّص دور صاحب دار سينما في بعض الألوية وأخذ يساوم صاحبنا على

شراء أفلام . وظلّ يتكلم في الموضوع كلاماً طويلاً ويجادل ويناقش ويوافق ويعارض ، وصديقنا يلاطفه ويداريه ولا يشكّ في حقيقة أمره . ولما كشف أمره أخيراً أحد الحاضرين العارفين له ، استذكرنا كلامه فوجدناه سفسطة خالية من المعنى !

ومثّل في يوم آخر دور قرويّ ساذج ، فجاء الى دار السينما واشترى بطاقة الدخول ، ثم دافع الناس وحاول أن يدخل من شباك بيع التذاكر ، والناس تضجّ بالضحك ولا تشكّ أنه جاهل يسير على سجيّته .

ترجمه محمّد هادي الأميني في مجلة التراث الشعبي البغدادية (أيلول ١٩٦٣) ، فقال إنه طرق جميع أبواب الشعر الشعبي ونظم فيها ، فأبدع في تصوير مشاهد الحياة وآلامها وألوان العواطف الإنسانية وخلجاتها ، وأطلق صرخات الأنفس الحرة التي يعذبها الظلم ويكويها الألم فلا تحوّر ولا تستكين . ونظم القصص والحكايات والنوادر والأمثال ، وننّد عيوب المجتمع ، وبرع في فنون الشعر كالموال والميمر والعتاب والأبوذية والخزورات والهوسات . . . وأدخل في نظمه من المصطلحات الشعبية ما هو متداول في أنحاء العراق وسائر الأقطار العربية كلبنان ومصر والمغرب . ومن أمثلة شعره الساخر وصيّة ريفي معدم لا يملك شروى نقيز ، فهو يوصي أهله بترك البكاء والتفجّع ويعدّد الأشياء التي خلفها فإذا هي لا تخرج عن حيوانات هزيلة وخنجر بلا قراب وأثاث محطم ولوازم بيتية عتيقة ، ويشدّد على أهله بالعناية بكل تلك الأشياء والمحافظة عليها . . .

ومن شعره الساخر قصائد يحسبها السامع هراء لما حوت من مبالغات وغرائب تفوق حدّ المعقول ، ولكنها تظهر لدى التأمل عميقة المغزى ، بعيدة الغور في الهزل القائم على فكرة التناقض والتعجيز والتلميح . فمن ذلك قصيدته التي قالها يواسي صديقاً له سرق اللصوص متاعه القليل ، فهو يعده بنصره ومساعدته ، ويقول له : إنني لمسلّ لك جنوداً من الهنود تكرّ على خيولها في منتصف الليل وعند الظهر ، بنادقها من الخشب ورصاصها نارنج ، ترجّ البلد رجاً ، وقد ساندتها جموع العرب والكرد والبربر ، رجالهم تمشي على أطراف النخيل وفرسانهم تحول فوق السطوح . . .

ذكر جعفر الخليلي حسين قسّام في الجزء الثالث من كتاب «هكذا عرفتهم» عند كلامه على الظرفاء الذين عرفهم ، فقال إنه تجاوز الخامسة والستين من عمره فافتقد تلك المقدرة التي كانت تعينه على تمثيل أدوار المساخر المضحكة وضاعت به الدنيا ، وأعسر فلم يكن له مورد سوى راتب ضئيل يتقاضاه من دائرة الأوقاف لقاء سدائنه لمقام هود وصالح بمقبرة وادي السلام في النجف .

ثم قال إن حسين قسّام نسيج وحده في تمثيل الأدوار الفكاهية والظرف ونسج الأهاويل والنكات ونظم الشعر الهزلي . وهو يجيد تقليد أغلب اللغات ويجيد حكاية اللهجة في أية لغة ولكن بدون معنى . وكثيراً ما يراه الرائي وهو يكلم أحد الهنود أو الترك

أو الإيرانيين أو الإنكليز بلغة لا ينقصها شيء غير المعنى ، فيَهْزُون رؤوسهم أمامه ويضربون عنه صفحاً . وهو يتكلم العربية بهذه الطريقة فلا يدعك تفهم منه شيئاً . وقد يقصد بعض الحكام شكياً ، فينصت له الحاكم ويسعى ليفهم شيئاً من كلامه ، فلا يفهم إلا النهاية التي يتركها واضحة ليقضي على الشك الذي يبعثه سرعة كلامه وعدم اتزانهِ . وهو فوق ذلك يحسن تكييف نفسه وقلب سحتته كما يشاء دون أن تبدر منه بادرة تفسر عمله أو تشكك فيه . وقد سبق في أثناء الاحتلال الإنكليزي ليعمل في السخرة ويحمل أكياس الرمل لتقوية سدّاد النهر . فحمل حسين قَسَام أول كيس مكرهاً ، فحين عاد مع العائدين ، انطوى على نفسه في غفلة من الحراس وعوّج إحدى رجليه وصعد حاجبه إلى لأعلى وجعل أعضائه تهتزّ كمن به رجفة ، ومرّ على هذا الوجه بين المراقبين وهم لا يشكون أنه بعض العاجزين المشلولين المشوّهين . ولم يزل هذا شأنه حتى تجاوز حدود المراقبة فأطلق عند ذلك ساقيه للريح . . .

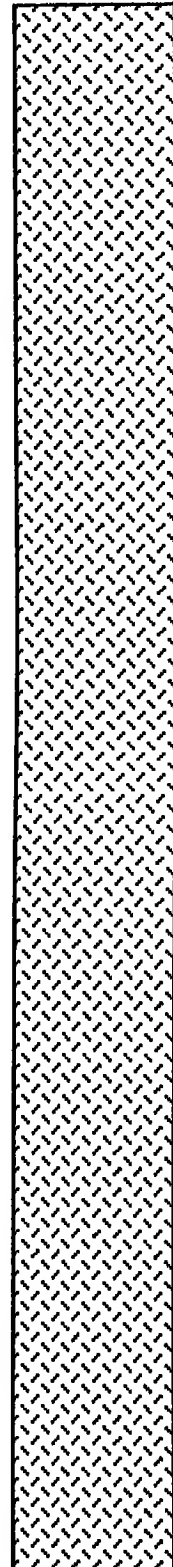
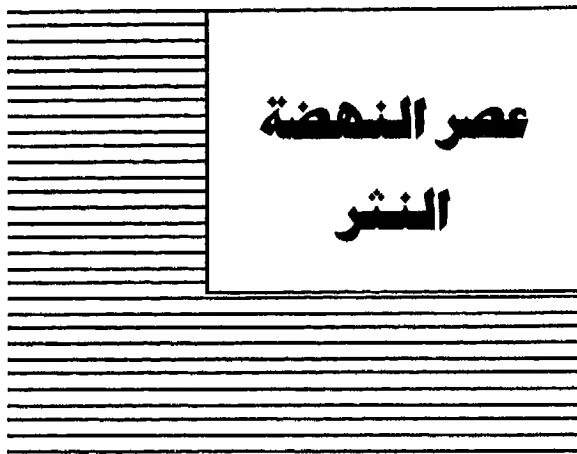
يذكرنا حسين قَسَام المعوز الدائم الذي قلما يجد ما يقيت به أسرته بأبطال المقامات كأبي الفتح الاسكندراني صاحب بديع الزمان الهمداني وأبي زيد السروجي صاحب الحريري وميمون بن خزام صاحب الشيخ ناصيف اليازجي ، وغيرهم من الذين يجتالون لنيل رزقهم بشئ الحيل الأدبية واللغوية والتمثيلية . وكان حسين قَسَام ينتظر قدوم الزوار الهنود والأفغانيين والأعجام إلى النجف ، فيقيم لهم المآتم الحسينية والعلوية ويستدرّ بكاءهم بخطبه الرنانة الفارغة وتعازيه السفسطائية ، وهم لا يفهمون كلامه بل يتأثرون بكلماته وحركاته ، ولا ييخلون عليه في آخر الأمر بالنقود ، ثم يمشون راضين حاسبين أنهم قضوا واجباتهم الدينية .

أدب اللامعقول

LITERATURE OF THE ABSURD, OR IRRATIONAL LITERATURE

ظهر في أوربة في منتصف القرن العشرين مسرح اللامعقول ، وهو تطوّر حديث للرمزية والوجودية والسرالية وما يكتنفها من غموض وإبهام ، يرمي إلى تجسيم سخافة الحياة وتهافتها واستحالتها . وتَمَن بَرَز فيه أوجين يونسكو EUGENE IONESCO والأديب الفرنسي الإيرلندي الأصل صموئيل بيكيت SAMUEL BECKETT . وحذا توفيق الحكيم حذوهم فوضع مسرحيته «يا طالع الشجرة» .

وإذا دققنا شعر عبود الكرخي وحسين قَسَام وغيرهما من شعراء العامية نجد أنهم سبقوا أولئك الأدباء الغربيين في أدب اللامعقول . ومن أمثلة ذلك قصيدة المستحيلات المنشورة في ديوان الكرخي والكثير من قصائد حسين قَسَام كتلك التي نظمها يواسي صديقاً له سرق متاعه القليل ووصية الريفي المعدم عن توزيع تركته الهزيلة الخ .



محمود شكري الألوسي

العالم البحّاث الذي أحيّا سنّة جدّه شهاب الدين محمود الألوسي وضرب مثلاً سامياً في الزهد والقناعة والتجرد للعلم . ولد في بغداد في ١٢ أيار ١٨٥٧ وتوفي بها في ٦ أيار ١٩٢٤ . وقد ترجمت له ترجمة وافية في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية» .

قال الدكتور علي المحافظة الأردني في كتابه «الإتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ١٧٩٨ - ١٩١٤» (بيروت ١٩٧٥) : «كان محمود شكري الألوسي مصلحاً دينياً سلفياً جمع بين مبادئ الدعوة الوهابية في الاعتماد على القرآن والسنة ومحاربة البدع الدينية والطرق الصوفية وبين مبادئ النهضة العلمية العربية الحديثة في الاهتمام بالعلوم غير الدينية مثل التاريخ والفلك» .

علي علاء الدين الألوسي

قاضي بغداد علي علاء الدين بن نعمان خير الدين بن محمود شهاب الدين الألوسي ، ولد في بغداد في ١٧ شباط ١٨٦١ . أخذ العلوم العقلية والنقلية عن والده وعن الشيخ عبد الوهاب النائب وإسماعيل الموصلي وابن عمّه محمود شكري الألوسي . وقد أرسله والده سنة ١٨٨٢ الى الهند ، فاجتمع بالسيد صديق حسن خان (١٨٣٢ - ١٨٨٩) ملك بهوبال وفاتحه في طبع مؤلفات أبيه وجدّه ، وأخذ عنه الحديث فأجازه إجازة عامة . ثم قصد الأستانة مع والده سنة ١٨٨٣ ، فانتفى الى مدرسة القضاة وتخرّج فيها .

وولي القضاء في عدة مدن في فلسطين وبلبك والعمارة والديوانية . وعهد إليه ، على أثر وفاة أبيه سنة ١٨٩٩ ، بالتدريس في مدرسة مرجان وجامع الشيخ صندل ببغداد .

وانتخب نائباً عن بغداد في مجلس النواب العثماني بعد إعلان الدستور (١٩٠٨) الى حلّه في ١٨ كانون الثاني (١٩١٢) . ولما نشبت الحرب العامة أوفد مع محمود شكري الألوسي بمهمّة الى أمير نجد عبد العزيز آل سعود (تشرين الثاني ١٩١٤) . وعاد الوفد

في نيسان ١٩١٥ ولم يفلح في مسعاه لحمل الأمير على مناصرة الدولة العثمانية . واختير بعد ذلك عضواً بمجلس الولاية العام .

احتل الإنكليز بغداد ، فعين علي علاء الدين قاضياً لها سنة ١٩١٧ . ثم أصيب بالبالج وتوفي ببغداد في ٧ كانون الثاني ١٩٢٢ .

ذكره إبراهيم الواعظ فوصفه بالرزانة والخلق المتين ، وأشار الى معارضته لسياسة الاتحاديين الأتراك . وقال : « ثم عرفته قاضياً بعد الاحتلال البريطاني ، وكان صلباً في رأيه ، متمسكاً بدينه . وقد كلفه ناظر العدالة بونهام كارتير البريطاني بالموافقة على استبدال أموال الأوقاف ، فلم يوافق وبقي مصرّاً على رأيه الى أن توفاه الله » .

مؤلفاته وشعره

ترك علي علاء الدين الألوسي مؤلفات ، منها كتاب الدرّ المنتثر في رجال القرن الثاني عشر والثالث عشر (طبع ١٩٦٧) ، وبجاميع ضمّنها نوادر وأخباراً وطرائف من شعره . ونظم الأجرومية وكتب تعاليق وحواشي على كتب كثيرة . وقد آلت معظم تصانيفه المخطوطة الى عباس العزاوي تلميذه وكاتب المحكمة الشرعية في عهده .

ونشر كتباً منها : نقد مقامات الحريري لابن الخشاب (١٩١٠) والحباء في الإيضاء لنعمان الألوسي (١٩١٠) وسيرة الرسول لعبد الباسط زين الدين الملطي القاهري الحنفي المتوفى سنة ١٥١٤م (١٩١٠) وكتاب التوحيد للإمام جعفر الصادق (١٩١٢) .

ونقل عن الفارسية رسالة للطوسي في معرفة التقويم .

كان ينظم الشعر مقلداً . وقد نظم ارجوزة في سور القرآن وقصائد في مدح جمال الدين شيخ الإسلام سماها «روضة الإفهام» .

ومن شعره رثاؤه لصديقه مصطفى نور الدين الواعظ ، قال :

أسفاً لقد حلّ الحيام بفاضل	من فقده الزّوّرا بأمر باهظ
قد كان في علم الشريعة حافظاً	ولسنة المختار جسد محافظ
ولله اليراع العضب يعرف ثغره	للدين خير مؤازر وملاحظ
ففضى حقوق العلم غير مقصّر	بكتابة وخطابة ومواعظ

وقال في السمر والبيض :

قالوا : جعلناك فما بيننا حكماً	في السمر والبيض ، قلت : أضغوا لتعريضي
كلا الفريقين عندي جبههم حسن	لكنّ في السمر معنى ليس في البيض

وذكر إبراهيم الواعظ أنّ محمد رشيد رضا صاحب المنار زار بغداد سنة ١٩١٣ فحلّ

ضيفاً على بعض وجهائها . ولم يتمكن علي علاء الدين الألوسي من زيارته لبرود كان بينه وبين الوجهيه صاحب الدار، فأرسل إليه بالأبيات التالية معتذراً :

أهلاً بيدر دنا، والدار نائية، والقلب من أهلها - حاشاك - نَفَار
إني أحبيك من بعد على ثقة بالود منك ودون القرب أعذار
قد يترك الماء محتاج إليه وقد تُعاف للهون أوطان وأوطار
لو كانت النار ما عاقتني ثانية عن الزيارة، إلا أنه العار

ولي علي علاء الدين القضاء أعواماً طويلة في العهد العثماني وعهد الاحتلال ، وكان يرى فيه رسالة سامية لإعزاز الحق ونصرة الضعيف . قال في ذلك :

إن القضاء هو البلاء، فلا تكن متعرضاً فتصاب من سوء القضا
وإذا ابتليت به على كُره فخذ نهج العدالة إنها سبب الرضا
وقال متشوقاً إلى بيروت :

لإخوان الصفاء محضت ودي فأغنىوني بهم عمّن عداهم
تري عيني جميع الناس فيهم وإني لست في المعنى سواهم

وقال يحنّ الى العراق :

أومض البرق من ثاييا العراق فاستفاضت له شؤون المآقي
وبدا لامعاً فأجج ناراً تتلظى بين الحشا والتراقي
ليت شعري، وللزمان شؤون، هل يضمّ الأحباب شمل التلاقي؟
ودياري كما أحب دياري ورفاقي كما أحب رفاقي؟

وقال :

روحي وجسمي لما بشتم افترقا فالروح في بلد والجسم في بلد
بالله جودوا بطيف من زيارتكم كي تجمعوا لي بين الروح والجسد

عبد المجيد الشاوي

الأديب البغدادي الظريف صاحب الكلمات اللادعة والاشارات البارعة . ولد في بغداد سنة ١٨٦٢ وتوفي في بيروت في ١٦ أيلول ١٩٢٧ . وكان في العهد العثماني نائباً في مجلس المبعوثان . وأصبح في العهد الوطني وزيراً بلا وزارة ورئيس بلدية بغداد ومتصرف لواء الدليم ونائباً . وعين عضواً بمجلس الأعيان وقد اشتد عليه المرض ، فقال

لما بُلِّغَ بالإرادة الملكية :

أتت وحياض الموت بيني وبينها وجادت بوصل حين لا ينفذ الوصل
ترجعت له في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية، ورويت طرفاً من أدبه ونوادره . وقد ذكره
أمين الريحاني في كتابه «فيصل الأول» فقال إنه حضر مأدبة في البلاط الملكي بشوب
افرنججي عادي ولم يرتدّ اللباس الرسمي . وصفه بأنه ذلك العربي الحرّ الجريء الجامع
بين محاسن البدو والحضر، ذلك الفيلسوف الذي نشر الحكم وما كتبها . وقال : كان له
رأس كرأس سقراط شكلاً ومعنى ولسان كلسان صموئيل جونسون سقراط الإنكليز
بفصاحته ولواذعه .

سمع الريحاني عبد المجيد الشاوي يقول في تلك الليلة : «وهذا الاستبداد الحديث
العهد ، استبداد «الموضة» جاءنا كذلك من الغرب . أما نحن العرب فلا نضيع وقتنا
ومالنا وتعقّلنا في سبيل «الموضة» ، فقد كان ، ولا يزال ، خلاصتنا في بسيط عاداتنا
وسذاجة طباعنا . أنتم تبدؤون حيث يمكنكم أن تنتهوا . أقول : يمكنكم ولا أقول :
يجب أو يجوز أن تنتهوا بهذه الرسميات ، بهذه الترهات» .

فقال رستم حيدر : ولكنك أنت أيضاً خاضع لسلطة الموضة في ثوبك الإفرنججي
هذا ، قابل باستبدادها . فأجاب الشاوي على الفور : وأنا أيضاً حماراً .

رويت عدداً من النوادر المحفوظة عن الشاوي في كتابي المذكور . وأروي هنا بعض
الطرائف الأخرى :

وقف وزير المالية ذات يوم في مجلس النواب وقال في معرض كلامه : أبشركم بزيادة
الضرائب في الميزانية المقبلة . فقال النائب ثابت عبد النور : يا لها من بشرى سعيدة
يشرنا بها معالي الوزراء ! ولم يكن من عبد المجيد الشاوي إلا أن قال : النائب معذور ،
فإنه لم يقرأ قوله تعالى : وبشر الذين كفروا بعذاب أليم (سورة التوبة) .

وكان الشاوي النائب إذا خرج من الجلسة مرّ بكتاب الضبط وقال لهم ما معناه :
«هنئاً لكم ، يا أولادي ، تخرجون كلاماً منمقاً من الأحاديث السخيفة التي تسمعونها في
المجلس» . وقيل إن بعض النواب كانوا يملكون بكتاب الضبط فيلاطفونهم ويرجونهم أن
يصلحوا من الخطب والكلمات المرتجلة التي كانوا يلقونها في قاعة المجلس قبل إثباتها في
المحاضر.

وكان الشاوي في مجلسه عصرًا يحفّ به رجالات بغداد ولفيف من أبناء الأسرة
الشاوية ، فإذا به يسمع منادياً في الطريق ينادي على حمار ضائع ويعد بالحلوان لمن يدلّ
عليه . فأمر بإدخال الرجل وقال له : هل حمارك حساوي أم شاوي ، يا ولدي ؟ فقال :
إنه شاوي ، يا سيدي .

وأشار عبد المجيد بك إلى أفراد أسرته وقال له : دونك هؤلاء الشاوية ، فاختر واحداً

منهم بدل حمارك ، والعوض على الله .

قام الملك فيصل الأول ذات مرة بزيارة للألوية مصطحباً بعض وزرائه وخواصه ومنهم عبد المجيد الشاوي . ولما وصل الموكب الملكي الى العمارة ، وكان متصرف اللواء عبد الله الدليمي ، نزلوا في دار المتصرف الذي وقف وموظفيه في خدمة الملك . وكان الشاوي يكره الدليمي ويعلم أن هذا الضابط العسكري السابق والإداري اللاحق قد تزوج من مطلقة الأمير زيد ، فأسر الأمر في نفسه .

وفي الصباح بينما كان الملك وحاشيته يتناولون طعام الفطور والمتصرف واقف في خدمتهم ، قال الشاوي : أليس من المناسب ، يا سيدي صاحب الجلالة ، أن نقرأ شيئاً من القرآن الكريم ؟ وعجب الملك ، وهو يعرف مخاطبه لا يعبأ كثيراً بأمر الدين ، فقال له : تفضل أقرأ . وقرأ عبد المجيد الشاوي في سورة الأحزاب ﴿ فلما قضى زيد منها وطراً رزقناها ﴾ . فخجل المتصرف وانصرف .

والأسرة الشاوية التي ينتمي إليها عبد المجيد من أسر العراق القديمة تنتسب الى شاوي الشاهري الحُمَيْرِي رئيس قبيلة العُبَيْد من عشائر زُبَيْد ، ورد ذكره لأول مرة سنة ١٧٠٧ حين ذهب مع ولي بغداد حسن باشا لتأديب قبائل زيد والدليم . وكان ابنه عبد الله بك الشاوي «باب العرب» أي مدير شؤون العشائر في مقرّ الولاية ، قتله الولي عمر باشا سنة ١٧٦٩ . وعلى أثر ذلك نهض ولداه سليمان بك وسلطان بك فحشدا عشيرتهما في ناحية الدجيل وأحدثا اضطراباً .

وكان سليمان بك بن عبد الله بك أديباً شاعراً تولى منصب «باب العرب» أيضاً ، وقد قتله الولي سليمان باشا سنة ١٧٩٤ . وانتدب محمد بك بن عبد الله الشاوي في حملة أرسلها الولي سليمان باشا الى الأحساء لمحاربة الأمير سعود بن عبد العزيز . واتهم إثر عودته بالميل الى المذهب الوهابي فقتل سنة ١٨٠٢ .

وعرف من متأخري أبناء الأسرة الشاعران أحمد بك الشاوي (١٨٢٨ - ١٨٩٩) وولده عبد الحميد بك المتوفي في البصرة سنة ١٨٩٨ ، وأحمد توفيق بك بن سالم بك (١٨٤٤ - ١٨٩٥) وكان موظفاً إدارياً تولى قائممقامية أقضية الشامية والسماعة والديوانية وخانقين .

رثاه إبراهيم صالح شكر عند وفاته فقال : «شعلة ذكاء متقدة عصف المنون بها فانطفأت وتركت في جوانب النفوس كآبة مظلمة ولوعة مدلهمة» .

وصف نفسه المراحة التي لم يلاطفها غير الأدب الغصّ وروحه اللطيفة الجذابة التي ملؤها الظرف والكياسة . وذكر دعابته الحلوة اللذيذة والبهادة الحافلة والحديث الطلي

الشهي المملوء عظة وعبرة والروعة اللامعة المبتسمة . ونعته بشيخ الشباب النابه وفتى الشيوخ الأفاضل .

إغناطيوس أفرام الرحماني

إغناطيوس مار أفرام الثاني الرحماني بطريرك أنطاكية على السريان الكاثوليك ومن علماء التاريخ واللغات الشرقية ، ولد في الموصل في ٧ تشرين الثاني ١٨٤٨ ، وكان اسمه لويس بن إبراهيم رحماني . درس اللاهوت في روما ورسم كاهناً (١٨٦٣) ثم عاد الى مسقط رأسه واختير نائب أبرشية الموصل سنة ١٨٨٠ . ثم كان أسقفاً للرها (١٨٨٧) وبغداد (١٨٩٠) وحلب (١٨٩٤) واختير بطريركاً لطائفته في ماردين (ت ١٨٩٨) .

وقد نقل مركز البطريركية الى بيروت سنة ١٩٠٢ وأصدر مجلة الآثار الشرقية سنة ١٩٢٦ . واختاره البابا بنديكتوس الخامس عشر مستشاراً للمجمع الشرقي في روما .

كان يحسن لغات متعددة قديمة وحديثة منها العربية والفرنسية والإيطالية والسريانية واليونانية واللاتينية والعبرية ، وله معرفة بالخطوط المسهارية والكوفية . وقد توفي في القاهرة في ٧ أيار ١٩٢٩ ودفن في لبنان .

من مؤلفاته : مقالة في سوريا (١٩٢٦) مقالة في مملكة آشور (١٩٢٦) المباحث الجلية في الليتورجيات (الطقسيات) الشرقية والغربية (١٩٢٤) مختصر التاريخ القديم (١٨٧٧) مختصر تاريخ الأجيال الوسطى (١٨٧٧) مختصر التاريخ المقدس (١٨٨١) الخ . ووضع عدا ذلك قاموس اللغة السريانية ومصنفات باللاتينية والفرنسية والسريانية .

قال يوسف أسعد داغر في الجزء الثاني من كتابه «مصادر الدراسة الأدبية» إن البطريرك رحماني «استخدم معارفه الواسعة في علوم الدين والدنيا في حث البحث العلمي الدقيق وأمد الثقافة والتاريخ المدني والكنسي بهذه الدراسات المخدمومة التي نشرها بمختلف اللغات وبذلك المقالات المستفيضة البحث التي دبجها في شتى العلوم والموضوعات التاريخية واللغوية والكتابية . . .» .

آدي شير

المطران آدي شير إبراهيمنا ولد في شقلاوة في شمالي العراق في آذار ١٨٦٧ ، ودرس بمدرسة الآباء الدومنيكيين في الموصل ، وتعلم اللغات العربية والكلدانية والتركية والعبرية والفارسية والكردية واللاتينية والفرنسية . ورسم مطراناً على سمرقند سنة ١٩٠٢ ،

وقتل في بعض قراها في أوائل الحرب العامة في آب ١٩١٥ خلال المذابح التي تعرض لها أبناء أبرشيته .

وضع مؤلفات كثيرة منها: الألفاظ الفارسية المعربة (١٩٠٨) التاريخ السعدي (المؤلف نسطوري مجهول، حققه وترجمه الى الفرنسية في جزئين ١٩٠٧ - ١٩٠٨) تاريخ كلدو وآثور (في جزئين ١٩١٢ - ١٩١٣) . مدرسة نصيين الشهيرة (١٩٠٥) . ومن مؤلفاته الفرنسية المطبوعة في باريس: حوادث من تاريخ كردستان (١٩١٠) تاريخ محمد باشا المعروف بمير كور (١٩١٠) دراسة إضافية عن الكتاب السريان الشرقيين (١٩١٠) الخ . وعرب كتاب «شهداء الشرق» في مجلدين (١٩٠٠) .

كان المطران أدي شير في مقدمة العلماء الباحثين الذين تحووا أصول الكلمات واجتهدوا في إرجاعها الى مصادرها . وقد قال اللغوي الدكتور إبراهيم السامرائي الأستاذ في كلية الآداب في جامعة بغداد :

«أظن أن تجربة أدي شير صاحب «الألفاظ الفارسية المعربة» وتجارب الآخرين . . . غير موفقة، لأنهم جاروا على العربية . فقد زعم غير واحد من هؤلاء الآباء الموقرين أن «كتب» و «قرأ» من المواد السريانية وهي دخيلة في العربية . ولا أدري كيف فاتهم أن هذه المواد العربية هي سامية الأصول، فوجودها في العربية والسريانية والعبرانية والأكدية والآشورية وغير هذه من وجود اللغة السامية الأم .

على أي لا أنكر أن يكون في العربية دخيل معرب اقتبسته العربية في عصور مختلفة من لغات عدة لسبب من الأسباب، وقد أشار الى ذلك القدماء والمحدثون» .

انستاس ماري الكرمل

البحثة اللغوي والمؤرخ المحقق الأب انستاس ماري الكرمل، واسمه قبل أن يترهب بطرس ميخائيل ماريني، ولد في بغداد في ٥ آب ١٨٦٦ وتوفي بها في ٧ كانون الثاني ١٩٤٧ . أصدر مجلة لغة العرب الشهيرة وانتخب عضواً بالمجمع العلمي العربي في الشام عند تأسيسه سنة ١٩٢٠ وعضواً بمجمع اللغة العربية في القاهرة .

وضع قاموساً ضخماً بعنوان «المساعد»، طبع منه جزآن سنة ١٩٧٢ و١٩٧٦ بعناية وزارة الإعلام العراقية وتحقيق كوركيس عواد وعبد الحميد العلوجي، وهما يتناولان حرف الهزمة وقسماً من حرف الباء فقط . والمساعد إنما هو قاموس القاموسيين، فليس هو بالمعجم الاعتيادي الذي يفيد منه القارئ والمتعلم والأديب، بل هو ثبت للكلمات الغربية والأصول اللغوية وقياس اللغات واللهجات مع جولات في الجغرافية والتاريخ وأساطير الأمم وتتبعات في الكتب القديمة والحديثة ومناقشات للأراء والأسماء والأقوال والأفعال واستطرادات أدبية وعلمية وفكرية وشعبية عامة . . .

وعني الأب انستاس بتحري تطور معاني الكلمات ودلالاتها وإن كان يشدد على المعنى الأصلي ويعتد المعنى الجديد في كثير من الأحيان غير فصيح . وقد ناقشته مراراً في هذا الموضوع وقلت إن اللغة كائن حي يتطور بتطور الزمن وظهور حاجات التعبير عن معاني العصر . فلا بد إذن من الاعتراف بأن الكلمات في جميع اللغات تتحوّر وجوه استعمالها : مثال ذلك أن (القهوة) في العربية كانت تطلق على اللبن المحض والخمرة ثم اتخذها المولّدون علماً للبنّ . و (القرن) يعني حقبة من الزمن ثم اختص ببائة سنة فقيل : القرن التاسع عشر والعشرون . . . و (الوجدان) مصدر للوجود ثم أطلق خصيصاً على الضمير والنفس . و (المقارنة) في الأصل المصاحبة والاقتران والجمع ثم أخرجت الى معنى المقايضة والمفاضلة . و (الثقافة) أتت بمعنى التقويم والحدق فصرفت الى معناها الحاضر وهو الحضارة الفكرية وتهذيب العقول والأخلاق ، لتتفرّع الى معنى كلمة (كولتور) الألمانية والفرنسية و (كلشر) الإنكليزية . وهذه الكلمة الغربية نفسها (كولتور) كانت تعني في بادئ الأمر الزراعة والعبادة والتحسين ولم تطلق على مفهوم الثقافة الحاضر إلا في أوائل القرن التاسع عشر .

ولا يزال الكتاب والمتكلمون يخرجون للكلمة معنى جديداً على صواب أو على خطأ فيشيع ويعمّ استعماله ويعسر على الفصحاء استئصاله . وليس ذلك بدعاً في العربية : فقد نبّه الدكتور مصطفى جواد على كلمة (الصمود) وقال إن العرب لم تعرف الصمود مصدراً وإنما المصدر (الصُمْد) كالقصد وزناً ومعنى . فإذا كان العرب قد استعملوا الصمد في حروبهم للقصد والسير الى العدو، فكيف يستعمل للشبات والقرار وهو عكس معناه؟

ونبه الدكتور جواد أيضاً ، وهو تلميذ الكرمل ، على كلمة (الاستهتار) فقال إن معناها الغرام والولوع بالشيء وأخطأ المحدثون في استعمالها بمعنى التهاون بالشيء والاستهانة به ، كأن يقال : فلان مستهتر بالقانون . وقالوا (الهاوي) وجمعها (الهواة) بمعنى المحبّ وغير المحترف كالموسيقيّ الهاوي والمصارع الهاوي وهواة الطوايع وفصيحها (الهوي) بلا ألف ، إذ معنى الهاوي لغة : الساقط والجراد الخ . وكرر مصطفى جواد تنبيهه وبخّ صوته في «قل ولا تقل» ، لكن جمهور الكتاب والقراء لم يبالوا بذلك التنبيه واستمروا على أخطائهم لا يرضون عنها بديلاً .

وقد ترجمت للكرمل ترجمة وافية في «أعلام اليقظة الفكرية» فليرجع اليها .

الأب أوغسطين مرمجي

من علماء اللغة العربية الراهب الدومنيكي أوغسطين مرمجي ، وهو أوغسطين سبستيان ابن يوسف المعروف بالمرمجي ابن جرجس بن شمعون الحائك الموصلّي الأصل . ولد ببغداد في ٣١ تموز ١٨٨١ من أبوين موصليين ودرس في مدرسة الاتفاق

الكاثوليكي . ثم أرسل الى الموصل وانتمى الى المدرسة الأكليريكية الدومنيكية ، ورسم قسيساً سنة ١٩٠١ .

عاد الى بغداد سنة ١٩٠٦ وعيّن معلماً للعربية في مدرسة الطائفة السريانية . وأخذ يكتب المجلات الشهيرة كالمشرق والبشر البيرونيين والمقتطف والهلل المصريين . وبعد ستة عشر عاماً مضى الى فرنسا واعتزل في بعض أديرتها سنتين . واختير سنة ١٩٢٥ مدرّساً في المعهد الكتابي والآثاري الفرنسي بالقدس الشريف . وانتخب عضواً بالمجمع العلمي العربي في دمشق وعضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية في القاهرة .

إختص الأب مرمرجي بدراسة العربية ومقايستها بسائر اللغات السامية ، ووضع مؤلفات في هذا الموضوع ، منها : المعجمية العربية على ضوء الثنائية والألسنية السامية (١٩٣٧) هل العربية منطقية ؟ (١٩٤٧) معجميات عربية سامية (١٩٥٠) .

وألّف أيضاً : بلدانية فلسطين العربية (١٩٤٨) ، [وقد ترجمه الى الفرنسية أيضاً وطبعه في باريس] ، العلاقات بين الأسرة والألفة الاجتماعية ، محاضرات مختارات في الدين والفلسفة والاجتماع (١٩٤٧) ، الخ .

وكانت له مناقشات لغوية مع الأب أنستاس ماري الكرملّي والبطريرك إغناطيوس أفرام برصوم .

أدركته الوفاة في القدس في ٢٩ نيسان ١٩٦٣ .

يعقوب سركيس

أمضي فتبقى صوري ، فتعجبوا : تمضي الحقائق والرسوم تدوم
أهداني يعقوب سركيس صورته قبل سنوات فكتب عليها هذا البيت من نظم ناصيف اليازجي . ولم تمض على ذلك أشهر قليلة حتى أعياه الصمم وأوصاب الشيخوخة فاعتكف في داره منقطعاً عن أصدقائه مغلداً الى وحشته وانفراده . ووافته منيته ببغداد في مساء الأربعاء ٢٣ كانون الأول ١٩٥٩ قبيل منتصف الليل . وكذلك انطوت صفحة ناصعة من صفحات الحياة الإنسانية ، صفحة حياة شيخ وقور انصرف الى البحث والتحقيق ودقق صحائف مجهولة من تاريخ وادي الرافدين وجمع خزانة كتب فريدة حافلة بنفائس المخطوطات والمطبوعات .

ولد يعقوب نعوم سركيس في بغداد في ٢١ آب ١٨٧٦ من أسرة حلبيه الأصل ودرس في مدرسة اللاتين فتعلم العربية والفرنسية والتركية . ولما تخرج في مدرسته عهد إليه بالتدريس فيها أمداً وجيزاً في محل أحد المعلمين الغائبين . ثم ألحقه أبوه بعمل كتابي في

بعض البيوتات التجارية ليتعلم المراسلة والمعاملات . ولم يبلغ السابعة عشرة من عمره حتى توفي أبوه نعيم سركيس ، وكان ملتزماً لمقاطعات في أنحاء المنتفك وملاكاً فيها ، فتعهده عمه بولس وأخذه معه الى الشرطة للإشراف على مزارع الأسرة . ومنذ ذلك الحين أمضى أربعين سنة أو نحوها يخرج في كل سنة الى أنحاء الشرطة والحلي وقلعة سكر والناصرية ليعيش شهراً في الخيام أو الدور القروية متعهداً أملاكه وزراعتة . ولم يشذ عن تلك القاعدة إلا في سني الحرب العالمية الأولى وبعض السنوات الأخرى ، ثم انصرف عنها بعد أن اجتاز سن الكهولة . وكثيراً ما كان يتهجج بأنه نصف بدوي أو فلاح لقضائه معظم أيام حياته في القرى والأرياف واعتياده معيشة الخيام وركوب الخيل ومجالسته للزراع ورجال العشائر ومعرفته بعاداتهم وآدابهم وأهازيجهم . وكان محافظاً يلزم نفسه بالتقاليد القديمة ويقول في كل مناسبة تعرض : «قطع الخشوم ولا قطع الرسوم» يريد بذلك وجوب التقيد بالأصول والرسوم ولو أدى الأمر الى جذع الأنوف والإرهاق والأذى . وكذلك أصبح يعقوب سركيس قطعة من تربة الوطن وجزءاً لا يتجزأ من تاريخه قبل أن يتصدى لتدوين صحائف من أحداثه وشؤون رجاله وبقاعه . وقد ورث عن آله ميلاً الى جمع الوثائق والرسائل والمخطوطات ، فانصرف الى هذه الهواية منذ نعومة أظفاره . ثم استبدت به هذه الهواية فجمع خزانة كتب ضخمة ضمت نفائس لم يتيسر اقتناؤها إلا ببذل المال الوفير وإنفاق سنين تربو على الخمسين . وقد حدثني مراراً عن المتاعب التي لقيها في شراء الكتب ، لا سيما في صدر شبابه في أثناء عهد الاستبداد الحميدي . فلقد كان بيع عدد كبير من الكتب ودوائر المعارف محظوراً لاحتوائها على مباحث في الحرية والنظريات الاجتماعية والاقتصادية . واضطر الشاب يعقوب سركيس أن يكلف صديقاً له زار أوربة في مطلع القرن الحاضر - وكانت تلك الرحلة من الأحداث النادرة آنذاك - كلفه بتهريب نسخة من دائرة المعارف الفرنسية ليضمها الى مكتبته ، وبقي باحثنا يحتفظ بهذه النسخة ويحرص عليها الى آخر حياته .

وقد أشرف باحثنا على الأربعين من عمره دون أن تخطر الكتابة ببالة . ثم أصدر الأب انستاس ماري الكرملي مجلته «لغة العرب» فشجعه على تدوين معلوماته عن المنتفك ، فكتب نبذة عنوانها «خواطر في المنتفق وديارهم» بتوقيع مستعار . لكن يد الأب تناولت هذه النبذة بالتنقيح والتصحيح حتى «شوحتها» فطواها يعقوب سركيس وأغفل نشرها في مجموعته .

بيد أن تلك النبذة كانت فاتحة عهد جديد في حياة الأستاذ يعقوب ، فقد واصل الكتابة منذ سنة ١٩١٣ ونشر مقالاته وبحوثه الممتعة في مجالات وصحف عديدة كمجلة لغة العرب وغرفة تجارة بغداد والنجم الموصلية والاعتدال النجفية والأدب والفن اللندنية ومعالم الغد والبيان والجزيرة وسومر والنور والمجمع العلمي العراقي وجريدة البلاد والزمان والعراق والأخبار والشعب والطريق والأوقات العراقية الخ . وقام بعد

إلحاق شديد من أصدقائه بجمع مقالاته في كتاب «مباحث عراقية» في الجغرافية والتاريخ والآثار وخطط بغداد الخ ، فأصدر القسم الأول سنة ١٩٤٨ بتقديم محمد رضا الشبيبي ، وأردفه بالقسم الثاني سنة ١٩٥٥ وقد قدمه رفائيل بطي ومير بصري .
تضمن هذان الجزآن أغلب كتاباته التي تستوعب مجلدين آخرين .

واختاره المجمع العلمي العراقي في كانون الأول ١٩٤٩ عضواً فخرياً فكتب مقالات نفيسة في مجلة المجمع أهمها بحثه في النقود العراقية الذي جاء بشكل تعليق على كتاب الأب انستاس الكرملي في النقود العربية وعلم النميات ، وهو بحث مسهب يشكل كتاباً متوسطاً قائماً بذاته . وترجم يعقوب سركيس في أخريات أيامه الفصول المتعلقة ببغداد من رحلة أوليا جلبي ، نقلها عن اللغة التركية وشرع بكتابة الحواشي والتعليقات مما قدر له أن يتجاوز المتن ، لكن الزمن لم يسعفه لإنجازها .

وطريقته في الكتابة والبحث أن يراعي الدقة ويتحرى التفصيل ، لكن قلمه لم يكن يطاوعه - على ما كان يقول - فكان يصرف في كتابة البحث أو المقالة أياماً وأسابيع يراجع المصادر وينقل النصوص ويزن كل كلمة وعبارة خشية مجانبة الحق أو إساءة التعبير . وكان قلماً يعنى بطلاوة الأسلوب وجمال الصياغة ، فلم يكن يعتبر نفسه أديباً وإنما كان يرمي الى الإفادة دون أن يهجم الإمتاع . وكنت أعرض عليه أحياناً شيئاً من شعري أو كتاباتي الأدبية فكان يقرأها يامعان ثم يقول متواضعاً في صراحته المعهودة : «لعل هذا جيد ، ولكنني لا أستطيع الحكم» . أو ما كان في هذا المعنى . ومن أمثلة دقته أنه كتب ذات يوم يرد على أحد الأدباء في موضوع تاريخي فأشار الى إسم الكاتب «فلان الملقب نفسه بالفلاي» . فلما سألته لماذا لم يكتب «فلاناً الفلاي» كما هو المؤلف قال «إن هذا الرجل يدعي الانتساب الى قوم مضوا ، فإذا ذكرت اسمه على علاته حسب مني ذلك إقراراً بنسبه» .

ولقد تحدثت قبل سنوات طويلة عن يعقوب سركيس الباحثة المؤرخ فقلت : حظي يعقوب سركيس بالصفات المطلوبة في المؤرخ المحقق ، فأولع منذ حدثته بتتبع الأخبار واستقصاء الأنباء ، وأوتي جلدأ على التمهيص والتنقيب ، ومعرفة بلغات تعين على الإستطلاع والاستقراء ، وبصيرة نقادة تحاكم الوقائع وتميز بين المعقول والمخلوق ، وغيره على الحقيقة لا ترضى عن الصدق بديلاً ، وروحاً علمياً ينزع الى التدقيق والتحقيق يذلل الصعاب ويهزأ بالنصب والعناء . ورزق الى جانب ذلك قلماً إن يكون رزين العبارة غير مشرق الديباجة ، فإنه واضح الأسلوب قريب المتناول بعيد عن التعسف والتكلف لائق بالبحث العلمي التاريخي . إختص سركيس بعهود مجهولة من تاريخ هذه البلاد وأتيح له أن يجمع وثائق ومخطوطات نادرة ثمينة ذات صلة بهذه الحقبة من الزمن وأن يرث من أسرته أوراقاً يرجع أقدمها الى نيف ومائة سنة ، ويحوي بعضها معلومات ذات شأن لم ترد في مرجع معروف ويفسر وجودها هذا الميل المتأصل في نفسه الى التحقيق والتدوين .

ومن أئمن ما ضمته خزانة كتبه مجموعة كبيرة منقطعة النظير من الرحلات الى العراق لمختلف الرحالين الذين أتوا هذه البلاد منذ أقدم العصور حتي عهدنا الحاضر. وهذه المجموعة التي بذل صاحبها في سبيل الحصول عليها جهداً ومالاً وفيرين، كتبت بلغات مختلفة وفيها المطبوع والمخطوط، ومعظمها نادر عسير التطلاب. وإذا كان باحثنا قد جد في طلب هذه المصادر القليلة الشهيرة وأنعم النظر في ثنائها، فلا بدع أن جاءت أبحاثه غزيرة المادة طريقة الموضوع كاشفة لمناح مجهولة من تاريخ هذه البلاد في الأزمنة الأخيرة. ولا شك أن هذه الأبحاث سوف تبقى أسانيد تاريخية جليلة القدر كبيرة القيمة.

لقد عرفت الراحل الفاضل عشرين سنة ونعمت بصحبته وتمتعت بأحاديثه وأخذت من علمه وفضله وطالعت من مكنونات خزانته ما شئت ورغبت، فوجدته، على ما بيننا من فارق السن، نعم الصديق الوفي الكريم والرجل المهذب الوقور والعالم المتخلق بأفضل الأخلاق والمتبع لسنن العدالة والحق والمتسم بالرصانة والصراحة والصدق. لقد كان عصامياً بالرغم من ثروته وجاهه، وكان معتدلاً في كل أموره مبتعداً عن التفریط والإفراط، وكان حليماً واسع الصدر متواضعاً للصغير والكبير، فيا لأسفي على فقده ويا للوعتي وأساي على وفاته. إن الجيل الذي أنجبه قد مضى وانطوى في ذمة التاريخ، وقد بقي فقيدنا الى آخر أيامه مثلاً حياً لأبائنا الجادين الأخيار البسطاء وأ نموذجاً طيباً لأحسن صفاتهم وشئائهم. فيا أيها الشيخ النبيل والراحل الفاضل الجليل، لقد ألمني المصاب وأخرسني الحزن والشجن، فماذا أقول في تأبينك وكيف أثني عليك وأعدد ما شهدت من مزاياك وسجاياك؟ إنك حي في نفوس عارفيك، مأثور الفضل منشور الذكر، وقديماً قال المتنبي:

كفل الشاء له برد حياته لما انطوى فكانه منشور

آثاره ومصادره:

إن أبحاث يعقوب سرکيس ودراساته سوف تبقى مصدراً من مصادر تاريخ العراق في العهد العثماني الأخير يرجع اليها مؤرخ المستقبل في تحقيق موضوعه وتدوينه. وقد كان فقيدنا مولعاً بمباحثه يحبها حباً جماً ويتلذذ بكتابتها وتدقيقها وإعادة النظر فيها. وكان يقول: «أظن كتاباتي جيدة، ولكنني كالأب يجب أولاده في جالهم ودما متهم». وكان يتبجح - وهو الرجل المتواضع الذي يؤثر العزلة ويتحاشى الظهور - فيقول: «إن المصادر التي هيئت لي قلما هيئت لغيري . . .».

إن دراستنا لسيرة البحاثه الراحل لا تكون كاملة إذا لم نردفها بنظرة عامة في آثاره ومراجعته. إن كتابات يعقوب سرکيس التي دونها ونشرها خلال حقبة تنيف على

الأربعين سنة تتناول مواضيع شتى وتستند جميعها الى مراجع مخطوطة أو نادرة. ومن أهم هذه المواضيع :

١ - تاريخ المنتفق وآل السعدون ، وقد كتب في هذا الموضوع صفحات كثيرة اعتمد في أغلبها على وثائق ذات شأن وصلت إليه من أبيه الذي كان وثيق الصلة بآل سعدون .

٢ - خطط بغداد وأثارها كمنارة سوق الغزل وجامع الخلفاء والمدرسة المستنصرية وجامع قمريه والمدرسة العمريه ودار المسناة والقصر العباسي وخان جفالة زادة المعروف بخان جفان الخ .

٣ - بحوث أثرية كموقع خرائب تلو (تل هواره) وواسط وطاق كسرى .

٤ - بحوث في طائفة من مدن العراق كالبصرة والنجف والعمارة والكوت والبغيلة والتون كوبري .

٥ - بحوث في الملل والنحل كاليزيدية وعقائدهم .

٦ - تراجم أشخاص كنظمي وآله وإبراهيم يحيى العاملي وحكيم زاده البغدادي .

٧ - شؤون العشائر كآل قشعم وقبيلة العزة .

٨ - طرائف تاريخية كرحلة أول عراقي الى العالم الجديد وظهور حوت في دجلة والأسود في العراق واشتداد الحر وسقوط الثلج ومقاييس الماء وظهور أول سيارة وأول طيارة في بغداد وهلم جرا .

٩ - مباحث في تاريخ العراق الاقتصادي . وضع يعقوب سر كيس دراسات ذات قيمة في هذا الموضوع . وقد سأله ذات مرة أن يجمع هذه الشذرات والمقالات بين دفتي كتاب يطلق عليه اسماً ذا دلالة على الموضوع ، فقال إنه يؤثر إدراجها في محلها من مجموعة مقالاته بحسب تسلسل تاريخ كتابتها . وقام فعلاً بذلك فنشرها في القسم الثاني من مجموعته «مباحث عراقية» فاستوعبت زهاء ١٦٠ صفحة من القطع الكبير . ويصح أن يضاف إليها بحوث أخرى منها «بعثة جسني رائد الفرات» بصدد الملاحة في هذا النهر (مجلة دار المعلمين العالية - ١٩٤٨) ورسالة مطولة في «النقود والنميات» (مجلة المجمع العلمي العراقي - ١٩٥٠) الخ .

وأستطيع أن أقول إن إقدام يعقوب سر كيس على تدوين مباحث في التاريخ الاقتصادي قد كان بطلب وإلحاح مني . فقد تعرفت عليه في مجلس أنستاس الكرمل في سنة ١٩٤٠ فلم ألث أن دعوته الى الكتابة في مجلة غرفة تجارة بغداد التي كنت أشرف على تحريرها ، كما دعوت فريقاً من أفاضل الكتاب والعلماء أمثال انستاس الكرمل وعباس العزاوي ويوسف غنيمه ومصطفى جواد ودادو الجليبي وهاشم جواد وعبد القادر رشيد وشيت نعمان وغيرهم .

وقد واصل يعقوب الكتابة في هذه المجلة من سنة ١٩٤٠ الى ١٩٤٤ ، فتناول في مواضيعه مبدء زراعة بعض الثمار والخضر في وادي الرافدين ، وتاريخ التبغ والقهوة والنقود العثمانية وآخر العهد بضرها في بغداد ، وواردات العراق بين عهديين ، ورسم الاستهلاك في القرن التاسع عشر، وكمرك بغداد في عهد السلطان مراد الرابع، وتعرفة الاحتساب ، وواردات المنتفق ، وتجارة البصرة في صدر المائة الماضية وهلم جرا . وفي وسعي أن أقول إن كل كلمة خطها وكل رقم ذكره يستند الى مصدر من كتاب قديم أو رحلة نادرة أو وثائق وأوراق خطية عثر عليها في الزوايا والخبايا . ومن المعلومات التي حققها أن زراعة الطماطة والفاصولية والبطاطة حديثة عهد في هذا القطر، وإن التبن قد عرف في العراق منذ مطلع القرن السابع عشر وعرفت القهوة قبل ذلك ، وقد بني أول مقهى في بغداد سنة ١٥٩٠ م . وكانت واردات ولايات العراق الثلاث في أواخر العهد العثماني قبل الحرب العظمى الأولى - على ما خمنه - لا تزيد على ٩٠٠ ألف ليرة . وكان والي بغداد مفوضاً بسك النقود في دار الضرب (السكة خانة) ثم انقطع الضرب في سنة ١٨٣٥ على عهد الوالي علي رضا باشا اللاز .

أما مصادر يعقوب سركيس التي كان يرجع إليها في تدوين مباحثه فأهمها ، بلا ريب ، رحلات الرحالين الذين أموا العراق في القرون الماضية . وقد جمع في مكتبته من هذه الرحلات الشيء الكثير ولا سيما كتب الرحالين الإفرنج الذين جاؤوا الى بلاد الرافدين منذ سنة ١٥٦٥ الى أوائل القرن العشرين . وهذه الكتب بلغات مختلفة كالفرنسية والإنكليزية والإيطالية والألمانية والتركية ، ومعظمها مطبوع قبل مئات السنين ، وهي تجلو صفحة خفية من تاريخ هذا القطر وأحواله المعاشية والاقتصادية والسياسية .

ومن المصادر النادرة التي هيئت لبحاثتنا وثائق آل سعدون التي سبق الإشارة إليها وأوراق ورسائل لآل عهود أسرة والدته - وترجع هذه الأوراق الى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر - وقد استخرج منها فوائد كثيرة تتعلق بأخبار العراق وتجارته في ذلك العهد . وقد رأيت لديه سجلات يومية مخطوطة لعدد من الأشخاص باللغات الفرنسية والإنكليزية والإيطالية ، منها ما يعود الى أوائل القرن الماضي وكان يرجع إليها بين الحين والحين لاستخراج معلومات طريفة وأخبار فريدة . ولا ريب أن أهم تلك السجلات يوميات يوسف زفوبودا البغدادي المتوفى سنة ١٩٠٨ . كان هذا الرجل كاتباً في باخرة شركة لينج التي كانت تمخر عباب دجلة بين البصرة وبغداد ، وقد حرص على تدوين مذكراته يوماً فيوماً باللغة الانكليزية خلال ٤٦ سنة فجاءت في ٦١ دفترًا وقع أغلبها في يدي يعقوب سركيس . كان زفوبودا يدون يومياً ما يسمعه من الأخبار والوقائع وما يحدث له من الأمور غثها وسمينها ، وقد كتب آخر كلماته قبل يومين اثنين فقط من وفاته .

إنني لأذكر هذه الدفاتر جيداً فهي على وفرة عددها بحجم واحد تفتح طولاً ومجلدة بجلد أحمر وقد كتبت بخط دقيق ظهر عليه الضعف واضحاً في الدفتر الأخير. ولغة الكاتب الانكليزية تتسم بالركة والخطأ، وأكثر مدوناته لا تعدو أخباراً شخصية أو عائلية تافهة، حتى ليحتاج قارئها الى حظ وافر من الصبر والجلد. ومع ذلك عكف يعقوب سركيس على مطالعتها سنين طويلة ووضع لها فهارس وجداول واستخرج من آلاف سطورها طائفة من الأخبار والوقائع والطرائف. وحري بالذكر أن معظم هذه الدفاتر آلت الى بحاثتنا قبل أعوام طويلة، ثم وجد في السنوات الأخيرة عدداً من الدفاتر الناقصة فكان فرحه بها عظيماً أشد من فرح الطفل بدمية جديدة يعثر عليها. وكانت معرفة سركيس باللغة الانكليزية ضئيلة فكان يستعين بي وبغيري من الأصدقاء لترجمة ما يريد من أخبارها.

يعقوب سركيس ومخطوطاته

خلف لنا أناتول فرانس، أديب فرنسة الفد، في بعض رواياته شخصية حيّة عجيبة هي شخصية «سلفستر بونار» عضو المجمع العلمي الذي يمثل البهائية المدقق المنصرف الى التنقيب والتحقيق، المعتكف بين كتبه وأوراقه، الناظر بروحه وفكره الى زمان سالف. أولع الأستاذ بونار في صدر شبابه بالتحقيق التاريخي حتى انشغل به عن الزواج. واختص بتاريخ القرون الوسطى التي حجبها سدل من الظلام كثيفة، فأكب على دراسة مظائنها وتحري أخبارها وكشف مجاهلها.

وقف صاحبنا اتفاقاً، في بعض المراجع القديمة، على ذكر مخطوطة فريدة في بابها تضمنت طرماً نادرة من أنباء الحقبة التي أنفق عمره في تحقيق تاريخها، فهم بها وهو لا يدري أباقية هي في إحدى الروايات أم قد ذهبت بها يد الحدثان. أصبحت هذه المخطوطة العدملية منية فؤاد أستاذنا، يحلم بها في يقظته ومنامه ويتغزل بها ويشاقق إليها، والأذن تعشق قبل العين أحياناً. ومرت السنون وهو على عهداها مقيم، حتى أتبع له ذات يوم أن وجد اسمها في فهرس لأحد الكتبيين الإيطاليين. فطار لبه فرحاً بها، وشد الرحال الى صقلية في سبيل شرائها، وهو الشيخ الذي مضت عليه ثلاثون سنة في دار واحدة لا يكاد يبرحها. لكنه تجشّم مشاق السفر الى ذلك البلد البعيد ليجد مخطوطته الحبيبة قد انتقلت الى نفس بارييس التي خرج منها، فعاد اليها على عجل، والمخطوطة تمنع في الفرار منه، وهو يجتد في أثرها، حتى حظي بوصلها، ولأياً ما فعل، إذ أهدتها إليه، بعد أن يش من اقتنائها، جنية من بنات الإنس راعية للجميل.

لم يدر في خلدي أن أنس ذات يوم بلقاء «سلفستر بونار» بشراً سوياً حتى هيء لي التعرف بيعقوب سركيس المؤرخ المحقق والتنعم بصحبته الكريمة وصداقته النبيلة. أنفق سركيس سنين طويلة في جمع خزانة كتبه التي تضمنت كل ما استطاع حيازته من مصادر تاريخ العراق، وفي مقدمتها رحلات الرحالين الشرقيين والغربيين الذين زاروا

بلاد الرافدين خلال الأعوام الألف الأخيرة، من ابن جبير وابن بطوطة وسيدي علي وأوليا جليبي ودرزي أفندي ومصطفى الصديقي وأبي طالب مرزا، إلى بالبي وتكسيرا وديلا فالي وتيفنو وتافرنية ونيبوهرو وروسو وشيزني وجونس ولوفنس وسون وجرتود بل . لكن هذه المجموعة الفريدة في بابها قد أعوزتها مخطوطة لا تقوم بثمن : فقد علم الأستاذ سركيس في أثناء مراجعاته ، بوجود رحلة مخطوطة لرحالة برتغالي قديم مجهول الاسم زار العراق في نحو سنة ١٥٥٤ ، وكانت هذه المخطوطة النادرة في حوزة الميجر مارتن هيوم الانكليزي في مطلع المائة العشرين . أشار إلى هذه الرحلة البرتغالية المستشرق غاي لسترانج في هامش كتابه «أراضي الخلافة الشرقية» مستنداً في ذكرها إلى ما كتبه عنها مالك نسختها الفريدة نفسه في صحيفة «الآينيوم» في عددها المؤرخ في ٢٣ آذار ١٩٠١ . ولم يقرأ باحثنا العراقي خبر هذه الرحلة في هامش لسترانج حتى ملكت لبيته وشغلت بآله ، فشرع يبحث عن عدد الصحيفة الانكليزية التي وصفتها . لكن هذا العدد نفدت نسخته ، وقد مرّت على صدوره عشرات الأعوام ، فلم ينل ذلك من عزيمة الباحث المحقق ، بل استمر على طلبه حتى وفق للحصول على نسخة منه — بعد بضع عشرة سنة ! وقد سرّه أن يجد على صفحات هذا العدد رسالة من الميجر هيوم يصف فيها مخطوطته المجهولة المؤلف ويسأل القراء أن يرشدوه إلى صاحبها الذي خرج من لشبونة في منتصف القرن السادس عشر ، وجاب أوربة غربيّتها وشرقيّتها ، ثم عرج على الأناضول وسورية وفلسطين ومصر ووصل أخيراً إلى وادي الرافدين والخليج العربي . وقد كتب البرتغالي الذي غمر اسمه وشخصه حجاب النسيان يصف البلدان التي زارها والمغامرات التي خاضها في رحلته الطويلة الشاقة ، فكانت مدوّناته بعد مئات السنين سجلاً رائعاً لعهود بعيدة وأقطار مغمورة .

يا لسرور الأستاذ بالعثور على وصف مخطوطته الحبيبة بقلم من حاز نسختها الوحيدة ! لكن هذا الوصف لم يكن ليبلّ الغلة ، بل إنه لم يكن إلا ليزيد الظمأ إلى الرحلة الموصوفة كما يشتدّ جوع الجائع عند ذكر الطعام السائغ المرئي . فكيف الحصول عليها وأين الوصول إليها؟ لقد امتلكها ضابط انكليزي في مطلع القرن ، فماذا فعل الدهر بهذا الضابط وماذا حلّ بمخطوطته الثمينة؟ أهى لا تزال في قيد الوجود خبيثة في بعض الزوايا ، أم قد ذهبت بها يد العبث والإهمال فزال أثرها ورال بزوايا آخر سجلّ لمغامرات عجيبة شائقة؟ أم لعلها قد وقعت في قبضة هاوي كتب متبلّد الذهن ، فعرض عليها بالنواجذ وضمتها في خزانة مغلقة ينفس عليها نور الشمس وأعين الناس . . . لقد نقب باحثنا وأمعن في التحقيق والتدقيق ، وراجع فهارس دور الكتب وقوائم الكتّيبين والهوة ، وكتب إلى «لوزاك» وأمثال «لوزاك» من قناصة الآثار الشرقية النادرة . . . ولكن هيهات أن يجد إلى ضالّته المنشودة سبيلاً . . .

وقد أهديت كتب يعقوب سركيس ومخطوطاته بعد وفاته إلى جامعة الحكمة في

بغداد، فعهد الى كوركيس عوَّاد بوضع فهرست للمخطوطات صدر سنة ١٩٦٦. ثم نقلت الى مكتبة المتحف العراقي في تموز ١٩٧١.

كان ليعقوب سر كيس دائرة معارف بريطانية تتألف من عشرات الأجزاء مطبوعة قبل سنة ١٩٠٠، وكان يعتز بها كل الاعتزاز. وقد اشترى طبعة جديدة بعد ذلك، لكنه بعد أن أهدى الطبعة القديمة عاد فاسترجعها وضمَّها الى مكتبته. وقد سأله عن السبب فقال: إن طبع الكتب والجرائد واستيرادها كان ممنوعاً في عهد الاستبداد الحميدي يعاقب عليه بأشدَّ العقوبات، لا سيَّما تلك التي تذكر الحرية والحقوق المدنية والثورة والتاريخ الحديث. وقد سافر صديق له الى أوروبا سنة ١٩٠٠ فكلفه بجلب دائرة المعارف له، فتحمل مشقة كبيرة في إدخالها الى ميناء البصرة وحملها الى بغداد خوفاً من الكمارك والرقباء. ووضعها يعقوب سر كيس في مكان خفي من داره حذراً من العيون يطالها سراً، حتى إذا ما أعلن الدستور سنة ١٩٠٨ وتم تحرير المطبوعات، أخرجها الى النور بلا وجل.

كان يعقوب سر كيس يمتلك مخطوطاً في تاريخ آل سعود والوهابيين كتبه أحد كتابهم في نحو سنة ١٨٧٥. وقد ترك المؤلف خدمتهم والتحق بخدمة آل سعود في المتفق، فأجرى في مخطوطته بعض التصليحات.

وكان يعقوب سر كيس يحرص على هذه المخطوطة ويعدّها فريدة في موضوعها، وقال لي إنه يرضى ببيعها الى الحكومة السعودية إذا دفعت فيها ثمناً كبيراً، لا سيَّما أنها تقبض إيراداً جسيماً من مواردها النفطية.

ودعونا الشيخ عبد الله الخيال سفير المملكة العربية السعودية في بغداد ورفائيل بطّي لفحص المخطوطة، فأبدى السفير اهتمامه بها ووعد أن يكتب الى حكومته حاثاً إياها على شرائها. ولكن لم يحصل أي نتيجة.

ولما توفي يعقوب وقام أخوه يوسف بإهداء مكتبته الى جامعة الحكمة، أخبرته بقيمة المخطوطة، فأثر الإحتفاظ بها ولم يهداها مع الكتب والمخطوطات الأخرى التي آلت بعد ذلك الى الحكومة العراقية عند تأميم الجامعة.

هذا وقد جمعت مقالات سر كيس في كتابه «مباحث عراقية: في الجغرافية والتاريخ والآثار وخطط بغداد الخ». (الجزء الأول ١٩٤٨، الثاني ١٩٥٥). وله أيضاً: تلّو أي تل هواره (١٩٣١) شهداء حلب (١٩٣٤) التّن والقهوة في العراق (١٩٤١) كمرك بغداد في عهد السلطان مراد الرابع وخلفه السلطان إبراهيم (١٩٤٢) واردة العراق بين عهدين (١٩٤١). وعني بنشر الجزء الثالث من «مباحث عراقية» معن حمدان علي سنة ١٩٨١.

أصيب يعقوب سر كيس في السنتين الأخيرتين من حياته بمرض الشيخوخة فصار

ينسى الحوادث القريبة . سألته يوماً عن الجزء الثالث من مباحثه العراقية الذي جمع مقالاته وهياها للنشر فقال لي لا أذكر ذلك . ثم سألته عن مجيء سليمان البستاني مترجم الإلياذة الى العراق قبل سبعين سنة ، فانبرى يذكر التفاصيل بدقة وقال إن البستاني جاء الى بغداد والبصرة وأقام فيها ثماني سنين ومارس التعليم والتجارة واقترب بفتاة عراقية . . . ولم ينس بحادثتنا الشيخ الأحداث التي مرت قبل عشرات السنين .

رشيد السعدي

محمد رشيد بن داود السعدي ، كان أبوه الشيخ داود من علماء بغداد وعين مدرساً ومفتياً للمنتفق سنة ١٨٥٥ . ثم تولى إفتاء الجيش في الاحساء وألف رسالة في «طريق الحج من الاحساء الى الرياض فالحجاز» طبعت سنة ١٨٧٢ . وتوفي ببغداد سنة ١٨٧٦ .

درس محمد رشيد على علماء عصره وأنشأ مطبعة في بغداد سنة ١٩٠٣ . وألف كتباً منها : غاية المراد في الخيل والحياد (١٨٩٦) قرّة العين في تاريخ الجزيرة والعراق وبين النهرين (١٩٠٧) ، ونشر من الكتب : سبائك العسجد لعثمان ابن سند (١٨٩٧) وديوان الشيخ كاظم الأزرعي (١٩٠٢) وقد طبعت تلك الكتب جميعها في بومبي بالهند .

قال إبراهيم الدروبي في كتابه «البغداديون» : «كان هذا الرجل أعجوبة في قوة الحجّة وبعد النظر والاطلاع الواسع على قياسات أغلاط أهل المنطق ، يناظر ويبحث في علوم الملل والأديان فلا يجعل للخصم حجة ولا يبقى له كلاماً . كان آية في عرض الكلام في معارض بلاغية متنوعة . . » .

كان له شعر ، وتوفي ببغداد سنة ١٩٢١ .

الدكتور سليمان غزالة

الطبيب الشاعر الأديب الدكتور سليمان غزالة ، وهو عبد الأحد سليمان بن جرجس بن يوسف غزالة ، ولد ببغداد في ٢١ أيلول ١٨٥٣ ودرس فيها . ثم قصد الموصل لمواصلة الدراسة ، وعاد الى مسقط رأسه سنة ١٨٧٠ ، وعين معلماً في مدرسة الأليانس الأهلية (١٨٧٣) ، وشدّ الرحال بعد ذلك الى بيروت سنة ١٨٧٩ فكان معلماً بمدرسة اليسوعيين ، لكنه أكبّ على الدرس في الوقت نفسه .

وسافر الى باريس في السنة التالية فانتمى الى كلية الطب (١٨٨١) وتخرج طبيباً سنة ١٨٨٦ . واختصّ بالقبالة وطبّ العيون والبكتريولوجية ثم عاد الى الاستانة سنة ١٨٨٧ وحصل على وظيفة طبيب صحة العراق .

وقد وصل إلى البصرة في حزيران ١٨٨٨ ، وجعل مقره في الحلة ، وعهد إليه بمكافحة وباء الهیضة والطاعون في الألوية الجنوبية . وفي سنة ١٨٩٣ أوفد بمهمة صحية إلى طور سيناء ، ورحل منها إلى الاستانة وسيواس ونواحي الأناضول وحلب في سبيل أداء أعماله الطيبة .

عين طبيباً في طرابلس الغرب في كانون الأول ١٨٩٥ ، ثم نقل إلى دمشق سنة ١٨٩٧ . وتوفيت زوجته الأولى صوفي كرومي ، فسافر إلى باريس مجازاً . وتعرف بالأدبية الفرنسية جان التي اشتهرت باسمها المستعار غي دافلين GUY D'AVELINE واقترن بها في العاصمة الفرنسية في ١٢ آب ١٨٩٧ ، وعمرها آنذاك نحو ٣٠ سنة .

وعاد الدكتور غزالة بزوجه إلى الأستانة فأعيد تعيينه إلى طرابلس الغرب (شباط ١٨٩٨) . وظل فيها إلى الاحتلال الإيطالي ، فغادرها إلى مالطة (تشرين الأول ١٩١١) ، ومن ثم قصد الأستانة فعين طبيباً للسفارة التركية في طهران . وقد وصل إلى إيران في آذار ١٩١٢ ، واختير رئيساً لمجلس الصحة الدولي في العاصمة الفارسية في تشرين الأول ١٩١٤ إلى كانون الثاني ١٩١٦ .

وقد رجع إلى بغداد بعد غياب طويل في كانون الثاني ١٩٢٠ . واتخذ مقامه في البصرة وانتخب نائباً عنها في المجلس التأسيسي (أيار ١٩٢٤) ، وبعد ذلك في مجلس النواب (١٩٢٥ - ٢٨) . وأدركته الوفاة في بغداد ١٨ تشرين الأول ١٩٢٩ .

مؤلفاته

وضع سليمان غزالة مؤلفات كثيرة بالعربية منظومة ومنشورة ، منها : رواية لهجة الأبطال (١٩١١) سوانح الفكر (١٩١٥) سوانح الكلم (١٩١٥) السبيل الأقصد (١٩١٧) سبب الموت الطبيعي (بالعربية والفرنسية) ، القصيدة الفيصلية (١٩٢٤) الحرية فلسفياً (١٩٢٤) الاعتماد على النفس (١٩٢٧) المعضلة الأدبية (١٩٢٧) حياتي الشخصية والوظائفية (١٩٢٩) الخ .

وصنّف «الوضيعة في الحكمة الخلقية في ١١ كتاباً (١٩٢٤ - ٢٧) ، وهي تتناول : الحياة الاجتماعية (١٩٢٤) منهاج العائلة (في جزئين ١٩٢٤ - ٢٦) خلاصة أركان الاقتصاد السياسي (١٩٢٦) العشق الطاهر (١٩٢٥) القصيدة الفردوسية (١٩٢٤) تاريخ الحرية البشرية (١٩٢٦) الهوى (١٩٢٦) الحبّ البشري (١٩٢٦) خلاصة الأدب الرياضي العملي (١٩٢٧) الاقتصاد السياسي (١٩٢٧) الأدب النظري العمومي (١٩٢٧) .

أما زوجته الثانية الفرنسية فكانت روائية معروفة ولها مشاركة في الفنّ كالرسم بالزيت على قماش الكتان . ولدت سنة ١٨٦٧ ، وعاشت مع قرينها في طرابلس الغرب وطهران والبصرة وبغداد وتوفيت بعده . ونشرت باسمها المستعار «غي دافلين» روايات لطيفة باللغة الفرنسية أشهرها «أتيل» ملك الهون الذي دمر الحضارة الأوروبية في القرن

الخامس الميلادي، وكان يقال إنَّ العشب لا ينبت حيث وقعت سنايك خيله . وقد قال الشاعر بشارة الخوري (الأخطل الصغير) في هذا الفاتح الطاغية :

إنَّ آتِـيلاً، وما كان سوى نـقـمـة الله وسيف الغضب
ملاً الأيام هـولاً ودماءً فـحـشـاً هـا خافق من رهب
وهو المأثور عنه قوله في سبيل الفخر فاسمع واعجب :
«لم يغادر بي جـواـدي تـربـة وعلـيـها أنـر للعـشـب ا»

ومن روايات الأخرى : رَسَّام السيِّدة، سكن بيننا، كنز علي خوجه، نجم بزغ، وردة الشواطىء، مريم المجدلية (١٩٢٧) الياقوت القتال (١٩٢٧)، الخ .

وكان للدكتور غزالة وقرينته، بعد إقامتهما في بغداد سنة ١٩٢٤، تجلس يؤمّه رجال البلد وتبحث فيه موضوعات العلم والأدب والفن والاجتماع .

أغا بزرك الطهراني

الشيخ محمّد محسن بن علي الرازي المؤرخ البجائية المعروف باسم «أغا بزرك الطهراني»، ولد بطهران في ٧ نيسان ١٨٧٦ ودرس على علمائها .

قدم النجف سنة ١٨٩٥، فتتلمذ على يد الشيخ محمد كاظم الخراساني وشيخ الشريعة الأصفهانى والسيد محمد كاظم اليزدي والشيخ محمد طه نجف وغيرهم . ثم قصد سامراء ولازم محمد تقي الشيرازي أعواماً . وعاد الى النجف سنة ١٩٥٥ فانصرف الى التأليف والتصنيف . وجمع خزانة كتب حفلت بنفائس المطبوع والمخطوط، وقد وقفها على طلبة العلم سنة ١٩٥٥ . ورحل الى إيران والهند وسائر الأقطار الإسلامية والعربية بحثاً عن المصادر للموسوعة التي عكف على وضعها في تصانيف الشيعة . توفي بالنجف في ٢٠ شباط ١٩٧٠ .

قال فيه سلمان هادي الطعمة : «إنَّ هذا المفكر الذي عرفته عالماً بارعاً وأديباً فذاً ورجل بيان أمضى حياته بالتتبع والدراسات العميقة، أوتي مكانة فريدة في الثقافة الجامعة وأحاط بأسرار اللغتين العربية والفارسية . . . » .

وضع مصنفات كثيرة أهمها : الذريعة الى تصانيف الشيعة (صدر منه ١٨ جزءاً في ٢١ مجلداً، ١٩٣٧ - ٦٧)، الكرام البررة (في جزئين ١٩٥٤ - ٥٨)، نقاء البشر في القرن الرابع عشر (٤ أجزاء ١٩٥٤ - ٦٨) . وله أيضاً : حياة الشيخ الطوسي (١٩٥٧) ذيل كشف الظنون (١٩٦٧) المشيخة (١٩٣٧) مصفّى المقال في مصنّفي علم الرجال (١٩٥٩) الخ .

اسماعيل باشا البابان

من فضلاء الأسرة البابانية اسماعيل باشا المعروف بالبغدادي أو النوري ابن محمد أمين باشا بن سليم باشا، ولد ببغداد ودرس في استانبول. وكان من رجال الجيش التركي في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، نال رتبة أمير لواء. وكان آخر مناصبه مديرية الشعبة الثانية لدائرة الضبطية (الشرطة) في استانبول قبل أن يعتزل الخدمة وينصرف الى التأليف.

إشتهر بكتابه «إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون» (طبع في مجلدين سنة ١٩٤٥ - ٤٧)، وقد أنفق في تأليف هذا الذيل نحواً من ثلاثين سنة وفرغ من تصنيفه سنة ١٩١٢. وألف أيضاً «هدية العارفين» في أسماء المؤلفين وأثار المصنفين (في مجلدين ١٩٥١ - ٥٥).

توفي إسماعيل باشا في استانبول سنة ١٩٢٠.

قال عباس العزاوي إنه كان دؤوباً على العمل، عارفاً بالكتب والمخطوطات، وكان الى ذلك خطاطاً ماهراً يشار اليه بالبنان.

يوسف رزق الله غنيمة

الوزير البعثية الأديب يوسف رزق الله غنيمة ولد في بغداد في ٩ آب ١٨٨٥ وتوفي في لندن التي قصدها مستشفياً في ١٠ آب ١٩٥٠. كان وزيراً للمالية والتموين وعضواً بمجلس الأعيان ومديراً عاماً للأثار الخ.

من مؤلفاته: تجارة العراق قديماً وحديثاً، نزعة المشتاق في تاريخ يهود العراق، محاضرات في مدن العراق، الحيرة: المدينة والمملكة العربية الخ. أسهمت في ترجمته في «أعلام اليقظة الفكرية».

نشر المحامي حارث ابن يوسف غنيمة كتاباً في سيرة والده: يوسف غنيمة من أركان النهضة العلمية في العراق الحديث (طبع ببغداد، ١٩٩٠) وكان قد نشر أيضاً قبل ذلك «يوميات يوسف غنيمة: رحلة الى أوروبا ١٩٢٩» (بغداد، ١٩٨٦).

ذكر حارث ان الجد الأعلى للأسرة القسّ يشوع بن الشماس غنيمة كان من النساطرة متزوجاً حسب عادة الكهنة الشرقيين، وكان يقيم في بغداد في النصف الأول من القرن السابع عشر. وانتمى حفيده عيسى بن الشماس غنيمة الى الكنيسة الكاثوليكية سنة ١٧٤٣. أما والد يوسف، وهو رزق الله غنيمة، فكان رئيس كتاب المكوس في بغداد

وتوفي في الثامنة والثلاثين من عمره . ولما ولد يوسف سمي يوسف نعمة الله قرياقوز لكنه عرف باسمه الأول . وتوفي والده وهو في الخامسة من عمره فكفله والدته ورعاه عمّاه شكر الله ونصر الله .

درس في المدرسة الكلدانية الابتدائية ثم انتقل في أوائل سنة ١٨٩٨ الى مدرسة الأليانس وتخرج فيها سنة ١٩٠٢ ، وقد تعلم فيها اللغات العربية والفرنسية والانكليزية وشيئاً من التركية والعبرية إضافة الى العلوم والرياضيات والجغرافية والتاريخ . وألم بعد ذلك باللغة السريانية ، ودرس العربية على الأب انستاس ماري الكرمل . وافتتح سنة ١٩٠٦ محلاً تجارياً وحصل على وكالات لاستيراد المضخّات والمحركات الخ . ، وأسس فندقاً عصرياً بعد الاحتلال البريطاني . وأنشأ سنة ١٩٠٩ بالاشتراك مع المعلم داود صليوا جريدة «صدى بابل» .

انتخب عضواً في مجلس إدارة لواء بغداد (شباط ١٩٢٢) ، وتولى تدريس تاريخ المدن العراقية في مدرسة المعلمين العالية المؤسسة في كانون الأول ١٩٢٣ . وانتخب نائباً في المجلس التأسيسي (١٩٢٤) وكان مقرر اللجنة تدقيق لائحة القانون الأساسي . وأصدر جريدة «السياسة» اليومية في ٣ آذار ١٩٢٥ ، الى ٣ تموز ١٩٢٥ ، وانتخب نائباً عن لواء بغداد (حزيران ١٩٢٥) ثم أوقف صدور جريدته .

أصبح وزيراً للمالية (١٩٢٨ - ٢٩) و ١٩٢٩ و ١٩٣٤ - ٣٥ و ١٩٣٥ ، ووزير التموين (١٩٤٤ - ٤٦) ووزير المالية (١٩٤٦) مع وكالة وزارة التموين ، ووزير المالية (١٩٤٧ - ٤٨) .

غادر العراق بإجازة مرضية في تموز ١٩٢٩ قاصداً الاستشفاء فزار سورية ولبنان وفلسطين ومصر وإيطالية وفرنسة وانكلترة وعاد عن طريق فرنسة وإيطالية وتركية وسورية ولبنان في تشرين الأول ١٩٢٩ .

أعاد إصدار جريدة السياسة بعد تعطيل جريدة نداء الشعب لتكون لسان حال حزب الأخاء الوطني (٣٠ كانون ثاني ١٩٣١) ثم عطلتها الحكومة في ٢٤ آذار ١٩٣١ . ثم عين مديراً عاماً للواردات (٢٤ كانون أول ١٩٣٢) فمديراً عاماً للمالية (١٦ حزيران ١٩٣٤) فوزير المالية (٢٧ آب ١٩٣٤) نائب بغداد (كانون أول ١٩٣٤) الى نيسان ١٩٣٥ . وزير المالية (٤ آذار ١٩٣٥) الى ١٦ منه . عين مديراً عاماً للمالية للمرة الثانية (٢٧ حزيران ١٩٣٥) . تولى مديرية الأملاك والأراضي الأميرية العامة أيضاً بالوكالة (تموز ١٩٣٥) ثم عين مديراً عاماً للمصرف الزراعي الصناعي بالوكالة (آذار ١٩٣٦) . ثم نقل من مدير المالية العامة مديراً عاماً للمصرف أصالة (١٢ كانون أول ١٩٣٦) . الى ١٩ تشرين ثاني ١٩٤١ حين نقل مديراً عاماً للآثار مع بقائه مديراً عاماً للمصرف بالوكالة الى ١٧ آذار ١٩٤٢ . ثم تولى مديرية المصرف بالوكالة أيضاً من ٢٧ تشرين أول ١٩٤٣ الى ١٨ تشرين ثاني ١٩٤٤ بالإضافة الى مديرية الآثار وبعد ذلك مديرية

التموين العامة . وقد قام المصرف بإمداد الزراع بالسلف والتدخل في الأسواق لرفع أسعار المحاصيل كالقطن وبذر الكتان والمساهمة في المشاريع الصناعية كشركة السمنت العراقية وشركة استخراج الزيوت النباتية وشركة تجارة وطحن الحبوب ومشاريع أخرى تتعلق بنسج القطن وأهراء الحبوب ودباغة الجلود وصيد الأسماك .

عين مديراً عاماً للأثار القديمة (٢٠ تشرين ثاني ١٩٤١) وكان نائب رئيس لجنة التموين الاستشارية أيضاً (نيسان ١٩٤٢) . ونقل مديراً عاماً للتموين (٢٥ حزيران ١٩٤٤) وأصبح وزير التموين (١٨ تشرين ثاني ١٩٤٤ الى ٢٣ شباط ١٩٤٦ . وعين عضواً بمجلس الأعيان خلفاً للبطريرك يوسف عمانوئيل الثاني المستقيل (١٤ أيار ١٩٤٥) . ودخل في وزارة أرشد العمري وزيراً للمالية ووزير التموين بالوكالة (١ حزيران ١٩٤٦) . وقد استقال من وكالة التموين في ٣١ تموز ١٩٤٦ . واستمر في المالية الى استقالة الوزارة في ٢٠ تشرين ثاني ١٩٤٦ . وتقلد وزارة المالية أيضاً في وزارة صالح جبر (٢٩ آذار ١٩٤٧) ، وتم في عهده تأسيس البنك المركزي الذي عرف باسم المصرف الوطني العراقي (تشرين الثاني ١٩٤٧) . واستقال من الوزارة بعد أحداث الوثبة المعارضة لمعاهدة بورتسموث في ٢٧ كانون الثاني ١٩٤٨ .

تكلمت عن أدبه ومؤلفاته في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية» . وقد ذكرت مقالاته التي نشرها سنة ١٩٢٩ / ٣٠ عن «حقوق الفلاح والعامل في العراق» . وقد قال هاشم جواد عنه إنه سبق الصحفيين والتقدميين في ميدان المطالبة بحقوق الفلاح والعامل وأشار بكل قوة وحاس الى ضرورة العناية بالطبقة العاملة في المعامل والمزارع . وذكر ما كتبه يوسف غنيمة سنة ١٩٢٩ إن من واجب العدل ومقتضيات النظام الاجتماعي الراقي أن تضمن راحة كل أفراد الأمة وتكفل طمأنينتهم مدى الحياة ، فضلاً عن وجوب الاهتمام بإعالة ذويهم بعد موتهم ، وذلك بتحديد ساعات العمل وتوفير شروط الصحة في محلات سكنهم وأعمالهم وأمان ومستقبل كل فلاح وعامل وغيرهما ويفكر في وسائل معيشتهم عند العجز والهرم وحلول العاهات ، ويقام بإعالة أيتامهم وأراملهم بعد موتهم .

وتساءل هاشم جواد هل قال لورد بيفيريج أكثر مما قاله هذا الرجل العراقي قبله بستة عشر عاماً؟

وقال يوسف غنيمة إن مطالب الفلاح يجب أن تشمل بقاء الحكومة مالكة لرقبة الأرض ، وتفويض الأراضي للفلاح والعامل بيده وترجيحه على من سواه ، وتشجيع الملكية الصغيرة والحد من مساحة الأراضي التي يملكها الشخص الواحد ، وتأليف مصرف زراعي ونقابات زراعية ، وحماية الإنتاج الزراعي وإيجاد الأسواق له ، الخ .

أما مطالب العمال فلخصها في تحديد سنّ العمل وساعات العمل والأجرة الصغرى ، وضمان العمال في حالة المرض وعند وقوع الحوادث المهنية وعند الشيخوخة

والعجز، ومعاونة العمال في أيام العطل، ومكافحة البطالة، والمساعدة في إيجاد مساكن صحية ورخيصة، ورفع مستوى التهذيب، الخ.

طه الراوي

الكاتب المحقق اللغوي «معلم الجليل» طه الراوي ولد في بلدة عانة المقابلة لراوة على الفرات (كما أعلمني بذلك ولده حارث) سنة ١٨٩٠ وتوفي في بغداد في ٢١ تشرين الأول ١٩٤٦. كان أستاذاً في جامعة آل البيت ودار المعلمين العالية ومديراً عاماً للمعارف وعضو المجمع العلمي العربي في الشام ورئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر. نشرت ترجمته في «أعلام اليقظة الفكرية».

كتب الشاعر المصري علي الجارم إلى طه الراوي يقول:

«هذه والله، يا طه، صلة الروح التي لا تنفصم وإن بعد المكان وتعاقبت الأزمان. ماذا أكبر فيك؟ والله لا أدري. أهو علمك؟ أهو أدبك؟ أهو كريم خلقك، أم هؤلاء جميعاً؟ أم هناك أخوة بعيدة المدى منذ خلقت الأرواح لا أعرفها. رأيت كثيراً من العلماء وعاشت عديداً من الأدباء وخالطت جمهرة من ذوي الخلق الكريم. فما كانوا لك ندّاً ولا لشخصك العظيم في نفسي ظلاً...»

وقال توفيق السويدي:

«وقد أحببت صديقي الفقيه لميزة زادته في نظري إعجاباً، وهو أن تفكيره كان بعيداً عن تفكير بعض المعمّمين. وأريد بهذا أن الراوي لم يكن يتسم بالجمود بل كان يريد أن يساير الزمن ويواكب تطوراتها، ولكن تقدّمته هذه كانت تقف عند حدود معينة بحكم النشأة والتربية التي نشأ وتربّى عليها.

«وفي رأينا أن المرحوم الراوي كان يعتقد برسالة روحية سامية دأب على التغني بها منذ حدثته إلى اليوم الذي ودّع فيه الحياة، رحمه الله».

وقال عباس العزاوي:

«... ولا أخالني مبالغاً إذا قلت أن الفقيه استكمل أدب النفس، وهو أصل التهذيب الحق وأداة العلم الوافر. ولم يكتفِ بما ذكر، بل خدم بما عنده مدارك الأمة في تعليمها وتلقينها، ولا زال على ذلك إلى أن لفظ نفسه الأخير. فهو أستاذ معروف، وفاق أكثر في توجيه اللغة العربية، وكان وافر الاطلاع فيها، عارفاً بحقائقها، مشبعاً في حبها...».

وقال الدكتور مصطفى جواد في رثائه:

أرى الموت لم يترك للذئب مفزعة
فقدنا عميد الألعين ذا النهى
هوى كهوى العبقريين لم يكن
قضى عمره في نصرة العلم سالكاً
أبا هاشم، أضحي مصابك شاملاً،
لقد كنت لآداب والعلم موثقاً
وقد كنت قوالباً بحق وأمرأً
تساميت عن جهل التعصب مبغضاً
طوتك يد الأقدار سفرأ مكرماً

غداة رمى طه فأصمى وروّعا . . .
وذا الرأي، محمود الفارس مونعا
لقلبهم صبر على حمل مـا وعى
سيل خلال الخير ما حاد إصبعا
فكيف التأسى والأسى قد توزعا؟
فلا غرو أن أضحي مماتك مفزعا
بعرف ومدعاة إلى الخير مقنعا
لأربابيه، عن خبثهم مترفعا
ستقرأه الأجيال أجلى وأنصعا

وقال الدكتور زكي مبارك :

فجعت بألطف العلماء روحاً
أديب لا يساميه أديب

وأفصحهم إذا اشتجر الجدال
له في كل معضلة مقال . . .

كتب أحمد حسن الزيات إلى طه الراوي سنة ١٩٣٨ رسالة جاء فيها :

« لا أحب أن أتحدث في هذه الرسالة عما أحمل لك في قلبي من جميل الأثر، وأكنّ لك في نفسي من عظيم التجلّة، فإنّ معرض ذلك في خطاب يشبه أن يكون رسمياً فيه معنى لا أرتضيه لنفسي . فلا ترك ذلك إذن الآن . . . » .

قال طه الراوي :

أميل مع الحقيقة حيث مالت
وأدفع بالدليل وراء خصمي

وأجعل ظلّ رايتها شعاري
فإنّ ماري فلاني لا أماري

وكتب معروف الرصافي إلى طه الراوي يقول :

أبلغ أبا هاشم عني مغلغلة
إني عهدتك حرّ النفس متخذاً

يعلّج فيها القريض الغصّ شكرانا
لك العلا مأرباً والصدق ديدانا

نماك جدّ كريم للعلی، فلذا
ظننتني قد هجرت الشعر منذ زمن،

زكوت نفساً كما قد فقت تيانا
وهل أطيق لحبّ النفس هجرانا؟

طه الراوي كاتب مشرق البيان، جميل الأسلوب . وقد كتب في المواضيع الاجتماعية

فدعا الأغنياء الى التنبه لموجة السخط من الطبقة الكادحة الفقيرة وترك البذخ وإنفاق جزء من ثرواتهم في التخفيف مما يعانيه إخوانهم في البشرية وبناء المشاريع المفيدة كالمستشفيات والمدارس والملاجئ . وقال :

«تنبه البشر اليوم الى ما لم يكن يحلم به البشر القديم . وتكتسح العالم اليوم موجة سخط من هذا التفاوت الهائل بين الإنسان والإنسان : فألوف من الناس لا يصلون الى قوتهم اليومي وإلى ما يستر أبدانهم من الكساء وإلى ما يأوون إليه من المسكن إلا بعد الكدح المضني والكدّ المجهّد . .

وقد قام أولئك الألوف يطالبون بالمساواة الاجتماعية ويقولون لأصحاب التكاثر: نحن وأنتم في البشرية شرع ، ولولا جهودنا لما أصبتم هذه الكنوز. فنحن نريد المساواة ، نريد العدل الاجتماعي . . . » .

وارتأى لذلك وجوب النزول على حكم الواقع ورفع مستوى العيش بين الفئات الكادحة وتخفيف الضنك عن تلك الطبقات البئيسة لتهدئة سورة الغضب التي كادت توقد حرباً شعواء بين الفقراء والأغنياء . فإذا أراد الأغنياء أن يخففوا من حدة هذا الغضب الذي أخذ يتطاير شرره حولهم فما عليهم إلا أن يعالجوا ذلك بالأفعال لا بالأقوال .

هذا ولقد قلت في ترجمة الراوي أن تلامذته خير آثاره . وقد سئل المؤرخ المصري الأستاذ محمد شفيق غربال عن أهم مؤلفاته فأشار الى تلامذته المتحلقين حوله في مجال الجواب على ذلك السؤال .

طه الراوي

عتب طه الراوي على معروف الرصافي في كانون الثاني ١٩٤٢ هجره للشعر بقصيدة أرسلها الى راويته مصطفى علي مطلعها :

أمصطفى بن علي ، يا أخا ثقتي ،
أبلغ ملك القوافي كلّ خالصة
ما باله ، حرس الرّجمن مهجته ،
فأجابه الرصافي بقصيدة منها :

أبلغ أبا هاشم عني مُغلَغَلَةً
أحسنْتَ ظنَّكَ بي إذ جئت تمدحني
ظننتي قد هجرت الشعر منذ زمن
ذاك الحبيب الذي أوسعته مَقَّةُ
يعجّ فيها القريض الغصّ شكرانا :
بما به زدت حسن الظنّ إحسانا
وهل أطيع لحبّ النفس هجرانا ؟
مني ، وصيرته للمجد عنوانا . . .

ومضى الرصافي يقول أن حبّ الشعر قد شقّه حتى هجر له طيب المنام ، يصحو بصحوته ويتشّى بنشوته ، يسليه إذا اعتلجت همومه ، ويشدو به في المحافل مفتخراً .
وختم قصيدته في لهجة حزينة مشفقاً أن يبوح بشعره في معشر الطغاة الذين لا يقيمون وزناً لحرية الفكر .

منير القاضي

العالم الفقيه الحقوقي منير القاضي ولد في بغداد سنة ١٨٩٥ وتوفي بها في ٩ شباط ١٩٦٩ . كان رئيس المجمع العلمي العراقي وعضو مجمع دمشق وعميد كلية الحقوق ورئيس ديوان مجلس الوزراء ووزير المعارف . ترجمت له في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية» .

كان منير القاضي لطيفاً حسن الدعابة على وقاره . ذكر جعفر الخليلي في الجزء الخامس من كتابه «هكذا عرفتهم» أنه جرى في الندوة الأدبية لصبيحة الشيخ داود بحث الطلاق وهل يجوز للمرأة أن تمنح حق الطلاق . وكانت المناقشة عنيفة ، وارتأت صاحبة الندوة وجوب تعديل قانون الأحوال الشخصية لمنح المرأة هذا الحق . وكان منير القاضي يخالف هذا الرأي ويرى فيه خروجاً على الشريعة الإسلامية .

وقال الخليلي إن المذهب الجعفري يميز منح المرأة حق تطليق زوجها إذا نص عقد الزواج على هذا الحق . وأراد منير القاضي أن يمزح فقال : لو أردنا أن نجعل الطلاق بيد المرأة لما غبن أحد غيري في عالم الرجال ، لأنني سأكون أول من تطلقه زوجته لإنعدام المزاي التي تتطلبها الزوجة في زوجها في شخصي .
وضجّ المجلس بالضحك .

عباس العزاوي

مؤرخ العراق عباس العزاوي ولد في أنحاء ديالى سنة ١٨٩١ وتوفي في بغداد في ١٧ تموز ١٩٧١ . كان محامياً معروفاً وعضواً في المجمع العلمي العراقي ومجمع دمشق وعضواً مراسلاً في مجمع القاهرة وعضواً في جمعية الدراسات التاريخية المصرية ومجمع اللغة التركية في أنقرة . اشتهر بمؤلفاته عن تاريخ العراق وفي مقدمتها «تاريخ العراق بين احتلالين في ثمانية أجزاء» . نشرت ترجمة وافية له في «أعلام اليقظة الفكرية» .

عين العزاوي معلماً في بعض المدارس الابتدائية في بغداد سنة ١٩٠٨ ، لكنه وازبط على الدراسة . ونقل بعد ذلك معلماً أول في كربلاء ، وكان جندياً كاتباً خلال الحرب العامة . وعيّن سنة ١٩١٧ كاتباً في المحكمة الشرعية ، لكنه استقال من الوظيفة حين تخرجه في مدرسة الحقوق (١٩٢١) وانصرف الى المحاماة . وتولى التدريس أمداً غير

طويل في المدارس الأهلية .

جمع عباس العزاوي مكتبة ضخمة تعدّ عشرات الآلاف من الكتب والمخطوطات . وقد رأيته يوماً يستعير كتاباً من مكتبة المتحف العراقي لمراجعته . فقلت : أليس هذا الكتاب في خزانتك؟ قال : بلى ، لديّ عدة نسخ منه مخطوطة ومطبوعة ، لكنها كلها ليست في متناول اليد ، وأيسر عليّ أن أراجع الكتاب في مكتبة المتحف .

حين ابنتى عباس العزاوي داره الجديدة على شاطئ نهر دجلة خصّص الدور الأسفل جميعه لمكتبته العظيمة . لكن الكتب بقيت تتوارد وتتراكم وتملأ الغرف الأخرى حتى وصلت الى غرفة النوم . فقالت له زوجته : «أن لك أن تختار بيني وبين كتبك !» .

وقد روي عن الشاعر الانكليزي جون درايدن (١٦٣١ - ١٧٠٠) John Dryden أنه كان مكباً على كتبه حتى ضاقت زوجته بالأمر ذرعاً وقالت له : «ليني كنت كتاباً فأجد في رفقتك وقتاً أكثر» . فقال لها الشاعر الشيخ : «يا عزيزي ، إذا أصبحت كتاباً فلتكوني تقوياً لأستطيع استبداله كلّ عام» .

حاولت جامعة بغداد شراء مكتبة عباس العزاوي وفأوضته على السعر ، وكانت مستعدة لدفع مائة ألف دينار أو دون ذلك لجميع المطبوعات والمخطوطات . لكن العزاوي رفض العرض وقال : لا أقبل بيعها بأقل من ٢٥٠ ألف دينار .

وزاره ذات يوم وفد أدبي مصري بصحبته سفير مصر وبعض الأدباء العراقيين . وتناول الكلام بيع مكتبته الى الجامعة أو الحكومة فقال إنه ليس على استعداد لبيعها مهما دفع له من ثمن . وقال السفير المصري : ألا تخشى أن تؤمّمها الدولة وتأخذها قسراً؟ فقال العزاوي مشيراً الى نهر دجلة الذي يطل عليه من شرفة داره : إنني أرميها كلها في النهر قبل أن يستولي عليها أحداً

وتوفي مؤرخ العراق . وكنت سائراً ذات يوم على شاطئ نهر دجلة فرأيت موظفي مكتبة المتحف ينقلون الكتب والمخطوطات الثمينة من دار العزاوي ويضعونها في سيارات الحمل بلا عناية ولا اهتمام . أما الثمن الذي قدّر لها فلم يتجاوز ، على ما أذكر ، ١٧ أو ١٨ ألف دينار .

طريقة العزاوي في تدوين التاريخ :

طريقة عباس العزاوي في تدوين التاريخ هي كتابة تسلسل الوقائع حسب السنين ، بعد الرجوع الى المصادر المتيسرة . وكانت أكثر مصادره للحقبة التي بدأت بالاحتلال المغولي مخطوطة ومكتوبة بالتركية القديمة أو الفارسية . وكثيراً ما شكّا من قلة المصادر لفترات معيَّنة . لكنه استعمل مصادره الى أبعد ما استطاع ، وسرد الحوادث التي سجّلها دون تمحيص في معظم الأوقات ، ناقلاً أخباراً متضادة أو متنافرة حيناً بعد حين .

وبما يروى أن أحمد حامد الصراف قال عند صدور بعض أجزاء «تاريخ العراق بين

احتلالين» وفيها نقل عن كتاب «كُلْشَنَ خلفا»: «وهل يعرف العزاوي اللغة التركية القديمة العويصة لنعتمد على ترجمته لما جاء في «كلشن خلفا؟» .

فقال العزاوي حين نقل إليه ذلك الكلام: «وهل رأى الصرّاف مخطوطة «كلشن خلفا» ليستطيع الحكم على ما جاء فيها ونقل عنها؟» .

ثم لما بلغ العزاوي النصف الثاني من القرن التاسع عشر فتيسّرت له مصادر كثيرة عربية وتركية، مخطوطة ومطبوعة، وصحف منشورة تذكر الأخبار والأحداث على علائها. فقال:

تكاثرت الطباء على خراش فما يدري خراش ما يصيد!
وخراش كلب صيد كان لا يجد ما يصيده، ثم تكاثرت عليه الطباء فحار أيتها
يصيد.

قال العزاوي في مقدمة الجزء الثامن من «تاريخ العراق» بين احتلالين: «تزايدت المراجع وتكاثرت بسبب تكاثر المطبوعات. وتأسست خزائن الكتب فوصلت إلى درجة الإشباع. وصرت في حالة تردّد أو حيرة في الاختيار. . .»

ثم يقول: «وعهدنا هذا أدركنا الكثير من أيامه وذقنا حلوه ومرّه. شاهدنا أيام الاستبداد وزمن الدستور وأوقات الحرب بما فيها من غوائل وآلام ومحن وما فيها من أفراح وأتراح. وصفحات هذه الحقبة تدعو إلى تنقل الكاتب تنقلاً غير مطرد، بل تضطره إلى تحوّل مضطرب. يرى المرء نفسه في حاجة ماسّة إلى تدوين صفحات قد يكون شاهد عيانها أو من المطلعين على كثير من أوضاعها. ولكن المرء تعوزه المعرفة التاريخية المتقنة الصحيحة أو إلى ما يذكر بالحالة المشهودة والتبصّر بما لم يكن من شهوده. . .» .

لقد اكتفى العزاوي بتدوين الوقائع خطيرها وتافهها، صارفاً النظر عن المحاكمة والغربة والتحليل، تاركاً مهمة المؤرخ لمن يأتي بعده فيستعمل المادة التي جمعها له بجهد كبير وعناية فائقة خلال عمر كامل.

قال الشاعر كمال عثمان:

رأيت الرجال بأثأرهم وتاريخ «عبّاس» آثأره . . .
فمن كأبي فاضل في الرجال وأصل التواريخ أسفأره

نشر عباس العزاوي سنة ١٩٥٣ «سمط الحقائق في عقائد الاسماعيلية»، وهو منظومة لداعي الدعاة علي بن حنظلة أصدرها له المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق. وعلى أثر ذلك تلقى كتاباً من أحد المستشرقين المقيمين في حيدر آباد بالهند - وأظنه فريتز (سالم) كرينكو - يدعوه إلى الانتماء إلى الجمعية الاسماعيلية، وهي جمعية علمية تضم المؤرخين والعلماء المهتمين بتاريخ الاسماعيلية وعقائدهم، ولا ينتمي هؤلاء

بطبيعة الحال الى فرقة الغلاة .

قرأت الكتاب للجزاوي - وكان باللغة الإنكليزية - فقال الجزاوي : يريدني أن أصبح إسماعيلياً؟

قلت : إنها جمعية علمية لا شأن لها بالعقيدة . ولما نشرت سمط الحقائق أصبحت أهلاً للانخراط في سلك أعضائها .

فهز رأسه وقال : كلا . من ذا يصدق أن الجزاوي قد أصبح من أعضاء الجمعية الاسماعيلية ، وهو لا يؤمن بالفكرة؟

وزار المستشرق الفرنسي الشهير لويس ماسينيون بغداد في أعقاب الحرب العالمية الثانية . وأتى يوم الجمعة الى دير الأب أنستاس الكرمل ، وكان هناك فريق كبير من رجال العلم والأدب والفضل . ولم يكذب يستقر به المقام حتى أخذ كعادته يتكلم عن الحلاج ويشرح مأساته ويسأل هل عثر على آثار أو مخطوطات جديدة له؟ فقال عباس الجزاوي : «ما قيمة الحلاج وأية مأساة حلت به؟ لقد كان كافراً زنديقاً فكفره علماء المسلمين واستحلوا دمه . وأنا ، كفقيه إسلامي معاصر ، لوجيء به إلي الآن بعد ألف عام ، لأفتيت بتكفيره وقتله عوداً على بدء ا» .

وكان هذا الكلام مثار دهشة الحاضرين وإشفاق ماسينيون .

نوادير الجزاوي :

كان عباس الجزاوي يطبع الجزء الثاني من كتابه «تاريخ الأدب العربي في العراق» . وكان على عادته يجلس في غرفة المحامين أو المقهى أو إحدى المكتبات ويسأل أول قادم أن يساعده في تصحيح مسودات الطبع .

وجلس ذلك اليوم في المكتبة العصرية ، فجاءه ولده فاضل بآخر مسودات الكتاب ، وقد تناولت مبحث الشعر في العهد العثماني الأخير . وألقى بعض الجالسين نظرة عليها فقال للجزاوي : إنك لم تفِ الحبوبي حقه ولم تذكر شعراء لهم مكانتهم كحيدر الحلي وجعفر الحلي . . .

فغضب الجزاوي وصاح بابنه فاضل : لحذف هذا الفصل برمته ، أخرج هؤلاء الشعراء من الكتاب ، أخرجهم ا .

فضحكت وقلت : يا أبا فاضل ، هل أنت رضوان خازن الجنان وهل كتابك فردوس الأدب لتدخل من تشاء وتخرج من تشاء؟

وضحك المؤرخ واحتفظ بذلك الفصل من كتابه وأشار في آخره الى الشعراء الذين أغفل ذكرهم من أصحاب الدواوين .

كنت ذات يوم في زيارة لمنير القاضي رئيس ديوان مجلس الوزراء في دائرته ، فجاء

عباس العزاوي ، وقد طبع كتاباً جديداً له ، فأهدى نسخة منه إلى السيد منير . ثم دفع إليه نسخة ثانية ورجاه تقديمها هدية إلى رئيس الوزراء ، فاستدعى رئيس الديوان أحد موظفيه وقال : هذا كتاب الأستاذ العزاوي يهديه إلى رئيس الوزراء فقدمه إلى فخامته .

وخرج عباس العزاوي ، فلم تمض هنيهة حتى عاد الموظف يحمل الكتاب وسأل رئيسه : كم أعطي للعزاوي ، ديناراً أو دينارين ؟ فقال منير القاضي : إنك على ما يظهر لا تعرف أقدار الناس ، وعباس العزاوي محام ومؤرخ جليل ، وهو يهدي كتابه تفضلاً منه لا طلباً لمبلغ زهيد أو كبير . . .

وخرج الموظف الجاهل وهو يجرّ أذيال الحثية .

كثرت المداعبات مع عباس العزاوي في المقهى الذي اتخذته منتدى له أعواماً طويلة على شاطئ دجلة وفي نادي القلم وغرفة المحامين .

وقد قال له بعض الأدباء : إنك لا تحسن الأدب ولا تعرف كتابة التاريخ ، ولكن لديك مصادر من المخطوطات والمطبوعات النادرة ، مناجم زاخرة بالمعلومات الثمينة والعوائد والفوائد ، فأعزنا طائفة من هذه المراجع لنفيد منها وندرّج جوانب من تاريخ العراق وأدبه في عصور الانحطاط .

فغضب العزاوي وقال : إنني حصلت على هذه المخطوطات والمطبوعات بالجهد الجهد ، وبذلت في سبيلها النفس والنفيس ، وسعيت أجمعها آناء الليل وأطراف النهار ، ولم تأتني عفواً ولا هيأتها لي الدولة أو أية مؤسسة عامة . فلماذا أنتم قاعدون متقاعدون ، تعضون على الفلوس والدنانق بالنواجذ وتريدون الشيء بلا بذل ولا جهد ؟ والله لأحفظن هذه النواذر في الخزائن المغلقة وأنفس عليها النور والهواء ، لأرجع إليها في مباحثي دونكم وأجيئكم كل يوم بالأخبار الغريبة والآثار التي يجهلها عالمكم وجاهلكم .

وقد مضى العزاوي إلى الرفيق الأعلى وآلت مكتبته إلى خزانة دار الآثار ، فأين الذين حلموا بتقليب صفحاتها والنهل من ينابيعها الصافية ؟ لقد مات أكثرهم ولاذت بقيتهم بالعزلة والخمول .

وأخبرني عباس العزاوي أنّ في الاجتماع الذي عقده نادي القلم لتأبين جميل صدقي الزهاوي عند وفاته ، قال محمد رضا الشبيبي : رحم الله الزهاوي ، هل كان شاعراً ، أو أنه لم يكن شاعراً ؟ ولعلّ الشبيبي قصد الإشارة بذلك إلى ما قاله النقاد الأقدمون من أنّ أبا تمام والمتنبي حكيان والشاعر البحري .

وكان عباس العزاوي وأخوه علي غالب كثيراً ما يمرّون بدارنا عند عودتهما من المقهى الذي اعتادا الجلوس فيه مساء ، فأقول لهما : تفضلاً واشربا القهوة ، فيعتذران بتأخر

الوقت . وأجيبهما مداعباً ببيت الشاعر القديم :

تمزّون السديار ولا تعوجوا ، كلامكم عليّ إذن حراماً
والبيت من شواهد النحو على حذف الخافض لاقتضاء الضرورة ، فقال الشاعر
«تمزّون الديار» بدلاً من «تمزّون بالديار» .

وكان العزاوي يقسو أحياناً في مداعبته لأصدقائه وزملائه فيردّون عليه بالمثل . وقد
سأله بعد يوم تسجيل النفوس : كم سجّلت عمرك ؟ فقال : دون التسعين ! وقالوا له :
إنك قد شخّثت وهرمت وبلغت من العمر عتياً ، فأجاب متمثلاً بقول الشاعر البدوي :
شـايـب وعـايـب والهوى مـا نـسـنـهـا
وذلك أن فتيات الحيّ رأين شاعر القبيلة الشيخ وهنّ يجلبن الماء ، فقلن له : قد
كبرت ! فقال : أجل ، قد شخّثت ونحلت ، لكنني لم أنس الحب .

وقد قال جميل صدقي الزهاوي :

ليس الحديث عن الهوى من شاعر شيخ جريرة
وروى عبود الشالجي في كتابه «الكنائيات العامة البغدادية» أن المحامين في غرفتهم
كانوا يقسون في مداعبة عباس العزاوي ويعيرونه بأنفه وقسمات وجهه . وفي ذات يوم
دخل الشالجي فوجد المحامي محمد جواد الخطيب جالساً بين عباس العزاوي وعباس
عبد اللطيف البلداوي فدسّ في يده رقعة كتب فيها :

إنّي رأيتك جـالـسـاً في مجلس حلـو ظـرـيف
مـا بين عبـاس اللطيف وبين عبـاس «الكسيف»

يريد بالكسيف الكثيف أو الثقيل أو الغليظ المعاشة .

انتخب عباس العزاوي عضواً بالمجمع العلمي العربي ، فقال صديقنا إبراهيم
الواعظ : إذا لم يكرّمه الأدباء فنكرمه نحن المحامين . وسعى لدى نجيب الراوي نقيب
المحامين فأقام للعزاوي حفلة تكريم شائعة .

تأخر افتتاح الحفل حتى جاء فاضل العزاوي بمعروف الرصافي وأجلسه في الصفّ
الأمامي ، وكان يلبس الكوفية والعقال والعباءة وتبدو عليه آثار الشيخوخة .
وتكلم الواعظ فداعب المحتفى به دعابة ثقيلة لم يكن مناسباً ، ويا للأسف ،
ورودها في خطاب تكريم .

ثم تكلمت ووقّيت مؤرخ العراق حقّه على ما اعتقد . وأشرفت ، وأنا أستهلّ
كلامي ، على الحفل فوجدت النادي يغصّ بالرجال وليس بينهم سوى سيّدة واحدة ،
فقلت : سيّدتي وسادتي ، وكان ذلك مثار بهجة الحاضرين وضحكهم .

كان عباس العزاوي يكثر من التناذر بأخبار عشيرته ، فيقول إن العزاوي يخرج على فرسه ويدور بين مضارب العشائر وقرى الريف سنة واحدة ، ويقضي في كل مكان مدة الضيافة المألوفة ، وهي ثلاثة أيام . فإذا ما عاد إلى ديار قبيلته واستشرف خيامهم ، قال : وأسفاه ، عدنا إلى مهججات أهلنا ! .

وكان عباس العزاوي يتوكل في الدعاوى في كربلاء والنجف وكركوك وبعقوبا وسائر أنحاء العراق ويذهب للمرافعة أمام محاكمها . فيقول له موكله : ماذا تحب أن نحضر لك في الغداء ؟ فيعده العزاوي أصنافاً مختلفة من الطعام ، ثم يقول : هذه بالإضافة إلى ما تعدونه عادة للضيف ! .

وقال إن عزاوياً تطوّر في الجيش التركي وخدم فيه عدة سنين . وعاد إلى أهله فقالوا له : هل تعلّمت التركية ؟ قال : نعم ، لقد أتقنتها . فقالوا : إذن ، يا مسيعد ، تفيدنا حين يأتي موظفوا الكودة (ضريبة الأغنام) فتفاهم معهم وتخفف عنا عبء الضريبة .

وفي ذات ليلة جاءت الخيل تحمل موظفي الكودة ، فصاح رجال القرية : اليوم يومك ، يا مسيعد ، فتعال وكلم الجماعة . لكن مسيعد هرب واختبأ في بعض الخيام قائلاً : إنني أحسن التركية في النهار ، فكيف تريدوني أن أعرفها في الليل ؟

قرر مجلس أمانة العاصمة تسمية شوارع بغداد ، فاختر لها أسماء بعضها لأشخاص مغمورين ذكّرتهم الكتب الصفر القديمة وعثر عليها عبد اللطيف ثيتان .

قال عباس العزاوي : أقترح أن تسموا شارعاً باسم هولاكو ، فإنه على طغيانه ، أشهر في الأقل من النكرات التي أطلقت أسماءهم على بعض الشوارع .

عاد عباس العزاوي من فينا سنة ١٩٦٢ وقد أجرى جراحة لعينه فقال :

وجدت في مستشفى العيون بعاصمة النمسا رجلين عراقيين أعميين من أهل الكاظمية ، وقد جاءا لمعالجة بصرهما . وقاما بناءً على إشارة الطبيب بابتياح قرنيتين لترقيع باصريتهما من عجوزين فقيرين مشرفين على الموت .

وكان الرجلان يقيمان في المستشفى وينتظران موت صاحبيهما لكي يتمكن الطبيب من قلع قرنية المتوفى فوراً وتركيبها خلال ساعات معدودة على شبكة عين الأعمى فيتاح له أن يبصر النور .

لم يكن للرجلين من حديث سوى التمني على الله أن يعجل بقبض روح الشيخين اللذين اضطرتهم الفاقة على بيع عينيها بيعاً أجلاً . وبعد أيام توفي أحد البائعين ، فهرع صاحبه إلى غرفة الجراحة وغرزت قرنية عين الميت في عينه ، فلم تمض أسابيع حتى تمت المعجزة .

أما الثاني فانتظر طويلاً، ولم يمت صاحبه، بل انتعش وعادت قواه وحسنت حاله . وكان يقول كل يوم: ربّاه! أليس لهذا الليل من آخر؟ كم أنتظر وقد عددت لهذا الرجل قيمة عينيه نقداً، وهو يرفض أن يموت! ربّاه، أنقذني من هذه الحال التي لا تطاق وعجّل بخلاصي! . . .

وعاد العزاوي إلى بغداد، والأعمى لا يزال يبتهل إلى الله أن يميت صاحب عينه ليستردّ البصر.

ذكرتني هذه القصة بما كتبه الأديب الفرنسي دنيس ديدرو (١٧١٣ - ١٧٨٤) عن طبيب كان بحاجة إلى جثة لتشريحها. فسأل الممرّض الذي قال: لقد جئت في الوقت المناسب حقاً، فلدينا رجل محتضر لن يعيش ساعتين.

قال الطبيب: ساعتين؟ لا، إنّ هذا لا يفيدني، فأنا ذاهب هذا المساء في رحلة قصيرة لن أعود منها قبل مساء الغد.

- لا بأس امض لطيّتك. وسنحاول إطالة عمر المريض قليلاً في انتظار أوبتك .
وذهب الطبيب، أما الممرّض فمرّ بالصيدلية وجلب دواءً منعشاً ناوله إلى مريضه فنام نوماً هنيئاً طوال الليل. وجاء الممرّض صباحاً فوجد صاحبه جالساً يسعل ويبصق، وقد خفّت وطأة الحمّى وسكن الألم. وشكره المريض قائلاً: لا أدري أي دواء أعطيتني، ولكن يحقّ لك أن تفخر بأنك أعدتني إلى الحياة.

قال الممرّض: حسناً، حسناً، ولكن ماذا سيقول الطبيب؟
- ماذا سيقول الطبيب؟

- لا شيء، لا شيء.

واستمرت حال المريض على التحسّن. وعاد الطبيب في المساء فبادر الممرّض قائلاً:
أين الجثة؟

- ليس هناك جثة.

- كيف، ألم يمت المريض؟

قال الممرّض: إنها غلطتك، فقد كان مشرفاً على الهلاك، غير أنك ذهبت وتركته يبدّل رأيه ويتمسك بأهداب الحياة.

فقال الطبيب: لا بأس، اترك الأمر إلى فرصة ثانية.

ومن قبيل ذلك ما حدّثني به أحد الاصدقاء قال: كان في الكوت حفار قبور شيخ فقير مختل الشعور يعيش من تكفين الأموات ودفنهم ولا يكاد يصيب كفافاً من القوت. وكان، إذا شحّ الرزق، يجيء إلى مقهى التجار فيرفع يديه ضارِعاً إلى الله تعالى وصائِحاً

بأعلى صوته: يا رب، ألا يموت أحد من الناس؟ هل أموت جوعاً لأن عبادك في خير وعافية؟ اللهم، افتح علينا ووسع لنا...
فما يكاد يمضي في استغاثته وشكواه حتى يبادر التجار إلى نفعه بالدراهم واسكاته وصرفه.

العزاوي في أيامه الأخيرة:

لقي عباس العزاوي في أعوامه الأخيرة معارضة واضطهاداً. لقد أصبح النشر والطبع يكاد يكون محصوراً في أيدي وزارة الاعلام، فقدم كتاباً له عنوانه «برج الأولياء» إلى الوزارة لنشره، فقبل له إنه يجب أن يعرض على لجنة للنظر فيه وإقراره. فغضب وسحب مخطوطته وقال: أية لجنة تنظر في مصنف لرجل وضع ونشر عشرات الكتب؟

وقد سلق موظفي وزارة الاعلام بالسنة حداد، فامتنعوا عن نشر مقالاته في مجلات الوزارة وحالوا دون إعادة انتخابه عضواً بالمجمع العلمي العراقي. واضطر على نشر بحوثه في المجلات السعودية ومجلة المجمع العلمي الكردي في بغداد. وظل متألماً إلى أن أدركه الحما، لكن ولده فاضل واصل شن الحرب الكلامية على المؤسسات الثقافية الرسمية وشهد الاستيلاء على مكتبة أبيه الفريدة ونقلها إلى المتحف العراقي. ورفض تسلم حصته من المبلغ الضئيل الذي قدر ثمناً للمكتبة التي أنفق والده سنين طويلة من حياته وأموالاً وفيرة حصلها بعرق جبينه لانشائها وتوسيعها.

وكان عباس العزاوي يضيق ذرعاً بالنقد الذي يوجه إليه، فيقول: الانتقاد سهل والتأليف شاق عسير. ثم يقول: لا بأس، من ألف فقد استهدف.

الدكتور مصطفى جواد

العلامة اللغوي المحقق المؤرخ مصطفى جواد ولد في بغداد سنة ١٩٠٤ وأدركته الوفاة فيها في ١٧ كانون الاول ١٩٦٩. كان استاذاً في دار المعلمين العالية وكلية التربية وعميداً لمعهد الدراسات الاسلامية العليا وعضواً بالمجمع العلمي العربي في دمشق ونائب رئيس المجمع العراقي وعضواً مراسلاً لمجمع القاهرة. ترجمت له في «اعلام اليقظة الفكرية».

ألف الدكتور مصطفى رسالة في «جاوان القبيلة الكردية المنسية» نشرت في مجلة المجمع العلمي العراقي، ثم نشرها المجمع العلمي الكردي سنة ١٩٧٣. وترجمت إلى اللغة الكردية.

أخبرني مصطفى علي أن مصطفى جواد كان في أثناء دراسته في دار المعلمين الابتدائية ينشر نظماً ونثراً في مجلة «التلميذ العراقي» التي أصدرها سعيد فهم في تشرين

الأول ١٩٢٢ ، وكان توقيعه «مصطفى جواد الدلتاوي» .

وقال مصطفى علي أيضاً: كنت كاتباً عدلاً في بغداد سنة ١٩٣٤ ، فجاءني مصطفى جواد لتصديق كفالاته حينما أوفدته وزارة المعارف للدراسة في باريس . ومن غريب الاتفاق أن المكفول كان مصطفى (جواد) والكفيل السيد مصطفى (من أهل الكاظمية) والكاتب العدل مصطفى (علي) ، وكذلك كان اسم الكاتب في دائرة الكاتب العدل الذي أنجز المعاملة مصطفى أيضاً .

كان مصطفى جواد ، وهو طالب في باريس ، يقضي معظم أوقات فراغه في المكتبة الوطنية . وقد نقل بخطه اللطيف عشرات الدفاتر من المخطوطات القديمة النادرة والمجهولة وأطلق عليها عنوان «أصول التاريخ والأدب» . وصار بعد ذلك يرجع إليها في كتاباته ويشير إليها في الهامش ، فيذكر «الأصول» ج (كذا) ص (كذا) دون أن يصريح بالمصدر الأصلي . وقد سأله يوماً لماذا لا يذكر المرجع المخطوط عنه مع الإشارة إلى رقمه في المكتبة الوطنية ، فقال : لقد أجهدت نفسي وأفنيت أيام شبابي في البحث عن مصادر لم يلتفت إليها أحد ، ونقلتها بخط يدي حرفاً حرفاً ، وعحصت معروفها من مجهولها وصحيحها من مغلوطنها ، ثم أصرحت بعنوانها ورقم تسلسلها ومحل وجودها ، ليطلبها كل طالب ويفحصها كل راغب ؟ ذلك ما ياباه العقل وينكره الفضل ولا ترضى به المروءة ! وليذهب من شاء وليبحث ويحقق ويدقق ، وليهنا بما يعثر عليه بكثته وتعبه ، ولا يكون كلا على السابقين ولا عائلاً على العاملين .

قال ذلك مصطفى جواد ، لكنه لم يكن بخيلاً على السائلين والطلاب ، بل كان يدهم راضياً مسروراً على المراجع التي يرجعون إليها والمصادر التي تيسر لهم مواد بحوثهم وكتاباتهم . وكان عبد الرحمن بن عيسى بن حماد الهمداني الكاتب قد صنف «الألفاظ الكتابية» ، فقال صاحب ابن عباد : «لو أدركته لأمرت بقطع يده ! فقد جمع شذور العربية الجزلة في أوراق يسيرة فأضاعها في أفواه صبيان المكاتب ورفع عن المتأدبين تعب الدرس والحفظ الكثير» .

عرفت مصطفى جواد في باريس سنة ١٩٣٧ مع حقي الشبلي ونفر من الطلاب العراقيين الذين كانوا يدرسون فيها . لكن صلتني به لم تتوثق إلا بعد عودته إلى بغداد عند نشوب الحرب العالمية سنة ١٩٣٩ ، وكان صلة التعارف بيننا أحمد حامد الصراف .

وقرّر سنة ١٩٣٨ إنهاء بعثة مصطفى جواد ، فجاء إلى بغداد وراجع وزير المعارف الشيخ محمد رضا الشيبسي وكلمه في استئناف دراسته . ونصبه الشيخ بمراجعة رئيس الوزراء جميل المدفعي ، فنظم مصطفى قصيدة في مدح المدفعي نشرها في جريدة الزمان ، يتوسّل فيها بالحصول على عطفه . وأثمر مسعاه ، فأوعز الرئيس إلى وزارة المعارف بإعادة إيفاده للحصول على شهادة الدكتوراه .

وكان مصطفى جواد قد تزوج في بغداد قبل إيفاده إلى القاهرة وباريس ، لكنه ترك

قربنته وأولاده في بلد الرشيد . وتعترف في باريس بفتاة فرنسية ساعدته في كتابة أطروحته عن الناصر لدين الله العباسي باللغة الفرنسية - على ما رواه لي - فصاحبها طوال إقامته في ربوع السنين وأنجبت له ولداً . ولما عاد إلى بغداد ترك لديها كتبه ، وكثيراً ما كان يشكو لنا في أثناء الحرب أنها باعت كتبه وتصرفت في الأشياء التي أودعها لديها . فقال له الصراف : وهل أرسلت لها ولابنها بشيء من المال تستعين به على العيش ؟ فصمت ولم يجب .

وعلمنا منه بعد ذلك أنها توفيت هي وولدها بداء السلّ خلال سني الحرب العجاف .

وحريّ بالذكر أنّ مصطفى جواد أنهى دراسته الجامعية ووضع أطروحته وقدمها إلى «السوريون» . ونشبت الحرب العالمية قبل أن يهيأ له مناقشتها وقبولها وتسلم شهادة الدكتوراه ، فترك فرنسة عجلًا خوف انقطاع الطرق مع طلاب آخرين كانوا يدرسون في باريس .

ولما جاء إلى بغداد ، لم تعترف وزارة المعارف بشهادته . وظلّ يراجع أشهراً محتجاً بالظروف الاستثنائية التي حالت دون مناقشة أطروحته وحرمة إعلان حصوله على الدكتوراه رسمياً ، فقبل الوزير صالح جبر عذره أخيراً وأوعز بتعيينه للتدريس في دار المعلمين العالية في الدرجة التي تؤهله لها الشهادة .

ودعي مصطفى جواد على أثر عودته من باريس إلى الالتحاق بدورة ضباط الاحتياط (١٩٣٩) مع احمد حامد الصراف وغيره من خريجي الكليات والمدارس العالية . وقد داوم أياماً ، وكان ينتقد العريف الموكل بالتدريب على الأخطاء اللغوية في إبعازاته العسكرية . وظهر بعد ذلك في الفحص الطبيّ أن قدمه رخاء (أي منبسطة لا أخمص لها) فأعفي من الخدمة .

مصطفى جواد وشكيب أرسلان

حدثني الدكتور مصطفى جواد أنه ، حينما كان يدرس في باريس ، نشر نقداً لمقال كتبه الأمير شكيب أرسلان الذي كان يقيم آنذاك في جنيف من أعمال سويسرة . وردّ الأمير على منتقده ساخرًا من الطالب العراقي المغرور الذي يتناول على أمير البيان ويتصدى لدحض آرائه .

ولم يكن من مصطفى جواد إلا أن كتب رسالة شخصية إلى شكيب أرسلان ، يؤيد انتقاداته ويسندها إلى مصادر لا يرقى إليها الشك . ثم قال ما معناه : انكم ، أيها الأمير المجاهد الجليل ، ترفعون نسبكم إلى التنوخيين ملوك الحيرة وإلى النعمان بن المنذر اللخمي ابن ماء السماء ، وليس لديكم سند تاريخي يؤيد هذا النسب . ثم ذكر له

المراجع الكثيرة التي تفسد هذا الادعاء وتخرجه عن إطاره التاريخي الصحيح وتجعله بعيد الاحتمال غير معزز بالأسانيد المعتمدة .

وقرأ الارسلاني رسالة مصطفى جواد ، فكتب إليه معتذراً ، مقراً بفضل الطالب العراقي ، معترفاً بعلمه وطول باعه . ثم سأله أن لا ينشر رأيه في نسب آل أرسلان ولا يطعن فيه ، وقال : لقد اضطربت حين قراءة رسالتكم اضطراباً شديداً ، وكنت مزماً السفر فأسقط في يدي وفاتني موعد القطار! . . .

كان مصطفى جواد آية من سعة المعرفة وقوة الحافظة وشمول الاطلاع . وقد أفاد من دراسته في باريس وألم بأساليب البحث المنهجية الحديثة وطرق التأليف والتصنيف . لكنه ، وقد كتب مئات بل آلافاً ، من المقالات والمباحث في التاريخ واللغة والأدب والخطط والتراجم ، وأضاع أوقاتاً ثمينة في الردّ على المؤلفين والكتّاب وتخليطهم وتعرية جهل جاهليهم وخبط عالميهم ، لم يتفرغ لتأليف كتاب مستقل جامع في بعض تلك المواضيع يدل على نبوغه وتتبعه ويبقى أثراً للأجيال الآتية وشاهداً على فضله ومبرراً للشهرة التي حازها في حياته .

لقد وضع عباس العزاوي تاريخه وعشائره وسائر مصنفاته التي أصبحت مراجع في بابها بالرغم من ضعف أسلوبها وجمعها للغث والسمين . وهياً عبد الرزاق الحسيني مصادر ووثائق لا تقدّر بثمن للباحثين في تاريخ العراق الحديث . ووضع انستاس ماري الكرملي معجمه «المساعد» فكان خلاصة وافية لجهود حياة كاملة . . .

أما مصطفى جواد وأكثر الباحثين والمؤرخين المعاصرين له فبعثوا جهودهم وشتتوا أبحاثهم ، وقلما نسقوا ثمار علمهم في مؤلف جامع في موضوعه تحتفظ به الاجيال الآتية وترجع اليه . ومع ذلك يجد الكتاب والباحثون في كتابات مصطفى جواد وبحوثه المبعثرة في الكتب والمجلات والصحف وفي الأصول والمراجع التي نقل عنها ونوّه بها موادّ دسمة تغذي المواضيع التي وقف عليها حياته .

أوفد مصطفى جواد إلى انكلترا في حاشية الملك فيصل الثاني حين أرسل للدراسة سنة ١٩٤٧ ، وكان معه ايضاً الأميرة عبدتيّة بنت الملك علي واللواء عبد المطلب الامين الهاشمي مدرّس التاريخ والجغرافية وبعض رجال الحاشية .

حدّثني مصطفى جواد أنّ المدرسة كانت بجوار بلدة سالسبوري ، فاشترت العائلة المالكة داراً نزل فيها الملك ، أمّا مصطفى فاستؤجرت له غرفة في بعض الفنادق . وكان يذهب مرتين في الاسبوع إلى دار الملك لتدريسه اللغة العربية . كان أول الأمر يذهب بسيارة أجرة ، ثم طلب منه أن يتعلم السياقة فتمرّن عليها في دروس قليلة وأعطى سيارة يتنقل بها ويسوقها بنفسه .

وذهب الملك وحاشيته في السنة التالية الى سويسرة للتزلّج في جبالها ، فحاول مصطفى ممارسة تلك الرياضة وسقط وأصيب برضوض وكسور بسيطة .

بين مصطفى جواد

ومحمد رضا الشبيبي

أولع مصطفى جواد منذ عهد شبابه بالمؤرخ البغدادي كمال الدين عبد الرزاق ابن الفُوطي المتوفى سنة ١٣٢٣ م. وقد حقق كتاباً في التاريخ ناقص الأول مغفل العنوان ظنه - كما ظنه غيره - كتاب «الحوادث الجامعة» لابن الفوطي وأصدره سنة ١٩٣٢. واهتم الشيخ محمد رضا الشبيبي أيضاً بالمؤرخ نفسه ووضع مقدمة للكتاب المنسوب إليه.

ولابن الفوطي كتاب آخر اسمه «تلخيص مجمع الألقاب» وجدت نسخة مخطوطة من المجلد الرابع منه في الخزانة الظاهرية بدمشق، لكنها نسخة مشوهة. فصفحاتها على شكل جداول ذكر اسم الشخص في الصفحة اليمنى وجاءت ترجمة موجزة له في اليسرى، لكن الصفحات تفرقت وتداخلت، ثم أعيد جمعها وتصحيحها بغير ترتيب لعدم ترقيمها، فظهرت التراجم على وجه مضحك. فربّ شاعر نشرت أمام اسمه ترجمة قائد أو فقيه، وربّ رجل عاش في المائة الثالثة نقل إلى المائة الخامسة أو السادسة، وهلم جراً.

عاني مصطفى جواد جهداً كبيراً في إعادة ترتيب التراجم وإلحاق كل ترجمة بصاحبها مستدلاً بمعلوماته الواسعة في التاريخ ومستعيناً بكتب التراجم والرجال لحلّ الألغاز والمعميات في هذه المخطوطة الغريبة. ولما فرغ من عمله وأيقن أنه صحّح النسخة وأعطى كلّ ذي حق حقه، تقدم إلى المجمع العلمي العراقي ملتمساً نشر كتابه المحقق. لكنه فوجيء بأن الشيخ الشبيبي يقوم بنفس العمل ويرغب أن لا يسبقه أحد في نشر الكتاب. وكظم مصطفى جواد غيظه، لكنه كان يقول لأخصائه أنه لا يحق للاستاذ الشبيبي أن يحول دون نشر كتابه وأنه يعتقد أن الشبيبي على سعة علمه وفضله لا يستطيع أن يعيد المخطوطة المشوهة إلى أصلها الصحيح.

وأخيراً نشر الشبيبي الجزء الأول من كتابه «مؤرخ العراق ابن الفوطي» سنة ١٩٥٤، وقد باشر طبعه قبل أربع سنوات وتلكاً في إكماله وإصداره خوفاً من مصطفى جواد. ثم أصدر الجزء الثاني بعد خمس سنوات. فجرد مصطفى قلمه وكتب في نقد الشبيبي مئات الصفحات نشرها في مجلة المجمع العلمي العراقي خطاًه تخطئة فاضحة وأحصى عليه أغلاطه التاريخية وجهله تجهيلاً ولكن بأسلوب أدبي جميل واحترام غير قليل.

وقد سكت الشبيبي على مضض ولم يردّ على النقد بكلمة، - عالماً أنه، ولا ريب، شاعر كبير وأديب قدير، لكنه لا يداني مصطفى جواد في التاريخ ولا يلحق به.

رثاء سعد زغلول :

رثى سعد زغلول عند وفاته سنة ١٩٢٧ بقصيدة مطلعها :

ناشدتك الله قل ما حل في مصر
من المصائب إذ لم استطع صبراً
قال منها :

أمات سعد حبيب الشعب عن عمر
أمات سعد رئيس الوفد؟ وأخربي
عليك، يا سعد، أبناء العراق غدوا
أودعت حبك في كل القلوب، وما
إن العراق ليكي آسفاً كدراً
منزه عاش فيه مخلصاً حراً؟
على الذي كان في مصر لها ذخراً . .
حamal حزن يزيل الصبر والفكر
أبقيت قلباً يكمن الحقد والنكر
حزناً عليك، وقد ساءت به البشرى

كان مصطفى جواد يقيم في محلة شعبية، وقد وضع على باب داره لوحاً كتب عليه «الدكتور مصطفى جواد». وفي ذات ليلة طرق الباب عليه طرقةً عنيفاً في منتصف الليل، فقام إلى الباب وفتحته، فإذا بامرأة عجوز تقول له: إن ابنتي مريضة وفي حالة شديدة من الألم. ونحن جيرانك، يا دكتور، فتعال افحصها لعل الله يمن عليها بالشفاء على يدك المباركة.

فقال مصطفى: لست طبيباً، يا خالة، وإنما أنا استاذ ودكتور في التاريخ. وعبثاً حاول اقناع المرأة انه ليس طبيباً. وأخيراً قالت له بغيط: إذا لم تكن طبيباً، فلماذا تغر الناس وتضع على دارك لافتة باسم دكتور؟ وفي الصباح بذل مصطفى جواد اللافتة ورفع عنها كلمة الدكتور.

ومما يروى من قبيل ذلك أن ممثلي الدول العربية في الجامعة بالقاهرة كانوا في حين من الأحيان الدكتور فاضل الجمالي (العراق) وفارس الخوري (سورية) والدكتور فوزي الملقى (الأردن). وكانوا يحترمون الخوري لكبر سنّه ويدعونه بـ «العم». وكان الدكتور الملقى بيطاراً، لكن الجمالي كان يظنه طبيباً.

وفي ذات يوم شعر فارس الخوري بوعكة ألزمته الفراش، فعاده الجمالي وقال له: لماذا لا نستدعي الدكتور فوزي الملقى لفحصك؟ فردّ عليه الخوري من فوره: وهل عمك حمار؟

كنت سائراً مع الدكتور مصطفى جواد في شارع الرشيد فقرأنا على باب أحد الدكاكين عبارة مكتوبة بخط قبيح غير متناسق: «هنا تنباع البوال»، فلم يكن من الدكتور إلا أن دخل وخاطب صاحب الدكان العامي قائلاً:

— هل تبيع الطوايع؟

- أجل ، ولديّ منها أنواع نادرة شرقية وغربية . . . ماذا ترغب أن أريك؟ هل تريد «البوم»؟ . . .

- لا ، يا عزيزي ، لا أريد شيئاً منها ، ولكن . . .

- ولكن لدينا كل ما تريد . . . إصدارات خاصة لا يوجد مثلها . . .

- يا سيدي ، أنا لا أريد الشراء ، ولكن يحسن بك أن تكتب على باب الدكان قطعة بعربية صحيحة : « هنا تباع الطوايع » .

واغتناظ البائع وقال :

- إذا كنت لا تريد الشراء فلماذا تدخل وتعترض على الناس؟ وماذا يهمك أن نكتب بعربية صحيحة أو غير صحيحة . . .

وأسرعنا بالخروج إلى الشارع . وقد ذكرني هذه الحادثة بقصة الشاعر الفرنسي Mal-herbe (المتوفى سنة ١٦٢٨) . كان محتضراً يعالج سكرات الموت ، والراهب إلى جنب سريره يلقنه التعاليم الأخيرة . وفتح عينيه بعد غفوة قصيرة ، فسمع ربّة الدار تكلمه بكلمات لم تكن آية في الفصاحة ، فقال : «يجدر بك ، يا سيدي ، أن تراعي قواعد اللغة . . .» .

فقال الراهب : «الأولى أن تهتم بآخرتك» . وأجابه الشاعر على الفور : «انني لا أستطيع ، ولو في مقام الموت ، أن أغض النظر عن فصاحة اللغة الفرنسية!» .

وروي عن اللغوي الفرنسي دومنيك بوهور (١٦٢٨ - ١٧٠٢) Dominique Bou-hours إنه قال وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة : «إنني مشرف على الموت ، أو أنا أموت ، يصح استعمال كلا العبارتين» :

وقال نحويّ عربيّ قديم : أموت وفي نفسي شيء من «حتّى» .

كان لنا صديق أديب لا يحسن النظم ولا يكاد يفرق بين الشعر والنثر . وأعلن الملحق الصحفي للسفارة البريطانية في بغداد خلال الحرب العالمية الثانية ، وأمّته تخوض غمار حرب ضارية يتوقف عليه بقاؤها ، عن مسابقة شعرية تتعلق بمواضيع لها صلة بانتصار الحلفاء وعدالة قضيتهم ، وخصّص لها الجوائز ، واختار لجنة التحكيم من شعراء وأدباء معروفين في طليعتهم الدكتور مصطفى جواد .

وجاء صديقنا الأديب إلى مصطفى جواد وقال : رغبت في الاشتراك في هذه المسابقة ، وقد نظمت قصيدة أرجو أن تنظر فيها قبل الإرسال بها . فتناول الدكتور القصيدة ونظر فيها فقال : اسمح لي أن أصارحك ، يا عزيزي . فهذه ليست شعراً ولا يستقيم لها وزن ولا قافية ولا معنى . قال صاحبنا : فهل تصلحها؟ .

قال : لا سبيل إلى إصلاحها ، ولكنني أنظم لك قصيدة تقدمها إن شئت إلى لجنة التحكيم .

ووافق الصديق شاكراً ، فنظم الدكتور مصطفى قصيدة على لسانه في الموضوع المقرّر وقدمها الأديب المشاعر إلى لجنة المباراة باسمه ، فنال بها الجائزة الثانية أو الثالثة ! .

حين توفي الشيخ محمد رضا الشيباني عضو مجمع اللغة العربية بمصر رشح مصطفى جواد وعبد الرزاق محيي الدين لملء الكرسيّ الشاغر في المجمع . وقد اختار الأعضاء مصطفى جواد ، لكن عبد الرزاق محيي الدين ، وهو آنذاك وزير الوحدة ، أسرع إلى مقابلة جمال عبد الناصر ورجاه أن يؤيد ترشيحه ، ففرضه الرئيس المصري على المجمع وصدر الأمر باعتاده .

وقد بلغ ذلك مصطفى جواد وهو في بغداد فأله الخبر ألماً شديداً .

كان مصطفى جواد يدّعي معرفة علم الفراسة ، فإذا نظر إلى رجل في الطريق يقول : هذا فارسيّ وهذا كردي وهلم جراً . فإذا سأله : كيف علمت ؟ يقول : سياتهم في وجوههم . . . وقال إنه كان ، وهو طالب في باريس ، يدخل إلى بعض المخازن لشراء حاجة له ، فينظر إلى وجه البائع فيعرف أنه يهودي أو أرمني ، فيحدثه بحديث قريب من نفسه يحصل منه على سماح أو مهاودة في الأسعار .

وذهب مصطفى جواد إلى طهران مع جعفر الخليلي بدعوة من الحكومة الإيرانية ونزلا في بعض الفنادق الراقية . وكانت موظفة الاستقبال في الفندق لطيفة لم تن جهداً في خدمة الأديبين ورعايتهما ، فانتحى مصطفى جواد ناحية بصاحبه وقال له : أترى هذه الفتاة الجميلة ، إنها يهودية .

قال الخليلي : كيف عرفت ؟

- إن ذلك ظاهر في سيماها !

ومضى الخليلي إلى مدير الفندق وكلمه بالفارسية قائلاً : إن موظفة الاستقبال بذلت جهدها في خدمتنا ، فهل لك أن تدعوها لنشكرها ؟ فصاح المدير : علوية فاطمة ، تعالي إلى هنا فالسيد يريد أن يشكرك .

وضحك الخليلي وقال لمصطفى جواد : أين فراستك ؟ إنها علوية فاطمة !

ظل مصطفى جواد يتحدث أعواماً طويلة في الاذاعة والتلفزيون . وكانت برامجهم الاسبوعية في التلفزيون تجتذب الناس عامتهم وخاصتهم ، إذ كان له أسلوب محبّب ييسّط به أحداث التاريخ وقصص الخلفاء والوزراء والشعراء ومواقع الآثار والبلدان . وإذا كان لي أن أشبهه بأحد في هذا المجال فأنا أشبهه بأديب مصر الكبير الشيخ عبد

العزیز البشري (١٨٨٦ - ١٩٤٣)، فقد كان له مريدوه الكثيرون في ندواته الاذاعية . قال الدكتور ابراهيم علي أبو الخشب في كتابه «تاريخ الأدب العربي في العصر الحاضر» : «وأنا أذكر أن أول عهد الناس بالاذاعة ، هنا بمصر، اختار القائمون على الاذاعة رجلين اثنين توسموا فيهما أن يربطوا الاذهان والقلوب بها . وكان الرجلان هما الصحفي الظريف فكري أباطة والأديب الكبير البشري . وكان ترقب الناس لكل واحد منهما يفوق الحدّ ويتجاوز المعقول، إلا أن جمهور البشري كان أضعافاً مضاعفة . . . » ويضيف قائلاً إنك لا تسأل أحداً إلا أخبرك أن الشيخ البشري إنسان جذاب إلى أبعد الحدود، وقد أكبرته في عيون الناس خفة الروح والألمعية والذوق وحضور البديهة . . . ولعل كل تلك الصفات تنطبق على مصطفى جواد في ندواته التلفزيونية، يضاف إليها، شخصه المائل على الشاشة الصغيرة ببساطته وهدوئه ومسبحته التي لا تفارق أصابعه، وعينه اللتين كثيراً ما يغمضهما للتركيز على حديثه المتسلسل الذي يلقيه في أناة وصوت لطيف راتب، مما يضيف على المواضيع الأدبية والتاريخية الجامدة لذة وحلاوة ويقرّبها إلى أفهام عامة الناس .

وقد سألته مرة لماذا يغمض عينيه في أكثر الأحيان وهو يتكلم في التلفزيون؟ قال : لو رأيت الاضوية وآلات التصوير الموجهة إليك وأنت تتكلم لشرد ذهنك واختل رأيك وعي لسانك ! .

المطران سليمان الصائغ

ولد سليمان بن داود الصائغ في الموصل في ١٨ أيلول ١٨٨٦ ، وانتمى الى مدرسة مار بطرس البطريركية في مسقط رأسه سنة ١٩٠١ ، فأتم دروسه الاعدادية والفلسفية فيها في تموز ١٩٠٨ ورسم كاهناً .

وعمل في سلك التعليم وإدارة المدارس الابتدائية، وعيّن سنة ١٩١٤ مديراً للمدرسة الاعدادية الكلدانية، وكان عضواً في لجنة المدارس الابتدائية في الموصل على العهد العثماني .

عهد إليه على أثر احتلال الموصل تحرير جريدة «الموصل» التي أصدرتها الحكومة في ١٤ تشرين الثاني ١٩١٨، فتولى العمل بها أكثر من سنة . ولما نظر في قضية الموصل وألفت لجنة الدفاع الوطني لضمّها الى العراق، كلف بكتابة القسم التاريخي من تقرير اللجنة في سنة ١٩٢٥ .

وأصدر في ٢٥ كانون الأول ١٩٢٨ في الموصل مجلة «النجم»، وهي مجلة علمية أدبية بقيت تظهر الى سنة ١٩٤٠ . واختير سليمان الصائغ عضواً مراسلاً بالمجمع

العلمي العراقي في أيار ١٩٤٩ . وقد رسم مطراناً في حزيران ١٩٥٤ وعيّن نائباً بطريركياً للكلدان في الموصل .

وتوفي في تلك المدينة في ١٨ أيلول ١٩٦١ ، وهو يوم عيد ميلاده الخامس والسبعين . وللمطران صائع مؤلفات تاريخية ، منها : تاريخ الموصل (الجزء الأول ١٩٢٣ ، الثاني ١٩٢٨ . الثالث ١٩٥٦) ، كتاب يزدان دوخت (صفحة من تاريخ العراق في العهد الساساني ، ١٩٣٤) ، تاريخ الكنيسة الكلدانية (١٩٣٩) . وقد سعى لتنشيط التمثيل في المدارس وألف مسرحيات ، منها : الزباء (١٩٣٣) مشاهد الفضيلة (١٩٣١) الأمير الحمداني (١٩٢٨) ، وترجم مسرحية هوراس لبيير كورناي (١٩٥٢) .

شكري الفضلي

شكري بن محمود بن أحمد آغا ؛ من رؤساء عشيرة الكروية ، ولد في بغداد سنة ١٨٨٢ ، وقضى في السليمانية أربع عشرة سنة برفقة خاله صالح أفندي إسماعيل الذي كان رئيس كتاب الحامية العسكرية ، ودرس فيها دروسه الابتدائية . وعاد الى بغداد سنة ١٩٠١ ، فانتفى الى المدرسة الرشدية العسكرية ودرس اللغات العربية والكردية والفارسية . وعيّن بعد ذلك معلماً في مدرسته الرشدية ومدرسة القديس يوسف .

شد الرحال الى الأستانة سنة ١٩٠٨ فأمضى فيها عامين ، ثم عاد الى بغداد ، وحضر دروس الشيخ عبد الوهاب النائب ، وألمّ بشيء من الانكليزية والفرنسية . واطلع على الثقافة التركية الحديثة ، ومن طريقها على الأدب العصري الغربي ، فتأثر بمبادئ الحرية والتقدم الاجتماعي ، ولقي في سبيل ذلك عنتاً وإرهاقاً . فقد سجنه الفريق رفيق باشا في كركوك ، ثم ألقى القبض عليه مع فريق من رجال العراق المناوئين لحزب الاتحاد والترقي ، وطلب إرساله الى الأستانة لمحاكمته أمام ديوان الحرب العرفي بأمر من طلعت باشا وزير الداخلية التركية ، لكن أطلق سراحه مع رفاقه بشفاعة الفريق محمد فاضل باشا الداغستاني .

ولما احتل الإنكليز بغداد وجلا عنها الأتراك ، عيّن سنة ١٩١٧ رئيساً لكتاب محكمة الصلح ، ثم اختير عضواً بلجنة ترجمة القوانين العثمانية على عهد ناظر العدلية بونهام كارتر . وحرّر في الوقت نفسه في صحيفة «العرب» وبعض الصحف الفارسية والكردية التي أصدرتها سلطات الاحتلال . وكتب في الجرائد الصادرة في بغداد كجريدة الشرق والعراق والاستقلال . ونقل في سنة ١٩٢١ رئيساً لكتاب ديوان مجلس الوزراء . وأصيب بالسل ، فتوفي ببغداد في أول حزيران ١٩٢٦ . ورثاه جميل صدقي الزهاوي قائلاً :

حال بيني وبين شكري التراب إذ قضى نجبته، فجلّ المصاب . . .
قد بكته الأعلام منكسرات وبكته الأخلاق والآداب

وكان شكري الفضلي نفسه قد حيّا الزهاوي بقصيدة قال فيها :

لقد قلت شعراً، بل نظمت شعوراً نذيراً لقوم تارة وبشيراً
يغتر منهج الحياة بسرعة ويحدث من بعد الأمور أموراً
يكلم جهراً في الجبان شجاعة ويجعل همس الخائفين زئيراً
يريك شحيح القوم يسط كفه ويشرك في مال الغني فقيراً
يثقف أحلام الرجال ليتقوا بها الدهر خطباً منكراً ونكيراً
يوخذ غايات الهداة ليدركوا نعيماً وملكاً لا يزال كبيراً
فدونك شعراً للزهاوي خالداً تريك قوافيه الشعور بحوراً

مؤلفاته وشعره :

نشر شكري الفضلي بحثاً في مجلة «لغة العرب» وغيرها من المجلات والجرائد .
ووضع كتباً في تاريخ العراق قديماً وحديثاً، وذيل جغرافية العراق التاريخية، وفلسفة
الحيام، ونظرات سياسية واجتماعية . وله ديوان شعر ومؤلف باسم «مكتبة الفضلي»
يبحث في العلوم المختلفة كالحكمة الطبيعية والكيمياء والفلك وطبقات الأرض
النخ . وقد بقيت آثاره متفرقة في الصحف والمجلات وأوراقه المخطوطة لم يقدر لها الجمع
والطبع .

وأدب شكري الفضلي كثقافته مزيج من القديم والحديث، وقد أطل على الآداب
العصرية من نافذة الأدب التركي الجديد . وأفقه واسع شأن الأدباء المخضرمين من
أقرانه، فهو ينظم وينثر ويبعث في التاريخ والجغرافية والاجتماع وهلم جرا .

ومن شعره في «المستنصرية» :

نهضنا، وكان الدهر تترى كتائبه، يحاربنا طوراً وطوراً نحاربه
فكم قد قتلنا الدهر خُبراً فزادنا بيلواه علماً حينما نحاربه
وكم قد حلبنا أشطر الدهر دربة وفزنا بدر الحق، لله حاله!
وكم قد علونا هام أسود يومه بأبيض عزم فاستنارت غياهبه . .
فهذي هي المستنصرية تشتكي بلاها وبالصمت البليغ تخاطبه
ألا دولة المستنصر اليوم قد علت بدولتكم واعتزّ بالعلم طالبه
إذا ما أُنخذت العلم للشعب ساعداً ضريت بسيف لم تخنك مضاربه . .
إلى العلم، يا أهل العراق، فإنه لمورد عذب لم تعكر مضاربه

صديق الدملوجي

البخّانة الإداري صديق بن سعيد الدملوجي ولد بالموصل سنة ١٨٧٧ ، وكان موظفاً إدارياً في العهد التركي . وعلى أثر تأليف الحكومة العراقية ، عيّن في أيلول ١٩٢٣ قائمقاماً للشرطة فالقرنة (تموز ١٩٢٥) ، وكان أيضاً قائمقاماً للأقضية الشبالية العمادية والشيخان وسنجار وتلعفر .

إنصرف إلى البحث والتأليف بعد اعتزاله الخدمة الرسمية . وأدركته الوفاة في مسقط رأسه الموصل في ١٥ نيسان ١٩٥٨ . من مؤلفاته التاريخية : الأنقاص ، الموصل (١٩٤٩) اليزيدية (١٩٤٩) إمارة بهدينان الكردية أو إمارة العمادية (١٩٥٢) مدحت باشا (١٩٥٣) .

وهو أخو الدكتور عبد الله الدملوجي وفاروق الدملوجي .

رزوق عيسى

ولد رزوق بن عيسى بن زكريّا الموصلي ، في بغداد في ٦ حزيران ١٨٨٥ ، ودرس في المدرسة الانكليزية الثانوية ونال شهادتها سنة ١٩٠٠ . وعمل موظفاً في بعض الشركات التجارية في البصرة ، لكنه لم يلبث أن عاد الى بغداد وقام بالتدريس في المدرسة الانكليزية (١٩٠١ - ١٤) .

وأصدر مجلة العلوم في أول تشرين الثاني ١٩١٠ فلم يظهر منها سوى عدددين . وأعلن النفير العام في أواخر سنة ١٩١٤ فجند ، ثم اعتقل في آذار ١٩١٥ بتهمة الخيانة وحكم عليه بالسجن ستة أشهر . وعيّن على أثر الاحتلال الانكليزي سنة ١٩١٧ مترجماً ومعاوناً للحاكم السياسي في العريزية والنعمانية . لكنه استقال من منصبه بعد أمد وعاد الى التعليم في المدارس الأهلية عدة أعوام . وأصدر مجلة المؤرخ في كانون الثاني ١٩٣٢ ، فاستمرت سنة واحدة .

وقد وضع مؤلفات متعددة منها المطبوع والمخطوط ، منها : بغية الأنام في لغة دار السلام ، تاريخ العراق قديماً وحديثاً ، تاريخ التمدّن العراقي ، حضارة بابل وأشور ، تاريخ مدن العراق القديمة والحديثة ، حضارة العرب في الجاهلية والإسلام ، تاريخ الصحافة في العراق ، جغرافية العراق الخ . وألف روايات وكتباً مدرسية ، ونشر مقالات وبحوثاً كثيرة في الصحف والمجلات .

ومن رأيه أنه لا يصلح العالم إلا المذهب الإشتراكي المعتدل الذي بشر به الأنبياء ، وقال به الفلاسفة ، وأقرّه الساسة والمشترعون في كل العصور . ومن رأيه أيضاً أن الدكتاتورية لا يطول عهدها لأنها عدوة حرية جماهير الناس . وقد قال : «أليس من

الظلم أن تكون حياة الأمة تتوقف على كلمة ينطق بها فرد من أفرادها؟ أليس من الظلم أن يكون الضعيف سنداً لمطردة القوي؟» .

وقد توفي في ٢٣ أيلول ١٩٤٠ في بغداد .

محمد جواد البلاغي

من رجال العلم والتأليف الشيخ محمد جواد بن حسن بن طالب البلاغي ، ينتمي إلى أسرة معروفة تنسب إلى قبيلة ربيعة ، وقد ولد بالنجف سنة ١٨٦٤ ، ودرس على محمد طه نجف ورضا الهمداني وغيرهما . ثم انتقل إلى سامراء ولبث فيها عشر سنين درس فيها علي محمد تقى الحائري الشيرازي الذي اشتهر في إبان الثورة العراقية . وغادر سامراء حين احتلتها الجيوش البريطانية سنة ١٩١٧ ، فأقام في الكاظمية سنتين ، ثم عاد إلى النجف .

أكب على التأليف والتدريس واشترك في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ . وكان يعرف الفارسية وشيئاً من اللغة الانكليزية . قال جعفر محبوبة في كتابه «ماضي النجف وحاضرها» (الجزء الثاني) إنه كان لجواد البلاغي اليد الطولى في الدعوة إلى إنقاذ الدار التي اتخذها البهائيون محلاً لهم في جانب الكرخ من بغداد ، وقد اشتد النزاع على هذه الدار ورفعت الشكاوى بشأنها إلى عصبة الأمم سنة ١٩٣١ .

توفي بمسقط رأسه النجف في ١١ كانون الأول ١٩٣٣ .

كان عالماً شاعراً أديباً وضع مؤلفات عديدة ، أهمها : آلاء الرحمن في تفسير القرآن (طبع منه ٣ أجزاء ١٩٣٣ - ٣٤) أنوار الهدى ، أعاجيب الأكاذيب (١٩٢٧) البلاغ المبين (في الإلهيات) ، التوحيد والتثليث ، الرحلة المدرسية (١٩٢٤) العقود المفصلة (في الفقه) نسائم الهدى ، مسألة في البدء (١٩٥٥) الهدى إلى دين المصطفى (في جزئين ، ١٩٦٥) الخ .

ردّ على الماديين والطبيعيين والدهريين ورمى بسهامه أرباب الاتحاد ودافع عن أركان الدين . ونظم الشعر ، فمن نظمه رثاء محمد سعيد الحنوي ، ومطلع قصيدته :

شاكك البرق فأسرعت سباقاً وتركت الصبّ يلتاع اشتياقاً

ومعارضة قصيدة ابن سينا الشهيرة في النفس ، قال :

نعمت بأن جاءت بخلق المبدع ثم السعادة أن يقول لها : ارجعي

محمد صادق الأعرجي

الصحفي الكاتب المدرس محمد صادق الأعرجي ، ولد سنة ١٨٨٣ ودرس علوم العربية والدين في المعاهد القديمة . ومال الى الكتابة في شبابه ، فأصدر في بغداد جريدة الرصافة (١٧ حزيران ١٩١٠) . وعطلتها الحكومة بعد سنة واحدة ، فاعتاض عنها بجريدة الصاعقة التي أنشأها عبد الكريم الشيعلي في ٨ حزيران ١٩١١ . وأدت به جرائته في الكتابة الى السجن ، ولم يفرج عنه إلا بأمر من استانبول بعد مراجعة برقية من بعض الوجهاء . وأصدر في نيسان ١٩١٣ مجلة الرصافة ، لكن لم يبرز منها سوى عدد واحد . واختير الأعرجي بعد ذلك عضواً في مجلس ولاية بغداد (١٩١٤) على عهد الوالي جاويد بك .

وامتهن التعليم على أثر الاحتلال الانكليزي فعين مدرساً (أول تشرين الأول، ١٩١٧) ، وزاول هذه المهنة في المدارس الثانوية الرسمية للبنين والبنات أكثر من ثلاثين سنة .

وتوفي ببغداد في أوائل شهر آب ١٩٦٠ .

كان الأعرجي شاعراً ، قال من قصيدة له في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ :

أسد العراق ، بلغتم شأو عزكم	ونلتم بعلاكم أرفع الـرتب
في باب روض علاكم آية كتبت :	حمالة المجد لا حمالة الخطب
هذا العراق حماكم ، وهو خير حمى ،	فعالجوه لكي يشفى من الـوصب
عار عليكم ، بنيه ، أن تمد يد	إليه مالم تعالجهـا يد العطب
إن لم تدبوا حفاظاً عن حريمكم	فمن يذب وينجيـه من الـرهـب ؟

أرض العراق بأهليها محصنة	حمية بهم من سالف الحقب
كم قام فيها ملك جيشه لجب	وحلها خير جيش باسم خير نبي
شبانها لحماها خير مدخر	أنتم فجعلوا فليس الوقت للعب
ألقوا على الشعب ضوئاً من بسالتكم	كي ينجلي عنه ليل الشك والريب . . .

حتى يقول :

لا تخضعوا لعداكم في مساومة	عار على الرأس أن ينقاد للذنب
صبوا عليهم جحياً من مدافعكم	وأحرقوهم بنيران من الغضب
رووا صعيد حماكم من دمائكم	كيما يجيـد ثمار العـزّ والنشـب
واسقوه ماء نмира من مكارمكم	كيما يجيـد ثمار العلم والأدب

علي ظريف الأعظمي

الصحفي المؤرخ علي ظريف الأعظمي ولد بضاحية الأعظمية من بغداد سنة ١٨٨٣ وتوفي سنة ١٩٥٨ . عمل في التدريس . وأصدر مجلة الأقاليم (شباط ١٩٢٨) ، فاحتجبت قبل أن تكمل عامها الأول . وقد عين رئيساً لبلدية الأعظمية سنة ١٩٢١ .

وضع كتباً منها : دروس التجويد (١٩١٣) الدر والياقوت في محاسن السكوت (١٩١٣) دروس الصحة ، تاريخ ملوك الحيرة (١٩٢٠) تاريخ الدولة اليونانية في العراق (١٩٢٣) مختصر تاريخ بغداد (١٩٢٦) مختصر تاريخ البصرة (١٩٢٧) تاريخ الدولة الفارسية في العراق (١٩٢٧) .

ولده : الشاعر حسين الظريفي ، ولد بالأعظمية سنة ١٩٠٩ . وعين مدرساً في البصرة (١٩٢٨) ، لكنه انتفى في السنة التالية الى كلية الحقوق في بغداد وتخرج فيها سنة ١٩٣٣ . وعين حاكماً في المحاكم المدنية (١٩٣٥) ، ثم انصرف الى مزاوله المحاماة .

من مؤلفاته : حاكم التحقيق (١٩٣٦) البيئات العامة (١٩٤٥) في سبيل الوطن (مسرحة شعرية ، ١٩٤٨) جميل صدقي الزهاوي في بعض مجالسه (شعر روائي) . وله أيضاً : أناشيد (١٩٢٢) ، ظرائف الأعظمي (١٩٢٥) .

قال الظريفي من قصيدة له بعنوان «من وحي الفن» .

للفن في فن الغناء إذا وعت	ما تشتهي من طاعم أو كاس
وإذا أمّض الحزن في قلب امرئ	واساه من حسن الغناء مواسي
ولطالما أحيأ به ميت الهوى	من كان قد واره بالأرماس
وبه لدى الجلى يذبّ عن الحمى	كالماء من حجر تفجّر قاس . . .
قلم الأديب كنغمة الشادي به	ينجاب ما يضيئه من إيلاس
ويبّ من مرّ الهوى حرّ الجوى	وصنوف ما قاسى به ويقاسي
ولقد يبيت به الفتى وكأنه	يحيا على عرس من الأعراس
كم لذة لي في الحياة غنمها	ويراعتي يدي على قرطاسي
أمل عليها من بنات خواطري	ما هنّ كالريحان أو كالآس
إنّي لأغفل عن حياتي ساعة	فيها أعبر عن مدى إحساسي
لي من بياني صورة ليست على	شيء من الإغماض والإلباس

عبد الحميد عبادة

من الكتاب الباحثين ، ولد في خانقين سنة ١٨٩١ ، واستقرّ في بغداد حيث توفي سنة ١٩٣٠ . مال إلى البحوث التاريخية والتحقيقات العمرانية شاباً وكتب مقالات في مجلة لغة العرب وغيرها من المجلات والصحف .

وألّف كتاب مندائي أو الصابئة الأقدمين (١٩٢٧) ، وترك مصنفات مخطوطة منها «العقد اللامع في ذكر الآثار والمساجد والجوامع» ، و «شجرة الزيتون في نسبة آل السعدون» .

قال عبد القادر البرّاك : «من يستعرض أمّهات المجلات العلمية والأدبية والتاريخية التي صدرت في العراق وبعض الأقطار العربية في أوائل القرن العشرين ، يجدها حافلة بالعديد من المقالات والبحوث التاريخية القيّمة التي تحدّد مواقع بعض معالم الحضارة وتعرّف بالعديد من الملل والنحل والمعتقدات والآراء ، للمؤرخ البغدادي المرحوم عبد الحميد عبادة ، صاحب أهم مصدر عن تاريخ «الصابئة» ومعتقداتهم ، لكونه قد كتبه بعد أن سكن في قراهم وعایش أقطابهم . . . » وقال البرّاك أن الدكتور مصطفى جواد كان يعتمد على آرائه فيما كان يكتبه عن خطط بغداد القديمة وغير ذلك من المواضيع .

